



يحيى الظاهر عبد الله

الكتاب الحاملة

ثلاث شجرات كبيرة برتقلا
الدرف الصندوق أنا وهي العالم
الرقصة المباحة وزهرها
حكايات الأميرة حكايات على لسان
الظهور الإسورة كلب
من تصاوير التراف والماء والشمس
الحقايق

الطبعة الثانية

١٩٩٤

يسى الطاهر بجد الله الكتابات الكاملة

- ★ ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالاً .
- ★ الدف والصندوق .
- ★ أنا وهى وزهور العالم .
- ★ الرقصة المباحة .
- ★ حكايات للأمير حتى ينام .
- ★ حكاية على لسان كلب .
- ★ الطوق والإسوره .
- ★ تصاوير من التراب والماء والشمس .
- ★ الحقائق القديمه صالحه لإثارة الدهشة .

الطبعة الثانية

١٩٩٤

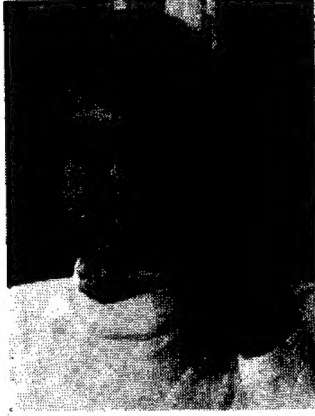


الناشر : دار المستقبل الحربى
٤١ شارع بيروت - مصر الجديدة - القاهرة
ج . م . ع . ت : ٢٩٠٤٧٢٧

الخطوط - الغلاف محمد بغدادى
اعمال الجرافيك عزيز المصرى
مونتاج غالية حمد الله

اشراف

عطيات الأبنودى
حسين حموده



يحيى الطاهر جباله

□ ولد عبد الفتاح يحيى (اسمه الأول) الطاهر محمد عبد الله في ٣٠ إبريل ١٩٣٨ بقرية الكرنك مركز الأقصر بمحافظة - قنا في أسرة متواضعة . كان أبوه شيخا معهما يقوم بالتدريس في إحدى المدارس الابتدائية بالقرية . أما أقاربه فمعظمهم من المزارعين ماعدا قلة منهم مارست النشاط السياحي القائم على ماتحويه هذه المنطقة من آثار مصرية قديمة .

□ ماتت أمه وهو صغير ، فربته خالته التي أصبحت - استمرارا لأعراف موروثه - زوجة لأبيه فيما بعد . وله من الإخوة والأخوات - الأشقاء وغير الأشقاء - ثمانية هو الثاني في الترتيب .

□ ظل بالكرنك إلى أن حصل على دبلوم الزراعة المتوسطة وعمل بوزارة الزراعة فترة قصيرة ثم انتقل عام ١٩٥٩ إلى مدينة قنا . وهناك التقى بالشاعرين: عبد الرحمن الأنودى وأمل دنقل . وقد كان هذا اللقاء بداية

رحلة طويلة وصداقة ممتدة بين الثلاثة . في هذه الفترة كان يحيى الطاهر شغوفاً بكتابات العقاد والمازنى وكان الأبنودى مهتماً بالموروث الشعبى العامى أما أمل دنقل فكان اهتمامه بالموروث العربى الفصح . فى ذلك الحين لم يكن يحيى قد مارس أى شكل من أشكال الكتابة . وكان يقوم بدور الناقد لأعمال صديقيه فى كثير من الأحيان . وبدأ الثلاثة يقيمون أمسية أدبية ثابتة فى الجامعة الشعبية (الثقافة الجماهيرية فيما بعد) .

□ فى عام ١٩٦١ كتب يحيى الطاهر أولى قصصه القصيرة (محبوب الشمس) وأعقبها بقصة (جبل الشاى الأخضر) .

□ فى نهاية شتاء ١٩٦٢ انتقل عبد الرحمن الأبنودى إلى القاهرة وانتقل أمل دنقل إلى الاسكندرية بينما ظل يحيى الطاهر مقيماً مع أسرة الأبنودى فى قنا مايقرب من عامين .

□ فى عام ١٩٦٤ لحق يحيى الطاهر بالأبنودى فى القاهرة وأقام معه فى شقة واحدة بحتى (بولاق الدكرور) حيث كتب بقية قصص مجموعته الأولى (ثلاث شجرت كبيرة تثمر برتقالاً) .

□ في القاهرة بدأ يتردد على المقاهى والمنتديات الثقافية وبدأ يعرف كظاهرة فنية متميزة . فقد كان يحيى الطاهر يلقي قصصه التي كان يحفظها بذاكرة قوية إلى حد الغرابة ودونما اعتماد على أية أوراق . وكان يرى في ذلك محاولة لأن تقرب المسافة بين كاتب القصة والرواة الشعبيين . قدمه يوسف إدريس في مجلة « الكاتب » وعبد الفتاح الجمل في الملحق الأدبي لجريدة « المساء » . وسرعان ما احتل مكانه كواحد من أهم وأبرز القصاصين والروائيين المصريين الذين شكلوا - ما عرف بعد ذلك بما يسمى « الجيل أدباء الستينات » .

□ في أكتوبر ١٩٦٦ صدر أمر اعتقال لمجموعة من الكتاب والفنانين المصريين منهم يحيى الطاهر والأبنودى . إلا أن يحيى ظل هاربا لفترة ثم قبض عليه وأطلق سراح معظمهم ومنهم يحيى الطاهر في إبريل ١٩٦٧ .

□ في مارس ١٩٧٥ تزوج ، وأنجب بنتين « أسماء وهالة » وإبنا سمّاه « محمد » توفي بعد ميلاده بفترة قصيرة .

□ أعمال يحيى الطاهر

مجموعات قصص

- * ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالا ... الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠
- * الدف والصندوق .. وزارة الإعلام - العراق - بغداد ١٩٧٤ (الطبعة الأولى) .
- * أنا وهى وزهور العالم .. الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٧ .
- * حكايات للأمير حتى ينام - وزارة الإعلام - العراق - بغداد - الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
- * حكايات للأمير حتى ينام .. دار الفكر المعاصر - القاهرة ١٩٧٨ (الطبعة الثانية) .
- * الطوق والإسورة .. الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٥ .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة .. الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٧ .

تصاویر من التراب والماء والشمس .. دار الفكر المعاصر القاهرة ١٩٨١ .
* الرقصة المباحة .. مجموعة قصص قصيرة ، كان يحيى الطاهر قد أعدها للنشر في مجموعة قبل وفاته . بعض قصص هذه المجموعة كان قد نشر في صحف ومجلات ، وبعضها لم ينشر من قبل « يتضمنها هذا الكتاب » .
* حكاية على لسان كلب لم تنشر من قبل .

« ترجمت له أعمال كثيرة إلى ثمانى لغات مختلفة . وتصدر له دار « هاينان » بانجلترا مختارات قصصية تحت عنوان « جبل الشاى الأخضر » ترجمها إلى الإنجليزية دينيس ديفيز .

□ لم يمارس يحيى الطاهر عبد الله ومنذ انتقاله إلى القاهرة أية أعمال أخرى سوى كتابة القصة والرواية القصيرة وكتابة بعض قصص الأطفال .

□ توفي يحيى الطاهر عبد الله في حادث سيارة على طريق القاهرة الواحات في يوم الخميس ٩ إبريل ١٩٨١ ودفن في قريته « الكرنك »

ثلاث حجرات كبيرة
تضم برتقالا

إهداء

للمقبل .
للربة العذراء مع الخالدين فوق قمم الأويجب المسنونة،
لأبي الشيخ بالكرك القديم .
لخليل كلفت بمسرح الجيب بالقاهرة .

يحيى الطاهر بحمد الله

(ولكنني حين أستعيد في ذاكرتي جميع الظروف والملايسات ، أعتقد أنني قد أتيت بصيصاً يفصح عن جانب من المنابع والدوافع التي تسلفت إلى ماكرة تحت شتى ضروب التكرر والتخفي ، وأغرقتني بالشروع في أداء ذلك الدور الذي قمت به ، هذا إلى أنها دأمتني فجرتني إلى التوهم بأن ما أدبته إنما اخترته بمحض إرادتي الحرة السديدة وحكمتي الرشيدة) .

هرمان ميلفيل
في « موني ديك »

جبل الشأى الأخضر

كان جدى يصب الشأى فى الأكواب من ثلاثة أباريق صغيرة ، وقد فرغ :
تناول أبريقاً كبيراً مملوءاً بالماء الساخن وملأ الأباريق الثلاثة من جديد وأعادها إلى
المجمرة ، من جواره أمسك بالإبريق الأكبر من كل الأباريق — والمسمى بالأوزة
لطول عنقه — وصب منه الماء البارد فى الإبريق الكبير حتى الحافة وأعاده أيضاً إلى
المجمرة .

كنا صامتين فجدى لم يكن قد تكلم بعد ...

كنت أقرب المجرمة : الأباريق الصغيرة الثلاثة كانت ترقد فى الرماد الناعم ..
والماء كان يتقلب داخلها تحت قسوة الوهج ويقلقل الغطاء الحارس .. والماء المحترق
كان يهرب من تجويف العنق ويصفر .. وكانت أفواه الأباريق الثلاثة تبخر الدفء
فى جو الغرفة الشتوى .. وكان الإبريق الكبير يصفر صفيراً عالياً — فهو يرقد فى
قلب المجرمة تتحلقه عيون الجمر الملهبة وتتسلقه حتى المنتصف وتتوهج على
سطحه النحاسى اللامع شديدة الاحمرار .

كنت أعى أنه لابد يرقبنى — وقد مسح المكان بعينيه وحاصرني ولاحق بصرى
وأمسك بالشئ الذى سقطت عليه عيناي ليواجهنى به ككل مرة أمام الجميع ..
يصعد الدم وتنتفخ به عروقي وتكاد تنفجر .. ويلتهب وجهى ويظل ساخناً يتشقق
كما يحدث لإناء الفخار داخل الفرن الحار .. تكون الكلمات فى فمى كخيوط

الصفوف المغزول : مملوءة بالوبر الجاف وقد تشابكت وصنعت أعداداً هائلة من العقد .. أعرف أنه الخجل ، أمام الجميع أحس أنني بغير ملابسى .. يصرخ باعتقاده القاطع بأننى أبول على نفسى أثناء نومى برغم أننى لم أعد طفلاً .. ينسب ذلك لحيى للنار المشتعلة .. وولعى بالجمهر الأحمر المتوقد .. عيون الجميع تتحلقنى .. تظل تتسلقنى .. أحسها تكوى منى الجنين .. تتوالى الحروق وتأككل جسمى ويتوالى اللسع الحار .. وأنفجر باكياً ..

عينائى أغمضتهما بسرعة .. وفتحتهما نصف .. فتحتهما عليه : جالساً بجوارى وقد أسقط على عينيه الغاضبتين ، همهم ، لم يكن جدى قد تكلم بعد ، ريقه بغضب .

- كامل .. أخضر ولا أحمر ؟ .
- رد أئى فى عجل وكان متحرّجاً ..
- أيوة يابا .. أحمر .

كان جدى يوزع علينا صنوف الشاى .. طلبت لى شاياً أخضر .. ولما كانت عواطف أختى والتى تصغرنى بتسعة شهور كاملة قد طلبت لنفسها من جدها شاياً أحمر .. وكنت مدركاً أن الأمر يحتاج من جانبى لقلدر من السرعة فى التصرف لينتهى تماماً .. قلت محدثاً جدى فى صوت واطيء وجعلته مرحاً :

— مش انت زمان ياجدى كنت صغير زينا .. وكنت تشرب الشاى الأحمر لكن كبرت وعرفت ان الشاى الأحمر يحرق الدم فشربت الشاى الأخضر ..

كان جدى يبتسم .. كنت أنظر له وكنت أخشى أن أقرأ وجه أئى .. قلت مخاطباً جدى :

— طيب ليه عواطف الصغيرة تشرب الشاى الأحمر .. والله العظيم ثلاثة يا جدى دمها كله حيثحرق .. أصل دماغها ناشفة من نوع الحجر وعازرة الكسر ..

كانت عواطف متذمرة .. وكان جدى يبتسم مازال .. أما أئى فقد فاجئنى :

— مفيش غيرك اللى دماغه ناشفة وعازره الكسر .. نظرت الى يده ممسكة بالكوب ممتلئاً حتى منتصفه بالشاى الأحمر .. أدركت أنني تعجلت ، خاطبته :

- أصلها مش بتسمع الكلام .
قال أبى فى أمر قاطع :
— روح شوف البهايم فى الحوش .. خل نوال اختك تحيب اللبن بسرعة .
ونظر إلى عمتى « شرقاوية » وقال فى أمر أخف :
— خدى البنت ونضفى شعرها فى الشمس برة .. خليها تغسله بعد كده .

كنت قد جريت حتى السقيفة وتخطيت السقف العارى النائم تحت
الشمس الحرة من الغيوم — قبل أن تصل عمتى « شرقاوية » ممسكة أختى
عواطف بيدها وكانت أختى عواطف متململة فأخرجت لها لسانى وجريت
باتجاه الحوش .. كنت أسمع عواطف تشتمنى .
— إن شاء الله ضربة دم يابو ..
كانت تفهم أننى سأضربها فلم تكمل .. نظرت لها وأبدت الشر ..
قلت :
— طيب يا أم قملة ..

كنت أسمعها تبكى مجرورة خلف عمتى وأنا أدفع باب الحوش : كانت نوال
أختى والتى تكبرنى بتسعة شهور كاملة — راقدة فوق ظهر جاموستنا .. وكانت
نائمة بصدرها وقد حضنت عنق الجاموسة بكلتا ذراعها .. وكانت تمرجح ساقها
وتحك فخذها بطن الجاموسة الأسود السخين .. كنت أرى أصابع قدمها التى
تواجهنى كخمسة مسامير دقت أسفل بطن الجاموسة .

صرخت معلناً عن وجودى فقفزت نوال على الأرض مفزوعة ودلقت ماجور
اللبن المملوء .. وجريت أنا لأنقل الخبر لأبى وجدى .

مررت بالسقف : كانت الشمس الحرة من الغيوم قد ألهبته بالسخونة ..
وكانت عواطف وعمتى « شرقاوية » محتميتين بظل الجدار القصير .. وكانت
عواطف راقدة فوق حجر عمتها .. وكان رأسها نائماً بين الفخذين .. وكانت
عمتى تقلب شعر عواطف وتدهنه بالجاز الأبيض من كوز صفيح يجاورهما ..

فى الغرفة كان جدى يصب لنفسه كوباً من الشاي الأخضر .. وكانت أمى
موجودة ترضع رمضان أخى الصغير جداً .. قلت لأبى إن نوال دلقت اللبن وإننى

وجدتها فوق ظهر الجاموسة وإنها كانت تحرك ساقها .. وقلت إن أصابع قدميها العشرة كانت كعشرة مسامير من الحديد دقت أسفل بطن الجاموسة .. اصفر وجه أُمي وسحبت ثديها من فم الولد رمضان فبكى .. وأرقدت هي ثديها تحت ثوبها الأسود « الباتستا » ، أما أُمي فقد قام منتصباً كالقصب المشدود المسنونة الرأس ، وكان جدى يلوس شفته السفلى تحت أسنانه ، أما أُمي فقد خرجت من الغرفة ولاحظت أنها راغبة في البكاء ..

وفي لحظة كان أُمي قد عاد وصرخ بأنها غير موجودة .. وزعق طالباً أُمي .. وصرخ فيها طالباً منها أن تحضر نوال من تحت باطن الأرض .. وفي غمضة العين كانت أُمي قد أحضرت نوال وهي تجرها ونوال تصرخ بصوتها العالى الباكي لأُمها وأُمي بأتني كذاب .. صرخت فيها بدورى :
— أنا مش كذاب .. انت اللي كدابة .

سقط كف أُمي على صدغى بقسوة أوقعتنى وصنعت خيطاً من الدم : كان دافئاً .. كنت ملقى على أرض الغرفة التربة المرشوشة بالماء .. وكان أُمي يسحب نوال من ضفيريها ويجرحها على الأرض .. كانت عمتى « شرقاوية » قد جاءت وكانت أختى عواطف منكمشة وملتصقة وممسكة بثوب عمتها .. وكان جدى ممسكاً بسيخ ينتهى بحلقة وخطاف يقرب به الجمر .. كان يأمر أُمي فى غيظ :
— اضرب .. اضرب ياكامل .

كنت أشعر بطعم الطين فى فمى وجانب وجهى نائم على السطح الترابى الذى لم يعد جافاً .. وكان الدم يسيل من جانب فمى ولا يتوقف .. وكان ساخناً مازال .. وكانت نوال أختى مغلقة من عرقوبها بحبل مشدود إلى وتد ثبت بجدار الغرفة .. وكان أُمي يصعد ويهبط بكل جسمه كثور مذبوح .. كان يرفع يده ويهوى بعصاة لينة رفيعة ويضرب الجسم العارى .. والدم كان يشخب من الجسد العارى ويغطى وجهى ولا يجعلنى أرى ..

كانت أُمي تصرخ .. وكان صوتها باكياً .. وكان أخى رمضان على صدرها لاشك ييكى .. وكانت تخاطب أُمي :

جوزها يا كامل .. كفاية يا كامل وتتجوز .

كنت مغمض العينين وكنت أبكى .. وكنت مازلت على الأرض نائماً

ولم أعد متنبهاً للدم يطفر حاراً من جانب فمي .. ولم أع بعد لماذا طلبت
أمي من أبي أن يكف عن ضرب نوال وأن يزوجه .. لكنني كنت أتمنى لو
يتم ذلك .. أن تتزوج نوال وأن يكف أبي عن ضربها وأن تخرج من هذا
البيت .

كانت أمي قد لمتني وأرقدتني على الفراش الأرضي وغطتني بالحرام
الصوف .. ولكنني كنت أرتعش .. كانت تقدم لي الكوب .. وكنت قد
طلبت أن أشرب .

زعق أبي :

— ايه ده ؟ ..

قالت أمي :

— ميه ورماد ..

صرخ أبي :

— ارميه يا بهيمه .. اذّي الولد ميه بسكر .. واعصري كان لمونتين ..

قالت أمي :

— مفيش لمون عندنا .

قال أبي :

— أطلع أنا أجيب لمون .. وانت دؤبي السكر في المية .

كنت أدرك أنني سأنام وكنت عطشاً .. وكنت أدرك أن أحلاماً كثيرة
ستأتي .. وكانت كل الأصوات قد غابت .. وربما كانت نوال تئن بصوت
واطيء .. واطيء ولا يمكنني أن أسمعه .. ولا يمكنني أن أسمع خطو قدميه
الحافيتين تنغرسان في الرمل الساخن الجاف — وقد هبط من فوق ظهر
ناقته « عاتكه » .. وبلغ الجبل وصعده .. يجمع من حوافيه أعشاب
الشاي الأخضر .. الخضراء .. ويأتي معه أيضاً بحبات الليمون الخضراء .

الكابوس الأسود

تخطى الشريط الحديدى — متدحرجاً من المسقط الحجرى — إلى بؤبؤ الساحة الخراب : واجهه برد المكان المنخفض بأسنان مديبة ، واستقام لعينه كائن العراء الخرافى : وقد غطاه قوس الأفق الرمادى بعمامة خلت من الأقمار والنجوم .. وتحت قدميه كان يمتد فرش المكان القذر ينشع بالبول ونطف الغرائز الوضيعة . آتئذ : أحس بأنها الكوايس السوداء رفيقة الرعب — حيث يأخذ عالم الشعور والجسد والروح وزنه الثقيل .

حضرته تلك الجملة (الأحمق والجاهل كلاهما يفتح جفنيه حيث أسقط العماء الضرورة) ، أطبق جفنيه تاركاً جسده الثقيل يزحف موثقاً بحبال النداء المتقطع : يمدد باعة سجق وكبد وكلاوى وفجل وبلح أمهات — هناك أمام وخلف وفوق القنطرة الخشبية — لكل من تخطى الشريط الحديدى مرشدين إلى العزبة .

كان هناك أمام القنطرة الخشبية ، وكانوا هناك باعة سجق وكبد وكلاوى وفجل وبلح أمهات — فوق وأمام وخلف القنطرة الخشبية — بعربات سترها الخيش خشية المطر المتوقع .. عليها : فتائل غاز تتطوح رؤسها المديبة الصفراء وتزفر الدخان الأسود .. وقد عبر القنطرة متخطياً نداء القاعدة العجوز (أيوه يايبه أنا هه) .. وكلماتها تتكسر مهزومة خلف ظهره — شعر بطعم نصر تحقق لأول مرة (لقد ظفرت بخدمة مجانية) .

بين ذراعى ضباب رمادى هامد كانت ترقد بيوت العزبة : كتلة فاحمة صماء .
تخيل طائر الرخ الأسطورى راقداً فوق يعضته ذات الحجم الخرافى كأكبر ما تكون
مدن العصر ، تلك القشرة السميكة الصلبة الملساء اللامعة تحت الشمس ..
تتكسر عليها حراب عتاة الرماة ، تخفى تحتها طبقة ليفية من وبر الجمال وشعر
النساء المتوحشات وصوف الخراف البرية وفراء أرانب الجبل وأمعاء التماسيح
والقنافذ ، ثم جوف عميق تسبح فيه أسماك كبيرة وصغيرة وعقارب وأجساد عارية
تلتف حولها الحيات .. أنهار جارية بدم النفاس والولادة وليالى الطهور والزفاف :
تشق الدروب الغارقة فى العتمة ومواء القطط ونبح الكلاب وعواء الذئاب وهديل
الحمام والآه والآى ونقيق الضفدع ونعيق البوم .. خمور مسكوبة ولعاب وبصاق
وبول وقىء .. وأشجار صبار تتدلى منها غريبان ميتة وخنازير نافقة .. وأجساد
لرجال ونساء وأطفال معلقة شعورهم بأفرع شجرة الحشيش النورانية السحب :
تنفث من مسامها الأبيض الرمادى الأسود الترابى المغبر على الرحم الكبير الفاجر
ينز بالدم والقيح والصدید وترعى داخله الديدان وتحوم حوله الغريبان ناهشة ناعقة
وتقطر منه مياه الحموم وتضربه الريح الملتأثة والشمس الصفراء .. ريح تصفر
وأجراس أديرة وكنائس تدق وتعلو أصوات المؤذنين والديكة فوق أنات الجرحى
تحت الأنقاض والمرضى داخل الأنفاق وبطن المناجم وحركة الأرغفة تستوى فى
الفرن الساخن .. والجرار تكسرت عن الخمر والعسل والحليب ممزوجاً بدم
الأسرى : تتكسر أجسادهم تحت حوافر الجياد .. وفم طفل يمتص ثدى حاضن :
يحيط به ذباب البقر والحمير الوحشى اللاسع الطئان .. صفق السلاسل بسيقان
الخيول وكرات الحديد .. والسياط فوق ظهور العبيد : تشان .. تشان .. فى
مارش الجناز الأبدى تعزفه فرقة الأرض الملكية للخنفس المنتصر والصرصار الحكيم
تحت قوس النصر .

اصطدم بحجر — كان يمكن أن يخمن موضعه — وكاد ينكفىء عليه أن
يكون حذراً : الطريق يضيق بعد ذلك ويصنع لساناً يمتد داخل الشريط المائى
وينتهى بالبيوت ..

ككل مرة : يستدل بأشجار الصفصاف : سوداء ملتوية الأعناق ، ودائماً
هى رائحة الماء العطن : تنفذ حادة إلى المعدة تهدد نصف زجاجة اليانسون ..

« هو الشتاء اللعين » — قال : « الصيف يسقط — هنا — فى الماء العطن :
أقمار ونجوم تستحم مع آلاف الآلاف من الأسماك الصغيرة وترشدنى إلى بيت

زوجتي الصفصافة العجوز » . قال — (أكره أشجار الصفصاف .. أكره أن
تقهرني عوانس الصفصاف المدلاة الشعور) ضحك لأنه أحس أنه يتكلم بجدية
ويحزن أكثر مما يجب ، وسمع ضحكاته تنكسر بعيداً في الرحاب الأربع ، استخف
اللعبة ، كان يزعم واضعاً كفيه على فمه (العانس .. ال .. ع .. ا ..) ، كان
يضحك ثم يبكي وانتظر الصدى المتكسر في الرحاب الأربع (أجساد نخيلة
واطئة .. صدور واطئة .. ثدى واطيء .. الناحلات .. الشاحبة .. فقط
شعر .. لا يملكون سوى شعر .. الإناث .. الرجال .. النساء .. الحمقى ..
الأثني ليست شعر .. الحمقاء .. أ .. نا .. ر .. أ .. ا .. جو ... و ..
ل

* * *

كان محاصراً بالسكون والظلمة والتعب — وقد كف عن النداء ، أحس بأن
روحه منهكة ، وأنه فعلاً مضطهد ومقهور وأنه حقيقة يتعذب ، شعر بالخوف لأنه
مخمور ووحيد ، تذكر حكاية الفتى المغترب العائد من حرب الحواديت : يطلب
موطنه البعيد الخيالي .. وزوجته الجميلة الخرافية .. وفتاه البعيد .. وشيخه
الأسطوري ، تفرقت الطرق أمام عينيه .. أغمضهما ماداً يده لجنيات الطريق ،
هناك في الكهف الأسود : التفت حول جسده الأفعى العملاقة ملكة ملكات
الجان وظلت تنهشه ، تحت الألم واللذة كان يحلم بهم ينتظرونه في الموطن البعيد
الجميل ، وبالليل يكون البرد .. تغريه بأغطية الصوف .. تضمه لجسدها
الميت .. يظل مشدوداً إلى العود اليابس بقوة السحر وأغطية الصوف المحجبة .

حضره كيف جاءته عروساً (كان الرجال يحيطونه وكلهم أقاربه ، كانت
العروس مع النسوة والأطفال وكلهم أقارب في الحجرة الأخرى ، قال بينه وبين
نفسه : « كيف أتوا بكل هذه الأعداد » أكمل ابن عمه — الشقيق الأكبر
للعروس — وكان ألثغ اللسان : « ركبنا الساعة ستة صبح امبارح .. » ولكنه وقد
عرف « زوجه » يتصور الأمر أقرب إلى المعقولة هكذا (النوق تمشى خيباً .. تاركة
خلف ظهرها مضارب القبيلة في الجنوب ، الفتيات داخل الهوادج يحدثن قلوبهن
بالبعيد القريب الخبوء : سريراً وغامضاً ومدهشاً ، يسبق القافلة حصان العروس
الأبيض .. يلفها البياض المحلى بالترتر : يشرق ضاحكاً للقمر الضاحك في
الأعلى ، يقود القمر القافلة إلى الشمال — حيث هو العريس ، ومن بنادق

الرجال غير المرخصة حكومياً لعلع الرصاص فوق الرؤوس الملقعة والوجوه المعصبة
والأنوف المثقوبة تتدلى منها الحلقات ، والقمر لعلع والزغاريد لعلعت أيضاً من أجله
وأجل عروسه العذراء — وقت ذاك — رقصت بالأناشيد والأيدى بالدفوف وغنت
العذارى أهازيج من رجز العجائز المجربات .

* * *

يمكنه أن يغمض عينيه ويراهما تحت لمبة الغاز .. جالسة تنفخ نار
« الكانون » .. بوجهها الدخاني وعينيها الدامعتين (سكران يا بن عمى) ..
يحزن صخرى وصوت من الكهف البعيد (كلت) .. يجلس على الصندوق
الحشيشي .. كان جهاز عرسها .. طار غطاؤه المقيبى وبات في الركن تسكنه
الفرختان .. ماتزال لفائف الصحف القديمة تغطيه يحفها الإطار الصفيفي
المشرشر الصدى .. وفي الوسط كانت عروس شبيهة بعرائس الحلوى في الموالد
تغالب طبقة الدخان وتطل بملاحمها التي نقشت بدم الفراخ وعصير الحناء .

* * *

كان الضفدع قد صحا في وعيه وبدأ يتنق .. كان يأتي من الشطين ومن جوف
الحقول غير المنظورة مقلقاً .. وأيضاً كان يأتي من جوفه ويحدث قلقلة يضخمها
إحساسه المبهم المرفوض بأن الضفادع ذات الجلود الغريبة والأشكال الحيوانية
البشعة تسكن معدته وتجري في أمعائه .. كان غير قادر على منع القيء المندفع من
فمه وهو يطرد رائحة الضفدع الكريهة .. وشعر ببرودة ملابسه المبتلة .. كانت
السماء تسقط المطر على أرض اللسان الممتد الموصل للبيوت وقد سخطت فوق
بيرق ملتهب ورعد مجنون .. وكانت أرض اللسان تجري هاربة إلى الوراء بعيداً عن
البيوت ، كان المسير والوقوف والتوازن على الأرض الزلقة الجارية للخلف الهاربة من
قدميه — صعباً بل مستحيلاً ، كان يمنع سقوطه في الشريط المائي حاضناً شجرة
الصفصاف .. ولكن عودها الهش تقصف تحت ثقله ، وجد نفسه في الماء
المتكلس وقد أحاطته الأعشاب واللزوجة والعفن .. وكانت قدماه تغوصان في
السطح الرخو البارد ، وتذكر أن العوم لا يجدى حتى فيما لو كان يحسن العوم ، لم
يكن هناك غيره ليصرخ ويناديه .. وكان اللسان يجري هارباً من البيوت .. كان
بمقلوره أن يصرخ .. كان الماء بعيداً عن فمه ..

معطف من الجلد

كان المطر مازال يسقط .. وكان أقل حدة مما كان ، وكان الجو ممتلئاً بالرطوبة تماماً وكذلك كان باطن الأرض ، وكانت السحب الدكناء تعد بالمزيد ، كنت قد ابتسمت .. فتسللت قطرات من الماء كانت على وجهى إلى شفتى : أحسست بجسمى كله « متشيثاً » بالرطوبة والملح .

كانت أضواء المدينة تبدو من بعيد — فى الظلمة — كنجوم هاوية بين الأرض والسماء المنطبتين كنت أضرب أسفلت الشارع المبتل بخطوات سريعة .. وكنت أتابعها .. وكانت تعود : بدقات المطر والماء الهارب إلى البالوعات ، كان الشارع خاليا .. فالمطر لم ينقطع منذ الصباح .

كنت قد بلغت سدة الشارع : كان هناك — أمام البوابة المغلقة — ثلاثة أشخاص ، وبدأ لى الذراع الأحمر الممتد بعلامة الخطر .. كما لو كان معلقاً ومتدلّياً من السماء ، وبدت لى المسافة بين السماء والأرض قريبة جداً — وهكذا كانت تبدو لى دائماً فى الليالى المظلمة حيث المطر .

كان واحد من الأشخاص الثلاثة قد استدار — تاركاً زميليه أمام البوابة المغلقة — وانسل من بين الأعمدة المنتصبة على الخط الحديدى ، وكانت هناك

صرخة تحذره — وكنت قد تبعته — فتهشمت الصرخة إلى ضحكة مرة ، كنا قد
نفذنا من الجانب الآخر فجعلت ضحكات الرجلين أمام البوابة ، كان القطار
قد مر فتحولت الضحكات إلى مزق — وكنت قد اصطدمت بظهر الرجل —
فاعترضت له : وباعدت بين وجهي وبين التفاتته السريعة ، كنت قد هبطت
المنحدر — ومن خلفي كان الرجل ينتظر زميله — وضربت في الأرض الخلوية
الواسعة : كانت الأرض مجدورة بمئات الحفر : التي تحولت إلى برك صغيرة من
الوحل

كانت الساعات الباقية من الليل كافية ليصل القطار إلى مدينة
« الأقصر » — ومنها إلى « قرية الكرنك » : نصف ساعة « بالخطور » وثلاثة
أرباع الساعة بالقدم ، كنت قد سميتها « ايثاكا » .. وكنت اسمي بيتنا (قصر
الشتاء) ، وهناك في (قصر الشتاء) كان العجوز ينهي صلاة العشاء عجبولا
لينام — ربما كان « الآن » يصرخ كالعادة في إخوتي الستة : ناموا .. لتأخذكم
النواهي .. « أنتم ستة والواحد منكم يفلق بلد » في خطابه الأخير — قال إنني
أخلط : هم ثمانية — ثمانية الولد رمضان ، والبنت ؟ وكان على — أنا — أن
أسميها ، وقال : الملعونة تبكي دائماً ، ربما كانت تبكي — الآن — وربما كانت
نائمة (للصغيرة — قطعة اللحم الحمراء — يا جامع السحب .. الحليب ..
لا حل عندك .. المعزة وأمي) — هكذا — لكن ربما كان الآن يعرف كل شيء
(إنهم يقلبون عليك الدنيا : اترك هذا المكان وابحث عن مكان آخر — كان
صديقي (خليل) وكنا نسكن سويا ، وكنت أحبه — قال : إنهم هم —
لاهو — وإن اليوم الأحد ، ونطق بالأب « جابون » و « بالأحد الدامي » ..
وقال : اترك هذا المكان فوراً ، قلت لماذا ؟ قال : إنه الجنون — وأن الأرض تدور
وإننا في ١٩٦٦ ، وكنت أعرف ، وقال : نحن الذين نطعم الجواد وتحت الحافر
يسقط البشر وقال : نحن نصنع المأساة ، وتحدث عن البورصة والنقابة والسلعة
والقنبلة والمعسكرات والعمل — ولعن الساسة وتكلم عن الكرملين والرايخ ، وذكر
البيت الأبيض والحمائم البيضاء والحريات والأناشيد التي يهبها ديكرات الفرنسي
مجاناً ، وكنت قد صرخت فيه .. لماذا ؟ وقال : إنه لا يدري ، وقال : إن العربة لا
تسقط مطلقاً في المنحدر وكنت أرتعش ، وقال : هي فترة بالسجن .. ولن أقتل ،
وقلت : لست خائفاً ، وقال : هل تفكر في .. ونطق بالأولمبية ؟ — وكان يقصد
تلك التي أحبها ، وقلت : لا — وكنت في حضنه — وقال : إنني خائف فلماذا
أنكر ..

كنت قد مسحت الطين العالق بحدائي — والباقي تلك الارتعاشة بأطرافي
وبالداخل ، وكنت قد دقت الباب وجاءت حركة من الداخل ثم سكنت —
فعاودت الدق ، أدت ظهري للباب : أمسك بقليل من الشجاعة — وحتى لا
يفاجأ . كان المطر قد كف — الآن — وكان ظلي يرتعش وهو يسبح —
هناك — متكسراً في حفر الرحل الصغيرة وكان مصباح الشارع البعيد يمد له
حبلاً واهياً من الضوء .

عندما فتح الباب — لم يصدق إنه — أنا ، كان وجهه مليئاً بالدهشة ،
سحبني للداخل ، كنت ألث بين ذراعيه العملاقتين وصدره « الأنخيل »
الهائل ، أطلقني وهو ينشج : ازيك يا ... وتنبه إلى باب الحجرتين المفتوحتين —
فوارب باب إحداهما — سألتني : قلت شوقي ، ضمنى من جديد في غلظة :
مش معقول .. الواحد في حلم — قالها بفخامة ووجهه يطفر بالبهجة ، كانت
لحظة مناسبة لأطلق دموعي بلا خجل ، قال وهو يحيطني بذراعيه وكأنني ابنه :
ولا يهملك شلة وتزول .. اقعد — وأشار إلى كنية بالصالة .

كنت متشبهاً بالأرض — بقدمي — وقد ضمنت فخذي ، كان الباب —
الذي واريه — قد اتسعت فتحته قليلاً .. وكان الضوء الأحمر يزحف بظلاله —
مع ضوء الصالة — هناك في الحجرة الأخرى المفتوحة : تعلقت بساق الطفل —
النائم — العارية لأهرب من عينيه ، عندما وضع يده على فخذي تأرجحت
الصورة التي بأعلى الباب ، عندما نظرت إليها من جديد كانت ثابتة ، سألته :
نابليون ، لم أكن أطلب الجواب — فقط كنت أود لو أمسك بطرف الخيط ،
أجاب : لا .. ده بتهوفن لكن ازاي هربت ؟ طبعاً تعرف ما حدث « لفلان » و
« فلان » لقد سألو عنك ؟ وضحك مشيراً : إن للحائط أذنأ .. وإن الظرف ..
وقلت : أعرف ، وقال : ازاي هربت ؟ قال — وقد صمت : والله راجل ، رددت
وقد انتابني زهو : إنهم يبحثون عني في كل مكان .. بالصعيد .. في العاصمة ..
بالمقاهي .. سألو كل معارف ، قال وقد انتفض قائماً : أعملك شاي — ورجع
بعد أن مشى خطوتين — انت أكلت ، صمت ، قال : هنا في البيت مفيش
أكل .. ح أخرج أجيب من يوه ، قلت : لا ، قال : لكن .. قلت : لا ..
هات سيجارة ، كان قد توجه إلى المطبخ ليصنع الشاي — بعد أن أشعل لي
السيجارة .

كنت أنظر إلى لسان الضوء الأحمر وهو يلحق ساق الطفل العارية — عندما اختفى فجأة — وسمعت خطو أقدام عائدة وجسم يتكسر على السرير في الحجرة الأخرى (الشقة من حجرتين : حجرة له ولزوجته وحجرة للأولاد .. يمكننى أن أنام مع الأولاد ، كنت أنام وثلاثة من إخوتي الكبار على سرير واحد .. وكانت البقية تنام مع العجوزين على سرير واحد .. ولكن العجوز يضر في خطابه الأخير على أنهم : ثمانية .. ثمانية) .

جاء صوته الغليظ من المطبخ مصطدماً بالمطبخ وبالسقف وبصمت الليل والأرضية والآثاث واطمئنانى النقى : على فكرة هنا فيه قراقيش ، لم أرد ، لقد قابلنى فى احتفال رغم أن صلتى به ليست بالوثيقة ، لقد قال لى أكثر من مرة إننى يجب أن أزوره فى بيته ، وعده أكثر من مرة ولم أذهب ، فى كل مرة كان يقابلنى كنت أتذكر مواعده ، كان يعاتبنى ويؤكد لى أننى يجب أن أزوره فى بيته ، اليوم : جئت بالعنوان الذى كان قد أعطانيه أكثر من مرة .. وجدته مصادفة وأنا أحرق بقية من أوراق كانت معى ، كان طيباً فى مقابلته ومحتفلاً ، كان كما قال عنه صديقى الذى عرفنى به : محمد شهم .. فلاح بما تحوى الكلمة — كان صديقى يقول هذا وعينه لا تفارق الوشم المنقوش على صدغ محمد — قال صديقى : إن محمد من عائلة ريفية ضاربة فى الأرض .. وإن مظهره قليل من مخبره .. وإنه شهم — هذا ما بهم — قد أبقى عنده لمدة أسبوع حتى أفكر أو أجد مكاناً آخر — ستكون درجة الجنون الذى يطاردنى قد هبطت قليلاً — محمد شهم — حتى — لم يسألنى كيف عرفت البيت بمفردى .

كان قد جاء بالشاى وسألنى : تشرب ميه ، قلت : شكراً ، قال : يا سلام أين كنت عندما ، قلت : حيث لا مكان ، قهقه فى ضجيج : حيث لا تاريخ .. لا .. قاطعته : ممكن أفضل عندك أسبوع ، قال وقد ابتسم ابتسامة عريضة : ممكن ، أعطانى سيجارة وأشعلها وأشعل لنفسه واحدة أيضاً ، كنا وكأنا فرغنا من الكلام تماماً — أنا وهو — : الصمت ورشقات الشاى ونفثات الدخان ، بعد لحظة — قام وتوجه إلى الحجرة المفتوحة : أمسك بالغطاء ولقه حول الساق العارية ، قال — وكان قد قفل باب الحجرة وعاد : الولد الكبير يلم الغطاء عليه ويعرى أخوه الصغير . وده حال كل يوم يا سيدى — وصمت — بس تعرف يا .. شوق أنى مراقب ، قلت وقد توقفت عن شرب الشاى : لم ؟ وقال : لا أعرف .. ممكن .. إنما الأولاد .. شىء صعب والله ، قلت : سأبحث

عن مكان آخر .. كنت أنظر إلى الوشم الأخضر على صدغه وكأننى أتعلق به ،
وكان هو — ينظر إلى الصورة المعلقة فوق الباب — ضحك — وقال : يا راجل
ازاى تخلط بين نابليون وبتهوفن ، كنت قد فرغت من نصف كوب الشاى ،
قمت .. قال : أشوفك . قلت : طبعاً كنا أمام الباب — وكان راغباً فى أن
أكسر — أنا — هذا الخجل الذى يمنعه من أن يحتضنى ، مد يده — كنت قد
مددت يدى ، قال — وكان ظهرى له : مع السلامة ، كانت السماء قد شدت
قوسها واطلقت تجاهى سهماً من نار ، تراجعت فاصطدمت بضلفة الباب
المقفلة ، تنحى بجسمه الهائل عن الضلفة الأخرى — وقال : ادخل .. قلت وأنا
أدارى خوفى بالضحك : دائماً .. دائماً .. منذ كنت صغيراً وأنا أخاف البرق ،
قال : ادخل وانتظر .. كنت قد شددت ياقة « الجاكيت » إلى أعلى — قلت :
انه من الجلد وخصيصاً للمطر .

حصار طروادة

كنا صباح الأحد ، وكنت حزينا ، وكانت الصحف — الثلاث — ترحب بمقدم الربيع ، وكانت الإذاعة المصرية تنشد تقرير مصلحة الأرصاد الجوية : « الجو اليوم رائق .. اليوم السماء صحو . اليوم الشمس مشرقة ، عموماً الطقس جميل » ، ألا أننى .. لقد فاجأنى الخنزير — قلت — وكنت أقصد الحزن لا الربيع ، ورأسى تحت الصنبور كنت أحدثه (الحزن طبعاً) : « عنى إلى الجحيم .. عنى .. سنوات وأنا أجالد (مع الماء المتساقط من رأسى بالوسخ اختلطت دموعى — كنت أبكى) ، وأنا فى الشارع — أوقفت شخصاً كان يمشى بسرعة : سرعة من هذا النوع الذى يجعلك تنحنى كعيدان القمح التى تريد أن تحمى سنا بلها من الريح الداهمة المتوجهة (بأمر أرتميس طبعاً) نحو السفن الأثينية المتوجهة بدورها إلى طروادة وهيلين (كان أجاممنون قد ذبح إفجيناً بالطبع) ، أوقفت الشخص وأفهمته أن ليس معى كبريت وطلبت سيجارته المشتعلة لأشعل سيجارتي ، وقلت له وقد ابتسم : أمامك أمر مهم ؟ . قال : بالطبع .. وأشار إلى دار سينما قريبة من المكان : أمامها طابور هائل من الراغبين فى فيلم « الصقر » ، الصقر : قصة كتبت بالدم والنار على رمال الصحراء .. اختيرت له قلعة منيعة بوسط الصحراء يحيط بها عشرات من مصورى السينما وآلاف من الفرسان) ، وقال إنه لا مانع من أن يصطحبني ،

وقلت له إن حزنى من هذا النوع الذى لا يحتمل التراجيديات ، وأفهمنى بطريقة ساحرة (طريقة يجيدها معلنو الإذاعات التجارية .. (كأن « أسبرو صديقك » .. « الواحدة والنصف ودقيقتين حسب ساعتى ماركة تيتوس ») ، أفهمنى أن الفيلم كوميدى وأنه بطولة « فؤاد المهندس » (ممثل مصرى هزلى شهير : مثل ٢/٤ أفلام القطاع الخاص و ١/٤ أفلام القطاع العام ، والمجموع واحد صحيح وتحتسب هكذا : $\frac{3}{4} + \frac{1}{4} = 1$) ، وقلت له : الآن — لا مانع عندى ولكنى أفضل الهرم (كنت أقصد تلك المساحة الصحراوية الهائلة التى تسكنها أهرامات خوفو وخفرع ومنقرع الثلاثة) ، وضع يده ثم لفنى بذراعه وقال : استريو الهرم .. طبعاً تقصد ؟ ، ولاحظت وجومى فسألنى : ألك صديقة ؟ ، قلت : بالطبع .. ، قال : أنت صديقى ، وتوجه إلى محل قريب وأدار قرص التليفون : كان يتحدث ويضحك ويضحك ويضحك — ثم طلب منى أن أحادث صديقتى ، أدت قرص التليفون واتصلت بها وقالت : إنه لا مانع عندها وستأتى حالا ، ودفعت لصاحب المحل العجوز ثمن مكالمتى ومكالمة صديقى ، وقال الرجل العجوز إن صديقى تكلم مدتين ، ووجدت صديقى يمسك بعنق العجوز ويكاد يزهقه ، أفلتهمما فوجدت العجوز يمسك بعنقى : كنت أغوص فى تيار من الراحة تحت قبضتيه ، ولكنه ضايقتنى وأشعل معدتى برائحة فمه الكريهة ، خلصت نفسى منه بمعاونة شاب (من النوع الذى يعلق شنطة رياضية مرسوم عليها مضررين متقاطعين أو صورة للملاك العالمى « كلاى » أو أى شىء من هذا القبيل) ، دفعت ثمن ثلاث مكالمات وتوجهت إلى محطة الاتوبيس ووجدت صديقى هناك وبصحبه فتاة سمراء عقصت شعرها من الوسط وأخلته سائلاً للخلف كذيل الحصان ، كنت غاضباً (غضب من هذا النوع الذى حدثنا عنه هوميروس عندما طلب من ربات الشعر أن يلهمنه البغض بغضبة ابن بيلوس الذى ترك المعركة الطروادية الشهيرة وبصحبه فرسان المورميدون بسبب وقاحة أجائمون قائد الجيوش) كان يضحك وكنت غاضباً وقال وهو يقدمنى لها : صديقى ، قالت بلهجة ساحرة « آن شانتيه » ، (نفس الطريقة التى استخدمتها الممثلة الإيطالية « صوفيا لورين » فى فيلم — نسيت اسمه كما نسيت الموقف أيضاً — ولكنى متأكد أن « صوفيا » لم تكن تلوك « اللبان » لا أعتقد أن غضبى كان سينطفئ) (خصوصاً وأن صديقى نحيف جداً) لولا اهتمامى الشديد بنظرات من يحيطون بنا (قطعاً سحرتهم الطريقة التى تقف وتلبس وتحدث بها فتاة صديقى « صوفيا لورين ») ، بعد لحظة جاءت صديقتى وركبنا الأتوبيس ،

تم التعارف بسرعة ، ووجدت غضبي يتلاشى إلا أن حزنى الثقيل ظل ثقيلا (لأن عمره عشر سنوات) ، ووجدتني أعاتب صديقى بطريقة لطيفة عما حدث وعن تركه لى وعما .. ولكنه أخذ يضحك ويضحك ويصرخ فى وضحكت الفتاتان (وهذا ما أغاظنى) ، ووجدته يقف فجأة ويصرخ فى وجهى أننى لقيط وأنه يعرف كل شىء وأننى ابن فلان بالتبنى .. وهكذا ، وهكذا وجدتني أفضل الانسحاب على البقاء معه (رغم أن اليوم مشرق وجميل وصالح للنزهة بصحبة الأصدقاء) وقلت لفتاى : سأنزل فى المحطة القادمة ، وقالت : إنه لطيف وإنه يشبه فؤاد المهندس وإننى فاقد لل « هيومرسنس » — وكانت تعنى أننى لا أتخلى بخلق كوميدى ، وقلت لها : إننى حزين — حزن من هذا النوع الثقيل .. عمره الآن عشر سنوات ، وقلت : فاجأنى هذا الصباح (الحزن المفاجىء مرض عصرى يعرفه المثقف عندما يصطدم وعيه بشروط التاريخ فيصرخ : « هذا سجن .. هذه محكمة .. إنه جبل المشنقة .. هو الشارع ، أنا مفصول من عملى — يقولون : إننى قاتل .. إننى سارق .. إننى .. هؤلاء غرباء لم أقابلهم قط ، مولاى الشيخ وسيدى القس — لكنها الحياة الوحيدة الممكنة ، انتهى الأمر .. إنهم على حق .. لقد كانت حياتى ، والمسئول هذه الطريقة التى أفكر بها .. يمكننى أن أكون حزينا) قالت : إنه لم يخطئ وإن الطقس بديع والجو مشرق وجميل وإننا ذاهبون الى استريو الهرم بصحبة الأصدقاء ، قلت لها إننى أعرف مكانا أفضل وأناسا أفضل ، وإننى حلمت بالأمس أننى : (كنت أجلس فوق ذؤابة « جبل ايدا » وكنت تجلسين فوق ذؤابة جبل « بيرجاموس » وحملت « أرتميس » ربة الريح حديثنا وأعطينا نسائم عطرية فالتقينا تحت صفصافة « زوس » الشهيرة ، وكنت تلبسين ثوب باليه طرزته « أثينا » ذات العينين النجلاوين ، وظللنا نرقص على أنغام « أبولون » وكان « بوسيدون » رب البحر يقذف بالحصى والأحجار من البشر تحت أقدامنا) : بشر من هذا النوع — وأشرت إلى شبيه فؤاد المهندس ، وقالت : إنها تفضل استريو الهرم ، ولم أجد مفرأ من أن أعلن غضبى وأقف مخليا مكانى معلنا أننى سأهبط : المحطة القادمة ، وقالت له وهى تبتسم : إننى أركب رأسى دائما .. ودائما عنيد ، وقالت إنها سيئة البخت ، ووجدت الشاب يضع يده على كتفها ويلطفها لتكف عن البكاء ، ونظر إلى وأفهمنى أننى حيوان ، وما هكذا تعامل بنات الناس وأننى لست « جنتلمان » وأننى أيضاً جاهل (كان يقصد أن الطقس رائع والشمس صحو واليوم جميل وربما الريح مواتية) ، والحقيقة لقد فاضت نفسى ، ولم أعد أحتمل (لو كان الشاب

ضئيل الجسم لمزقه) وقررت أن أهبط : المحطة التالية مباشرة ، (كانت قد فاتتني ثلاث محطات بسبب إقناع صديقتي وسماعى لكلام الشاب الرقيق) ، كان الأتوبيس قد توقف وحاولت أن أخلص نفسي من الوسط ولم أفلح — كنت قد ترحزحت حتى أصبحت قريباً من الباب ولكن الأتوبيس تابع سيره فقررت أن أهبط المحطة التالية مباشرة ، وعندما توقف الأتوبيس حاولت الهبوط وزاد أملى عندما وجدت شخصاً هائل الجسم يدفعنى إلى أمام — لكن : ناس كثيرون ركبوا من هذه المحطة مما جعل الشاب الهائل يدفعنى بشدة إلى جانب ويهبط ، وسمعت ضحكة الأربعة من الخلف (مؤكداً أن فؤاد المهندس قال نكتة) ، صاروا ستة .. سبعة .. كان كل من فى الأتوبيس يشاركون بالضحك .. ضحك .. ضحك ، (جيوش أثينا ترحف ، والخالد يرعد من فوق أولمبيوس ، والبحر ينظف نفسه : أندروماك حزينة ... بنيلوى تنتظر ، سهم باريس جميل طروادة — فى كعب أخيل ، وسهم أخيل — أثينا — فى صدر هكتور — طروادة ، وسيف هكتور يحتضن المجيد — درع اثينا — ابن تيلامون ، سقطت عشرة أعوام .. سقطت طروادة — ها هى المشاعل تقول يا تليماخوس الصغير ، وعشر سنوات للعودة يا أوليس : ايثاكا جميلة .. ايثاكا بعيدة .. ايثا ..) ، كنت أضغط نفسي لأبكى ، ووجدتني أغرق — أنا الحزين — فى الضحك .

الوارث

سرت مطواة جدى : ذات الحدين .. والمصدقة بناب الفيل ، أخفيتها وسط
حبات البامية اليابسة بيطن الجرة المكسورة الرقبة — حتى لا يراها خالى عندما
يزورنا فيأخذها .

قالت أمى : لقد أخذ خالك كل شىء تركه جدك .. وميراثنا أكثر من
قيراطين يدفع إيجارهما .

كانت تنقل الأرغفة اللينة من الظل إلى بقعة مشمسة على السطح ، قالت :
إننى لو كبرت وصرت شيئاً آخر غير أبى لأخذنا كل ميراثنا من خالى وهو أكثر
من المطواة والقيراطين بكثير ، وقالت : إن أبى كان متسامحاً عليه الرحمة ..

حين رأتنى أطلع النخلة ورأت بحزام قميصى مطواة جدى ، خبطت صدرها
خبطتين خائفتين ، ليتنى لم أحصل على المطواة من خالى — هكذا صرخت من
أسفل ، وحضنت أنا عود « البكره » نخلتنا بصدري وكلتا ذراعى ، كانت تخاف
على من « البكره » فهى عالية عالية .. وأمى ليس لها فى الدنيا غيرى ..

قطعت جريدتين من « البكريه » بمطواة جدى .. وصنعت شبكتى المثلثة .. جعلت الرافعة على شكل صليب .. وخطت فى تجويف المثلث ثوباً من الدانتللا — كان لأمى ولم تلبسه إلا ليلة العرس .. جعلته مستطيلاً وخطت قطعتين فيه ..

لم يعد قلب أمى — بعد ذلك — ينخطف بعيداً : حيث المقابر وأى ، فقد كفت تماماً عن طلوع البكريه .. عشقت صيد السمك من التربة التى تحزم البيوت ، أمى هى التى حصلت على « القرعة » .. تطفو فوق سطح الماء وأتعلق بها .. أحضنها بكلتا ذراعى .. هكذا على صدرى .. وتظل تسبح لى ونطوف حول البيوت والماء يتقافز خلفى .. أصنع كل ذلك بتحريك الساقين ..

هناك فوق سطح الماء يطفو الجسم .. يكون خفيفاً كريشة حمامة ، أضرب الامام بقوة الذراعين .. والخلف بكلتا الساقين .. أسمع صوت الماء يملأ أذنى .. بذلك يصبح بعيداً ولا يصلنى نداء جنيات القاع .. وأكون قد أحسنت العوم .. ولا يطير قلب أمى شارباً بين القبور والأرواح السوداء بحثاً عنى ..

كان الماء يتسرب من ثقب الثوب ويبقى لى السمك الصغير .. يتقافز دائماً .. وأكون حريصاً من جانبي ألا يطول الماء .. عندما يسقط بكيس الشبكة السفلى — الرائد فى الماء — يكون قد يئس ولكنه يظل يلعب .. وأبتسم أنا : فسأحتفظ به طازجاً حتى نهاية اليوم ..

حين اصطدت تلك السمكة الكبيرة : ظلت تفتح خيشومها وتغلقهما ، كانت عيناها معلقتين تائهتين تدوران فى الحجر — ولكنهما كانتا مشلودتين إلى نقطة ما فى الفراغ الواسع .

غرفت بالكفين من طين الجرف وصنعت لها حوضاً .. ونقلت إليه الماء ، كانت تسبح فيه ورأسها مرفوع دائماً إلى أعلى .

وقد وصلت بيتنا : كانت هى قد كفت عن الحركة تماماً — وإن ظلت العينان مفتوحتين .. كذا الخيشومان ، وكانت العينان تبرقان بلمعة غريبة .

شوت أُمى نصفها .. وصنعت من النصف الآخر « طاجن » متبل .

بالليل : جاء خالى لزيارتنا ، أكل من النصف المشوى ، ولم يقرب الطاجن .. كانت معدته مريضة من حوالى العامين — قال له هذا طيبب الصحة ، قال خالى : هكذا أنت شقى ، وأعطاني قرشاً . قلت لأُمى — بعد أن مشى خالى : عندما أصبح كبيراً لن يعطينى قرشاً .. حتى ولو اصطدت التمساح الذى أكل لحم « هنيه » الأبيض ، وافقتنى أُمى .

فوق السرير الجريد على السطح كنت أحاور النوم كعادتي : وكان ينزل بمساعدة شعره الحريرى الناعم ولكنى كنت ألمس شعر بطنه الخشن ، تشاغلته عنه بالسماء الدوارة وحاولت عد النجوم : كانوا عشرة وعشرة وعشرة ، ثم توقفت عن العد ، فكرت فى هنيه زوجة « الجسمى » ، وجدها نائمة مع خولى عزبة « بدران » ، كانت هنيه عارية تماماً ، وكان الخولى عارياً تماماً ، قتلها « الجسمى » ، وقتله ، لف هنيه فى ملابس الخولى ولف الخولى فى ملابس هنيه ، حمل الجشتين داخل شوال كبير ورماهما للسماك الصغير والكبير وديدان الماء — ولكن التمساح أكلهما . وطالت لحية الجسمى وطالت أظافره وطال شاربه وغطاه الشعر ولم يعد فى حاجة إلى ملابس — هناك حيث يعيش شاردأ فى البلاد البعيدة .

كان الهواء الساخن يرقد جامداً بلا حركة فى الجو من حولى .. وكان رأس الجسمى يطل من فوق نخلتنا شديد السواد .. وكانت عين الشمس المملوءة بالجمر الأحمر قد تقلبت كثيراً على سطح بيتنا ذاك النهار .. وأشعلت الجدار الملاصق للجانبى الأيمن ، لكننى كنت أرتعش كفرخة مذبوحة بسكين ذات حدين ، كنت أحس جسمى بارداً .. وكان قلبى يتقاذز بين ضلوعى .. خفت أن يطير بعيداً عنى : حيث القبور وأنى والأرواح السوداء واليوم الناعق والجسمى الشارد .. صرخت وانغرس أكثر فى حضن أُمى ، قلت : هى غيوم سوداء وكثيفة تتحرك أمام مقلتى العين ولا يعود الإنسان يرى .. أليس كذلك أصبح ميتاً ؟! ، قالت أُمى : حتى متى أظل صغيراً ، ضمتنى إلى صدرها وظلت تمشط شعرى بأصابع يديها المرتجفتين ، قالت : متى تكف عن هذه الأحلام لتحمى نفسك من الكوايس السوداء ؟ .

طاحونة الشيخ موسى

كأى رجل تزوج . تزوج الخواجة (يسي)
وكأى امرأة ولود .. أنجبت زوجته ابنهما (نظير)
وإذا كان الله وحده هو الذى يعطى ويأخذ — فقد أعطى الله كثيرا وأخذ
الكثير أيضا ماعدا — نظير — فقد أبواه الله ، ليأخذ من الدنيا نصيبه .. ومن
والده اسمه ولقبه ومتجره الوحيد .

كان نظير يسي شبيها بوالده تماما — ومن شابه أباه فما ظلم — تاجر القرية
والمصرف فى تموينها من شاي وزيت وسكر وغلال وما يستجد من أعمال ، تناول
الدكان بحرص والده .. لم يطل له سقف ولم يعلق لافتة ، ولم يعط الأقة أقة ولا الرطل
رطلا .

دورة الأيام وحدها ، وتعاقب الخلف للسلف هو الذى غير من الخواجة نظير
شيئا ما .. ليجابه به أصحاب العقول المتفلسفة — على حد قوله — اشترى راديو
ماركة (صوت العرب) صغيرا وعددا من علب السجائر الفرط وورق البفرة
والمعسل ، وبعدها — جاء بصندوق للحلاوة الطحينية . وأمام الشلة التى تكبر
يومية لسماع القرآن ونشرة الأخبار .. استعمل وابور السبرتو والكنكة لعمل الشاي

وتوزيعه لقاء نصف قرش للكوب الواحد .. لا يستثنى من ذلك أحداً سوى (سُنى. أبو سيفين) خفير الدرك والذي يقع في دائرته متجر الخواجة نظير ، وعملاً بمبدأ المرحوم والده — فكر تكسب وفتح عينك تفرق في بحور الذهب — فكر الخواجة نظير وينصف عين فقط عثر على ماكينة طحين نصف عمر .
وبعدها جاءت المتاعب تباعا .

ما أن اكتمل البناء وجاءت المكنة ، حتى هاج هياج القرية ..
صحيح أنه ليس بالبلد طاحون واحد للغلال وأن النسوة يذهبن (بخبرة كل يوم) إلى المدينة ، وجنيهاً ستدخل جيبه ووداعاً ياقروش — ولكن — ماذا يفعل للشيطان ؟ ما الذى ركب عقل القرية ؟ .

بسببه سيضيع شهراً استغرقه البناء .. ومبلغاً وقدره فى شراء ماكينة (خليل بيه أبو زيد) وجنيهاً مضمونة ستدخل جيبه . بنشكر ربنا وبنحمده ع النعمة صبح ومسا .. والشيطان ما العمل فيه ؟ ما العمل ؟؟

أ يحصل فيه كل هذا لمجرد أنه يريد أن يوفر للقرية طول المشوار ، ويربح نفسه من فلسفة مستمعى نشرات الأخبار وثومة وحليم وتلحمة « سُنى » خفير الدرك ، ولكنه هرب من المعصر ليقع فى الطاحون — كما يقول المثل ، اش فلسفة .. واش حواديت تحكى .. وكلام فارغ عن قرن التور اللى شايل الدنيا ، قال كلام كثير .. ومن يسمع ، استشهد بكلام ناس عقلا .. ولا حد قاله انت فين .

يا خلق ياهوه ، حانقصر المشوار للبندر ، والطاحون أهى فى بلدنا ، وزيتنا فى دقيقنا ، وربنا يكفيننا شر الخوجة .

— أولاد ايه اللى تترمى داخل المكنة عشان تدور .. بالشرف الكلام ده ماهوش أساس ، أنا حأشغل أسطى عنده عشر سنين خبرة .. حيلدور المكنة بدون عيل يترمى جواها .

وتصطدم كلماته بالحائط الأخرس ويتردد صداها رجفة بقلوب أباء يعبدون الأبناء . وأمهاات يفضلن تعب المشوار وشقاء العمر ولا المصيبة فى الولد ..

والعمدة يلعلع بكلماته ويقذف بيده فى وجه الخواجة نظير وكأنه نذير الشؤم .

— ياخواجة أنا مسئول هنا عن كل روح في البلد .. مايلزمناش مصايب ..
كفاية الى بنشوفه في البندر من المأمور ووكيله .. احنا فاضيين لإيه واللا
إيه .. مش كفاية الخناق على المية والزرع وسرقة الدرة ؟؟ يعنى ماهو احنا
من عمرنا بنشوف المكن مايدورش إلا اذا أكل عيل صغير .. مش كل
المكن بيصرخ (توت .. توت ..) يعنى انت حاتغيره ياخواجة نظير ..
والا ماهو احنا بهائم .

ويصرخ الخواجة نظير :

— ياخلق ياهوه .. الطاحون حتدور قدام عينيكم .. شفوها وبعدين
اتكلموا .. أنا صرفت عليها دم كبدي .. شهر بنيان ، ومكنة بالشئ
الفلانى ، وشقا العمر يضيع .

ويهتز الحائط الإنسانى فى قسوة وتبرطم شفاه ، وتنخلع القلوب على الأكباد ،
وتتلاطم الأيدى وكأنها تطلب رأس الخواجة نظير .

ويعلو صوت الخواجة ليكنم الصيحات :

— المكنة قديمة .. قديمة ياناس .. يعنى لازم أقول .. أدبنى قلت ..
ارتاحوا .. اشتريتها من خليل بيه أبو زيد بتاع البندر .. مايلزمهاش عيل ..
قديمة .. مكنة قديمة .. ارتاحوا كده .

وردد واحد فى تساؤل مريب :

— إيه الى خلّاه استغنى عنها ..؟ لازم عطلت وعازبة عيل تانى .. ماحناش
هبل يا خواجة — وينبرى الخواجة نظير ليسكت الصوت الشيطانى
ولكن واحدا ينسلخ من البناء الآدمى ويزعق :

— مش معقول المكنة تدور من غير عيل .. بلاش منها ياخواجة .. ش صلى الله عليه
ياشيخ موسى .. الشيخ بيقول احرصوا على أولادكم من طاحون الخواجة .

وتنتاب البحر الإنسانى نوبة صوفية ، فيهموم فى سماء الجهول والرجفة تأكله ،
ويعصم الخواجة شفقيه ، ويأخذ وجهه وضعا غير متناسق ، ويفتح عينا واحدة
يزن بها المكسب والخسارة ، وينظر إلى محدثيه خشية أن يخرج من سرّه هذا الكلام
فتكون نهايته .

— (يا دنيا .. قال الشيخ موسى .. يا ناس الواحد فيكم تأكل ضهروه الشمس لغاية ما يتلايم على اللقمة .. يقوم يشتري باكو معسل لمزاج الشيخ ، يحرم نفسه من فردة حمام ولا فرخة مريها .. ويطفحها للشيخ ، وجعتم دماغنا بالشيخ .. الشيخ .. الشيخ .. على مين الشيخ بتاعكم دا ؟ .. هو الشيخ موسى وأنا نظير ولد يسي .. الطاحونة حتشغل .. برضاك وغضب عنك ياشيخ موسى . عايز من ناس البلد إيه ؟ معسل وأكل ؟ يا أخى الله يرزقك ويرزقنا . كله عايد عليا وعليك وعلى الولد من بعدى .. طيب أنا حاخسر النهاردة — لكن بكره بدينى كله مكسب .. كله ذهب ، عايز منى إيه ؟ .. لفة معسل وأقة حلاوة .. حاخذ هُمُلك .. كله يهون فى حب الولد والمال .. دى الطاحونة ذهب .. ذهب ياخلق تعبانة ، وبالشرف من بيتى بعد سنة لأبنيلك عمارة فى البندر يامفيد يابنى .. وبس تكبر ما يرضينى بنت (اندراوس باشا) عروسة ليك ..

وأفرج عن ابتسامة مكروبة ، وفتح كلتا عينيه ، ودار بالحشد القانع بالنصيب :

— (رضينا بالشيخ يا جماعة .. أنا وانتو والعمدة نروح له .. ياناس دا كله بركة .. قدمه تدخل الطاحونة ونعمة ربنا تحل فيها وتشغل .. المكنة مايلزمهاش ولد لو دخلها الشيخ .. مدد ياقطب ياكبير .. مدد .. كراماتك ياشيخ موسى ، دا له ندر عليا من زمان .. من يوم ربنا مارزقنى بمفيد .. حاخذ له لفة معسل وأقة حلاوة طحينية .. وأنا أقطع إيدى لو المكنة ماشغلتش .. دا كله بركة ..

ويهول إلى الدكان ويخرج وييده اللفة ويتبعه طابور صامت إلى الشيخ موسى ، فعنده الحل والخلاص ، ويستأذن على الشيخ ، وينطقها الشيخ كالقنبلة :

— النبى قبل الهدية .. لكن المكنة لازمها عيل صغير .. ويرتجف الخواجة نظير ..

— بركاتك ياشيخ موسى .. مددك واسع .. قد الدنيا .. مقامك كبير وتحصل .. بس انت أدخل الطاحونة وكله ينفك لجل خاطرك . ويمتد تيار كهري من فم الخواجة نظير يسرى فى الجمع ، وتردد القلوب الخائفة على الضنا الغالى :

— ياواسع المدد مدد .. كرمك يا حضرة الشيخ .. عشان خاطر قبر النبي
حبيبك .. وبلغ الشيخ موسى ريقه مرات والخشية على نفسه ومقامه من
الأسطورة التي ستحطمه ، وفي رأسه طفل ممزق الجسد .. دمه يسرى في
تروس المكنة الملعونة .. والصرخات التي أفزعت طفولته الساذجة (..
توت ... توت ..) والصيحات تستعطفه في إرغام .. وساقاه مدفوعتان
إلى المصير في زحف أسود .. مقيت .. كربه .. ولا فكاك من النهاية ولا
سبيل إلى الخلف : الجبل البشرى خلفه ، والبحر الأسطوري أمامه . ومن
بعيد قبة ملعونة رأسها في السماء .. ستصبح فيما بعد أعشاشا لغريان
الخراب التي ستنهش لحمه وتصعد إلى فوق .. فوق . والأسطى قدر ملعون
كالشيطان الذي ركب عقل الناس — هذا اليوم — وابتسامته قاهرة ..
ويده صلبة هذا الملعون تشد الذراع في لفات سريعة واثقة ..
— ويا واسع الكرم ، ويا ..

وتصر التروس في طحن مكتوم من قلة الزيت ، وتشتد القرقة وتعلو الصرخات
(توت . توت .) وتلعلع زغرورة .. وتهمهم شفاه بالخلاص .
— مدد يا شيخ موسى .. ياقطب .. ياواسع المدد .. مدد .

ويتشعلق الخواجة نظير على أكتاف الزفة ليعلق لافتة كبيرة بأعلى الحائط :
(.. طاحونة الشيخ موسى ، لصاحبها الخواجة نظير .. وابنه مفيد ..) .

محبوب الشمس

غرس محبوب قبضته الصغيرة في مجرى الميضة ، وقلب
طبقة من الطين بحجم كفه ، ومضى يفتش بأصابعه النحيلة
عن الدود .. ألقاه في كوز من الصفيح .. ومضى صوب
« ترعة الدم » شرق البلد . حاملا كوز الصفيح بيد وحاملا
باليد الأخرى عودا من الغاب ، بطرفه خيط ينتهي بسنارة من
نوع الهلب الصغير .

ومحبوب في الخامسة عشرة من عمره .. قصير جدا .. ونحيل جدا .. أبيض
شعر الرأس .. وكذلك كان لون جاجبيه .. ومن هنا كان الشيخ كامل إمام
مسجد «أبو عوض» يتأمله في صمت المؤمن .. ويدور في فلك الحكمة الالهية التي
تنبت الدود في بطن الحجر ، والتي أثمرت هذا القزعة من والد طول السيمافور وأم
في حجم الدرفيل .. والحاج خليل والد محبوب طويل في إفراط .. وصاحب شعر
في لون الليل الشتائى .. والحاجة نفيسة زوجته غنية باللحم والشحم . وتملك ثروة
من الشعر الأصفر كسنابل القمح المستوية .

كانت القرية برجالها ونسائها وأطفالها تأبى أن تدور في فلك الحكمة الالهية

بصمت ..

رؤية محبوب كانت تبعث فيهم السخرية .. وتدفعهم إلى الضحك ، وعدم قدرته على مواجهة ضوء الشمس .. دفعتهم إلى أن يطلقوا عليه « محبوب الشمس » لا « عدو الشمس » كالعادة إمعانا في لدغ التسمية .

وقد أغضب هذا اللقب محبوب من أغلب أهل البلد وجعله يحتمي بيته في أكثر الأحيان .. مما أغضب بدوره الحاجة نفيسة ، التي شكت للحاج خليل .. الذى حمل تكشيرته للشيخ كامل إمام مسجد أبو عوض .

— ده عيل برضه يا سيدنا الشيخ .. واللى يكسر بخاطره يكسر ربنا بخاطره .. وخطبة الجمعة ترد عقل المجنون .
ورجع بترضية الشيخ إلى الحاجة نفيسة ..

— يا حاجة الشيخ بيقول : « الرضا بالنصيب زى عمل الطيب تمام .. ويا بخت من يصبر على المقسوم .. » وأضاف من عنده : « الناس حتلاقى إيه تنبسط بيه ، ما العيشة غم فى غم .. خليه يضحكوا على محبوب يمكن لقوا مصايهم فيه »

ولما لم تنفرج أسارير الحاجة ، ضغط الحاج بسمة مكروية .. أفلتها فى حينها تملأ تجاويف الدار بقهقهة جوفاء : « بدمتك يا حاجة مش برضه راس محبوب شبه لوزة القطن .. شعره الأبيض مش فال خير .. »
واكتفت الحاجة يومها بنظرة حنان هدهدت بها محبوبها الصغير ، أعقبتها بحسرة ملتاعة على عودة اليابس المصوص بفعل فاعل .

واستمرت ضحكات السخرية تطارد محبوب .. فلا خطبة الجمعة ولا غضبة الحاج خليل ولا مقاطعة الحاجة نفيسة لأغلب نساء القرية .. أوقفت مخلوقا عند حده ولا أعادت لمجنون عقله .. شئ واحد وهو الذى أخرس الألسن وأمات الإبتسامة .. عندما غابت الشمس عن محبوب وعن القرية .. والتف الضباب الأسود بالسماء كالعليق الحشرى يجذوع النبات .

غابت الشمس .. فطلع محبوب .. واختفى الناس كأنما ابتلعهم الأرض .. كان محبوب سائرا فى طريقه والحقول خالية من الفلاحين .. وأعواد القطن منتصبية جافة من الحياة .. وقد انكمش اللوز بأعلاها كاليتيم ، وتحت الجميزة ..

كان مسعود خفير الجمعية التعاونية مستلقيا على ظهره وعيناه معلقتان بالفضاء
الأسود الكريه المسقوف بالهباب ، لم يكن منتبها لمحجوب الذى دبّت قدمه فى
الأرض بتشف وإصرار .. وما أن نظر إليه مسعود حتى أخرج له لسانه ، ومضى
فى طريقه غير مكترث به وهو يرقص . وجدت قدماه على كلمات مطاردة وكأنها
أوتاد ثبتته بالأرض :

— إحجل .. إحجل يا محبوب الكلب .

وتطلع بوجه خال من الحياة إلى مسعود ، وقذفه بكلمات ساخرة :
— يا حسرة ما ضاعت السلفة على الجمعية .. حارس القطن ولا السلفة
يامسعود الميرى ..

ولما لم يرد مسعود ، شبك محبوب يديه فى جذعه .. وتثنى فى سخرية
كالحنظل ..

— يا عينى على القطن .. حاله ما يهونش على الكافر .. خسارة السماد
والتقاوى .. إلا قوللى يا عم مسعود ، ما تخدوش قطن البلد وترحموا أبويا
من السلفة ..

ولما لم يرد مسعود أيضا ، مضى فى طريقه قفزاً صوب التربة .
ولا يدرى محبوب لماذا لم يرد مسعود ؟؟ لماذا لم تحركه كلماته رغم ما فيها من
قسوة ؟ لقد قال له « محبوب الكلب » وسكت .. ولكنه رد إليه الكيلة أردبا ..
أغلبه مسعود « بمحجوب الكلب » هذه ؟؟

وشاط صدره من جديد .. وتصاعدت إلى فمه مرارة الكلمة .. واندلعت فى
رأسه سخرية الماضى التى ألزمت البيت ومحجوب الشمس .. بالأمس فقط كان
محجوب الشمس .. واليوم محبوب الكلب .. لم تعد هناك شمس حتى يصبح
محبوبها .. كلاب تعوى فقط فى اللانهاية ، ودار يبصره فى الفضاء الميت ونهشته
الحسرة .. كلاب فقط تعوى فى البعيد .. هو محبوبها .. ذهب الناس . ابتلعهم
الأرض .. اختفت الشمس ولا يدرى أين ؟؟

وسقط كوز الصفيح من يده .. وتناثر الدود .. وتلوت واحدة منها نحو
الشرق .. من نفس المكان الذى تطلع منه الشمس . وأخرى زحفت نحو
الشمس .. نفس المكان الذى زحفت إليه منذ عشرة أيام فائتة ولم تعد ..

وماتت رغباته فى أن يذهب إلى التربة .. وفرق صوابه العشر .. واحد ..
اثنين .. ثلاثة .. سبعة .. عشرة .. وهكذا مر عليه اليوم الأول بمثل فرقة
الإصبع .. ومر الثانى .. واشتدت طبول الصبية تستنجد بالرب وتستعطف
الشمس (.. يارب .. يارحم .. طلى ياحلاوة طلى .. يا أخت القمر
طلى ..) .

بلع اليأس نتف الرجاء .. وبلعت الدور أهلها .. ماتت الفرحة .. واختفت
زينة المصاطب وسهرات القمر ..

أصبحت القرية كلها ملكا له .. بأرضها وفضائها وكلاهما .. لا شماتة ولا
ناس ولا شيء .. عشرة أيام كاملة وهو يخطط طريقه إلى « ترعة الدم » شرق البلد ..
ليصطاد أو لا يصطاد .. ولكنه مبسوط والسلام .

دار رأسه كالمرجيحة .. وبدت الدور لعينة كمقابر الموتى .. دارهم قبر يحمل
أعز الناس .. (أمه وأبوه) ، (أبوه) ميت حتى ككل الناس .. فى حاجة إلى
رمانة يحملها (الشاطر حسن) من (جزيرة الجان) .. و (الرمانة) كنز ..
كالقطن لو تفتح عنه اللوز .. متى يرجع (الشاطر حسن) من (جزيرة
الجان) .. وعلى كتفه (الرمانة) .. (رمانة) تحمل كل لوز الدنيا .. والشرط
اللوز بخيره .

وأمه الحاجة نفيسة لم تعد تحكى حكاياتها عن الشاطر حسن .. ولم تعد تخبز
عيش القمح .. رغيف القمح لا يخمر إلا اذا طلعت الشمس ، عليه أن يأكل
عيش الذرة ما دامت الشمس لن تطلع .. وستأكل القرية معه عيش الذرة ما
دامت الشمس قد احتجبت من أجل خاطره ..

وسأل نفسه السؤال المحير .. والذى يتوه فى فهمه أجدع عقل فى البلد بما
فيهم (عبد التواب أفندى) المدرس الذى يقرأ الجرنال .. ويسمع الراديو ..
ويناقشهم فى عيشة (زمان) وعيشة (اليوم) ..

قد يقنع (عبد التواب أفندى) كل البلد بأن اليوم أحسن من امبارح .. وقد
يغسل همومهم بوضلة لست الطرب .. ولكن أيقدر أن يفسر لماذا لا يستوى

رغيف القمح في القرية ، إلا إذا اكتوى بنار الشمس ؟.. أهى خيوط الشمس
البيضاء التى تدخل فى جوف الرغيف فينتفخ كالديك الرومى ؟.. .

والله الذى يرزق الدودة فى بطن الحجر ، كما يقول والده أليس بقادر على أن
ينفخ الرغيف كالديك الرومى .. لماذا لا يفعل ؟؟ هل هو معه أيضا ؟؟ ويريد
(الله) .. أن يعلم القرية الأدب وقصر اللسان ولمشى كل فى حاله ؟.

وتطلع إلى السماء وود لو يخترق كثافات الضباب ليرى الله .. (الله) هناك
يتربع على عرش من الذهب وتحت قدميه تجرى حقول القمح .. ويده (رمانة) لو
انفطر حبها لشفيت (شهر زاد) من علتها .. ورجعت زينة المصاطب وسهرات
القمرة ، ونفض شكواه فى يأس الهم : (يارب اقصف بأجل مسعود الميرى) ..
آه لو وصلت كلمته إلى قلب البلد .. سيشوون لحمه .. « محبوب الكلب » ،
ولكن ماله والبلد ومسعود وكل شئ معه : الله فى السماء .. والشمس من خلف
الضباب .. والحقول المترامية بلا حياة ، وانقبض قلبه وكأنه يشيع جنازة ميت
عزيز .. ميت قتله بيديه ودفنه مع الشمس وكفنه بالضباب .. ميت ككل الناس
الأحياء الميتين المكفين بالدور .. قتلهم بفرحته فى مصيبتهم .. لقد فرحوا قبل
ذلك بمصيبته .. لكنه لم يفرح أبدا ، لأنهم لم يخرجوا من دورهم ليشاركوه
فرحته .. لأنهم لم يخرجوا ؟ وتنبه وكأن التساؤل خرج فى غفلة منه : يخرج الناس
ليختاروا له واحدا من اثنين .. محبوب الشمس أو محبوب الكلب .. أكتب عليه
هذا ؟؟

وجلس على الأرض وانتزع عودا يابسا من القطن ومضى ينثر الورق الأصفر :
الشمس .. الله .. مسعود .. رغيف القمح .. والجنازة .. الله . واختلطت
الكلمات والصور ، نظر إلى فوق وتحجرت عيناه على صدر السماء .. وكسا نور
عينيه ضباب كثيف ، دب قلبه وشاط صدره من الغيظ : « ملعون أبو الدنيا
ومحبوب الكلب ومسعود الميرى .. والترعة .. ودود الميضة ، متى تطلع الشمس ؟
عشرة أيام .. حذاشر .. والقمح فى الصومعة .. والصومعة فى السماء .. إن لم
تطلع الشمس .. سيرعى السوس فى السماء وسيأكل القمح .. ولن ينتفخ
الرغيف كالديك الرومى » . وتمنى لو يصعد إلى السماء .. لو ينزل ملك .. ملك
يحملة إلى فوق .. لو يقابل (الشاطر حسن) .. فيساعده فى العثور على
الرمانة .. ينفض معه الغيم ويفتش عن الشمس .. يفتش عن الرمانة .. وتتدفق

شلالات الخير .. ويتناثر حب الرمان .. وتجري أنهار القمح .. وتستحم
الصبايا .. يحتضن (الشمس) .. يحتضن (الرمان) ويدور معها من الشرق الى
الغرب حيث تغيب ويحملها في الصباح .. ويدور بها كل دروب القرية .. تزفه
طبول الصبية بنداواتهم الحلوة . (يا أخت القمر طلى .. طلى يا حلوة طلى) ،
هنا : تعصر أمه الغروب .. وتصبغ له شعره بخناء الشفق .. وهنا : يقف في ثبات
ليواجه ضوء الشمس ، مخترقا صدرها في عناد ، يرى ما بداخلها من
(حواديت) .. ويحكى للناس ، ويتسمم لابتسامتهم .. وماله .. ما أنا (محبوب
الشمس) .. يقولها وفمه يلوك لقمة من رغيف القمح .

ليل الشتاء

- الصباح رياح يا سيد .
- شد عليه الغطاء وفح من تحته :
- حاضر يامّا .. حاضر .
- أزاحت عن قدميها حرام الصوف وأبعدت « نوال » عن ركبتها . بكت البنت
فضربتها بيطن يدها :
- سد .. ولا النونو يعمل عمايلك .. شوفي البنات اللي في سنك ..
- قامت .. تحاملت وقامت ، واقتربت من سرير ابنها — أزاحت عن رأسه
الغطاء وقبلته .
- الصباح رياح يا حبيبي .
- زام — فقبلته من جديد .
- الصباح رياح .
- لم تفعلها طيلة الخمس سنوات الماضية ، كانت تقضى كل حوائجها في
النهار ، وعندما تغرب الشمس تجلس على سريرها ، تلف قدميها بنصف الغطاء ،
تحكى « لنعمة » « حلوة » .. تقدم ركبتها « لنوال » فتنام عليها .. عندما يأتي

أبو سيد في أخريات الليل كانت تكلمه من تحت الغطاء :
— الأكل عندك في « النملية » إن كان ساقع سخنه .

تعودت وتعودوا. بلا شكوى ولا كلمة سوء .. « الروماتيزم » عثرها وكفهاها
أوجاعه .

لم يجبرها أحد على القيام لتقبل « سيد » ولتكرر له ما قالت على فراشها —
لكنها — أدرى بابنها من كل الدنيا .. من كل الناس . التسعة شهور بين
الضلوع ورضاع البز وغطام الحمص المعجون بالزبد وأعوامه التلتاشر كلها لم تغير
منه شيئا ، لم تجعل منه صورة لأمه ، الكل يعلم بأنها : ناقة .. صبور .. حمالة
حمول .. سماعة أسيه ، سيد شيء وهى شيء آخر ، غاوى نكد وتعب قلب
وراسه أنشف م الحجر .

هذا ما أكده زوجها أكثر من مرة :

— ياستى أنا غريب عن البلد دى .. لأهل ولا حبايب .. ولذلك لازم يعرف
كده أنا مش قد حد .. بلاش أصرخ ياولية .. العلة منك .. والطب
عندك .

العلة منها والطب عندها — هى أدرى بابنها من كل الدنيا .. دماغه ناشفة ..
ولابد من أن تلين ، وهى تعرف أن قبلتها لن تحول رأسه إلى « إصبع ملين » .

كما أن المشوار القصير من سريها إلى سرير « سيد » سيظل قصيرا إلى الأبد .
رغم أنه طويل بسبب « الروماتيزم » وبحكم خمس سنوات من العادة — قصير
وقصير جدا فى رأس سيد . رغم علمه بأنها تبذل فى نهارها الكثير من أجل تدفئة
قدميها ، تجلس على السطح وتنقل مع الشمس كاسحة الدوار بمقعدها ، كل هذا
تطحنه دماغ « سيد » وتعجنه وتخبز منه كلمة كل يوم (بتعبى الشمس فى
قرايز) .

زمان كان صغيرا ، عركت أذنه :

واد .. اياك أسمع منك الكلام دا تانى .

عندما شب أفهمته بأنها أمه :

احترم سن أملك وعياها يا « سيد » .

(اليوم .. فى الصباح) .. كانت الشمس موردة الخد ، غابت ثلاثة أيام
وجاءت موردة الخد ، فى الشتاء : كثيرا ما تغيب الشمس وتعود . لكنها فى كل

مرة على ما رأت « زيدة » — هذا الصباح — لم تكن بمثل هذه العافية ، كانت الشمس أنثى شابة نضرة كما لم تر « زيدة » تلك الأنوثة وهذا الشباب وهذه النضرة . مرة واحدة في عمرها .. مرة في الأربعين عاما (منذ عشرين سنة فائتة . انطلقت في بيتهم زغروته غمزت أختها الكبرى بعينها .. جرت « زيدة » أغلقت باب حجرتها . كانوا يتحدثون في الخارج : « يشغل عسكري في البندر » . فتحت الصندوق « أبو عروسة » وقبلت ما يبطنه : مناديل الرأس .. القماش المورد .. زجاجات الريحة .. أطباق الصيني ، وتناولت المرأة : كان وجهها في حمرة شمس الصباح . كانت فرحة بمجيء العريس — عريس الميرى — مرتب حكومي لحم وخضار وشحم يغطي عودها النحيل .. كان خجل — فهي بنت وأختها غمزت .. كان كل شيء .. هذا وذاك كان على وجهها وعلى المرأة .. كان كل شيء .. هذا وذاك في قلبها وعلى خد الشمس هذا الصباح) .

رجعت الكثير زمان بحلوه ومره ، عبت الكثير بقلبها وقدميها ، غرفت من الماضي حفنات شباب وسعادة وحرارة أحستها في قدميها وساقها وقلبها .

ضحت بهذا وذاك وكل شيء وقامت ، هي أدري بابنها من كل الدنيا ، لكي لا يطحن ويعجن ويخبز « سيد » كلام ليس بكلام كل يوم ، ليظل كلام كل يوم هو كلام كل يوم فما عادت تهتم .
لكن — سيظل المشوار بين سريرها وسرير « سيد » قصيرا قصيرا جدا . هذا وذاك وكل شيء سيطحته ويعجنه ويخبزه « سيد » ليطعمها قلقا وعدم راحة . « لازم اعرف لازم يامه » ولد لحوح . وهي تعرف ابنها من دون الناس . لابد أن يعرف .. لابد أن تتعب هي — تقلق .. تطلع .. تنزل .. لكي يعرف ، ولكنها لاتعرف .. ولن يرحمها ويعفيها ما لاتعرفه من أن يعرف ، ما يريد أن يعرفه .. لاتعرفه ولا يهتمها أن تعرفه .

(منذ عشرين عاما انطلقت في بيتهم زغروته .. غمزت أختها .. جرت .. توردت خدودها لأنها بنت .. لأن أختها غمزت .. لأنها فرحت به .. بأبيه — عسكري في البندر — مرتب حكومي .. لحم وخضار وسمنة تغطي جسمها النحيل .. لاتعرف أكثر من هذا ولا تريد) حتى عندما أصبح أبوه .. بشريط .. بائنين .. بثلاثة .. ببدة صول .. لم تعرف ولا تريد حتى بعدما لم يأت الخضار واللحم .. لم تعرف ولا تريد .. لاتريد رغم أنها مازالت نحيلة بلا شحم ولا لحم .

ورغم هذا وذاك وكل شيء .. رغم أنها لاتعرف ولا تريد . كان أبوه يصرخ لم يرفع يده عليها طوال المعاشرة ولكنه كان يصرخ « يا ستي أنا غريب عن البلد دى .. لا أهل ولا أحباب .. ولذلك لازم يعرف كده .. أنا مش قد حد .. مش قد حد .. بلاش أصرخ يا ولية العلة منك .. والطب عندك » ، لم تعرف مبررا لصراخ زوجها ، ابنها ولد ككل الأولاد ، يلعب ويخايق ويصاحب وليس فى هذا عيب .

و .. و « سيد » يعرف أن أباه قال هذا الكلام لأنه . لأنه مشغول بعمله ولا يقابله .. لأنه يأتى بعد أن ينام « سيد » . و « سيد » يعرف أن كلام أبوه له وليس لأمه ويعرف أن أمه لم تقل له كلام أييه الذى هو له وليس لها . و « سيد » يعرف أن أباه يحل عقدة العقد لكل من هب ودب — ولكنه — لايقدر على حل مشاكل ابنه مع أهل البلد ، فهو « غريب عن البلد دى .. مش قد حد .. مش قد حد .. »

من هنا يريد « سيد » أن يعرف ، ومنها يريد أن يعرف . وهى لاتعرف ولا تريد .. لا تعرف لماذا أبوه « مش قد حد » ، ولا تعرف لماذا يخاف منه الناس فى البندر ولا يخافون منه فى « البلد دى » إلا أنه « مش البلد دى ؟؟ » .

(منذ عشرين سنة — يوم جاء — لعلعت فى بيتهم « زغروته » .. غمزت أختها .. قالوا : يشتغل عسكري فى البندر .. الأساس من « إسنا » .. إسنا .. ؟؟ .. لم تسأل أين هى .. لاتعرف ولا تريد ، جاء « عريس » .. ما تعرف وما تريد . كانت بنتا وجاء عريس .. خضار ولحم وشحم يغطى جسمها النحيل) ما تعرف وما تريد ..

كان زوجها يسافر ويأتى فى نفس اليوم ، منذ زواجهما .. سافر مرة .. اثنين .. ثلاثا على الكثير — لكنه — كان يأتى فى نفس اليوم . المشوار لـ « إسنا » قصير .. زوجها يأتى فى نفس اليوم . كانت تعرف أنه يذهب لبلده « إسنا » لأهله . فلكل الناس أهل . لم تطلب منه مرة أن يأخذها معه وتأتى فى نفس اليوم ، المشوار قصير .. لم تسأله عن بلده وأهله . فهى تعرف أن ماتعرفه لا تسأل فيه .. بلدها « الكرنك » فقيه أهلها . وبلده « إسنا » وفيه أهله والمشوار بين البلدين لا يكلف أكثر من يوم . يزار فيه الأهل والأحباب لكنها لا تريد . شكا أبو سيد .. صرخ .. زعق :

— أخوكى فاكّر نفسه ابن عرب .. دا فلاح حتى مايسوى .. هو مش عارف
انه من (البحارة) يعنى وساخة الضفر .. فهميه يا ستى .. فهميه
عشان ما يرفعش عينه لحاجبه .. فهميه .

كان زوجها ثائرا . وكذلك كان أخوها . كان نهرا أغبر وكانت حائرة . فهمي
تعرف أن هذا زوجها وذاك أخاها ، ولا أهمية عندها في أن تعرف أسباب الخناق .

تحمس « سيد » لوالده — لولاها — لطال لسان الابن وفري لحم خاله . شدته
من قفاه وضربته على بطن كفه :
— واد .. الواحد بخاله وأبوه .. إخرس قطع لسانك .

(اليوم) .. كبر « سيد » وقال إن الحق مع خاله وان كان خالى م
« البحارة » ف ده مش العيب كله .. العيب كله عنده هوه .. فيه يامه .

عند أبيه . كبر الولد ويريد أن يعرف .. لاشيء يمنعه .. لا ضرب على بطن
يده .. ولا إخرس .. ولا شيء سوى أن يعرف .
معها الليل طويل .. تحضن .. « الحرام » الصوف وتفكر : ليل الشتاء طويل
لكن له صباحا . صباح له شمس تهب قدميها الدفء . صباح غد ، لا ككل
صباح .. صباح بشمس وكلمة لابد أن تقال ليعرف « سيد » يريد أن يعرف ،
وهي تريد الدفء .. كلاهما يريد الشمس والصباح . و « سيد » نائم ومنتظر
ومتأكد .. ويريد أن يعرف ، مع الشمس لابد أن يعرف — وهو يعرف — ولكنه
منها يريد أن يعرف . وهي لا تريد الغد .. ولا الدفء بالغد .. ولا الشمس
بالغد — ولو جاء بكنوز سليمان لرفسته بقدميها . فلا شيء يعدل راحة البال
وغمضة العين . راحة البال وغمضة العين في ليل الشتاء بالدنيا وما فيها ، رغم هذا
وهذا .. ليل الشتاء . قليل الشتاء طويل .. طويل .. طويل — لكن — بعده
صباحا .

في الصباح تطلع الشمس .. تؤذن الديوك .. يأتي الدفء فيتسلل إلى
قدميها .. تفركهما فتدب فيهما الحياة — تدب الحياة في كل بيت فيتسلل
الأولاد .. مع الأولاد « سيد » ولد ككل الأولاد .. يلعب .. يخانق .. يصاحب ..
وليس في هذا عيب . العيب يراه الأولاد .. ويراه « سيد » فهو ولد ككل الأولاد .

— العيب مش فى خالى يامًا .. (البخاروة) ماينعابوش .. دول بس أغراب .. غربة مش م البلد انما أصلا .. الغربة مش عيب يامًا .. العيب ف .. فى أبويا .. أنا عايز أعرف .. عايز ... صحيح .. صحيح يامًا العيب فيه ؟ لو طال الليل ؟ لو طال وأكل الصباح وكل صباح لما عرف سيد .. لما جاء الدفء ليتسلل إلى قدميها وإلى كل البيوت ليتسلل الأولاد وتتسلل المتاعب إلى قلبها ، ما هربت منه طيلة حياتها .. تكوم .. تكوم .. ورسب على قلبها صقيعا لم تعرضه لحرارة النقاش مع زوجها أو أى واحد آخر ، ست بيت فى بيتها .. تحمى نفسها من كلمة هنا أو كلمة هناك .. ما تعرفه أنهم أولادها وفى العين « سيد ونعمة ونوال » .. وما تريده هو زوجها والبيت والأولاد . لكن عليها أن تعرف فوق ما تعرف وتريد فوق ما تريد لأن ابنها يريد أن يعرف ما هربت منه طيلة عمرها .

(منذ عشرين سنة — لعلت فى بيتهم زغرودة .. غمرت أختها .. جرت ودخلت حجرتها .. كان وجهها فى حمرة شمس الصباح .. كانت فرحة بعريسها (العسكرى) عريس الميرى الذى سيحمل اللحم والخضار وسيغطي جسدها الضامر بأطنان الشحم .. كانت خجلة فهي بنت وأختها غمرت ، كان كل شئ — هذا وذاك — كان على وجهها وعلى المرأة ، كانوا فى الخارج يتحدثون .. وكانت فى الداخل تسمع — « ييشغل عسكرى » .

دخلت بيته ولم تسأل .. (كان يذهب لأهله فى بلده ويأتى فى نفس اليوم ، كان يأتى بلا خضار ولا لحم ولكنه كان يأتى .. والأيام أتت بشريط على كتفه وبـ « سيد » البكر — لم تأت بالشحم ليغطي عودها النحيل ، صمتت وصمت نال شريطا آخر وأنجبت هى « نعمة » .. حتى البنت ولدت صامئة كأمها : « ناقة .. صبور .. حمالة حمل .. سماعة أسية » .. لكن أخاها لم يصمت — كان ناثرا هائجا — صرخ فى وجه زوجها : « عملتها يا بتاع إسنا .. شربنا المقلب وخلاص .. أنا لما بمشى بطاطى دماغى .. لأنام العرب عشان أقيم رأسى وسط الفلاحين .. ولا أنا م الفلاحين عشان أقيم دماغى وسط أهلى .. » صرخ زوجها — كان ناثرا أيضا : « يعنى إيه .. أختك معاك .. عايزها خدتها .. أنا راجل فاهم نفسى .. أنا مطلعتش السما .. لا اتجوزت عريية ولا خدت فلاحه .. كنت عارف نفسى وعارفكم .. جمّسا وبحاروة . إن كنت جمّسى فأنت بحراوى فاكّر نفسك إيه ؟

سكت أخوها وسكت زوجها وضربت هي « سيد » على بطن يده : « واد ..
الواحد بخاله وأبوه .. إخرس قطع لسانك . »

سكت أخوها وسكت زوجها ولكن الأولاد في الخارج لم يسكتوا ولسان
« سيد » لم يقطع كله في أبوه . خاله م البحاروة . (والبحاروة أغراب ..
والغريب في الكرنك بلا أهل ولا حسب .. مرور الأيام جمل البنات
(البحارويات) في عين رجالات العرب وأبناء الفلاحين فكان النسب .. جرى
الدم في الدم لكن بنت العري حرام ع البحراوى والفلاح .. وبنت الفلاح حرام ع
البحراوى حلال للعري .. وبنت البحراوى حلال للجميع عريبا كان أو فلاحا) .

لكن أخاها كان ثائرا صرخ في وجه زوجها : « إنته جمسى .. جمسى .. أنا
برىء منك ومن أولادك ليوم الدين .. ياراجل أطاطى راسى وسط أهلى .. دا
حرام .. ياشيخ .. روح منك لله . »

صرخ زوجها . صرخ في وجهها وهدأ : أخوكى لازم يعرف إنه وساخة تحت
الضفر .. حمار يحط عليه الفلاح بردعة .. والعري يركب ويهز رجله .. مش أنا
منظم الكون .. لا كنت عايزه بحراوى .. ولا كنت عايز أكون جمسى أهلى
جمسة .. وأنا صول .. كنت عايز أكون صول .. وكنت .. »

(جاء الإمام .. قرأ « الفاتحة » ووضع يد زوجها في يد أخيها وهدأت
النفوس .. حمل الإمام البطة التى سميتها لأنها حامل في « نوال » .. أخذ الإمام
البطة وجاءت نوال « ونزفت » كيزان الدم ولم يعوضها مخلوق عن « حلة المرق »
لكنها كانت راضية . لقد وضع الإمام اليد في اليد وهدأت النفوس ..

— « تنكر أهل النبی له .. هاجر للمدينة .. وهاجر « البحاروة » إلى
الكرنك . قابله بالدفوف في المدينة .. وقابلت الرجال بنات « البحاروة »
بالدفوف .. حياة النبی سيرة .. المهاجرون أهله .. وهم عرب الكرنك وأشرف
قريش .. والأنصار أحبابه وهم أنصار المدينة وفلاحو الكرنك .. حياة النبی
سيرة .. جاء القوم متأخرين .

— قال النبی : « جم مسا .. كانوا يستقون في الخلاء وأدركهم المساء .. الجمسا
عرب .. عرب .. وفي الدين مبتغى الجاهل .. »

أخذ الإمام البطّة . وخلط السمن بالعسل .. هذا زوجها .. وكذلك
أخوها .

في الصباح سيهدأ إنها .. وتقول له :
— أبوك جمسى .. والجمسا يا ضنايا خيار الناس .. يشيلوا المية م النيل
يسقوا الناس .. بس لما اتأخروا ع النبي . قال : « جم مسا » ..
مكذبني ياسيد اسأل الشيخ .

لو قال الشيخ ما قال يوم أخذ البطّة ؟ .. لو لانت دماغ « سيد » الناشفة
فتسللت كلمات الشيخ ؟ .. سترتاح .. سيبقى البيت والأولاد والزوج ... سيبقى
كل شيء كما كان .. كما كان وإلى الأبد ..

كل ما تخشاه .. أن تخيب شمس الصباح ظنونها — لكن — ليل الشتاء طويل،
تحضن « حرام » الصوف وتفكر : يوم جاء — منذ عشرين سنة — لعلت في
بيتهم زغرونة .. غمزت أختها الكبرى ، جرت . أغلقت باب حجرتها .. كانوا
يتحدثون في الخارج .

قاييل الساعة الثانية

— لايم .. سأكلمه .. نقرة على بابه وأدخل ، لتكن نقرتين ربما تضيع الأولى
في دوامة الفكر ، تمام يا كمال نقرتان : ربما الرجل غارق في الأسى حتى
الأذن — الفجيعة .. الجحيم .. تطلعات الزواحف لدنيا السماء (سيد
الأندية يتمرغ بوحل الاسماعيلية — الاسماعيلي يسحق الأهل) دقات
الحقد بصدور المجهول ، لطفًا بالغد وزحف القدر .. ما أبشع وجه
الصباح .

— لك الله يا سيدى المدير واللهم لاشماتة ولكنى متعب وفى حاجة إلى
راحة .. يومين راحة .. يومين يا سيادة المدير لا أكثر ، ماذا ؟ حاجة
العمل لا تسمح ، حالتى أيضا لا تسمح وللعمل حاجة لا تستقيم
بمجهود .. مرهق والله العظيم (ستنز نفسك بالألم .. تجلد) .

والعرق لازمة الجهد الوقور : عليه اللعنة ، والمنديل : أف — نصيحة أبو المجد
أفندى الباشكاتب :

— يا كمال يابنى انفض تراب الشارع قدام باب المصلحة ، وانت طالع خده
في رجلك .

(نصيحة عمر يابنى .. مشاكلك ومعدتك لا يدخلان فى البند الحكومى ،
الموظف منا حلقة بسلسلة البند .. طرفها فى السما ، الى ينبع يتربص بيها ،
والأخرس يفضل سايب وتترمى له اللقمة) .
(قرش الحكومة يا صغير لزوم القميص المكوى والجزمة الملمعة .. كلام لودنك ..
المنديل لزوم الشطارة .. أسيبك بأه لحسنين أفندى ولعشر سنين خيبة) .

— معاك يا حسنين أفندى المنديل باليد ، وحبات العرق على الجبين ،
والملفات فوق المكتب بإضافات الفهم العميق للعلاقات الاحترامية بينك
وبين رئيس القلم .. معناه شغل .. سبع سنوات دارها أخوك الثور المعمى
حول الدرجة التاسعة مع الشغل والنفاذ وبعدها آمنت بحقيقة ... إن
السجن تأديب وتعليم ، مسحت الجوخ لثلاث سنوات فنلت الثامنة
وقفزت السابعة بعلاوة .. افهم يا موظف يا غشيم لاهرس ودنك) — « تمام
يا أخ عبد الستار » أذن معك مهروسة من حسنين أفندى .. أى نعم
وألف نعم .. (نثر حبات العرق على الجبين : فرض ، وسنته وجود
منديل ، سقوط نقطة على الورق : يبطل « الصلاة » .. ما معناه
ياسيدى .. نقطة على الورق تربط حرفا بآخر ، تلضم جزوا بكل —
وهذا — باطل : بشريعة القانون — وحكمه : إرغام الحق على أن يتمسح
باعتاب المسئولية — لشهر .. لسنة .. لعمر كامل .. والعلم عند رى ..
وما أوتينا إلا قليلا ..)

— زهار ومليون سلام للآدمى داخلك يا عبد الستار ، لك العقل يابو المجد
أفندى .. وفهمك — عال العال .. المنديل : مشكلة العمر ، العرق :
أزمة البقاء ، نقطة عرق : تفسد عمرا وتقيم حياة ؟؟ يا سلام ؟؟ كم نحن
مهمون .. أهمية بندول الساعة وعقل الآدمى والحل للأزمة ..

— صباعى فى عينك يابو المجد أفندى ، ورقة من ملف حسنين أفندى تؤدى
مهمة المنديل .. دورة السنوات العشر تساوى شيئا ، (حالة العمل
لا تسمح ، تحفظ بالملف ، البند لا يسمح ، تعلى بالأمانات .)

— العرق سيجف تحت الجلد .. ست مراوح والجنة تحت أقدام المدير ..
لتسقط الأهمية ومعها المنديل وورق الملفات تحت أقدام لاعبى الأهلى ..

سيجف عرق رجالة بلدنا تحت الجلد . محارة على شط النيل يا بلدنا ..
قوقعة يا بيتنا .. على راسي يا بويا .. على عيني يا اخواتي .

— مجهد وتعبان يا سعادة المدير .. يومين راحة .. لا دخل للعمل .. والدى
مريض من سنة .. دم مضغوط ضاغط يلهب صدره ، الكلمة أوقدها
ووقرها الضغط ، سابت لها مفاصل إخوتي، رشاد : سقط بالإعدادية ..
عبد المنعم بدبلوم التجارة .. عواطف تزوجت من واحد في سن أبويا ،
غنى يا سعادة المدير .. غنى جدا . رغم كده رفضته .. ويمكن عشان
كده .. الاهانة من فوق لكن بحدود ، الآدمية لا تباع ، قاموس الحياة
البيسيطة علم أى ما علمته السنوات العشر لحسنين أفندى — (يا بنى أنا
أدرى بشئون البيت وأحوال الدنيا .. البنت عار .. الشرف رغيغ العيش .
الستر واجب .. الكرامة دين ربنا وسنة نبينا .. اتنين جنيه من مرتبك توفر
على أختك الجواز .. شاطر اعملها)

— شاطر يا بابا والبند أشطر .. الغربة مرار ، المرتب مستطيل حياقي وعقلي ،
أنفاسي مكتومة وأحس بالاختناق .. فى حاجة إلى راحة .. يومين أجازة ..
أشياء لا دخل لها بدخول باب المصلحة (رشاد : سقط بالإعدادى وعبد
المنعم : بدبلوم التجارة وعواطف طلقت) .

— لابد من أن تباع مع الأرض يا أى .. ماذا بعد — السن والفشل والربو
والضغط والطلاق .. الكذب على الطبيب لتبلغ الصغيرة سن الحلال
صدق طيب القلب أنها تعيش من يومها خمس ساعات مع كوكب
الشرق .. كتب وثيقة الله .. ليحرق البيت والأمان بكذبة ، كذابون ،
عواطف : لازالت تحبو على أغنيات عبد الحلیم حافظ ..

— يومين أجازة وسأحضر .. ماذا بعد — الربو .. الضغط .. الفشل ..
الطلاق ؟؟ .. دموع عواطف !! سأمسحها (لندن ترعى صحة مطربنا
الشاب .. دكتور شيلا للكبد ، تانر للمعدة ، هانت للرئتين ، فرجسون
للكلي ، وجونز للجهاز الهضمي) .

— هانت يا أى بشراك .. شبابك لا تغسله سيدة الطرب منيرة المهدية ..

أراهن بقرش كلانا لا يملكه بأن حليم سيغسل دموع عواطف ، الزمن ..
هل فهمت !! .

— لم يعد يهم .. لأبد من أن يباع مع الأرض .. كلاهما لم يعد يصلح :
إخوتي تخاف مثلئ يا سيادة المدير .. لا قدرة لهم على إفراز العرق — ست
مراوح تغنى عن منديل وتقتل العرق تحت الجلد !! يومين أجازة .. مرهق
ولا حاجة بالعمل لئ فلماذا لا يسمح ؟؟ السنة المالية على الأبواب ؟ ..
لتدخل ؟ لتدخل معها مشكلتى إلى قلب العمل ، لتضع مبالغ بسيطة
من حق بسطاء .. لا ذنب لئ .. أأنا المسيح ، ليحملوا صليبهم .. لماذا
سكتوا كل هذا العمر ليعلقوا المشانق .. لتسقط رأسئ ولن أخسر غير
تفاهات العمر : اقرأ باسم ربك الذى خلق ... خمسة عشر مليما .. يا
بلاش .. (شهر زاد فى عنق الزجاجة) .. (من علمنى حرفا صرت له
عبدا) .. (أبو زيد الهلالئ يقبل يد الزنائئ خليفة) (.. شاطر الشطار
رؤوف علوان يبلع الأمواس فى مؤتمر صحفى) . (الربيع أقصر فصول
السنة) .. الفصل : مائة طالب .. السنبله : مائة حبة .. والحبة صنعت
منها الكلمة قبة — (إعدام ترزئ لأنه سهئ عن صنع جيوب
للبنطلون) . مس الحقيقة بطرف الحقيقة مع التعمد لإفساد الجيل
الصاعد (مظلوم والله العظيم ليعدم سقراط وكل حكماء الآخرة) لن
ينجح رشاد أبدا ولا عبد المنعم ، يحبان الشيكولاتة أكثر من الدرس ، كل
طلبة المدارس هكذا كذابون ، الكتاب بريال والقلم بخمسة قروش ، لن
يروا النعمة أبدا .. رضا الأب من رضا الرب والغضب من نفس
الغضب ..

— لم يعد يهم .. ليمت الآباء .. ليبيعوا .. ليهرنوا .. ليسرقوا .. وليفسحوا
مكانا تحت الشمس لدلع رجالة بكرة ..

— كلام ينقصه العقل — (خليل معانئ يا كمال يابنئ تسند ضعفى تراعى
إخواتك ، الأرض محتاجة لك ، الخير فى بطنها وذراعك) يا سلام ..
دنيا .. ثلاث أفدنة مش شوية .. أبئ سيد قريتئ (الفدان يدخل عشرين
جنيه فى السنة ..)

— عقليات قديمة يا سعادة المدير (اترك الوظيفة) قالها ناقص العقل ، سبقه

الزمن بدورة ... لفة كاملة ، أنت عقلية قديمة يا سيادة المدير واعذرنى ..
ولكن بفهم آخر ..

— ثمانون جنيتها فى الشهر .. غيرك ايراده ألف ومش كفاية .. سبعة آلاف فقط هى الفرق بين دخل أم كلثوم وعبد الحليم .. على أيامك كل شىء برخص التراب .. اليوم يباع الآدمى بالتراب ، التطور يا مولاي .. عجلة الزمن طحنت ست الحسن والشاطر حسن وعقلة الصباغ ، حكاية اليوم مشوار للقمر .. مشوار إجبارى للحصول على الرغبة الأبيض .. ناس كثير حتمت فى السكة .. نص الطابور يمكن .. واللى يوصل يا سعده .. العمل شرف .. نيشان على صدر صاحبه .. البيوت على خد النجوم .. المشاكل تغسل بضوء القمر .. مفيش حراس ع الجنة : اعفنى يا سعادة المدير من عم عبده الساعى .

— يا عم عبده افهمنى أنا داخل للمدير بأجازة .. مرهق وتعبان وفى حاجة ليومين راحة .. أزور البلد .. عطشان لشربة ماء من قلة تركتها أمدى فوق السطح .. لفحها الهواء الحر .. باتت فى حضن النجم .. بداخلى حر شديد يا عم .. حريق .. العرق كالسيل يغمرنى وليس معى منديل .

— ست مراوح كفيلة بقتله تحت الجلد ؟ أنا لم أزق يا سعادة المدير ... كل ما فى الأمر أنى مجهد وتعبان وعازيز يومين أجازة .. يومين راحة .. عم عبده منعنى من الدخول .. لست مسئولاً عن صخب الموظفين بالخارج .. لقد فسدت عقولهم .. جاءوا ليروا ما حدث بينى وبين عم عبده .. مناقشات لا تنتهى (عن الحرية والعدل والديمقراطية) .. أشياء لا دخل لها بالعمل .. أشياء بيننا .

— يومين أجازة لا أكثر .. عرق أغرق الحجرة !! وأتلف السجادة !! ست مراوح كفيلة بقتله تحت الجلد ، الفصل شتاء ؟؟ لم أكن أعرف وشرف منصبك ، ثلاثة أشبار من العرق فوق السجادة ؟؟ ليس منى ، أخيراً فهمت : سرق عم عبده القلّة من فوق السطح ، ربما سقطت منه فانكسرت ..

— تمام يا سيدى القاضى .. قله شغل قنا . لقد أخذ السيل كل شيء ،
البيوت والأولاد ، ومدخر العمر من حكم الصالحين ، لكنه خلف طينة
سخية ، برىء يا سيدى المستشار ، لست مسئولاً عما حدث .. لا ذنب
لى ، لقد أفصحت عما بصدر جهينة .. قلت له : سيدى المدير .. الماء
يأتى من تحت .. والمسئول هو دلح الأسطوات ، هذا ليس سيلاً جديداً يا
سيدى .. والحق يأتى من تحت . دلح أسطوات لا أكثر .. الرحمة لقد
عودتهم على هذا ، فى بعض المصالح الأخرى يضربون بالشلوت .. ما بعد
الدلح ؟ الجحيم وتطلعات الزواحف لدنيا السماء (الأسطوات ممتنعون عن
العمل) (العمال يطالبون بأجر عن أيام الجمع) فساد عقول ومناقشات
لا تنتهى (عن الحرية والعدل والديمقراطية) تلف الحنفيات والامتناع عن
تصليحها هو المسئول الأول — هكذا أرى ، والمسئول الثانى فى صدرى ،
لن أبوح حضرات الأطباء الأفاضل ، التشريح : لن يجدى شيئاً ، لن
تقرأوا — ما حفرت الأيام بصدرى — المسئول الثانى لن يحاكم أبداً ..
القانون إن كان لى فعلى غيرى .. وإن كان مع غيرى فعلى . لم يعد بهم —
كل ما أبغيه يومين راحة . لبيتلج الجحيم كل شيء ولكنى متعب مجهد يا
سيدى ... براءة .. شكراً ، ماذا ؟ براءة حتى الثانية بعد الظهر .

— يا سادة .. يا حضرات .. المدير خرج ؟ الساعة الثانية . الورقة بيضاء .
لم يكتب الطلب بعد . بعض العزاء ورقة بيضاء كالثلج — شوف يا
حسنين أفندى .. تعال يا ابو المجد أفندى — يا أرشيف يا قلم : أنا بكرو
مسافر البلد .. مش حعمل حاجة انما حسافر .. ح أسافر من غير ما
أطلب أجازة . الورقة البيضاء بتقول كده .. الحق يؤخذ ولا يعطى ..
اقرأها .. صحيح نضيفه — لكن فيها كلام كثير .. لابد أن تقرأوها فى
داخلكم أولاً .. الى عايز حاجة يأخذها .. أيام جمع — أيام أحد .. أنا
عايز يومين راحة .. حاخذهم ...

٣٥ البلتاجى

٥٢ عبد الخالق ثروت

من سبع سنوات بالتحديد ، جاء عباس دندراوى ليأخذ مكانه كموظف بالثامنة الكتائية بوزارة الإسكان والمرافق بالدور الرابع من المبنى ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت ، فى بداية الشهر الأول لم يعرف له رأس من قدم : كان يجرى مع حاجة العمل « سبيليا » لا ضابط ولا رابط .. يوما فى المستخدمين .. وأسبوعا فى الأرشيف .. وآخر فى الاستعلامات ، وما أن بلغ عم « زيد » صراف الخزينة سن المعاش حتى سلموه الخزينة ، وقد يكون لكلام السيد مبارك والسيد سعد مراد دخل .. ودخل كبير فى إعفائه من الخزنة ومسئولية الخزنة فيما بعد وقيامه بعمله الحالى كميقاى لحضور الموظفين وانصرافهم ومدون لخطابات الصادر والوارد ..

الأيام — فقط — علمت عباس دندراوى أن عمله الحالى لا يقل مسؤولية عن عمله السابق كصراف للخزنة .. وعلمته أيضا أن السيدين مبارك وسعد مراد لم يكونا حريصين على مصلحته يوم قالوا : « عباس بن حلال وطيب ومستجد خدمة .. الى يمسك الخزنة يا مفقود يا مولود .. ماترموش النار من حجركم على

حجر غيركم ، قطعاً لم يكن الحرص دافعهما — ففي اليوم التالي لاستلام مبارك الخزنة . وقف فكرى أفندى لحظة بعد أن وقع إمضاء حضوره — قدم يمينى ساقيه وأخر اليسرى وفتح فمه وأغلقه وارتحف جسده جميعه مقلقاً النظارة فوق عينيه .. أسندها بكلتا يديه ومضى مهرولاً نحو مكتبه بإدارة المستخدمين دون أن يتنطق بحرف ، وفى موعد الانصراف وقع فكرى أفندى وتمهل قليلاً قبل أن يمضى .. كان أكثر ثباتاً منه فى الصباح .. كلماته فقط التى سقطت من بين أسنانه المتهمشة فتهشمت :

— « هوه عباس أفندى .. قصيدى .. يعنى .. حياخذ مواصلة .. والللا يعنى .. »

كانت حجة لفكرى ليكلم عباس . وعباس يعرف أنها دعوى لوليمة كلامية فى بطن السيد فكرى .. والحقيقة أن عباس كان تواقاً لصلة صداقة تربطه بواحد من موظفى المصلحة . والحق أيضاً أنه ما كان ليرضى بفكرى هذا الواحد .. ولكنه لزم الحرص والحرص كاملاً عندما رد على فكرى :

— ح اركب م العتبة .

مشياً جنباً إلى جنب وبدا فكرى يومها ضئيلاً كنملة .. قصيراً كقرع لوز بجوار عباس الفاره القامة .. المفرهد الصدر ، ضحك فكرى بلا سبب وعاجل عباس :

— « اسمح لى انته ريفى يا أستاذ عباس .. ريفى خالص .. »

لم ينتظره ليرد أو يسترد دهشته . هجم هجوم الفجأة وانطلق يصب مدفعيته بلا توقف :

— يا راجل يلك الخزنة تسيبها .. اللقمة فى بقمك ترميها للكلاب تتعارك عليها .. وآخرتها تقع فى بق مبارك .. يا راجل والله الريفى ما يعمل عملتك .. مبارك ده جزمة قديمة .. سواء هوه أو سعد مراد ..

وكمن لمح شبه احتجاج فاندفع ليكتمه :

— حتقول ايه ؟ .. انتة تسكت .. انتة تعرف ايه فى المصلحة ؟ .. ولا حاجة طبعاً .. الجاهل بالسكة يسأل أهل الحى .. والسؤال مش حرام والمعرفة مش يبلاش .. المهم .. الى حصل حصل وأقول لك حاسب :- الأولى براءة والثانية عثرة حمار والثالثة ثابتة ..

كانا قد وصلا محطة العتبة ، وكان أتوبيس (٥٠) قد فارقتها وتبعه (١٥٠) وهما الوحيدان اللذان يوصلان عباس لبولاق الدكرور ، حيث يسكن المنزل ٣٥ شارع البلتاجي .. كان من الصعب عليه ان ينتظر مع هذا الفكرى ساعة كاملة حتى يأتى أتوبيس آخر من (٥٠) أو (١٥٠) .. فما أن لمح (٦٠) يتحرك حتى عزم فى نفسه على أن يركبه ويهبط ميدان الدق ويواصلها لبولاق مشيا أو يركب .. تحرك عباس خطوتين وقطع الأتوبيس مشوارا بينما يد فكرى تشده .

— مش بقولك انت غشيم .

وضحك ..

بصداً الدخان والشاي على أسنانه المهشمة وراسب البرد والعمر على صدره ضحك — كما صرير بوابة خربة ، تمنى عباس لو داسه بقدمه ويغيطه ويغيط الشمس من فوقهما ويكل ما لم يحبه فى عمره .

— امبارح كنا فى قهوة الأما بالسيدة زينب .. أنا وسعد ومبارك وهلال أفندى بتاع الأوقاف .. الى فى صندوق مبارك كشفه سعد مراد .. قال لمبارك : « بأه اسمع أنا مش عباس .. إضحك على غيرى أنا سعد مراد .. فاهم .. حرص على نفسك .. والله مارحمك يا مبارك .. الى له ملهم فوق المرتب ياخده . أنا بقولك أهه .. اشترى طوابع بوستة .. دولوقتى المتغطى بان .. فوق مرتب كل موظف ملهم اتين أربعة .. الصراف ما يدیش تعريفه ويحب العجز عنده .. الى ييحصل كلنا بنساع .. فى الآخر المليم يبقى قرش .. جنيه .. ثلاثة .. مرتب ع المرتب .. فهمت يا ..

وضحك ..

كالظن .. كالشك .. كلعبة الوسواس الخناس .. يرقد فى الداخل ويتقلب ويتمطى .. فيصبح للكلام وجهان ولنية الحسنة طريقان وللوظيفة عمل بأجر لا حساب فيه لمشوار رجوع عباس وانتظاره بمحطة العتبة — وبعدها — حشر .. عرق .. رائحة أفواه تنتظر غسل الخبث بلقمة الغداء ، لا أجر للدور الأرضى بشقة الحاج محمود درويش أجره على عباس ومن مرتبه .. خمسة جنيهها كاملات من اثنى عشر جنيهها وستائة ملهم لا غير .. من المرتب الواحد ، فقد رفض عباس الرفي خالص .. الغشيم ألف مرة مرتبا فوق المرتب ، مرتبا ثانيا تركه لمبارك يوم ترك الحزنة .. وترك له ما علمته الأيام الآتيات .

قال عباس للحاج درويش :

- لو حد من الشارع رفع رجله يدخل الشقة .. عايز حديد للشبايك ،
- رد الحاج :
- اقفل الشباك ياسيدى ..
- الدنيا حر .
- الشتاء الباب .
- ما هو الصيف برضه جاى ..
- لما يجى الصيف أشتري لك مروحة على حسابى .
- مش ح أدفع الإيجار ..
- أطرلك .
- القانون ويايا .
- نشوف ..

وشاف عباس .. لم يدفع الإيجار ثلاثة شهور فجاء « حجز التحفظ وبعده أمر الطرد » .. وتدخل أبناء الحلال أخيرا ففض الخلاف وأخذ درويش الإيجار ومصاريف الحمامى ورسوم المحكمة وأتعاب المحضر .

أخذ الحاج درويش صاحب البيت لإيجاره — بعد أن أخذ عباس طريقه « للسيد مبارك » صراف الخزانة مارا بالسيد « فكرى » واسطة الخير بينهما .
تكلم فكرى فى البداية متلجلجا .. شرح الأزمة وأكد للسيد مبارك أنه لا امل إلا عنده ، سكت مبارك ولكنه كان عمليا ، قال دون أن ينظر لفكرى :
— يلزمك كام ..؟
— ستة وعشرين جنيه ..

كالنائم أو المفكر قال مبارك : « احنا فى شهر تسعة يبقى باقى كام على شهر سبعة ، هيه .. تسع شهور .. لا عشرة ونبتدى السنة المالية الجديدة .. انتة ويايا يا عباس افندى ؟ عشر شهور فى ثلاثة جنيه .. ستة وعشرين جنيه تاخدهم يا عباس افندى النهارده تردهم بعد عشر شهور بواقع ثلاثة جنيه كل شهر — دول م السلفة يا عباس افندى يعنى الواحد لو انكشفت يا رب استر .. استيينا ..

ورد عباس :

— استيينا .. استيينا .. استيينا ..

قالها لنفسه ألف مرة كالوَرْد بعد الصلاة . كأنها الهزيمة أبدا — كأنها صلاة
الدوام .. كأنه لا حل إلا أن يقتل نفسه أو يقتل الآخر أو يعالجه الموت فيموت
وتموت « استيينا » معه .. ولكن عباس يريد حل دنيا .. يريد حلا سريعا لأنه
قاتل ومقتول وميت من سبع سنوات ، عندما ترك الخزانة لمبارك غير عالم بأن الخزانة
مرتبة فوق المرتبة لأنه غشيم وريفي خالص ، وأخيرا « استيينا » ، قاتل ومقتول
وميت من سبع سنوات عندما رضى بهذا الجحر الأرضي بالمبنى « ٣٥ » شارع
البلتاجي ملك الحاج محمود درويش الذي لا يثيره التلويح بالشوب الأحمر .

— والقانون ويايا .

— نشوف .

عباس قاتل ومقتول وميت من سبع سنوات يوم جاء ليأخذ مكانه كشامنة
كتانية بالمبنى « ٥٢ » شارع عبد الخالق ثروت بوزارة الإسكان والمرافق ، يوم
مشى مع فكرى حتى محطة العتبة ، يوم ضحك فكرى كالظن كالشك كالوسواس
الخناس .. وسكن داخله متمددا على راحته ، يتمطى ويتشاءب ويتقلب على
البراح عالما بكل سر حالا لكل إشكال .

— مالك ؟

— صاحب البيت .

— ماله ؟

— الإيجار يا عباس افندى .

— والتخفيض يا حاج درويش .

— ارتضينا يه يا بنى دا القانون .

— يعنى عايز أربعة جنيه وعشرة صاغ .

— والمية يا عباس افندى .. نسيت .

— عليك يا حاج .

— فى الوسع بس يا بنى .. فى العقد مافيش حاجة من دى .

— مش ح ادفع .

— والقانون .

— ويايا .

— نشوف .

ونشوف عباس فكرى .. ويرد فكرى :

— تسكن جديد تدفع خلو وياريت تلاقى .. قو لها يا عباس .. قول :
استيينا .

ويقولها عباس :

— استيينا .

ولكن عباس يريد حلا سريعا .. حل دنيا — سيقول لفكرى :
— انت تسكن داخلى ولم تدفع خلوا ولا تدفع إيجارا وأنا أطردك والقانون
معى ، لن أحتاج لك فى مرورى للخزنة حيث مبارك . مبارك عملى يعرف
أنه لا وسيط ، قالها دون أن ينظر اليك : « عايز كام ؟ » . الإيجار
سيدفع شهريا للحاج درويش دون تأخير حتى لا يكون هناك مبارك
« واستيينا » .. والحج درويش صاحب بيت ومعه القانون ، ولكنه يؤجر
بمقتضى مبلغ معين مقدما رضى به الطرفان الشقة الأرضية بالمبنى ٣٥
لعباس دندراوى الموظف بالإسكان والمرافق .

لهذا يحق لعباس دندراوى بعد سبع سنوات أن يقذف بالحل سريعا فى وجه
العالم .

— يا شارع البلتاچى بسكانك جميعا .. أنت حر فى أن تقذف بماء
الاستحمام فى الخامسة تماما من صباح كل جمعة وكل اثنين — ولكن يوم
الجمعة إجازتى الأسبوعية ومن حقى أن أنام لأى وقت أشاء .. والقانون
معى — ويوم الاثنين يوم عمل ، وعملى فى الثامنة تماما ولكن قبل أى
موظف كميقاتى لحضور الموظفين — ولكن ليس فى الخامسة صباحا يا
سكان شارع البلتاچى — أنا لا أدين أحدا منكم فالقانون معكم وبمأذونه
تم زواجكم شرعيا — أريدكم شهودى يا سكان شارع البلتاچى على هذا
المدعى محمود درويش صاحب البيت ٣٥ .. يصحو فى الخامسة مدعيا
أنه نداء الفجر من مسجد الحى .. ولكن ما ذنبى أنا فى أن يهبط درويش
السلام فيدق بجذائه الدرجات .. لا ذنب لى وليتأكل النعل .. أن يدفع
درويش بالمفتاح فى القفل فى حركة سريعة فجائية محدثا فرقعة شبه مكتومة
وإن كانت قوتها عشر زجاجات كوكاكولا تفتح مرة واحدة وفى نفس
اللحظة .. ما ذنبى والأمر لا يكلف درويش سوى قطرات من الزيت على
القفل والمفتاح .. ما ذنبى فى أن درويش أعمى البصر والبصيرة يخطو
العتبة ويرفع قدمه ويدوس يوميا على كلبه النائم أمام بيته فيعوى الكلب

ويصرخ هو : اخرس نقضت وضوئي يا نجس .. داهية تاخذك ...
ماذنبي في أن لا يخرس الكلب ولا يدوس درويش .. أنتم شهودي يا سكان
شارع البلتاجي فهذا « قلق » براحة السكان والقانون معي وسيركع أمامي
درويش ويصلي في محرابي ويقولها كما قلت له طوال سبع سنوات :
« استيينا » .

— وأنت يا مبنى الإسكان والمرافق الكائن بالدور الرابع من المبنى ٥٢ عبد
الخالق ثروت .. أمن حقك على عباس دندراوي ثامنة كتابية غير ساعات
تبدأ من الثامنة صباحا حتى الثانية ظهرا .

لكن عباس دندراوي يصحو في الخامسة ، اسمعوا لستم أذكاء .. ادفعوا له
ايجار المسكن وسيسكن في أهدأ حي ألا وهو حي « الزمالك » مطلقا شارع
البلتاجي .. كما أن العمل يا ٥٢ عبد الخالق ثروت ينتهي في الثانية والثلاث وهذا
من صميم عمله كميقاتي انصراف الموظفين .. غير أنه يقطع المسافة من مكان
العمل إلى محطة العتبة حيث يركب « ٥ » أو « ١٥ » في عشر دقائق عندما لا
يكون هناك فكري .. يضاف إليها ساعة كاملة عندما يكون هناك فلوس
وفي حالة الانتظار أيضا — عند العجز عن حشر النفس مع العرق ورائحة الأفواه
والخبث الذي لم تغسله لقمة الغداء .. بهذا يأخذ عباس دندراوي حقه حيث لا
حاجة لمبارك مرورا بفكري وبالخزنة وبمرتبها الذي فوق المرتب .

وكا يسير النائم أو المفكر .. سار مسيرته الكبرى صبيحة يوم الجمعة الموافق ٤
ديسمبر ووجهته قسم ثان جيزة .. وقلبه يرجف بهواجس السعد والنحس في يوم
الجمعة . دخل على الضابط النوبتجي وقال له :
— أنا القاتل .

نظر الضابط لعسكري بشرطتين وقال له :

اكتب ، وقال :

— وياك أمانات .. ؟

ووضع على مكتب الضابط خمسة عشر قرشا ونصف ، وكتب الشرطي من
واقع البطاقة الشخصية :

الاسم : عباس دندراوي .. الحالة الاجتماعية : أعزب .. السن : ٣١ سنة ..
العمل : موظف كتابي بالإسكان والمرافق ٥٢ عبد الخالق ثروت .. السكن : ٣٥
شارع البلتاجي ..

وكتب الشرطى من (س) الضابط و (ج) عباس :

- لم قتلته ؟
- كان مشاكسا .. كان طوال سبع سنوات يلوح براية العصيان ويقول « القانون معى » .. وعندما ينهزم — يركع ويصلى ويتمم بالوزد « استيينا » .. ولأنى لا أطيق الكلمة قتلها فقتلته .
- الشهود ؟
- سكان شارع البلتاجى وعبد الخالق ثروت .
- أسماء ؟
- الحاج محمود درويش .. السيد فكرى .. السيد مبارك .. وربما السيد سعد مراد .
- اسم القتل ؟
- عباس دندراوى .

الثلاث ورقات

١ - الولد

- كانت تظن أن ملابسها ..
- أغلق الترانزستور وتشاغل بقضم اظافره ، خالس الرجل ونظر إليها : ضغط الإصبع فهب صوت المذيع :
- رياح شمالية شرقية تصحبها موجة باردة تستمر .
- لم معطفه في عجل وتابع السماع .
- اسبرو صديقك .. اسبرو رفيقك ، دس يده في جيب معطفه وتحسس ..
- ومع كلمات المعلق انفرجت أساريه .
- الرشع .. الزكام .. نزلات البرد .. احذر عدوك .. باستعمال اسب ..

لم تكن بالعربة نافذة مفتوحة — أغلقها حال ركوبه بالشيش والقزاز ، ما بينهما — ما بين الشيش والقزاز — تسلل الخارج : رجال تروح .. رجال تحيء .. يخلفون البصمات .. الأبد لاصق بأرضية العربة والكراسي . وأعمدة نور قائمة كالرجال على طول الطريق : تلوح بالأذرع فينفرد في العروق الدم ، الأحمر

يلهب الثور ، والريح يلهبه الدم النافر في عروق الرجال .

وما بين الشيش والقزاز تمتد أذرعهم .. تطاردها ريح الشر فتتفر العروق ويظفر الدم .. ويهوى المضرب فتتنفش أكوام القطن — ليصبح كل شيء واضحا — عيون للقطن .. وذرات للهواء ... وبصمات بيضاء ميتة على الكراسى وأرضية العربة — لبدو الكل واضحا — الزيت للطبخ والعلف لثيران الرجال .

في محطة قنا توقف القطار وركب الرجل — قبله بما تحت اللحظة — ركبت المرأة وركب معها آخر ، لم ينتظر القطار كثيرا — سلم عليها مرافقها وفتح النافذة بعجل وسقط في الخارج .
— يمكن تكون معاه عيشة .. قولى لعبد النبى مشتاقين .. اوعى .

غاب صوته وأغلقت هى الشباك بالشيش والقزاز ، وجلست « مصرية » قبالة ، ما أذهل « رجاء عمر هاشم » وجود الآخر ، متى .. كيف ؟ .. ما لا يدريه ، ما يعرفه أنه ركب قطار الشلال من محطة الأقصر ، ركب القطار واختار مكانه ولم يكن بالعربة غيره ، في محطة قنا توقف القطار .. وركبت امرأة ، كان معها آخر وذهب .. ذهب تاركا شوقه لعيشة وعبد النبى — معرفا رجاء عمر هاشم لمصرية .. ذهب تاركا مصرية لرجاء ، لم يكن بالعربة سواه ، ما يدري ، وما كان حقيقة ، ما كان بالحالم .. هذا الرجل السمين القصير لم يكن موجودا ، ووجود هذا الرجل السمين القصير قلب كل شيء ، ورغم أنه لا شيء هناك — إلا أن وجود هذا السمين القصير ليس بالمرح ، عيون مطفأة فيها شيء — أى شيء — ربما تاجر غلال . ساعة جيب مدلاة على حائط صدره ، عباءة امبريال أصلى — هكذا يسمونها في ريف الصعيد — وبهذا يعرفون مرتاح الحال ، وكما يقولون : جاك الشوم .. كالغيمة . كالمصيبة ، كالغائمة كان الرجل ، لم ينطق بكلمة .. بحرف والجائز والممكن .. إنه لم ينطق في حياته كلمة واحدة — كما لم يناع طفلا وإن داعب شاربه — وتلك قد تكون مهمته الأبدية ، رجل غامض كالسر ، خالس مؤلفه البوليسى وربما قتله — بضربة ساحقة من قدمه تطايرت ضلفتا الكتاب ثم تباعدتا في صرير مخيف .. وانفتح باب القلعة .. واندفعت ريح

نتنة خبيثة عملاقة قذفت بالرجل إلى هنا : واحد من رجال شيكاغو لولا ملاح مصرية وعباءة نفضها والتف بها متمددا بطول المقعد مستندا إلى فخذه كالكتاب المصرى القديم . قد يكون متخفيا ، كما قد لا تقوم لظنون « رجاء عمر هاشم » قائمة . عندما يسقط القناع يظهر الرجل ، قد لا تكون له بالمرأة صلة — عند هذه اللحظة يراها رجاء ويغرس عيونه في تقاطيع مصرية ويفتش عن شئ — أى شئ يمتص هذا الفراغ : صداً النحاس وصداه يولولان بالفراغ في الفراغ وتتلوى روحه ويمتلئ المنخر . ينحنى ويطبق على ما بين الكتف والعنق ويفرغ أنفاسه ويلقى بما فى منخره .. وينشق ريح المرأة ، ريحا منددة مخلوطة بالعرق ، للأنتى .. لكلهن ريح منددة مخلوطة بالعرق ، طعمه لغز لم يحل بعد .. طعم لم يذقه .. غير الذى ذاق فى الكتب ، بلا زعاق معلى ولا مساومة بائع ولا دورات عشر حول سور الأزبكية — الجنس بلا أستاذ يفنده — من غير دفع ولا تقدم — سيتقدم — ينحنى ويغرس شفثيه ما بين الكتف والعنق .. ويتدفق الدم حاراً .. وتولول المرأة ... ويصحو الرجل ، يهب الشيطان : دراكيولا أيها الملعون ، يمد ذراعه ويجمع حقل ثوم فى حزمة — يسحق ما بين كفين كحجر الطاحون .. حقل ثوم ، ويدفسهما ما بين فتحتى المنخر .. وينتفض جسد رجاء وتفارقه الروح .. و .. سعل الرجل . فانتفض رجاء .. ردت إليه روحه . لم ينظر إلى الرجل السمين القصير وما كان يجرؤ — كفاه أن روحه لم تفارق جسده ، يكفيه أن يسترد أنفاسه . تمنى لو أدار الراديو . وأنطلق محلقاً فى سموات الست « ثومة » ساجحا فى البعيد .. بعيدا عن الوجود .. عن الأرض والناس وكل ماهو حى (طويل أو قصير) .. يبكى وينهه على صدر الحنان .. على ألا يفرط فى عينيه — فبهما — يرى تبتى .. ولتبتى يعيش . كفاه ستة شهور عاشها بعيدا عنها . أقتلع من القاهرة قلب الحياة لينزرع فى الصعيد كملاحظ عمل .. ستة شهور كان فيها كالثبات الشوكى .. جذر قصير ولا ثمر . ملاحظ عمل بمصلحة الآثار . بلغة المصلحة « سواق أنفار » . رجال بعدد الحصى .. يرفعون الهراوات ويضربون الأرض .. يحملون حفنات تراب من مكان لآخر .. فقط حفنات تراب وهذى مهجتهم .. يلقيها الرجل منهم وهو يلهث . بعد مشوار وآخر يغافله ويستلقى تحت ظل — ينشطر صدره إلى نصفين ويلهث .. ينهره رجاء فينوح كامرأة .. ويشكو حيث لا مبرر للشكوى .

— أصلى تعبان يايبه .. والله تعبان .. بلاش تخصم من اليومية .. أبوس رجلك .. دول ثلاثة وأهمهم .. حبل فى رقبتي .

رجال حالهم هكذا لا يساقون ، ليسوا في حاجة لمن يسوقهم ، ليسوا شيئا يفرض على رجاء كعمل ، يؤتى به من القاهرة للصعيد ليسوق هؤلاء ، عمل رجاء ليس بعمل ، لا قيمة فيه ستة شهور ، ياللقسوة يا للسفلة ، لم يفعل شرا في مخلوق .. حتى هؤلاء .. لم يفعل شرا ليفرشوا له ثمانى ساعات بينه وبين القاهرة .. ثمانى ساعات كاملة عليه أن يقضيها في قطار الشلال مع هذا الرجل السر وهذه المرأة ليصل إلى تيتى — كما قضى ستة شهور في لاعمل .. يصحو في السادسة صباحاً ..

يتناول إفطاره في استراحة المصلحة مع المهندس ومفتش الآثار ، بعدها — يتم على الأنفار .. أيام ويركب المهندس والمفتش العربية ويهبطان البر الغربى ، يبقيان لما بعد الظهر ، حسب طول الفترة التى يغيبانها أو قصرها .. يرجع هو ويأخذ حقه من النوم ، ومع الأنفار يترك « أحمد أبو مجاهد » هذا الأحمد أبو مجاهد كان يظنه غيباً ، ما أن يدبر له ظهره حتى يجمع العمال حوله ويغنى بصوت قبيح وبالكره يسمعون .

(بقه انته يا زنائى عملت ع القوم فارس . حولت بر تونس خرايب . خلاص رجعت لك انا ابو زيد) لم يتركه مرة مع الأنفار إلا وبدأ من هنا وانتهى هنا . كانوا يسمعون غصبا فهو الذى يملك وحده قسرهم على العمل من بعده . ضربه مرة بالقلم فأحنى رأسه فى خزى .. وطعم هذا الخزى كان يحسه رجاء عندما يذهب المفتش والمهندس بالعربة إلى الأقصر — يقضيان الليل فى « ونتر بالاس » ويأتيان آخر الليل . المفتش الشيخ يستند على ذراع زوجته الشابة وزوجته الشابة تستند على ذراع المهندس الشاب . ولليل ستائر وحرمة « الله اعلم بما تحجب الجدران » كانت زوجة المفتش بطة بريّة .. تطير هنا وهناك وتطير العقل . حتى عقل رجاء طار وتمنى لو تسبح فى بركته . نسى تيتى وأهمل نساء كتبه تمنى لو مثلاً معا هو وهى فيلم « الوسادة الخالية » .. أو (خذنى بعارى) — لكنها كانت شيئاً آخر — حتى غير تيتى — غير تيتى بكثير . جهود الكوافير وحدها تستحق مرتب والد تيتى فى مصلحة البريد . كان وحده مع الأنفار . تيتى بالقاهرة وهى فى الجينية على كرسى منامه — بنظارة وفستان بلا أكمام ومجلة فرنسية — على جبينها فراشات . وهو وحده مع رجال كأعواد الكبريت . يستندون تحت ظل ويلهثون تنشطر صدورهم إلى نصفين ويلهثون .. عندما ينهر رجاء واحداً منهم ييكى

كامرأة . ينوح ويشكو حيث لا مبرر للشكوى . رجال كهؤلاء لا يساقون ..
رجال كهؤلاء لا نساء معهم . حتما فالنساء يعبدن الرجال والعافية .. من هنا لن
ينتظر رجاء لامرأة من حريم هؤلاء .. ومن الجائز أنه لو طلب منهم — من الجائز
فهو قادر — لكن رجالا كهؤلاء لا نساء معهم . إما أن تكون معه امرأة وبينه
وبين القاهرة ساعات يحركها قطار الشلال .. أن تكون معه امرأة وعربة بلا
ركاب — إلا — هذا — ثالثهم — الغامض كالزوج — كالمجهول الخالد .

سبح بعينه في العربة متجنباً نظرات الرجل — جاهدا ألا يظن به نيات حسنة
أو خبيثة في العثور على المرأة . فوقه : لمبات خاية تهتز مع القطار .. ضوء أفرغ
فيه الطبيب محقن الدم ، على الكراسى والأرضية : أصابع بيضاء ميتة بصمها
الخارج متسللا من الشيش والقزاز ، حاول فتح شفثيه فأغلقهما الجفاف ..
أطبقيهما فتعثرتا في الجفاف ، الداخلة قرضته أسراب الجراد ، لا أخضر ولا
يابس ، الراديو : لا أمل .. (كانت تظن .. ملابسها كانت بيضاء تظن ..
اومو .. تايد .. ساعة تيتوس .. اسبرو يقتل الصداق) .. (هاء .. هاء ..
هاء .. ويضحك الولد .. يستلقى على ظهره ، يلوك الأب كلماته .. يهرسها
جيذا ويخرجها ممطوطة .. هع .. هع .. هع .. مالك يله ، يرد الولد : البدة
الجديدة يابا البدة الشعبية ، يضحك الأب ويهرش بطنه .. رأسه : ألأفين هيه
ياله ؟) ويقوم المتفرجون جميعهم ليذهبوا لشركة بيع المصنوعات ، ويقفل صاحب
المقهى التليفزيون — هو حر .. ملكه — كل حر فيما يملك ، رجاء حر في ان
يقفل الراديو — ولكن الراديو يتكلم والمذيع لا يسكت والشاشة لا تنطفئ
والتليفزيون يشع — والمسئول هذا الجالس قبالة — الرجل الغامض كالسر : غرس
داخله بالمزراق وسأل كل شيء واختلط .. تركه تائها حائرا في داخله .. لداخله ،
بعد لحظة سيجن : يصرخ .. يزقق بعلو الحس .. ليس معقولا ان يجالس شانون
ويأكل مع (الهارب من الأيام) ويتناول شريحة لحم من عظم دجاجة خلفها
(عويس أبو ضب) — ليس معقولا — ألا يلين هذا الرجل قسماته ، سيصرخ
فيه رجاء .. يصرخ في الفراغ .. ينحنى للرجل .. يقبل قدميه .. يركع تحتها
(أرجوك .. من فضلك .. تكلم .. ابصق .. انطق .. كالمذيع تماما .. ليس
مثله .. لم أقصد .. أعني .. إياك إياه .. أنت هو .. هو أنت .)

وقفوا بينه وبين ابنه (كالسد) الذى يسمونه (مركز قنا) واقسموا جميعا على (المصحف) إنه ضرورى وضرورى جدا وجود (مركز) بين (البندر) و (العاصمة) — لكنهم لا يفهمون .. يعرفون فقط — لهذا وقفوا فى وجه (القطار) الزاهب إلى (العاصمة) حيث ابنه (محمود) .

- ابعث له جواب يا أخى .
- بلدياته وياه فى السكن .
- يعنى لو كان هناك مشغولية .. بقليله واحد منهم يبعث جواب .
- نعم (عبد الصابر) و (الهادى النوالى) و (محمود الساكت) و (عبد الحكيم الرقاص) لا يفهمون .. فقط يعرفون .. كلامهم يقول ذلك .. والرجل كلمة ، هو لا ينكر أنهم يعرفون البيضة كما يعرفون الحجر ، كما يعرفون أيضا اللعب بالبيضة والحجر — لكنهم لا يفهمون أن الابن أيضا بيضة وحجر — كما هو لعبة أبيه ، الابن بيضة « كاك » لها الرحم .. قال الرحم « كاك » فمشيت الحرارة كالدم الذى هو ماء فى جوف العيدان .. اشتعلت النار وغلا الماء واستوت البيضة — لمها الأب بين جوانحه وأعطائها دفء حياته ففقسنت الكتكوت .
- والحق لقد كان ابنه « محمود » فى صغره كتكوتا .. يمشى بقدمين ، ويضرب بجناحين ويصوصو فى « الآه » و « الهيه » ..
- ماليش دعوة عايز بنطلون .. مفيش فلوس لكن عايز بنطلون .
- بابا جاب بنطلون هيه .. هيه .. هيه .

كلهم يعرفون — القرية كلها تعرف أن « مجاهد أبو دراع » علم ابنه فى مدارس « البندر » — أعطى ابنه الأرض — مع بداية كل عام كان يعطى ابنه فدانا — لم يبيع أرضه ولكنه أعطها لابنه — أعطاه العمر ليتعلم ، كانت السنة تمر على الأرض لتعطى المحصول — وكان « مجاهد أبو دراع » ينتظر المحصول ليعطى ابنه سنة جديدة ، وبجهود « مجاهد أبو دراع » يعيش ابنه « محمود » الآن فى العاصمة ليأخذ « الشهادة الكبيرة » . بعد الشهادة الكبيرة فقط يواصل ابنه الحياة .. وقد تتوقف، ومؤكد ستتوقف حياة « مجاهد أبو دراع » —

وَبَقِيَ محمود ابته لِيبحث عن البيضة .. ويخرج الكتكوت : بقديمين بجناحين بلون
النجمة بلون الأرض بلون النيل بلون الغيمة — كما يفهم (محمود) سيكون « ابن
محمود » ... تماما كما يفهم « محمود » لكن « محمود » ابن « مجاهد أبو دراع »
مازال يسير في طريق الفهم — وللفهم دروب — وقد اختار « مجاهد » لابنه درب
« الشهادة الكبيرة » وأمام « محمود » عامان كاملان ليصل إلى نهاية الدرب
ويفتح الباب ويدخل الدار فيكاكي الأولاد .
— بابا جه .. بابا جاب .. باباعاد .

عامان كاملان — لا أحد في القرية يعرف أنهما عامان كاملان — لا أحد
غيره يفهم أنه سيعطى فدانين .. لكل عام فدان .. لا أحد يفهم أنه يجاهد
ليعطى ابته عامين .. فدانين .. فالفدان عام والعام فدان . لو قال هذا لقالوا
« مجنون » لو عرفوا أنها نهايته وأنه يجاهد ليموت ويعيش ابته ... لتفقس البيضة
ويكاكي الكتكوت .. لكسروا البيضة ورموه بالحجر وصرخوا بالطول والعرض :
مجنون ... مورستان .. خانكة .

— ابعث جواب له يا أخى .
— بلدياته وياه في السكن .
— لو كان فيه مشغولية كان واحد منهم بعث جواب .

لقد أعطوا لمجاهد « الحجر في يده — لكنهم لا يفهمون — كسر كل منهم
بيضته — لكنهم لا يفهمون ، سيضربهم بالحجر الذى أعطوه ويصرخ بالطول
والعرض (.. مجانين .. مورستانات .. خانكة) .

— ولدى « محمود » ماء ودم .. خمسة وعشرون سنة .. ماء ودم .. كتكوت
في بطن البيضة في رحم الفرخة .. فقس بين ضلوعى منذ خمس وعشرين
سنة .. كان بقديمين بجناحين وأصبح بجهودى رجلا بعد عامين سيقول
الكلمة — الكلمة رجل . الآن فقط نبت له ما ينبت للرجال وما ينبت في
قدم السائر من نشع الأرض وشوك « الهلوك » .. في الجفاف طفولة
طفولة الرجل — صباحه الذى طلعت شمس منه لحظة — تتبعها
لحظات .. دقائق .. ساعات .. يوم .. سنة .. خطوة في الطريق إلى باب
الدار ويكاكي الأولاد (بابا جاب بطيخة .. البطيخة طلعت حمرة .. بابا
ادانى شريحة .. الشريحة طلعت حلوة .. هيه هيه ..)

خمسة وعشرون عاما . قضى فى البندر عشرة أعوام وفى العاصمة ثلاثة —
والباقي اثنان .. تلتاشر سنة بتلتاشر فدان . ولكي يقابل ابنه لابد من أن يسير
« مجاهد » تلتاشر سنة .. تلتاشر فدان — وتكون المقابلة — بعد أن يفور الدم
والماء تحت النار فتتشقق القدم .. ومن الشق يبرز « الهلوك » صلب الأشواك .
من صدر « محمود » يبرز شعر الرجل وينغرز فى صدر « مجاهد أبو دراع » ومن
ذقن ابنه من عرضها وطولها الذى هو خمس وعشرون سنة يبرز (الرجل) وتسرى
الحرازة فى الأعواد وتلتهم النار المحصول — ويفور الماء ويفور الدم ، هنا فقط
سيطمئن « مجاهد » على ابنه محمود — عندما يتنفس ابنه (الحرازة والماء
والدم) — سيفهم أن ابنه (حى) لم يميت ، سيتأكد أنه لم يبع (تلتاشر
فدان) .

وليتهم يفهمون — ولكنهم يعرفون فقط — أبدا لن يفهموا أن السنة فدان وأن
الفدان سنة والبيضة كتكوت والولد كتكوت .

ويقسم « مجاهد أبو دراع » أن أهالى « بندر قنا .. مركز قنا .. محافظة قنا »
يعرفون فقط ولا يفهمون — لذلك فهم (مجانين .. مورستانات .. خانكة)
يعرفون البيضة والحجر ويلعبون أيضا بالبيضة والحجر .

٣ - (البنت)

— فى بنى سويف تلاقيه منتظر .

عبد النبى مستنظر .. فى الايد حبل وفى العب سكين ، اليوم .. يحى
والساعة تجرى ، والقمرة تطل وتغيب ، والعجلات تدور وتنشال وتنحط ..
وتنشال بلاد وتنحط ، والقطر يا مصرية يشيلك من قنا ويرميكي فى بنى
سويف .. يرميكي للظن (لعبد النبى) ، أخوكى ، ابن أمك وأبوكى
منتظر : زى الوعد .. كلمة البلد جواه ، الى ما يساوى كلمته فى عب
عبد النبى .. وعين عبد النبى فى التراب وفى التراب حكايتك وعلى التراب
خطاوى الناس .

- والحرام حد قده .
- الستر يارب .
- والقطر شایل تراب قنا فى عجله .. والتراب على كتفك وريحته جواكى .
- يمكن تكون معاه عيشة .

« يمكن ويمكن .. يارب .. ياعبد .. قلبك يا عبد ع العبد هين .. وأنا
مصرية بنت أم مصرية عبدتك يا عيشة .. الستر يا عيشة .. أخ يا عيشة
لو طمس المسطور قلبك .. وعملتى ودن من طين وودن من عجين .. لو
قفلتى قلبك بمليون ضبة والف مفتاح » .

- قولى لعبد النبى مشتاقين .
- « وأنا مشتاقة لعبد النبى .. أخويا مشتاقة له .. ومشتاقة لعيشة .. مشتاقة
لكم تنهشونى وترموا العيب من جواى .. ارتاح .. ترتاحوا .. مش ابنى .. دا
كلمة الناس فى عبي .. كلمة بتجرى جوايا » (مالت الشفايف على الودان
وهمست .. وشوش الزرع بعضه .. ونزل الليل .. البلد كلها طرحة سودة وكلمة
سودة .. البنات سبلوا رموشهم .. والرجال صبغوا عمايمهم » .

- والحرام حد كده
- الستر ع الولايا يارب .
- واحنا مالنا .. كل غراب ينقع على خراب عشه ..

« .. ح احميك . اقفل ودنى ولا أسمع .. نن عيني انت .. ضنايا
حبيبى .. أصونك فى بطنى وتكبر مع كلمتهم .. وتشق بطنى وتطلع ..
يقابلك الليل الأسود والكلمة السوداء (الانس نايم والجن صاحى — قدام
باب الدار عوى الكلب .. اتكوم ع الفرش . جنبى .. عوى .. قلت :
لا .. لا .. لا .. قفل ودنه وخرس لسانى .. زام .. وزام الكلب بروه
الدار .. زام وهمد .. وهمدت أنا .. عيني فى الأرض ، وعلى الأرض
دمعتين .. وعلى الخند دمتين .. شهر .. الثانى .. الثالث .. واسودت
الكلمة ... رميت اللقمة .. (حنة بسبوسة) .. غصب عني ادبت
البراح .. عايزاك يا ضنايا .. لو عشت تعيش .. لكن للحيطان ودان ..
والنجم « فتان » .. والكلمة يأخذها البق ويسلمها « لبق » والنجم سيار
يجرى مع القطر ويقول لعبد النبى :

- من قنا جاتك مصرية .. وفى بنى سويف انتظرها .. انتظرها يا عبد النبى
بالحبل والسكين ، وتعالى يا بنى سويف .. مشتاقة لأخويا .. مشتاقة .

إمضاء المؤلف

ثلاث شجرات كبيرة ثمر برتقالاً

- ماما .
- خرجت الأم ، أمام الخيمة وقفت :
- عين ماما .
- كررت عزة في ضيق ودلع وكأن لم تسمع :
- ما .. ما .
- وشىء ما أيضاً في صوتها حزين .
- (قالت الأم لنفسها)

هى مسافة قصيرة — تفصل بين الابنة والأم — مشتها الأم وصارت فوق رأس ابنتها ، كانت الطفلة قد عرت ساقها بأن رفعتها إلى أعلى وقد نامت على بطنها ملتصقة بالرمل الدافئ مستندة بكوعها على الرمل الدافئ ، وقد أراحت ذقنها على كفيها . حبات رمل حملتها الريح وانتثرت فوق شعر الطفلة ، حبات الرمل بدت لامعة تحت الشمس وكذلك شعر الطفلة بدا لامعا .

- صغيرتى حلوة .. هى رائعة ابنتى .. عروسة نصير .. تلبس الأبيض ..
- ناعم وخفيف .. عريس لعزة سيكون (قالت الأم لنفسها) — وقالت :
- وييت لها سيكون .

ونظرت الى ما وراء الأسلاك وقالت :

وكرمة لها ستكون .

— ماما : الآن قولى له أن يحضر .

— ماما : أريد برتقالا .

— أريد برتقالا وأريد بابا جاسم يا ماما

(كانت عزة تنادى جاسم أخاها : بيابا ، مات حمد والد الطفلة منذ ست سنوات .. كان عمر عزة وقت ذاك : شهر ونصف شهر ويوم بليلة ونهار ، مات حمد ، فى هذه الخيمة التى تسكنها الأم والابنة .. كان جسده باردا وشمعيا ومتصلبا .. كان قد مات . كان داخل الخيمة ممددا على الحصير .. ميتا (قالت الأم للرجال وهم يحفرون الرمل : كذب .. كذب .. لقد مات من الجوع .. لو وجد الطبيب لما مات (رجل افرنجى كان موجودا وعلى كتفه شارة غوث اللاجئين ، كان يبدو أنه حزين وخجل (صرخت : لماذا لا يموت الآدمى من الجوع !! الآدمى يموت من الجوع) هناك فى يافا كان قويا .. قويا كان ، كان يثور وكانوا يسمونه هناك فى يافا : البحر .. وهناك أيضا كانوا يسمونه : الليل .. كان يضحك للنكتة .. ودائما كان يبتسم لها فى يافا .. وكان سعيدا ... الغرباء من كل بلد جاءوا .. ومازالوا هناك الغرباء .. وهو جاء إلى هنا ومات .. غريبا مات ، الأنف والحاجب والحول الخفيف كل ما بقى من حمد فى جاسم ابنها وابن حمد) .

زعقت الطفلة وقذفت فى الهواء الساخن كفا مملوءة بالرمل الساخن :

— أين هو يا ماما .. لقد تأخر .. لقد غاب كثيرا يا ماما ؟

قالت الأم :

— هناك .

وأشارت بيدها وراء الأسلاك

— هناك .

(هذه المرة كانت تكرر لنفسها وتؤكد)

قالت الطفلة :

— لماذا هو هناك ؟

لأن الغرباء هناك .. لأنهم من هناك يجب أن يخرجوا ليحضر هو إلى هنا

ويأخذنا إلى هناك .

(قالت الأم) :

وثبت الطفلة واقفة ، عادت وركعت على ركبتها .. القت برأسها إلى الخلف
وأعادته بحركة جديدة وظلت تنظر إلى هناك .. إلى ما وراء الأسلاك ، ورددت في
همس :

- من هناك يجب أن يعود ليأخذنا من هنا .
- ماما .. يجب أن يعود من هناك ويأخذنا إلى هناك .
- قالت الأم :
- يجب أن يخرجوا من هناك ليحضر هو إلى هنا ويأخذنا إلى هناك
- وقالت :
- أأخذنا هناك يجب أن يكون .. أن نكون نحن هم لا يكونون .

ارتمت الطفلة في حجر أمها التي جلست .. ضمتها إلى صدرها وظلت
تضغط ، تلملمت الطفلة ولذ للأم أن تثير عنادها فظلت تضغط ، كانت الطفلة
تحاول التخلص دون جدوى .. وفازت به بعد أن أوهمتها الأم بأنها قد غلبت على
أمها ، ظلت الطفلة تضرب فخذ أمها بكلتا يديها :

- من هناك يخرجون .. هناك بابا جاسم .. من هناك إلى هنا يعود بابا
جاسم .. ويأخذنا إلى هناك ..
- وقالت :

— ماما .. أنا أحب بابا جاسم .. بابا جاسم سيأخذنا من هنا إلى هناك
قالت الأم :

- بعد أن يخرجوا .. بابا جاسم يأتي ويأخذنا معه .. أنا وأنت .
- قالت الطفلة متسائلة :

— برتقالا يحضر معه .. أنا أحب البرتقال يا ماما .. برتقالا لأجلى يجب أن
يحضر .

أجابت الأم :

- هناك لنا ثلاث شجرات تثمر برتقالا .
- تساءلت الطفلة :

— كبيرة هي الثلاث شجرات يا ماما ؟؟
أجابت الأم :

- نعم كبيرة .. كبيرة .

ورسمت بذراعها في الفضاء حجم الشجرات وقالت :

- هكذا كبيرة .

قالت الطفلة :

- وتحت شجرات البرتقال أنام يا ماما ؟؟
- نعم تنامين تحت ثلاث شجرات من البرتقال كبيرة .
- وآكل برتقالا كثيرا !!
- وبرتقالا كثيرا يا غاليتى تأكلين .
- أنا أقدر أن أطلع شجرة برتقال كبيرة .
- لا .. شجر البرتقال لن تطلعى .
- لا .. ولكننى سأطلع شجرات البرتقال .. ثلاث شجرات كبيرة أطلع
- صغيرة أنت .. ولا يجب أن تطلعى شجرة البرتقال لأنها كبيرة تكون
- لن أكون صغيرة .
- نعم صغيرة لن تكونى .

* * *

من جديد لمت الأم ابنتها وغطتها بذراعيها ، قالت :

- كبيرة تصيرين .. وكبيرة تذهين إلى السوق .. تحملين الخضار لبيتنا ..
- هناك لنا سوق .. لفلسطين أسواق كثيرة .. ببلدتنا سوق كبيرة .. أنا
- صرت عجوزا .. أنت تقومين بكل أعمال البيت .. تنامين على سرير
- بمفردك .. لن تنامى معى .. ستكونين كبيرة .. لى سرير ولك سرير ..
- سيكون لسريرك ملاءة بيضاء وكذلك لسريرى ملاءة بيضاء ...
- قالت الطفلة معترضة :

— ملاءة خضراء يا ماما .

وافقت الأم :

— بسوق بلدتنا ملاءات خضراء .

قالت الطفلة فى فرح :

— وثياب خضراء يا ماما !!

قالت الأم منساقة ومشجعة لفرحة ابنتها :

— فى بلدتنا سوق به ثياب خضراء .. وحمراء وصفراء .

قالت الطفلة :

— خضراء وحمراء يا ماما !!

غنت الأم وهي تصفق الواحدة :

خضراء خضراء
وصفراء أيضا وحمراء
خضراء وحمراء
صفراء وخضراء
ورددت الطفلة مع أمها .. وغنتا معا :
صفراء وخضراء
ثياب صفراء
ثياب خضراء
خضراء وحمراء

قالت الأم :

- لعرسك أصنع كعكة كبيرة .
ردت الصغيرة :
- حمراء تكون .. الكعكة الكبيرة حمراء تكون .
قالت الأم :
- وعلى الكعكة أنثر حبات اللوز .
قالت الصغيرة :
- صفراء وحمراء .
والفسدق حبات حبات .
قالت الطفلة :
- صفراء وخضراء .. حمراء وصفراء .
قالت الأم :
- والبندق .
قالت الصغيرة :
- أخضر سيكون .. أحمر سيكون .. أصفر سيكون .
قالت الأم تصيح وضعا خاطئا :
- أحمر يكون .. وأصفر سيكون
ردت الطفلة في سرعة وهي تستدرك الخطأ :
— أحمر سيكون .. أصفر سيكون .
قالت الأم :

- عوينات الجمل على الفطيرة ستام .. حبات كبيرة .. وكثيرة ستكون .
 صفت الصغيرة :
- خضراء وحمراء يا ماما .
 قالت الأم تسأل :
- أم طيبة أنا ؟
 قالت الطفلة :
- طيبة أنت يا ماما .
 قالت الأم :
- عجوز وطيبة أنا .
 أجابت الطفلة :
- عجوز انت وطيبة أنت يا ماما .
 قالت الأم :
- ولى بنت طيبة وصغيرة .. حلوة وصغيرة .
 قالت الصغيرة :
- طيبة أنا .. طيبة وصغيرة .
 قاطعتها الأم :
- أنت حلوة وطيبة .. صغيرة لن تكوني .
 قالت الطفلة :
- كبيرة أكون .. كبيرة وحلوة .
 قالت الأم :
- ستغسلين كل الملابس .
 قالت الصغيرة :
- كل الملابس .
 قالت الأم :
- الخضراء والحمراء وكذا الصفراء .
 قالت الصغيرة :
- الخضراء والحمراء .. وكذا الصفراء .. والحمراء والصفراء .

* * *

كانت الطفلة قد نامت ، كانت تبتسم في الحلم ، وفي الحلم كانت الشمس الحمراء تقذف الرمال الصفراء بالظلال الحمراء .. كانت الرمال حمراء وكذا التلال ، وكانت هناك مياه حمراء وثياب حمراء وطيور حمراء كثيرة لها أجنحة حمراء ترف في الفضاء الأحمر ثم تهبط لتلتقط بمناقيرها الحمراء أشياء حمراء .. كانت هناك أشياء كثيرة حمراء تهبط من أجلها الطيور وترف وتطير بأجنحة حمراء في الفضاء الأحمر الأحمر ..

* * *

كان الليل قد جاء ودخل الخيمة ، وكانت الريح بالخارج تضرب بالخيمة بالرمل ، ورائحة ليل يافا المحمل بالعطر تفتحت عنه أزهار البرتقال وملأت به الجو .

ومن مكان ما بالخيمة — لا يمكن للأُم أن تراه : رغم الضوء الذي اقتحم به القمر الخيمة أيضا — كانت هناك أنفاس شخص ثالث ..
همست :

— حمد ..

وحدثت نفسها :

— هو حمد .. أتى كالعادة في الأوان ، وقت يغطي الزهر الأبيض أشجار البرتقال هناك في يافا ويفوح العطر هناك في يافا ويأتى الليل والريح من هناك من يافا يأتى حمد قويا كما كان في يافا .. أنفاسه القوية أحس .. هى أنفاسه قوية كما كان .. ودائما في هذا الأوان معى ومع عزة داخل الخيمة يكونان .. حمد وجاسم ..

وزعقت :

— حمد ..

ولم تسمعه يرد (هناك يسمونه البحر وأحيانا بالليل كانوا يسمونه هناك .. وهنا مات .. في هذه الخيمة .. غريبا دفن .. من يافا يأتى ليلا ومعه رائحة أزهار البرتقال وأنفاسه قوية يطلقها)

زعقت :

— البحر .

فقط أنفاسه كانت تسمع وأنفاس عزة ابنتيهما ، كلمت نفسها :
— في هذا الأوان حيث العطر به زهر البرتقال قد تفتح وجاء به الليل والريح
من يافا إلى هنا حيث هذه الخيمة .. دائما في هذا الأوان يحىء حمد كما
تعود .. ويحيىء جاسم من مصر كما تعود .. وهنا يكون ، جاسم ولدى :
منذ زمان تعلمت القراءة .. ومع كل عام يفتح فيه زهر البرتقال كنت
تأتى إلى هنا من مصر ومنك كانت تصل المكاتيب !

جاسم ولدى : من هناك من مصر تعال وإلى يافا اذهب حيث بيتنا والعدو
يكون تواجهه بالسلاح وتضرب وتضرب ومن مصر تأخذ سلاحا وتضرب وتضرب
وتضرب وهناك في يافا لا يصيرون ... ومن هناك تأتى وتأخذنا إلى يافا حيث بيتنا
يكون والغريب لا يكون وثلاث شجرات من البرتقال لنا تكون .

* * *

قالت الأم : تفتح الزهر ورائحته أشم .. جاء الليل .. أيام كثيرة .. ولم يحىء
جاسم وهذا موعده !؟ نسوة الخيام رددن : لماذا جاسم ؟ إن أحدا لم يحضر ! زهر
البرتقال بالعطر قد تفتح والطيب يأتى به الليل من يافا نشمه .. والغائبون عنا —
عيوننا التى بها ننظر — بالسلاح هناك يضربون والغرباء يفرعهم السلاح وصراخا
نسمع .. بالغداة فى بيوتنا سنبتج ، قالت الأم تكلم نفسها : سالما يعود . وبيتنا
هناك فى يافا يدخل .. يجد الغرباء فى بيت حمد الذى كان رجلا بألف (كان
البحر .. وكان الليل هنا فى يافا .. شارب كثيف كان له .. وحواجب كثيفة
كانت له .. وعلى الصدر كان شعر غزير ، بإحدى عينيه كان حول خفيف ..
كان جفنه ينغلق عندما يغضب — ويظهر الحول واضحا .. وواضحا كانت تراه
وقت أن يغضب .. عندما يغلق جفنه يظهر حول خفيف .. كانت تراه وقت أن
يغضب) .

قالت الأم : وقت أن يغضب جاسم يشبع عدوه رصاصا وخوفا وموتا يشبعه .

وقالت تحدث جاسم : استمع لصوت دعائى ياملكى .. اصغ لى يا
جاسم .. تأمل صراخى .. إليك أصلى .. جاسم أوجه صلاتى نحوك وأنتظر .. يا
جاسم بالغداة تسمع صوتى .. بالغداة أبتجج بيتى وشجراتى وبك يا ملكى .

وكانت تحدث عزة النائمة وهي تهمس :

من هناك إلى هنا يعود وإلى هناك يأخذنا أنا وأنت .. وإلى بيتنا في يافا حيث
يبتهج القلب نغنى — أنا وأنت : للغنم .. والبقر جميعا وبهائم البر أيضا .. وطيور
السماء .. وسمك البحر السالك في كل المياه ...

وخلعت غطاء رأسها وفكت ضفائرها — قالت : لماذا تختفي في أزمنة
الضيق ؟ لماذا تقف بعيدا !! قم يارب .. يا الله ارفع يدك .. ارفع أحبابنا من
أبواب الموت يحترق الشرير بكبريائه .. يؤخذ بالمؤامرة التي فكر بها — لأن الشرير
يفتخر بشهوات نفسه .. والخاطف يجدف .. إليست أحكامك عالية فوقه !!
عدوى موتا يشبع وتشريدا وقتلا .. قتلة هم يا إلهي .. في أرضنا في أرض زوجاتهم
لا يحرقون .. ذرية لا يحصدون .. بقدر ما حرثنا والذي زرعنا نحصد .. ذرية وزيتونا
وبرتقالا نحصد ومن كل طيب نحصد .. وأعراسا نحصد يا إلهي نحن .. نحن نسلك
بالكمال ونعمل بالحق ونتكلم بالصدق في قلوبنا ولا نشي باللسان ولا نصنع شرا
بصاحبنا .. وفضتنا لا نعطيها بالربا والرشوة لا نأخذها على البريء ..

وقالت : قم يارب بغضبك — ارتفع على سخط مضايقي وانتبه لي :
تقدمه .. اصصره .. نج نفسي من الشرير — من ينزل في مسكنك .. من يسكن
في جبل قدسك .. واقض لي كحقي يبتهج قلبي وأغنى — وهمست : لفجر
كهذا الفجر الذي أراه : يدخل بالضوء الفضي .. طاهرا ونقيا كحقي ..
كيفافا .. الحق طاهر والفجر نقي كحقي كيفافا .. وكذا القلب منا طاهر والحق
والعدل نحن .. ألسنا كذلك يا إلهي ؟ .. ألسنا كذلك حيث جلالك فوق
السموات أيها الرب سيدنا .. يا إلهي ألم يكن البحر !! ألم يكن الليل !! وكان قويا
وكان شعر كثيف وكان .. كان يبتسم .. كان سعيدا .. في يافا .. في
يافا ..

— ماما .

زعقت عزة .. كانت قد صحت وكانت فرجة .. سكنت الأم واحتضنت
طفلتها

قالت الطفلة : ساخنة أنت يا ماما .

قالت الأم : نعم .

قالت عزة : أنت لم تنامي .

قالت الأم : نعم .

قالت عزة : أنا أعرف لماذا .
قالت الأم : نعم أنت تعرفين .
قالت عزة : كنت تكلمينه أنا . أعرف .
قالت الأم : نعم كنت أكلمه .
قالت الطفلة : كنت تطلبين منه أن يحضر إلى هنا .. أنا أعرف
قالت الأم : لقد طلبت منه أن يحضر .
قالت الطفلة : ماما .. يرتقلا معه لأجلى سيعضر .
قالت الأم ساهمة شارقة إلى الضوء يملأ صحراء الخارج :
هناك لنا ثلاث شجرات كبيرة تثمر ..

الدفن
والصندوق

لا تمض أبداً ، أيها الصديق من هذه الجهة للمدن حيث الشيوخ ينسجون
لك ذات يوم قش الأكاليل ، لا المجد ولا القوة يترنحان إلا في ذروة القلب
البشرى .

« ضيقة هي المراكب — سان جون بيرس »

المهر

تحت النخلات الثلاث — كعفاريت الجن ، كان يرقب الطريق، تفصله —
ترعة الدم ، خلفه زراعة حوض الطينة ، هناك في المنحنى حيث تدور التربة
ويدور معها الطريق طريق القادم من قرى « العشى » والصعايدة والزينية قبل
ويجرى : كثرة من الرجال والنساء والدواب إن كان سوق الثلاثاء ، قلة راجلة أو
راكبة عدا ذلك من أيام الأسبوع هى الصفوة على أى حال .. وهبها ملك الملوك
الجاه والصيت والجمال أيضاً .. رجال وشبان قصدهم الأقصر مركز القرى ويندر
البنادر وبلد السياح حيث المتعة خالصة نظيفة كالأقصر في الشتاء .

بمكمنه يكون قد جاوز حدود قريته — الكرنك القديم — بشكل ما .. وصار
داخل حدود الزينية قبل : بخطوة أو بخطوتين وربما بعشر خطوات — إذ ليس هناك
حدود قاطعة في فهم القرويين الفضفاض ، كما أن ما بين القريتين من مشاكل كان
يهون أمام طبيعة الفلاحين الخالدة ، تسامح غالباً وتعند أحياناً ، ولكن رغبة كبار
القوم ممن لا يرضيهم خراب البيوت العامرة حفظت سلام القبيلة الواحدة — أهل
القريتين تناسلا من عمر وقد جاء مع الفتح الإسلامى لمصر ، وبحقه المشروع
كمسلم تزوج من أربع — هن أسماء وفاطمة وهند والزهراء — احداهن كانت
نكدة ولكن الرجل الكبير كان عربيا يعرف يسوس الأنثى — ويقال إنها كانت

« هند » — يكفى أن تقول للرجل المشاغب « يا بن الأنثى » أو — يا بن تفيدة — حتى تعاوده طبيعته الخالدة ، أما لماذا تفيدة وليست هند !! فهذا ما يجعله الآن يكمن بين النخلات كعفريت الجن ، ينتظر شبيب الساهر بعرس حجازى .

« كان منطقياً أن لا يكون هناك خط قاطع بين القريتين يحميه جند ، نطلق عليهم حراس الحدود ، حتى فيما لو حدثت تلك الأمور المسماة بالكبيرة والتي يقول عنها الفلاح : أمور تهتز لها السموات ، ونحن لا نجرى أمام الزمن ، فالقريتان كسائر قرى مصر ، والقوم يعيشون عام ١٩٦٨ : عام الأحداث الجارية الذكر » .

ليلة تحسب من ليالى الشتاء الطويلة السوداء الباردة ، وقد طال به الانتظار ، هو هنا منذ ولدته أمه ، والنخلات الثلاث منتصبات كعفاريت الجن ، يتخيل أن البرد داخله هو .

صوت المزمار والطبلة وصاجات الغوازي والفئران الهاربة ونقيق الضفدع المتصل وطلقات الرصاص المتقطع المفاجيء البعيد ، وذلك الهم الغامض الحاد كسيوف السلطان ، أن يكون قادراً على الفصل والتمييز بين كل صوت وآخر ، أن يبذل ملزماً ذلك الجهد الخارق فى التصنت ، الظلمة شديدة التماسك ، والسماء تبدو جوفاء ولها وجه مجنوم وقد خلت من قمر كما توارت نجومها المعتادة خلف السحب الخفيفة الداكنة .

حُمار بياض الحليب : قامته عالية ، ثم إن البارود تفسده الرطوبة : كان يجب أن يلف ساق البندقية بجلباب من القماش ، تاك ، وينتهى كل شيء .. يموت شبيب .. تاك .. لحظة .. يسقط الحمار الأبيض .. تاك ، ينتهى السؤال والجواب والقليل والقال والقادم والفائت والمتعة والفرح والألم والعذاب والأم والأب والشعور والانتظار .

البرد والظلمة والاضطراب المبهم — ربما يتحدد كل ذلك بالخوف .. ربما ، صوت المزمار والطبلة وصاجات الغوازي والفئران الهاربة — خائفة من ماذا ؟ — ونقيق الضفدع المتصل وانفجار الرصاص المفاجيء المنقطع البعيد والتصنت وساق البندقية البارد الصلب المظلم ، عرس حجازى ربما امتد حتى الصباح فهو ابن الحاج عبد الكريم : غنى .. محبوب ومجاملوه بالآلاف ..

شبيب يشرب . يشرب .. سكران .. تاك وينتهى كل شيء .. والحمار الأبيض
في الظلمة شديد الوضوح .. وبياض النهار قادم .. مع نبج الكلاب المبحوح
يأتى . مع صوت الديكة وانفجار الشمس .. وهو هنا .. منذ ولدته أمه .. فوقه
تنتصب عفاريت الجن .. حوله تماسك شديد قط وفئران خائفة .

صوتها كان مهاناً ، حافية ، بملابسها السوداء وجرح بعنقها أو على خدها
الأيمن وربما الأيسر وقد يكون فوق حاجب العين : الأيمن أو الأيسر ، فوق الجبهة
يرقد كوزغة .. كسحلية ، تحت ترهل الثديين يعلو تل البطن ، في الموقد كان
القدر يغلى : بكك .. بكك ، ارتعشت الظلال وهربت ونامت تحت حوائط
الفسحة الوسطى — حال أضواء مصباح الجاز ، كانت هناك قطرة تموء من
مكان ما : كانت تنادى قطعاً ذكراً ، ضمن هذا ، ودوى الأذان من جامع عبد الله
وهى تقول فحت : يموت .. والليلة يموت .. هو الى قتله .. قاتل أبوك عدوك
ليوم الدين .. شبيب اقتله . الليلة يا ولدى اقتله ، توأمان هما الحزن والأفعى .

الجواب معلق ، فارغ هناك مازال ، وهى تنتظره ، العجوز تبتسم ، يلم
تفاصيل وجهها البعيد — من مكانه ذاك تحت النخلات الضاربات بطولهن في
السماء العميقة والسوداء !! .. ذهنه أحمر متوقد كجمرة .

الرطوبة والعتمة والخفاش والراهب والوحش والنبى والروح يسكنون الكهف ،
الإنسان : سر الرب .. خنفسة ، أحيانا يشعر المخلوق أنه كهف مسكون ،
للأصوات رنين .. صدى .. صراخ ثكلى .. هناك في الجبانة ترقد القبور تحت
شمس الصيف .. تلال من التراب لها سطوة الوهج .. وتنتصب شجيرات التمر
حنة ترمى بالظلال الخفيفة وريح تسقط الزهر . الأرملة الأولى في المقدمة .. تتبعها
الشقيقتان ، ثلاث أرامل يلبسن الأسود وتحتن الظل وتذ مدقوق في عظام الموتى ،
يجمعن القطط والكلاب الضالة ، تحت شجرة التمر حنة تمسك كبراهن بيد
الرحى ، وتبدأ المراثية ، وتحت كفى الرحي تولول اللحوم والعظام المتكسرة .

في البيت يطفأ المصباح ، وتظل تصرخ في العتمة ، تكون عارية ، وفي
الصمت يدور الهمس : شبيب هناك ، وفي النهار عيونهم متوهجة كالشمس ..
كذيل فرس شبيب الذهبية ، وهو يدرك مقالة كل عين : اقتل شبيب .. قتل
أباك .. نام مع أمك ثم تزوج غيرها .. كانت أمك حلوة من أجلها قتل شبيب

أباك .. ثم تزوج من شابة حلوة ، أملك أيضاً تقول — اقتله ، وفي العرس : خمر
ولحم وغوازي وصاجات غوازي ورصاص متقطع مفاجيء وطبل وزمر وشبيب
سكران .. يضع الجنيه الذهب فوق الصرة تماماً .. تحت تكور البطن .. هناك ..
وفي العرس .

والنهار يأتي بالضوء وشمس حمراء تنفجر وتقف للأبد فوق سن الجبل تشعل
النار في الحجر . وحول البركة حشائش وماعز وماء ثقيل والباطن عفن ، ترمى
الحجر ، يصنع دائرة وتهب العفونة — فجأة ، تكبر الدائرة وتتسع وتخف العفونة
بالتدرج ، وترى السطح لامعاً تحت الشمس وتنكسر عيونك تحت قسوة الوهج ..

لم يكن يسمع شيئاً ولم يكن يرى سوى سطح أسود فظ ، شد بندقيته على
كتفه ، داس على الزناد بقسوة وانطلقت أربع رصاصات ، خيل له أنه الآن
يسمع الصدى ، وبكى بقوة ، فقط — يجب أن لا يعود إلى هذا الصمت .. !!

حج مبرور وذنب مغفور

الرجل القصير وصل ضُحى اليوم ، كان قادماً من المركز البعيد وقد اعتلى دراجة ماركة « فيليبس » لها جرس ، أعلى حاجبه الأيسر كان الجرح القديم مازال يرقد قريب الشبه بالبرص ومجمره تقريباً ، كان يلبس نفس الجاكتة الواسعة وكانت من الكاكي الأصفر — كذا نفس البنطلون الذى كان واسعاً أيضاً ومن نفس قماش الجاكتة وإن بدا لونه الأصفر أقل اصفراراً ، هذا بينما كان وجهه المستدير الجامد — ذو العينين المصويتين إلى بعيد — يفضح ابتهاجه الشديد فها قد وصل القرية ككل مرة فى موعده المحدد رغم عوائق الطريق : منحدر وعر .. جبانة النصارى .. منحنى مفاجئ .. قنطرة خشبية ضيقة قديمة أسفلها يجرى المصرف المائى .. أسراب البعوض المستفزة .. التراب المتحرك الناعم المخادع يفصل بين القرية والقرى الأخرى الكثيرة .. دورة كاملة حول القرى .. قرية .. قرية ثم الطريق الطويل المرصوف المريح الذى على جانبيه شجر الجازورينا الكبير العجوز الكثير الظل .

توقف أمام دار الحاج عبد الكريم محمد ، كان الرجل القصير يعرف ما يريد بالضبط ، ترجل ممسكاً الدراجة بيده اليسرى ، بينما قبض بيده اليمنى على الكتف الحديدية التى تتدلى من الحلقة الحديدية المثبتة هناك وسط البوابة الخشبية ، خبط الثلاث خبطات التقليدية المتقطعة وأطلق من دراجته جرساً طويلاً .

« خرجت الحاجة أسماء زوجة الحاج عبد الكريم محمد ، طرحتها البيضاء غطت على شعر رأسها الأبيض الطويل والتفت حول العنق الغليظ وسترت عرى اللحم الأبيض وخبأت تفاحة آدم . قال الرجل القصير : تلغراف من الحاج يا حاجة .. مبروك ، تناولت الحاجة التلغراف بيدها اليمنى الملفوفة بالطرحة البيضاء فقد كانت تخاف على ابن آدم من الحية . وأطلقت أمينة زوجة محمود سليم زغرودة فالحيرة الطيبة حق .. والحاج الغائب ذاك الذى أعطى زوجها محمود أربعة أفدنة من أجود أملاكه — يزرعها محمود ويقتسم المحصول بنهاية كل عام مع الحاجة ورثة الحاج الشرعية فى غيابه الطويل المتقطع ، كانت الحاجة أسماء قد أعطت للبشير نصف جنيه كامل . ونهرت أمينة مجموعة الأولاد الفضوليين وأفسحت الطريق أمام الرجل القصير؛ الذى امتطى دراجته وأطلق أجراساً فرحة وقصد الشرق البعيد كحمامة طارت صغيرة بحجم البيضة ظلت تتدحرج هناك فى المنحدر ثم غاب الخط الأسود . قال الولد للأولاد من حوله : يدخل المركز مع غروب الشمس .. له بيت من طابقين يلتصق بمبنى السينما . وطلب الأولاد من الولد أن يحكى لهم فيلم « رابحة » . وقالت الحاجة لنفسها : الحاج عبد الكريم موعود بالجنة وسيظل خالداً فيها أبداً .. لقد زار قبر المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام مرات ومرات ، وقالت الحاجة متحسرة : الرسول الكريم يحب الحاج أكثر مما يحبها .. دعا الحاج مراراً لزيارة قبر الطاهر ومدينته المنورة بوجهه المضيء كمثل ألف قمر مكتمل .. ودعاها مرتين فقط .. يعود الحاج بعد ثلاثة أيام بالتحديد ويقف ويزيح الطرحة عن حلاله ، وأرسلت الحاجة من فورها رسولاً يأتيها بحنفى الخطاط الرسام المبيض النقاش . »

أتى حنفى من فوره ببرميل كبير وفرشاة كبيرة وفرشاة صغيرة وعصا طويلة من خشب الزان وقراطيس ملفوفة اختفت داخلها كل الألوان الصفراء كانت أو الحمراء ، وأتى حنفى أيضاً بمجرد صغير ، وأقام البرميل داخل صحن الدار حيث توجد الطلمبة القادرة على ضخ الماء من جوف الأرض البعيد المنال . ملأ حنفى الجردل الصغير خمس مرات ليصب الماء بالبرميل الكبير ، ثم ألقى بكمية من الجير الحى داخل البرميل ظلت تفور وتبخر كالآدمى حين تصيبه الحمى التى تحشو جوفه باللهب والرمل الحامى والجمر المتقد . أقام حنفى السلم مسنداً لإياه على حائط الواجهة ، وصعد حاملاً الجردل المملوء بماء الجير ، ونظر للرسوم القديمة ، وبسرعة وبالفرشاة الكبيرة دهن الحائط وانتظر حتى تجف ، ظل يتأمل القطار ذا الثلاث عربات والماسورة القصيرة التى مازالت تنفخ الدخان الأسود ، كانت كل

الرسوم واضحة ما تزال تحت طبقة الجير التي لم يجف ، ضحك حنفى لأن حرف « الرء » كان بادىء العيب فى « يا داخل هذا الدار صلى على النبى المختار » المكتوبة بخط كوفى جميل ، بهمة ملأ حنفى الجردل وصعد السلم وبالفرشاة الكبيرة غطى الحائط بطبقة أخرى من الجير ، كانت الحاجة تطالبه من أسفل بأن يعيد دهن الحائط بطبقة أخرى من الجير ، كانت الحاجة تطالبه من أسفل بأن يعيد دهن الحائط للمرة الثالثة ، أطل حنفى من فوق وقال للحاجة : حاضر .. من عيني .. لأجل خاطر الحاج ، وتمنى حنفى للحاج سلامة العودة ، ونفذ ما أمرته به الحاجة فوراً واختفت الرسوم والخطوط القديمة نهائياً ، وصار الحائط شديد البياض يضوى وقد انعكس عليه شعاع شمس الأصيل مما أجبر حنفى أن يغلق جفنيه ويفتحهما بشكل مستمر وبحركة سريعة ، كتب حنفى فوق بوابة المدخل بخط كوفى جميل « يا داخل هذا الدار صلى على النبى المختار » ، أطل لعينه الفنانة الخبيرة حرف الرء جميلاً كبقية الحروف الجميلة . ورسم حنفى جملاً ووضع فوقه هودجاً غطاه بثياب متعددة زاهية الألوان ، وتذكر ما يقال عن الجمل الصبور ذلك الذى لا ينسى الإساءة ويغدر حتى بصاحبه من يقدم له الطعام والماء ، بسرعة رسم حنفى خزاماً وكمم فم الجمل ، ورسم حبلاً تدلى من الخزام ، وقال لنفسه : هذا الجمل هو عين الجمل الذى رسمته فى العام الفائت ، ولكنه استمر يرسم الرجل الذى مد يده وأمسك بالحبل والذى يقود الجمل قصيراً متناهى الضلالة ، وظل حنفى حائراً يفكر : « أيرسم الرجل بحجم الجمل ثلاث مرات أم يضع فى يده بدل العصا سيفاً قاطعاً !! » .

الجد حسن

تلك عادة الجد حسن ، متى حل شهر الصوم الكريم ، وحتى تنفرط ثلاثون يوماً مجيدة ، يكون قد صلى العصر مع الجماعة بمسجد جده المرحوم عبد الله ، وعاد ، وقعد على المصطبة المشيدة من الأحجار الأثرية القديمة والتي تقع على يسار بوابة المدخل .

منذ مايربو على الثمانين عاماً بنيت تلك المصطبة وقعد عليها الجد حسن وذهب الرجال وعادوا بالأحجار المتساقطة من سور المعبد القديم ، هكذا شيدت الدار في أقل من أسبوع : صورة مصغرة من بيت العائلة الكبير وإن كانت بغير سور وديوان ومنظرة وجامع إلا أن بها اسطبلًا للخيل وطاحونة ومعصرة خاصتين بأسرة الجد حسن كما هما هناك خاصتين بعائلة الجد عبد الله وكذا يجر حجر كل منهما ثوران شديدان، وتزوج الجد حسن بنشوى ابنة الحاج سيد وأنجب منها ثلاثة من البنين وأربعاً من البنات. وماتت وتزوج الجد حسن من حفصة ابنة يوسف عبد الكريم ولم تحمل بطنها غير البنات فتزوج من زنوبة أختها الصغرى وكانت أمّاً لأولاده عبد المجيد وعبد الباسط وعبد الماجد والبنيتين أمينة وفاطمة .

عن يمين الجد حسن بوابة الدار مغلقة ، زعق : يابنت ، صرّت البوابة المصنوعة من خشب الجميز بصوت خافت ثقيل وتدحرج الحجر الكبير على التراب وأصدر صوتاً مكتوماً . واحدة من بنات أولاد الجد حسن الصبية الستة هى التى فعلت ذلك وهامى البوابة الآن نصف مفتوحة محجوزة بالحجر الكبير والبنات اليوم من تكون ؟ — يسائل الجد حسن ويزعق : يابنت . أتت نوال ابنة الأوسط عبد الحميد لاهثة رأسها الصغير مائل ورقبتها النحيلة منحنية تحت مقطف صغير مملوء بثمار البلح ، أنزلت المقطف من على رأسها إلى كتفها وأسندته على ركبتيها وأنزلته على المصطبة ودحرجته ليبقى بجوار الجد فى متناول يمينه . ومضت جارية وعادت نوال بمقطف آخر به خبز ووضعته بجوار مقطف الثمر ، وظلت واقفة لا تنبس ، لم يكلمها الجد ، فقط ابتسم فهو يعلم أنها سعيدة بما فعلت وتذكر أنه لم يسألها عمن فتح الباب هذه المرة فسألها ، جرت نوال لداخل الدار وعادت وقالت : أنصاف يا جدى ، وسأل الجد جاداً ومتجهماً ، وأين بقية البنات ؟ ردت نوال : بالداخل يا جدى . وسأل الجد : والصبيان ؟ ، قالت نوال : كلهم بالدار يا جدى .. كلهم بالداخل يا جدى .

* * *

يرى الجد حسن الدور بامتداد الدرب على الجانبين .. ينحنى الدرب هناك بعد بيت أحمد الراوى ، تبقى ساكنة تلك الجثة السوداء الكبيرة الملقاة عند المنحنى حيث ينتهى الدرب : أشبه بجمل أسود كبير وقد برك .

يمر شيوخ الرجال ، يترجلون إن كانوا راكبين ، قصده بالسلام ، رد سلام الله عليهم وأضاف بابتهاج : رمضان كريم . وسمع ردهم : كريم يابن الكرام . وجوه الرجال تتغير وسحناتهم تتبدل وردهم واحد لا يتغير : كريم يا بن الكرام ، يزيد ابتهاج الجد حسن فيداعب الشبان الذين يأتون ، يقبلون يده فينتفض جسده ويستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم ، ويعود لمداعبتهم منادياً كلا منهم باسم أمه ، قال لصالح السنوسى : فاطر ولا صايم يابن حسنية ؟ رد صالح : الحمد لله يا جدى ، وكان الجد يعلم أنه صادق ، أما شحات الفكرى فقد سحب الجد حسن يده من بين يديه ومن تحت فمه مستغفراً وصرخ : انت فاطر وخاسر دينك ، ورد شحات وشرف محمد صايم صايم يا جدى .. وصرخ الجد مستكراً :

يا ابن الكلب لا تحلف بشرف النبي .. انت لا تعرف مقداره : احلف بشرف
وديدة بنت الساكت أمك .. غور .. الكفر على وشك ، والله يا جدى صايم
هذا العام : قال شحات وهو يبتسم فهو يعرف أن الجد حسن لن يكف عن
مداعبته ومخماً ما سيقوله الجد بعد ذلك : ستقول لا تحلف بالله .. ولكن بالله
العظيم صايم ، يسأل الجد بلهجة مرحة : آمال ليه وشك أسود ؟ قال شحات :
من الغيظ والشمس يا جدى .. لكن والله العظيم صايم ، بنصف اقتناع وبيأس
قال الجد حسن : طيب .. روح .. انت حلفت بالله .. ربنا يقدر يرميك بمصيبة
فيما لو كنت تكذب .. من خلق الكون الكبير بما فيه من جان وإنس وكل ما
تشوفه العين من جبال وشجر قادر على ضرك فيما لو كذبت .. اسم الله لا
يذكر إلا بالصدق يا شحات .. قال الشحات : ونعم بالله يا جدى — ومضى ،
وحين مر منصور ابن الصادق سأل الجد إن كان صائماً فرد بالإيجاب وسأله إن
كان يصلى فقال : لا ، ونصحه الجد حسن بالصلاة وشتمه وقذف بكلماته
الغاضبة خلف منصور : يا ابن الحمار .. يكون معلوماً لديك أن حسابه عسير
لا يحتمله بغل مثلك ولا عشرة من الثيران مثلك يحتملونه .

ومتى تمر النسوة فعليهم أن يحكمن الأردية حول أجسادهن الهالكة وأن يرتبكن
وسيلمح الجد حسن ارتباك الخطو وتعثر خطواته على التراب المتطاير . أما
ذلك الكلب الضال المجهول الصاحب ففي هذا الوقت من كل يوم يمر على الجد
حسن ويرفع ساقه الخلفية ويسندها على حائط البيت المواجه ويسلح ثم يمضى
بعد أن يصرخ فيه الجد : حشش امش .. يا نحس .. يا ملعون ..

* * *

على الحصيرتين المفروشتين أمام المصطبة فوق التراب المرشوش مكان لضيوف
الله في الأرض ، السائل منهم والمحروم ، من مقطف الخبز يعطى الجد حسن يمينه ،
ومن مقطف البلح يغرف بيده المرتعشة أكثر مما تسع الكف ، يقول الجد حسن :
من خير هو من الله ومن أجل رضاه .. بهذا حفظ الجدود من رحلوا لدار الحق
المال والجاه الذى ورثت ففازوا بنعيم الدنيا وجنة الآخرة .. أنا بلورى يجب أن
أحس إرث الأباء بالعطاء لوجه الله وعلى أبنائى أن يعلموا أن الفرع لا يدنو
بالطيب إلا بإذن الله وللمختارين القلائل من عباده أولئك ، عامرى القلوب .

الوقت قد فات وقد دنا الغروب ، الجمل الأسود قام بجثته الكبيرة ومشى بطيئاً باتجاه الجد حسن ، اختفت البيوت بالتدرج ، البيوت البعيدة أولاً ، ثم تلك القريبة بدأت تختفي ، وصار الجمل بمواجهة الجد كبيراً وأسود ، أغمض الجد عينيه (الكون فسيح لا حدود له ، قاتم الزرقة ، والصحراوات واسعة لا تحد ، والرمال صفراء متوهجة ، انفجر من جوفها تل وتل وتل ، وسلسلة التلال لونها قان بلون الشفق ، كل شيء الآن ببيكاره الخلق الأولى ، وتلمح عين المؤمن النقطة السوداء ، تبين صغيرة تكبر كلما اقتربت للرأى) . وجف قلب الجد حسن ورجف جسده الفانى وحدث نفسه : كم هو قليل ذلك الإنسان فى ملكوت الله ، وسأل نفسه من يكون الضيف ؟ ذلك الضارب فى الأرض من يكون ؟ رسول الله الذى يبدو فى البعيد نقطة سوداء من يكون ؟ أهو الخضر عليه السلام معلم موسى ؟ أم هو الغرنى !! أكون ذلك الجشع اللئيم ؟

* * *

أصوات الأولاد تأتى بضجيج واهن ، هم هناك عند دكان محمد بن مكيّة ، وهناك شجرة توت مات أحمد المحروق زارعها من عشر سنوات وهى لا زالت حية ، وهرج الأولاد يعنى أن مدفع الإفطار قد انطلق من راديو الحاج محمد أكبر لإخوة الجد حسن حسب توقيت القاهرة ، حل الإفطار لمن يسكنون فى رحى السيدة والحسين ، ومتى يؤذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله يحل الإفطار لأهل الكرنك القديم والجديد على السواء ، يحضر رشاد ابن الجد كامل شقيق الجد حسن ، يأتى الولد طائراً كحمامة : المغرب أذن يا جدى ، ويمد الجد حسن يده فيمسكها الصغير بيده الصغيرة ويدخلان الدار .

* * *

باحة الدار الواسعة فرشت بالحصر ، طبالى الخشب قائمة على سيقانها الأربع وليس بينها فواصل كبيرة ، والصوانى النحاسية فوق الطبالى تحمل أطباق الخضار واللحم والكنافة وسائر حلوى رمضان ، الكلوب معلق فوق فتحة الباب من الداخل يسقط مخروطاً من الضوء على جماعة الجالسين ويرمى بالظلال كل جوانب المكان ويجعل وقت الغروب أقرب لوقت الظهيرة .

ها أنت يا جد حسن وسط الأبناء وزوجات البنات وأبناء الأبناء عزيزاً مبعجلاً
فلتحمده الله عدد حبات مسبحتك اليسر المطعمة بالفضة ، الكل ينتظر يدك
التي ستمتد مشمرة عن كمالك وتتناول كوبك وتقول بسم الله الرحمن الرحيم ،
وتشرب ماء البلح المنقوع ، ثم تمد يدك للطعام وتمتد بعدك الأيدي ، وتسمع لمضغ
الطعام وبلعه أصواتاً عديدة ، فجأة يسقط الظل على الأطباق ، ويخفى الظل كل
لذائذ النفس الفارغة ، لن تفكر كثيراً يا جد حسن فأنت تحفظ عن ظهر قلب ما
ستقول وأنت تعرف أيضاً من يكون القادم .

(: تفضل يا سيدنا الخضر .. هذا بيتك وهذا خير الله .. أنا عبد الله الجد
حسن .. يا مولاي الخضر تفضل واجلس) الوسواس تأتى ويقشعر البدن يا جد
حسن : ربما كان ضيفك هو المغرور يا جد حسن ؟ ربما كان هو ذلك الماكر ألقى
وعليك أن تسام .

وقد فرغ الجد حسن من تناول الإفطار ، يذهب ليقضى حاجته بالمرحاض
الواقع تحت فجوة السلم الموصل للطابق الثانى من الدار ، تكون بنت من بنات
أولاده قد سبقته وملأت الإبريق النحاس الأبيض وتركته أمام باب المرحاض ليتناوله
ويدخل ويخرج متخلصاً من البول والغائط، وتلقاه واحدة من البنات ويدها إبريق
النحاس الأحمر وعلى الأرض طست من نحاس أبيض ، يتوضأ الجد حسن وعندما
يصل لغسل قدميه يتناول الإبريق ويصب الماء على القدمين ويصرف البنت بهمهمة
وتتولى أى بنت فرش سجادة من سجاجيد الصلاة الكثيرة بالبيت والكل مهدى
للجد حسن ممن زاروا الحجاز الشريفة ، جهة الشرق باتجاه بوابة المدخل المفتوحة
يصلى الجد حسن طارداً كل وسواس طيب أو خبيث ، وحين يفرغ من صلاته
يقرأ الورد ويظل بعد ذلك جالساً على السجادة القطيفة اللينة ، حتى تأتى إحدى
البنات بكوب الشاي فيشربه وهنا يترك نفسه لفكرة ثابتة منها ينطلق من خياله .

(كلاهما يأتى فى ثوب خرق .. متكرراً فى شخص متسول .. بيده عصا وعلى
كتفه خرج .. ولا يفرق الرأى بينهما لو اجتمعا ، الخضر جواب أفاق ولا تراه
سوى عين المؤمن .. حين يأتيك فى شكل متسول وتصده تبعد نعمة الله التي

أنعمها عليك ، وإن أكرمته أكرمك الله وذلك الخضر معلم موسى على خبايا الأرض بنت الله البكر فتعيش في النعيم أبداً ، وكذلك المغربي الماكر يعرف صورة الخضر فيتشبه به ، ثم يغافلك ويجنح للدار، وهو الوحيد الذي يعرف مكان الكنز الذي ربما دفنه الأجداد أصحاب الحيل الكثيرة. يغافلك الأفاق ويقتل حارس الكنز الذي هو من جان ويختفي المغربي فلا تعثر له على أثر .. إذن يا جد حسن عليك أن تكون حذراً من ضيفك .. أكرمه حقاً .. ولكن لترصد حركته رصداً جيداً .. سيأتي وتقول أهلاً وتقدم ما عندك ، سيقوم الضيف ويده قصبة كبيرة .. يطوف بها أركان الدار وأنت تلازمه كظله ، يرفع القصبة ويخفضها ويعد .. واحد .. خمسة .. سبعة .. ثم يضرب القصبة في الأرض فتنشق الأرض بإذن ربها ويطل الذهب وعقود المرجان والفيروز وكل خبايا الأرض ذات السر .. أمسك بتلابيب ضيفك وانظر في عينيه .. عينا الخضر تلمعان حقاً كجوهريتين فهو رسول .. أما عينا المغربي فهما ماكرتان حالماً تشوفان المال .. إن كان الخضر يا جد حسن قل له : معذرة يا مولاي ، وقبل كفيه وامطرهما بدموع الندم ، وإن كان المغربي فساومه .. إن قال النصف قل الربع ، وإن قال الربع قل الثمن .. وهكذا يا جد حسن فأنت رجل عرك الدنيا ويجب ألا يفوز أحد منك بغير القليل .

* * *

ها قد حان الوقت لصلاة العشاء. على الجد حسن أن يتوضأ من جديد : لعن الله المعدة فما تحمل غير الخبيث . الجد قال : يا بنت — بصوت آمر خافت وقور ، وقال بنفس الإيقاع : الإبريق يابنت — رغم أنه كان يرى ابنة ابنه تصب الماء في الإبريق .

انفضت صلاة العشاء ومنتعة صلاة التراويح ، الشيخ كامل أمام مسجد الجد عبد الله جاوز الثمانين ولكنه شاب في قيامه وعوده : ما أثقل في صلاته قط ، كحلم قصير فارقك يا جد حسن وها أنت تطلب النعاس وكل ليلة تطاردك رؤيا . الظهيرة (ثلاث أرامل ثلاث شقيقات من بنات الجن، أرديتهن السوداء غطت منهن الرأس والقدم .. قاعدات هناك تحت أشجار التمر حنة وسط تلال المقابر .. الرحي الكبير تعمل ولا تتوقف قط، الكلاب الضالة تعوى والققط الضالة تموء

والدم يختلط باللحم، وشجر التمر حنة يسقط الزهر تحت ضربات الريح الخفيفة،
وعيون الجنيات تلمع مثل الجمر المتقد .

ماكينة الطحين تدق (تك .. تك) ولا تتوقف ، هب الجد حسن : الموت
يأتى متكرراً فى ثوب النوم الطويل .. يخالس الفرد ويرميه بثقل لا يطاق .. لا العين
ترى ولا الأذن تسمع ولا اللسان يذوق .. ولا شىء سوى ظلام شديد ، ظلام بلا
حدود .

العالية

كان الجد حسن قد فرغ من تناول طعام الغداء — هو وضيفه العالى المقام ،
وكان الغداء دسماً : لحم ضأن .. وفتة المرق بالخبز والأرز .
الضيف شرد بفكره عن المكان ، والجد حسن توقف عن كلمات الترحيب ،
وتلك لحظة الكل يعرفها .. وهى دائماً تعقب كل أكلة دسمة .. يحسن فيها
السكوت .. وتصبح القهوة مرغوبة بإلحاح وكذا النوم .
شخط الجد حسن يستحث جاد المولى الأعرج — القاعد غير بعيد منهما
أمام كوم من الرماد مدفوس فيه كنكتان من النحاس الاحمر . تفل جاد المولى
الأعرج كرة من دخان المضغ وزعق ..
— « يا ولد يا أقرع يالكع .. هات الصينية وفنجانين » .

من حجرة لا باب لها — ملحقه بأسطبل الخيول لكنها منفصلة عنه ،
جاء الولد بسطاوى القصير القامة يخب فى جلبابه الطويل الذى يسف
التراب وقد أخفى قرعته بطاقية على شكل قمع — حاملاً صينية من
النحاس الابيض عليها فنجانان بكل فنجان نقش لثلاثة عناقيد من العنب .
الأسود الناضج .. من كل عنقود تتدلى ثلاث حبات .

* * *

قال الجد حسن لضيفه بعد أن شرب فنجان قهوته الثانى :

— « قم ونم »

قال بحياء ضيف على المقام :

— « يا رجل لم أشبع منك بعد .. دعنا معاً بعض الوقت » .

قال الجد حسن العالم بمقام ضيفه والمقدر لحياء الرجل والعارف بالأصول :

— « لا تنم .. قم واسترح يا رجل .. الوقت بيننا .. وعلاقتنا علاقة جد

قديم بمجد قديم .. نتمنى من الله أن تدوم بين الأبناء »

لم الضيف منديله الذى يتمخط فيه وحق النشوق ودسهما فى جيب

قفطانه الناصع البياض الذى يلمع بشدة عند الشيات ، وقام بتناقل وكأنه

لا يود أن يقوم . زعق الجد حسن . وجاء الأعرج يطلع . وأدركت

العطسة الضيف فعطس . وقال الجد حسن يخاطب الأعرج :

— « دل الضيف .. خذه لمكانه حتى يستريح .. وأرسل رسولاً لمحمدانى

ليطلع النخلة العالية ويجنى لنا تمراً »

تبسم الضيف وقال :

— « أنت يا بن الأكابر لا تعرف النسيان أبداً .. من تمر تلك النخلة المسماة

بالعالية أكل جدودنا وجدودك ووالدك وأبى عليهم رحمة الله .. ومنها بإذن

الله نأكل اليوم أنا وأنت .. إنه العهد قائم بين الرجال » .

تبسم الجد حسن بسمة أوسع من بسمة ضيفه — ورد :

— « نتمنى من الله أن تدوم النعمة وأن يدوم بيننا الفعل الطيب ويتصل

الود » .

أشار الأعرج لعصاه المعوجة وقال بلهجة التهديد :

— « ما هذه يا أقرع ؟ » .

أنكمش الأقرع وتهته :

— « تلك عصا .. تلك عصاك » .

— « وما هذه ؟ »

وأشار الأعرج لعلبة السكر .

تبسم الأقرع فى بلاهة — وتهته :

— « حق . حق سكر »

وقال الأعرج فى لهجة الأمر :

— « أسمع يا ولد يا أقرع .. أذهب كالريح .. وقل لمحمدانى المجذوم يحضر توأ

ليطلع النخلة العالية .. سأثقل على الأرض تفتلة .. لو جفت تفلتي قبل أن
تكون هنا وأمامي أنت ومحمداني المجذوم .. سأجعل المعوجة تريك نجوم
الظهر .. أسحبه من يده يا ولد يا أقرع .

* * *

كالجن أختفى الأقرع . وتبسم الأعرج :

« هكذا كان النبي الملك سليمان » .

وغز عصاه المعوجة بكوم الرماد ..

قال الأقرع مكلماً نفسه :

« شمس الصيف كبيرة .. والتراب الحامي فوق الأرض يوسع القدم

الخافية .. والسماء بعيدة .. سأسحب المجذوم من يده .. أنا رسول

الأعرج .. أنا رسول الجد حسن .. والأعرج والمجذوم وأنا وكلنا خدام الجد

حسن .. السكر في الفم يجري بلعاب حلو .. والعصا على الظهر

موجعة » .

* * *

دفع الولد بسطاوى الباب الخشبي الموارب بيديه يبغى فتحة ينفذ منها ، ولو لم

يكن هناك حجر كبير وراء الباب لما سمع العمياء تجعر :

« من .. من يدفع الباب ؟ » .

اجاب البسطاوى :

« أنا » .

جعرت العمياء :

« لا يقول أنا الا الشيطان »

قال البسطاوى مرتبكاً :

« أنا البسطاوى .. أنا البسطاوى .. أريد محمداني ليطلع النخلة

العالية » ..

جعرت العمياء :

- « محمدانى غير موجود » .
- سألها محمدانى الذى صبحا على جعيها وكان نائماً فوق حصيرة على التراب :
- « تكلمين من يا امرأة ؟ »
- واصلت العمياء جعيها :
- « يقول أنه البسطاوى »
- صرخ محمدانى :
- « البسطاوى خادم الجد حسن يا امرأة .. البسطاوى الأقرع » .
- قالت العمياء تبغى الخلاص :
- قال انه البسطاوى .. لم يقل أنه الأقرع .. لم يقل يا رجل »
- هب محمدانى وزحزح الحجر عن الباب ، وهربول خارجاً ، ونادى البسطاوى الذى كاد يختفى هناك عند انعراجة الدرب :
- « يا بسطاوى .. يا بسطاوى .. كنت نائماً .. كنت نائماً .. كنت نائماً يا ولدى .. انتظر يا ولدى » .

- قال المجذوم للأقرع وهو يربت على كتفه :
- « ما كانت لتعرفك وهى ضريبة »
- ودخل البيت وأخذ الحبل الطويل المتين الذى يحزم به وسط النخلة ووسطه .
- قالت الضريبة :
- « يا محمدانى لا تطلع العالية .. اليوم يوم الريح القديمة التى عرفها الجدود .. ستكون هذه المرة كالخيل لما تجمع .. ستكون لها حوافر وأعراف من نار .. ستهدم بيتين وتحرق بيتين وتأخذ رجلاً .. و .. »
- قاطعها محمدانى :
- « يا امرأة لا يقدر على طلوع العالية غيرى .. وأبن الأكابر حسن لا يرسل رسوله لى كى اطلع العالية الا اذا زاره ضيف على المقام »
- جعرت العمياء :
- « أقول .. العالية هذه المرة لن تعرفك .. هذه المرة لن تعرفك العالية يا محمدانى » .

تقرفص الاقرع تحت العالية الشاخنة القامة ، يمص قالب سكر ويتسم في وجه
محمدانى ببلاهة . بينما وقف محمدانى ينظر من أسفل العالية المنتصبة كبنات
الجن :

« تلك هى المرة الأولى التى يرى فيها العالية شديدة العلو ملساء الساق » .

شعر بنفضة عرق الخوف عند الرجال — الكامن تحت الصدغ . قال :

— لن أخاف العالية .. تلك المرأة هى التى زرعت فى نفسى الخوف من
العالية .. لن تخيفنى امرأة .. لقد خلقت المنجمة الخوف ليعرف القلب
الرجفة .. وها أنا أرى الريح أخف من يد العاشق تعبت بجريد العالية فى
حنو .. ما رجمت العمياء بالغيب مرة الا وصدقت لكن يكذب
المنجمون » .

وشد محمدانى الحبل على جذعه وشده على جذع العالية ، وثناه وثلثه ،
وحدث نفسه :

— « لن تجعلنى الضريبة التى أعرفها وتعرفنى » .

* * *

« أنها الريح الهوجاء فكت قيودها — قادمة من محبسها البعيد ، ياساق ..
يا ساقى .. كوفى كاهن البشر »

— هكذا صرخت المعمرة التى خبرت ريح الأزمنة ، ومالت ، ولت جريدها
المجدول تحمى ثمرها الطيب :

« لن أواجه مواجهة الثور .. ولن أستسلم كبقرة .. مكر الثعالب يغلب
القوى الباطش » .

وصرخت :

« ويا جذورى .. أنت يا جذورى .. كوفى فى الأرض أوتادا .. كوفى
فى الأرض أوتاداً .. وتثبتى للريح .. تثبتى للريح » ..

إيقاعات بطيئة ومنتظمة أيضاً

كور الطفل جسمه القليل ونفذ من فتحة بحائط الفسحة الوسطى ، وصل للفضاء المسور المتصل بالدار من جانبه الشرقى .

(من وقت : هبت ريح الشمال المجنونة ، حملت عيدان السمسّم والقطن من فوق أسطح البيوت ، ولمت الأوراق الجافة من فروع أشجار التوت والأثل واللبخ ، والآن — تحت الحوائط — رقدت الأوراق والعيدان الجافة .. وحمّار ترائى اللون ومعزتان سوداوان ، وهناك فى الطرف البعيد كانت صومعة صغيرة هى بيت الدجاج) .

* * *

كان الطفل مطمئناً فليس ثمة من يرقبه ، قعد على أربع ، أدخل يده الصغيرة من الكوة الضيقة .

(داخل الصومعة كانت اليد الصغيرة العمياء تتخبط فى العتمة ، وكان جسم ضئيل يراوغ اليد ، وكانت الصيحات متتالية مخنوقة ، ثم تتالى ضرب يائس من جناحين فى جسم حى) .

فجأة انطلقت من الكوة دجاجة بيضاء ، انفلتت من يد الطفل بقفزة ، عبرت مسرعة أرض الفضاء المسور ، وجنحت للجانب الشرق ، نطت لفوق بثلاث ضربات من جناحيها الأبيضين لجانبي جسمها القليل ، وقفزت من فتحة الحائط للفسحة الوسطى الواسعة .

(هناك حيث ترقد جرار الماء المملوءة على السطح الترابي ، ويقف زير على حامل خشبي له ثلاث أرجل : كان سطح الزير الخارجى أخضر .. بلون العشب النامي على حواف الترع) .

كانت الدجاجة البيضاء قد فردت جناحيها الأبيضين ، كانت تنقل قدميها بسرعة وارتباك من الأرض للفضاء .. من الأرض للفضاء .. وتكشخ خلفها التراب ، وفجأة اختفت .

(نموذج لطائرة بيضاء تجرى على أرض المطار الصغير ، وخلفها شريط أبيض من الدخان ، فجأة — طارت الطائرة لأرض مجهولة) .

في الساحة الوسيعة كانت أقراص العجين على ألواح الخشب تنتظر الشمس المحتجة خلف ضباب اليوم الشتوى ، وكانت الأم تنظر لابنتيها ولأقراص العجين .

(منذ لحظة كان التراب نائماً على سطح الفسحة الوسطى بفعل الماء الذى رشته صغرى البنات ، والآن : ترقد خمس حفنات من التراب على أقراص العجين : حفنها كف طفل من كمية التراب الراقدة على سطح الفسحة الوسطى) .

أمسكت الأم بالولد الصغير ، والت الضرب ببطن يدها على عجيذته ، كانت غاضبة .

(مازالت القطة — التى قوست ظهرها ونطت فوق صندوق خشبي بلا غطاء

حين جرت الدجاجة البيضاء . مقوسة الظهر .. نافرة .. متحفزة لعدو قادم ..
عينها تيرقان ولونها شديد السواد شديد اللمعان ، مازالت القطعة تقف على حافة
الصندوق) .

كان الطفل مستمراً في البكاء ، كور وجهه ونفخ أنفه فتدلى خيط من
المخاط ، قالت الأم : وسخ ، رد الطفل مكشراً وهو يبكي لازال : سأذبجها ،
قالت الأم بلهجة يقينية لم تخف الطفل : سأذبحك أنت ، قبض الولد على كم
قميصه بيده وله بين راحته الصغيرة ومسح المخاط عن أنفه .

(على الحبل المعقود والمدقوق بمسمارين على الحائط الشرقى والحائط الغربى تدلى
قميص خلعه الطفل في الصباح ، على الكمين وضحت آثار المخاط الجاف بلون
الطين) .

نظرت الأم لعيونه السوداء اللامعة (البئر سوداء وجوفاء وعميقة ومملوءة بالأسرار
والرعب) والولد يتحرك تاركاً الساحة وقد عاد للبكاء من جديد — قال : يارب
أستريح منك ، قالت الأم : لا تذهب هناك (نطت القطعة من فوق الصندوق على
أرض الفسحة الوسطى ، فأرقها الوهم وخجلت من إحساسها بالخطر ، ومن
فتحة في الصندوق الخشبي أدخلت رأسها : كان ينتظرها القطان الأسودان
الصغيران وحفيدتها القطرة الرمادية ، نامت بجسمها الطرى وتقلبت على جنبها
الأيمن .. هزت أثداءها وقدمتها لصغارها كي يمتصوها) .

أمام الدار كان يرقد كلب أسود ، التقط الطفل حجراً كبيراً وهو مازال يبكي
وضرب الكلب ، هب الكلب ونبح ، كف الطفل عن البكاء ، نظر للفضاء
الفسيح أمام الدار (فروع شجرة النبق القريبة بدت كضبابة معلقة بالجزع :
هكذا بدت مع ضوء النهار القليل ، والدجاجة البيضاء تحت الجذع بدت صغيرة
جداً : تروح وتجيء في حيرة وهي تبحث لازالت عن مكان تجدد فيه الأمان
وتبيض ، ويحصل هو على البيضة ، يسلقها ويأكلها بمفرده ، وقد يذهب للطاحون
ويقايض على البيضة بثلاث قطع من القصب .

قامت صغرى البنات برش الساحة بالماء ليرقد التراب من جديد ، كانت تلبس ثوباً من الكستور به زهور كبيرة حمراء وصفراء ، وأشعلت البنت الكبرى لمبة الجاز وعلقتها في كوة بالجدار الشرق .

اشتدت كثافة الظلام حيث توارت النجوم خلف الضباب الأسود شديد التماسك ، وعم سكون شرس (احتفظت الضفادع بحقها في التمرد فظلت تنق نقيقاً متصلاً ، وكذا الكلاب كانت تنبح نباحاً متقطعاً ، أما القطط الأناث فظلت تنادى ذكورها بحق التناسل) .

اليوت والدروب والنخيل والشجر تماسك في شكل كتلة سوداء متفحمة .

بالغرفة البحرية ظل ذراع الأم على صدر الصغير وكفها على موضع قلبه تماماً ، وبجوارهما رقدت البنتان ، والصلور ترتفع وتنخفض في حركة منتظمة غير متقابلة ، ضوء الفانوس يغمز مع تيار الهواء الرطب الذى ينفذ من كوة وحيدة مسدودة بحائط الغرفة ، على السرير المقابل كح المسن رب الدار وبصق وتناول من تحته قربة من جلد الأرنب مملوءة بالماء الدافئ وشرب جرعتين ثم لمَّ على جسمه حزام صوفى من وبر الخراف ونام وظل يشخر .

كان الموقد قد خبت ناره ، وكان الدخان كثيفاً هناك على السقف المدعم بجنوع النخيل ، والهواء الذى ينفذ من كوة الحائط اشتدت رطوبته ، والكوة كانت مسدودة بغلاف نتيجة حائط ، على النتيجة كتابة وصور لأشخاص في زى عسكرى ، وتهنئة مقدمة من مهدي النتيجة صاحب مصانع الحلوى للأمة المصرية بهبة الجيش المباركة .

(كان الجو يميل إلى برودة الصباح باطراد ، فوق مئذنة الجامع الكبير ظل شخص يرقب الشبورة التى صنعت نصف قوس وغطت البيوت والتقت مع استواء الأفق المغطى بالغيوم ، كان ينفخ جوفه ويفتح فمه ليخرج البخار الأبيض في حلقات وقد تهيأ لآذان الفجر) .

الوشم

كان جابر يعشق بنت عمه فاطمة ، ولم يكن يملك جملاً يقدمه مهرأ لعمه
عبد الرسول ليتزوج من بنته فاطمة .

كانت فاطمة جميلة ، خالية القلب ، لا نخيفة ولا سميئة ، لا طويلة ولا
قصيرة ، علاوة على أنها تدهن شعرها الطويل بزيت القرنفل الطيب الرائحة .

وكان جابر قد سمع أن فاطمة قالت عنه :

« اليتيم صلب عوده كالنخلة بجنز الذرة ولين الماعز » .
فرد جابر بزهو وقال :

« تلك بشارة خير والمثل يقول بين القلب والقلب رسول »

كانت البنت فاطمة صاحبة تفانين في تزويق نفسها ، فالكحل في عيون حريم
وبنات العشيرة أسود والكحل في عيني فاطمة أخضر . والبنت فاطمة تلعب
بشعرها لعب الحواة المهرة ، فمرة ترميه ضفيريّين طويلتين سوداوين خلف ظهرها ،

ومرة تتركه يتدلى قُصّة سوداء فوق الجبهة تشبك فيها خرزة زرقاء ، وأحياناً تطلقه
بحراً هائجاً أسود ، وأحياناً تضفره ضفائر كثيرة لتتشبه بالملائكة .

يا لها من ماهرة ، بالخيط والإبرة تفصل أثوابها المرسومة لترقد فوق كل ثدى
وردة كبيرة أو يعشش طائر مغرد ، والثوب لا يضيق ولا يتسع .

لما رأى جابر البنت فاطمة تسعى للماء عند البئر مع البنات ، قال :
« سأعاونها في رفع الجرة » .

ومنعه الخجل فالكل يعرف أنه يحب فاطمة — ولكنه لا يملك جمالاً يقدمه
مهرأً لعمه عبد الرسول ليتزوج من فاطمة . اكتفى جابر بالنظر للبنت فاطمة
وهي تخطر : كانت حافية القدمين ولكن بعنق حمامة .

فقد جابر صبره ، هو الذى مات والده وهو صغير ، فتزوجت أمه برجل من
عشيرة أخرى فأنكرتها عشيرة والده ، ليعرف جابر العمل المهلك القليل القيمة
مع أعمامه فى العشيرة منذ طفولته — إن كان ثمة طفولة فى حياته .

فقد جابر صبره ، وقرر أن لا يعمل مع أى فرد من أفراد العشيرة ما دام لن
يحصل على جمل يقدمه مهرأً لفاطمة .

وقد حاول أحد العقلاء إقناعه بالتخلي عن قراره فالصبر جميل وذات يوم
سيحصل على جمل يقدمه مهرأً لعمه عبد الرسول ليتزوج من بنته فاطمة .
فسأله جابر وبلغ ريقه المر :

— « بعد عام .. أم سبعة أعوام .. أم حتى ينقضى العمر »
أجاب العاقل :

— « لا تتعجل فالعجلة من الشيطان والشيطان عدو لابن آدم .. ربما بعد
خمسة أعوام أو سبعة ، وفاطمة ماتزال صغيرة .. وأنت ماتزال شاباً
قوياً » .

فسأله جابر :

— « هل تعدنى بأن لا تتزوج فاطمة حتى أحصل على جمل » .

وفكر جابر في الخفراء الذين يمسون اللصوص وقال إنهم عميان، لو عرفوا فاطمة لصار لهم بصر وصارت لهم قلوب غير مظلمة ولما ساقوه لدوار العمدة ليضرب هناك بالأفلام وكعوب البنادق ، أما العمدة فهو عجوز محب للمال ولحم الطير والحيوان والبشر — كيف لا ترى عيونه جمال فاطمة فيتزوجها ، قال جابر : لو كنت بمكان العمدة لتزوجت من فاطمة بنت عبد الرسول وأنا المالك لمائة جمل بمفردى، ولقلت للولد جابر السارق اذهب يا ولد ولا تفعلها مرة ثانية بدلاً من أن أوثقه بالحبال وأجعل الخفراء يسوقونه لمبنى المركز حيث ينظف جابر المسكين مرابط الخيول ويرمى في أحواض الماء النتنة ولا ينطق بحرف أمام القاضي الذى يها به العمدة نفسه ، ثم يقضى جابر المسكين السنوات بالسجن المظلم الرطب الذى يحرسه عسكر غلاظ شداد قلوبهم أيضاً غليظة ومن حجر أسود كأحذيتهم السوداء الغليظة ، ويظل جابر المسكين يعد الأيام والليالي قانعاً بشيء بسيط؛ لا الزواج من فاطمة ولكن مجرد رؤيتها بالعين : خارجة من بيت زوجها لتجلب الماء ليشرب الزوج ماء حلالاً زلالاً جلبته فاطمة .

وأفاق جابر من هلوساته على ما يملأ زنبيلين من الحقائق : الثدى تل لا ينفذ فى تربته سهم .. والورد منقوش على الثديين .. والبيت من طابق واحد وحجرتين .. والسجن رطب ومعتم والعسكر والخفراء والعمدة مسلحون .. وحركة الدجاج بالليل تجفل الجسم مشتاقاً للالتصاق بجسم .. والسرير يكون من الحديد ولا يكون من الخشب وإلا قرضته القرضة .. وشيخ العشيرة على حق فمن أين يحصل جابر على خبز الذرة ولبن الماعز إن لم يعمل .. والعم عبد الرسول فى حاجة إلى جمل يجلب به السباخ المسروق من المعبد .. والبنت فاطمة أجمل بنت فى دنيا الناس .. والمثل يقول العين بصيرة واليد قصيرة .. وما من ثمة أمل فى الحصول على سمك الضبع .. كما أن العودة لبيوت العشيرة مستحيلة فالذئاب الجائعة تترصد هناك عند المسالك .. وحتى تطل عيون النهار سيهتدى جابر إلى حل .. أما النوم — هنا — حيث يطول لسان الماء ويقصر فمستحيل مستحيل .. وحتى يطل النهار المبصر بألف عين (سيجعل مضارب الغجر غايته ، ويسلم زنده للغجرية العجوز القاعدة أمام الخيمة — تحت النخلتين — لتتقش يدين مدرتين على الجلد بالإبرة قلباً بداخله جمل واقف له وجه إنسى) .

فكر الناصح لوقت ، ولم فى خياله البنت فاطمة لابسة الخلخال ،
وأجاب :

— « الحق لا أعدك .. البنت حلوة .. جلدها بلون حبة القمح وناعم نعومة
قماش القطيفة .. ولأبناء العشيرة عيون تشوف وتعشق .. والعشيرة تملك
مائة جمل ومائة ناقة .. الحق لا أعدك » .

وهكذا فقد جابر عقله وقرر أن لا يعمل . وضحك شيخ العشيرة وسعل
وبصق وقال :

— « سنرى من أين يحصل جابر على القوت .. الجسد يا رجل يحتاج للطعام
بمثل احتياج النخيل للجذر الطويل الذى يمتص الماء من بطن الأرض » .

غابت شمس الصيف الكبيرة خلف تلال الغرب ، ومازال الأفق الغربى يحترق ،
وكان لأشجار الأثل ذات الزهر الأصفر النامية على حافتى التربة ظلال سوداء
تتأوج فوق صفحة الماء العكر . وفجأة أسقط الليل خيمته السوداء الثقيلة ،
وثبت أوتادها فى الأرض وظهر فى السماء هلال صغير ونجوم قليلة متباعدة خافتة
الضوء ، ومن مكان بعيد مجهول سمع صوت طائر أشبه بصرخة أم فقدت وليدها
الوحيد .

أحس جابر بأن ثمة شيئاً مس جسده فأصابته رعدة وشعر ببرودة ليل
الشتاء — رغم أن الليلة ليلة من ليالى الصيف ، فهرول خارجاً من الماء ، واعتلى
المرتفع الجاف بينما الماء يتقاطر من سرواله بصوت ، ولبس جلبابه القصير القديم
المصبوغ بالنيلة الزرقاء الواسع الأكمام ، وخلع سرواله وظل يعصره حتى خلصه من
الماء فنشره على فرع شجرة سنط قريبة مائلة ليحف ، ومضى يكلم نفسه :
— « كيف غاب عنك يا ولد يا جابر أن الماء مسكون بالجن وأرواح الغرقى
والقتلى » .

وقد مر وقت ، ألمم جابر نفسه المشتتة وفارقه الخوف ، فخلع قميصه
وطواه وثبته بحجر كبير ونزل الماء منتقلاً من جرف إلى جرف باحثاً وسط
الأحجار والعشب النامى عن سمك الضبع البطيء الحركة بسبب تلك
الشوكة اللعينة المرشوقة فى رقبته .

ظل جابر يتنقل من جرف إلى جرف بحثاً عن سمك الضبع حتى مر وقت طويل ، فقال لنفسه لو أمسكت بسمكة واحدة سأخرج من الماء وأكتفى بها طعاماً ليومي هذا ، وفكر في أنه لابد أن يشويها قبل أن يأكلها .. فهل سيطلب ناراً من عشيرته التي ضنت عليه بجمل وهو الذى خدمها منذ صباه ليقدمه مهراً لفاطمة . وقال جابر لنفسه :

— « لو حصلت على السمكة سأضرب حجرتين وأشعل منهما النار في الحطب اليابس وهو كثير والحمد لله » .

ولما نظر جابر للسماء وجدها أصفى زرقة وقد كثر عدد النجوم بها ، فقرر أن يخرج من الماء ويحلم بعض الوقت بفاطمة ثم يعود من جديد لبحث عن سمك الضبع .

كان جابر عارياً كما ولدته أمه ، مسنداً ظهره على شجرة السنط المائلة ، ويعين العاشق رأى فاطمة تأتى وترفع الحجر وتأخذ قميصه وتشم رائحة عرقه الأخضر تحت الإبطين ومضت تغسل القميص بيديها وها هو يسمع رنين الأساور الزجاجية الملونة .

وليل الصيف لما يوغل يشتد برده — وهكذا أحس جابر برعشة جعلته يفيق من حلمه القصير الجميل ، ولأنه كان جائعاً فقد قرر أن يهبط إلى الماء مرة أخرى بحثاً عن سمك الضبع ، مقسماً لله ساكن السموات ومقسم الأرزاق إنه سيكتفى بسمكة واحدة .. سمكة واحدة .. الله يكره عبده الذى لا يعمل يا جابر .. والله يكره أيضاً المنشق عن أهله وعشيرته .. إن كانت فاطمة جميلة فالله أجمل من أى شىء وكل شىء .. وهكذا استحق جابر العقاب فخرج من الماء ولبس قميصه وسرواله الذى جف وجلس مسنداً ظهره على جذع شجرة السنط المائلة .

بإمكان جابر أن يسرق حملاً من عشيرة أخرى وذلك لا يحدث إلا في سوق البندر المسور الذى يحميه عسكر الحكومة ، لو وفق سيجلب السباخ الطيب من المعبد القديم الذى يحرسه خفراء الحكومة ، ولو وفق فسيعب السباخ الطيب لعشيرته يصلبون به عود النبات الأخضر ، ومع الأيام سيشتري جملاً ويقدمه مهراً لعمه عبد الرسول ليتزوج من بنته فاطمة .

الفخاخ منصوبة للمحبين

- مدخل -

هجع الكل - إلا الضفدع والطاحونة والكلاب وقشمر .

- قاصد الجبل -

ما عاد بمقدور قشمر أن ينكر البرودة التي حلت ببدنه ، وبات عاجزاً عن إيقاف الرعشة السارية بأطرافه : « إنها صحوة القديم يا قشمر تلك التي تسوقك سوقاً إليه وإلى الجبل .

* * *

الكلاب لم تنبح وتوقظ النيام ، فكلاب الوادى جميعها تعرفه ، وإن كانت الكلاب بالليل لا تميز بعيونها بين شخص وآخر ، إلا أنها تملك الأنوف التي بها تشم رائحة قشمر .

- الرحلة -

قمر السماء العالى رمى بالضوء الفضى فوق الرمال ، وخلق الظل الرمادى
لقشمر : هذا الظل العجيب يسير إذا ما سار قشمر .. ويقف متى وقف
قشمر .

ها هو قشمر الخائف يكلم ظله العجيب :
« أنا صديق قديم للزغبى ساكن الجبل ، إن أردت الحق كنت تابعه ، ههه ،
تلك علاقة قديمة كانت فى الصغر وتدرجت مع الأيام وتلك كانت أيام ، حتى
جاء يوم أدار فيه الزغبى ظهره لى وللوادى ويم وجهه شطر الجبل وكان قد قتل
الحاج عطية » .

« فى ذات اليوم ظننت أنى قد ملكت حريتى : مادمت النفس .. ومادام قلبى
يدق دقاته المعتادة — فلماذا أخاف الزغبى ؟ هل جربت فى يوم من الأيام قوة
بدنك يا قشمر . وخضت مع الزغبى معركة ؟ يا لله .. وكأننى كنت أملك تلك
القدرة على التفكير !! » .

« يوم طلبت هى الطلاق من الزغبى الغائب — قلت : « هذا الأمر لا يعينيك
يا قشمر » ، والليلة زفت على مطاوع بن الحاج عطية ، وها أنا يارفيق الطريق أحمل
الخبز لسيد الجبل (ليكفر عن سنوات الوهم والإنكار والمقاومة ، وها هو يا ظلّة
على الطريق يبغى الخلاص بالتلاشى فى الآخر) .

سمع قشمر صيحة الجبل ففارقه ظله وهرب :

« ما أقسى لحظات الخوف حين يواجهها الإنسان بمفرده » .

- صيحة الجبل -

يصيح الكشاف من مكمنه أسفل الجبل ويشهر سلاحه ويتلقف آخر صيحة
الكشاف فيقبض على سلاحه ويصيح ، ويردد الجبل وتردد رمال الصحراء صيحة
الرجال المتتابعة ، وتعوى الذئاب فى البعيد .

يترك الحارس زميله أمام باب المغارة ، ويمر محنى الظهر من سرداب كثير التعاريح محفور ببطن الصخر ، ويهبط ست درجات حجرية ، ويقف أمام القاعد علماً فهو من جلد الجاموس يتحلقه رجاله الأشداء ، بينما القاعد يفرك راحتيه ويمررها فوق ألسنة النار التى تتصاعد من بوتقة نحاس كبيرة — يقول الحارس :

« رجل قصير شديد البنيان غايته الجبل » .

- المعبر -

ضحك الزغبى وصاح مهلاً ، وصاح الجبل وصاحت الصحراء ، وصاح الرجال :

« إنه قشمر .. دعوه يمر » .

تنحى الكشف وأفسح طريقاً ورد سلاحه إلى غمده ، والزغبى بأعلى الجبل يصبح مرحباً فاتحاً ذراعيه لقشمر الذى يعرج مع الطريق الوعرة صاعداً الجبل — كأنه الطاووس وقد ولى عنه نصف الخوف .

- أولاد آدم -

يرمى الزغبى الحطب للنار لتأكل فتأجج وتضىء وجوه الرجال وتزيج الظلمة فتقبع بأركان المكان القصية . ويقترب قشمر من النار فهو فى حاجة للدفع الكثير .. ويشرب الكل شايم السخن من أكواب الفخار بصوت .

تكلم الزغبى وردد الصندى كلامه :

« تم الطلاق .. والبارحة كان العرس .. المرأة تفعل ما تريد .. مطاوع ابن الحاج عطية تزوج من أم ابنى .. وابنى تبنى فى بيت الحاج عطية .. صار كبيراً بعد العمر الذى مر .. صار الثور سميناً .. أطعموه ليكثر لحمه ودهنه .. متى سيذبح ؟ » ..

ردد قشمر : « صار رجلاً .. لقد كبر ! » .

صرخ الزغبى : « لماذا لم يحضر إلى هنا ؟ لماذا لم تجيء به أنت إلى هنا ؟ »
رد قشمر : إنه .. إنه محب .. و .. عاشق .
سأل الزغبى : « من تكون المليحة ؟ » .
قال قشمر : « فتاة .. تسكن كروم النخيل الواقعة بأملأك الحاج عطية ..
أنت مع الغجر الرحل » .

- العدة -

ها هو بخرقه ابن السبيل ، حافى القدمين ، يطلع في مشيته ، منحني الظهر ،
يستند على فرع يابس من الخطب ، بلحية طويلة لم يهذبها مشط ، وعمامة
خضراء كبيرة فوق الرأس ، ومن رقبتة تتدلى مسبحة كاملة : عدد حباتها تسع
وتسعون حبة .

- عائق -

داهمه الليل ، وسمع نبح الكلاب الجائعة الراقدة أمام الدور ، وتلك التي تسعى بين
الدروب الضيقة ، فقرر أن يبيت ليلته على أبواب الوادى حتى تطل عيون النهار .

- على أبواب الوادى -

إنها شجرة التوت القائمة منذ الأزل المسماة بشجرة الله — تحتها زير به ماء ،
وهذا ضريح الولي المجهول الاسم . وتلك هي المصلى : مستطيل من الأرض فرش
بالحصير وحوط بسور قصير ارتفاعه قالب طوب قائم .

بداخل الضريح مصطبة مفروشة بحصيرة قديمة ، وفوق المصطبة كومة من
الأغطية القديمة ، ومن الكوة المحفورة ببطن الحائط — تطل عين سوداء ولمبة جاز
فتيلها قصير تزفر الدخان الأسود وتطوح بالضوء الأصفر القليل والظلال الرمادية
الكثيرة .

- الحلم -

الحاج عطية يتكلم من فوق سرجه ، والسמكة من البلور الأزرق النقى

(منتفخة البطن ، بجنبها الأيمن زعنفة كأنها جناح طائر وبجنبها الأيسر زعنفة كأنها جناح طائر ، وبأسفل البطن ثقب) ، الحاج عطية يريد السمكة لنفسه والرغبى يريد السمكة لنفسه . والحمار الأبيض العالى الظهر رمى بالحاج عطية ورمى بسرجه وركض فى حقل البرسيم الأخضر ، والسمكة بيد الرغبى ، وضوء النار الأحمر صبغ الكون ، ولا شىء أعلى من ألسنة الدخان غير قمة الجبل المضيئة .

— النداء —

الصوت طلع من حلق مشروخ من البرد ، ومن صدر تكومت فوقه طبقات وطبقات من دخان المعسل المحترق .
— قال : « هو يوسف الأعور ينادى الناس من فوق جامع عبد الله لصلاة الفجر » .

— اللقاء —

قالت : « لو عرفوا أنك أنت .. وأنتك هنا .. لأتوا وقطعوا رأسك » .
رد بثقة : « لو عرفوا ، عاونينى حتى أعرفه » .
قالت : « اذهب وخذه من بيتهم قبل أن يقتلوه » .
قال : « بلغنى أنه عاشق .. أريد أن أراه وأراها » .
وسألها : « لماذا طلبت الطلاق ؟ »
قالت : « أردت أن أكون محصنة » .
قال : « بالزواج من مطاوع ابن الحاج عطية ؟! »
قالت : « لو أحبنى سيترك لى ابنى .. وها أنت ترانى لابسة ثوبى الأسود » .
قال : « كان بإمكانك أن تحمليه وهو صغير وتأتين به إلى الجبل » .
قالت : « الطريق إلى الجبل وعر وطويل على امرأة .. وكانوا سيلحقون لى .. وأنت تتكلم عن الماضى » .
قال : « المرأة لو أرادت فعلت » .
وقال لنفسه : « وأنا تركتها حبلى غير قادرة على الجهد » .

أمسكت بضيفرة من شعرها ، ودس هو يده تحت ثوبه وأخرج سكينه قدمها لها ، مدت يدها وتناولت السكينة وجزت ضيفرتها وقدمتها له .

قالت : « عد إلى الجبل .. ستجده في بيتهم أو تحت كروم النخيل .. »
يشبهك .. لست في حاجة إلى معونتي .

وقالت تلومه : « أتيت بالسكينة لتقتلني » .
قال خجلاً وهو يكذب : « أتيت بالسكينة لأدافع عن نفسي » .

- البغثة والمتفرجون -

أطل مطاوع وخلفه خلق كثير سدوا فتحة الباب .

قال مطاوع : « كنت على يقين من أنك ستحضر بعد زواجي منها » .

وتقدم مطاوع ، وأمسك بالفأس المسندة على الحائط ورفعها بيديه لفوق ولوح بها في الهواء وصرخ في وجهيهما . فتراجع الزغبى .

- صانع الفاجعة يلم الخيوط -

صرخ مطاوع :
« ها أنت خائف .. كان عليك أن تتقدم إليّ حاملاً أكفانك على كتفك بعد قتلك لأبى .. وكنت سأعتق رقبتك .. بدلاً من أن تحتفى بالجحور .. كان عليك أن تثق في عرف الرجال » .

وصرخ مطاوع في جمهرة المتفرجين :

« ها هو خائف .. ها هو ساكن الجحر .. وها أنا مطاوع ابن الحاج عطية أعتق رقبة الزغبى قاتل أبى » .

وعاد يصرخ في الزغبى :

« لن تعود للجبل فالذئاب تقتل الخائف .. ولا أنت خارج من بيتك للوادي فالرجال هنا طبعهم مطاردة الفئران والقرف منها ، هنا جحرك .. وتلك هي

زوجتك التى لن تطيقك .. تعلم كيف تستخدم سكينتك حين تجوع وتطلب اللحم .. أما ابنك فهو راحل خلف الفتاة العجرية .

- يستحق الجنون لأنه الشخصية الأخيرة -

كسر طوق الرجال ، وجرى حاملاً فأسه يلوح بها ، وهو يضحك ضحكة المنتقم المجنونة فتردها الحوائط ويردها الخلاء ، حتى بلغ شجرة الله المثمرة (كانت بالضحى ترمى بظلها الكثير على ضريح الولي المجهول وعلى الزير وعلى المصلى ، وقد تجردت الساق الضخمة من لحاها) ورفع فأسه .. وصرخت الشجرة .

الشهر السادس من العام الثالث

البداية :

مع رجال التراحيل رحل مصطفى .. وهو بعد صبي .. مر عام والعام الثانى يطوى آخر أيامه ، وما من خبر عن الغائب الغالى .

عقل الأم :

عقل حزينة مع ابنها الغائب : هناك فى البلاد البعيدة .. وأذنبا اليمنى التى تسمع — هنا : مع الحمام الذى يهدل « الملك لله .. الملك لله » . عينها اليمنى فقدت النور من عامين . بعينها اليسرى ترقب : بخيت البشارى الراقد يتقلب فوق المصطبة التى تطوق جذع شجرة الدوم « صار بعد العمر الذى مر كالقفة ، ترفعها من مكان به شمس وتضعها بمكان به ظل ، يرقد على ظهره يرقب الشمس الجارية فى السماء ، يصرخ فى وقت : أبغى الشمس ، ويصرخ فى وقت آخر : أبغى الظل — هكذا طوال النهار ، هكذا يمر النهار ، هى وابنتها الشابة تحملان القفة من الشمس إلى الظل ومن الظل إلى الشمس — لكنه زوجها فى الحلال وولد مصطفى وفهيمة

اليدان تلعبان — هنا — بالمغزل الذى لا يكف عن الدوران ولم الخيوط ،
والعقل — هناك — مع الغالى فى بلاد الناس البعيدة .

بجيت البشارى فى حديث يقظة :

« المصباح شح زيته ، والليل الطويل الأسود قادم ، آه من الوجع والسن ، نومي قليل وبولى لا أتحكم فيه ، حزينه الخرقاء تنطير من رؤية النعال مقلوبة ومن الريح لو حملت قشر الثوم ومن قدم تلوس كسرة خبز مرمية ، حزينه مخرفة ، هى امرأة ، الرجل منا كابد ، عقلها مع الولد والولد بعيد ، قلب الولد من حجر وأنا قعيد البيت ، أرغب فى النوم ، لو نمت وطال النوم — بغير أحلام وكوايس — سأذهب إلى الله الرحيم — أنا المسلم — وأتخلص من الأوجاع والعمر المكروه وأدخل الجنة ، لو عندى دخان لدخنت ومر هذا الوقت البطيء الذى لا أحتمله . »

من حكم الليل معلم القرى :

« نجمة مشتعلة هوت من السماء الزرقاء العالية واحترقت قبل أن تبلغ الأرض :
لو طالت البشر أو الحيوان أو الزرع أو حتى الجن — لتحول فى التو إلى رماد . »

« مصطفى الأصغر — لكنه سيد فهيمة التى تكبره بعامين ونصف عام ،
يضرِبها وتحبه ، الأم موافقة والأب موافق ، مصطفى حامى فهيمة ومخوفها من العيب ، مصطفى رجل وفهيمة بنت ، للبنّت ثوب أبيض طويل الذيل ، على البنّت أن تمسك بذيل ثوبها وتمشى فى الطريق محاذرة — وهل بالطرق غير الوحل والتراب والقش ؟! »

الصية مضطربة والليل رفيق الأفكار :

هى بنت الأم والأب ، وهو الشقيق البعيد ، وهى تحبه وهو باليقين يبادها الحب ، فى المرات الأولى كانت تبكى ، بمرور الوقت وقد عرفت طعم اللذة يصحبها الألم — كانت تعتمد الفعل المعوج ليضرِبها فتتصنع البكاء وتشتمه :
هكذا تشتعل ناره وتحمى فيضرب بعنف .

كان يطلع نخل جبانة النصارى بالليل في غفلة من أحمد المحروق الحارس النائم .. يسرق البلح ويبيعه لمنصور الصادق صاحب الدكان الساهر ويشترى الدخان ويدخن ، حتى هذا الوقت لم يعرف الأب ولا الأم أن ابنهما كبر ويدخن ، فهيمة لم تبج بسره — لأنها تحبه وتقدر أنه يهاب والديه . للبول رائحة على التراب تشمها لما تتذكره ، في الستر كانت فهيمة تشم رائحة وسخ مصطفى وعرقه بملابسه قبل أن تغسلها ، ورغم البعد فهو ابن الأم والأب وهو الرجل الذى تخشاه وتحبه .

الشهر الثالث من العام الثالث :

همهمت الغجرية لترقص الحلقات المتدلية من الأنف والأذنين ، سحبت من معطفها صرة من القماش فبان رمل وحجر . مدت حزينة يدها بيضتين . قالت الغجرية: « ثلاث بيضات » وابتسمت الغجرية ولمعت سنتها الفضية وقد رمت حزينة بنظرة فاحصة وتمتمت: « مليحة الصبية .. كالبدر فى اكتماله .. مفرودة الشراع كالمركب فى الماء » . لمحت حزينة السنة الفضية والحلقان وهى ترقص قالت: « لن أتركها تخطف ابنتى .. تلك التى لا دار لها .. سارقة الدجاج والأطفال .. لكنها تعرف كيف تكلم الحجر .. ثلاث بيضات ثلاث بيضات » .

ما قاله الحجر وما قالت الغجرية :

قطار من حديد أسود خلفه الدخان والأهل والزرع والتراب والبيوت ، وباخرة حملها الماء وجرت بها الريح ، الجبال سوداء والرمل الأصفر على الجانبين ، وبالبلاد ملوك ، والشمس تجرى فى الماء والشمس تجرى فى السماء ، على الماء قمر ، وفى السماء قمر. وفى الشمس الثامنة حط ابنك على البر بسلام .. اشكرى الله ياخاله .

خبر :

من النهر عادت فهيمة ، باب بيتهم الخشبي الموارب ضربت ضلفته الواحدة بقدمها اليمنى وزعقت: « آما .. آما » . تملك حزينة غضب سمعت خبط الضلفة الخشبية بالحائط الطيني وصراخ فهيمة وصوت الجرة التى سقطت فأنكسرت وسال الماء — قالت حزينة: « الرعاء » . صرخ البشارى: « ما الذى

جرى .. هل قامت القيامة؟! « صرخت فهيمة: « وصل جواب من عبد الحكم لأهله » . قال بخيت البشارى: « البنت تزغق كما لو كانت تنادى فى السوق » ، وسأل مستفسراً « عبد الحكم .. من يكون عبد الحكم؟! » . ردت حزينة: « ابن صديقة على » . قال بخيت وهو فى عجب من أمر الحریم: « مالنا ومال عبد الحكم ابن صديقة على؟! » . ردت حزينة « رفيق مصطفى فى الترحيلة .. عبد الحكم رفيق مصطفى فى غريته » . قال بخيت « عبد الحكم ابن طه محمد .. تتكلمان عن عبد الحكم ابن طه من صديقه على » ، وسأل بخيت البشارى « ومصطفى؟ » . نظرت حزينة للجرة المكسورة وانقبض قلبها « هذا النذير » ، وردت على بخيت — وهى تهم بلبس بردة الخروج « سأعرف منهم .. من أهل عبد الحكم سأعرف » .

بشارة خير :

فى خطاب عبد الحكم لأهله سلام من مصطفى لأهله . هبطت السكينة على قلب حزينة الملتاع فأكثرت من الكلام مع «صديقة على» وشربت كوين من الشاى وأكلت تمرأ طيباً ومر الوقت سريعاً — وقالت « لصديقة على » وهى تهم بمفارقتها: « عرفت أنهم هناك يعملون .. يشقون الترع ويقيمون خطوط السكك الحديدية لتجرى القطارات .. لكن متى يصلنا منهم المال ؟ » .

الحمد لله والشكر لله :

باكو دخان معسل دفعت فيه حزينة لصاحب الدكان خمس بيضات وأعطته ليوسف سليم نقيب الشيخ موسى صاحب الدعوة المقبولة والقريب من الله ، وطلبت حزينة من يوسف أن يطلب من الشيخ الدعاء لمصطفى فى بلاد الناس .

نقاش

قال بخيت : « يوسف سليم سيأخذ الدخان لنفسه » ، وفكر فى باكو دخان كبير مرسوم عليه نجمة ، فكرت حزينة : بخيت كان يريد الدخان لنفسه ، وقالت : « يوسف سليم رجل طيب .. اختاره الشيخ دون أهل البلد لأنه رجل طيب » . قال بخيت لنفسه : حزينة مناكدة .. هى الآن تريدنى أنا غايتها فى التو

واللحظة نهش لحمى .. لما كنت أملك عافيتى كنت أغلق فمها .. لما يأتى الليل
سأبكى تحت الغطاء أنا رجل البيت .. لو صحا واحد من أهل الدار سأمكر
وأقول « أبكى من العلة » . قالت فهيمة « الشيخ كله بركة » وفكرت فهيمة :
وهو فى مثل سننى خلع ثوبه ورماه فى الماء فطفا الثوب وقعد عليه وعبر النهر من
الشرق إلى الغرب وعاد للشرق ولبس ثوبه الذى لم يبتل .

بخيت يواجه نفسه :

فى مواجهة الليل الطويل الأسود والمصباح الذى شح زيته والعلة التى تنهش فى
جسده الضاوى — تراجع بخيت البشارى وحدث نفسه وقد خاف الضرر المخبوء
فى الغيب :

يوسف سليم رجل أمين .. كان يعمل بالجزارة ويكسب .. كانت الدكانة
حجرة من حجرات البيت تطل على الشارع .. لما اختار الشيخ الحجرة لتكون
خلوته التى يعبد فيها الواحد الأحد كف يوسف عن الجزارة وصار نقيب الشيخ
فى جمع النذور .. الشيخ موسى أيضاً رجل مبارك .. يغلق حجرته بالنهار ويجوس
هناك بمكة المكرمة مع صحبه من الأولياء والصالحين ولا يعود الا بالليل ليفتح
حجرته ويستقبل أحبابه ومريديه ، لولا المرض لزار بخيت الشيخ وجلس مع أحباب
الشيخ وشرب المعسل وشم البخور الذى يأتى من مكان بعيد مجهول وشارك فى
الأذكار وأكل اللحم الذى يشد العظام ويجعلها متينة .

أخيراً وصل جواب من مصطفى :

بعد ثلاث أعوام ونصف عام وصلت رسالة من مصطفى على عنوان الشيخ
الفاضل ، أفاد فيها والده بخيت البشارى بالخلاف الذى قام بينه وبين الرئيس عبد
الظاهر ، وطلب من والده صرف النظر عن موضوع الخلاف وعدم مناقشته فيه
فمصطفى رجل يعرف متصلحة نفسه ، قال مصطفى لوالده : لا تدع الأفكار
السوداء تنتابك من ناحيتى .. سأسعى فى أرض الله الواسعة .. سأعمل
سأحصل على المال الذى يسد حاجتى ويكفى لكى أرسل لكم ما يكفىكم شر
الزمان الصعب .. أطال الله عمرك يا أبى ومنحك الصحة والعافية .. سلامى لأمى
حزينة وأختى العزيزة فهيمة التى أتمنى لها حياة مستورة فى بيت ابن الحلال الذى يأتى
ويدق الباب وتفتح الباب أنت ويتم الفرح فى حياتك .

النهاية :

صمت الشيخ الفاضل ثم قرأ: « مع تحيات محمد أحمد كاتب الخطاب » ، ثم طوى الرسالة وناولها لحزينة التي قبلتها ودستها في صدرها . قالت حزينة لنفسها : سافر من أجل المال فلماذا لا يعود، والبركة في دجاجاتي منها نحصل على البيض الذى نبيعه ونحصل على حاجتنا .. عشنا الفقر ولم نعرف الغنى فلماذا يحملنى أنا أمه ألم بعده . وقالت فهيمة لنفسها : لما أتزوج سأترك هذا البيت .. ليت زوجى يكون فى جسمه وشكله . وحدث بخيت البشارى نفسه : سأموت قبل أن يكون وأراه .

الموت فى ثلاث لوحات

- اللوحة الأولى -

ها هو بجنت البشارى ممدد على سريره الذى صنعه بينديه من جريد النخيل ،
المرض المكروه أقعده من عامين . رفعت حزينة عنه الغطاء ورأت الوجه وقد شرب
الألوان الثلاثة : الأسود والأصفر والأزرق — فخمنت أنه الموت . قالت حزينة
لبنتها فهيمة : أركضى يا بنت ولا تعودى بغير الشيخ الفاضل ، وقالت حزينة
لنفسها وهى ترى الغطاء يطلع وينزل بمكان الصدر : هاهو يقاوم بعزيمة الرجال .

لم الشيخ الفاضل ذيل قفطانة الحرير الأبيض من خلفه وهم بالجلوس .
أقسمت حزينة بمحمد أشرف الخلق أن لا يوسخ الشيخ الفاضل ثوبه النظيف
بالعود على المصطبة العارية . جرت فهيمة وعادت بحصير فرشته على المصطبة —
التي تطوق جذع شجرة الدوم القائمة بفناء الدار ، وقعد الشيخ الفاضل .

خبطات الهواء تحرك الأوراق الخشنة الكبيرة لشجرة الدوم وتجعلها تحتك وتصدر
أصواتاً أشبه بزحف الحيات وسط دغل الحلفاء . ضوء شمس ما قبل الغروب
الأصفر اللين يغمر أرض وحوائط الفناء الضيق . الشيخ الفاضل أشار بالفائدة

التي تعود على المريض من الشعاع الأصفر . حزينة القاعدة على الأرض بجوار سرير زوجها لزمت الصمت ، فهيمة القاعدة على الأرض بجوار أمها لزمت الصمت ، قالت لنفسها سأجاريها في كل فعل تفعله : أنا لم أخبر بعد هذا الذى خبرته هى .

أدار الشيخ الفاضل وجهه بحيث للقبلة الشريفة وباعد ما بين الشفتين وصب الماء الطهور ومال على أذنه مجاهراً : لا إله إلا الله .. سيدنا ونبينا محمد رسول الله ، وعاد وقعد على الحصر فوق المصطبة .

سقط الظل الثقيل على الفناء فجأة . خمن الشيخ الفاضل بعلمه أن ملاك الموت قد حضر . وقالت حزينة المجربة : نعم هو ملاك الموت . وظنت فهيمة من غفلتها أن الشمس سقطت هناك خلف جبل الغرب ، لكنها أغمضت جفونها — مثل أمها والشيخ الفاضل — لتحشى عينيها من التراب المهتاج من ضرب الجناحين الكبيرين ، وسمعت مثل أمها والشيخ الفاضل صوت الشهقة العالية وصوت الباب الذى أنغلق فما قدرت على كتمان الصرخة العالية .

* * *

النسوة المعزيات يشاركن حزينة فى الصراخ ويلطمن الخد؛ وحزينة تعلم أن الواحدة منهن تنادى موتها الغوالى ، أما هى فبعقلها هناك مع الرجال .. مع الميت يرفعون الشعر عن الإبطين والعانة .. ويغسلون الجسد بالماء .. ويدعكونه بعشب العفن المر .. ثم يجمعون من جيوبهم ثمن الأكفان البيضاء ويحملونه على خشبة ويصلون عليه وينزلونه فى الحفرة ثم يهيلون التراب عليه — وعليها هى أن تدبر فى أجر الفقهاء الذين سيحضررون لتلاوة القرآن على روحه طلباً للغفران والرحمة .

— اللوحة الثانية —

صحت بالليل الأخير على صوتها تتضرع : أماه .. أماه ، هبت فزعة. قالت فهيمة : البرد .. البرد يا أماه .. نعم جسد البنت كله يرتعش والرأس ساخن

كأنه فرن موقدة ، لمت كل الأغطية وكومتها فوق الجسد ، وبالحلل والماء يبلت خرقة وظلت ترطب الرأس ، وظلت ساهرة حتى طلعت الشمس ، وهالها أن رأت وجه ابتها وقد شرب الألوان الثلاثة : الأصفر والأسود والأزرق ، قالت لنفسها : هي الحمى المميتة .

جاء المأمون المدكلم حلاق الصحة ، وحلق شعر رأس فهيمة ، وفصده بالموسى ، وامتنص بالمحجام الدم الفاسد ، ملأ خمسة محاجيم من الدم القذر القاتم اللون ، وقال : هناك أيضا دم فاسد يعكر الدم النقى الذى يحفظ لفهيمة الحياة .. ولو كانت صحة فهيمة تحتل لأخرجت محجامين آخرين وضمنت بذلك سلامتها . وقال المأمون المدكلم حلاق الصحة إنه سيعود مريضته بعد آذان الظهر مباشرة ويرى ما يجب

جاء المأمون المدكلم ورأى فهيمة ما زالت على حالها لا تفيق من غيبوبة حتى تسقط فى غيبوبة ، فأوقد ناراً وحمى مسماراً وكوى رأس فهيمة ثلاث مرات ، وقال المأمون المدكلم : بذلك أكون قد قتلت الدم الفاسد العكر والأمر بعد ذلك لله وحده يفعل ما يشاء .

ظل الأمل يبرق ويخفت ، وأذن يوسف الأعور من فوق مسجد عبد الله لآذان العصر ، وأذن يوسف الأعور ينادى الناس من فوق جامع عبد الله لصلاة العشاء ، وها هي فهيمة تبسم ، وصرخت حزينة فى وجه القادم : لا .. لا .. لأنها لا ترحب بك .. لكنها صغيرة وغير قادرة على مواجهة الألم .

- اللوحة الثالثة -

بين الدروب التراية الضيقة المتعددة المتعرجة المحاطة بتلال القبور الراقدة تحت ظلال الغروب الحمراء المتوهجة بغير حرارة ، كانت حزينة تدب وشجر التمر حنة تحت هبات الريح الخفيفة لا يكف عن إمطارها بالزهر الأصفر اليابس ، كانت تسلك طريقها وسط المقابر محاذرة متطيرة من هول ما يمكن أن يصيبها فيما لو داست على عظام ميت ، وسمعت حزينة وقع خطوات تتبعها ، وجاهدت حزينة جهاد الأنثى الضعيفة لتطرد الخيالات والخواف السوداء ولكن عقلها عصاها فاستسلمت للقوة القاهرة التى تسوقها ونظرت خلفها ورأت فهيمة : نعم هي

فهيمة بلحمها ودمها . فهيمة التى ماتت .. وما أن لمحتها حتى اختفت !!
(أ تكون القادرة بنت الجن أخت الشقيقتين هى التى فعلت هذا ؟! .. نعم
الشقيقات الثلاث القادرات بنات الجن ، من يجمعن القطط والكلاب الضالة
ويعسكن بالرحى الكبيرة التى تدور ولا تتوقف ويطحن اللحم والعظام فتموء
القطط وتعوى الكلاب ويختلط الدم باللحم وتلمع العيون الست بمثل الجمر
المتقد .

* * *

البيت موحش وحزينة بمفردها ، مات البشارى وماتت فهيمة وحزينة محمولة
وعاجزة عن أن تنادى جارة ، وما كينة الطحين تدق فى صمت الليل بصوت
واضح رتيب لا ينقطع : تك .. تك ، والجنيات الثلاث هنا .. عيونهن تلمع فى
الظلام كجمرات متقدة — ولكنها ستحتفى بهذا الذى يقف فوق رأسها ،
وابتسمت حزينة للرجل الكبير الجرم الأسود العارى المكشوف العورة .

الجثة

خمسون فداناً عالية هي ثلث مساحة أرض حوض المدامود الشرقى . لا يبلغها النيل إلا فى نوبة مده فيغمرها بماء الفيضان النحاسى ، وينحسر عنها متى يحل موسم التحريق ويجرى الماء قلناً — هناك فى خلجان وترع ومصارف القرية .

خمسون فداناً تغنم كل موسم فيضان جديد طبقة من الطمى الطيب ، يجعلها تلوح كتل معلق ، تحته ينبسط السهل المزروع بالقمح والشعير ، وفوقه تمتد السماء الزرقاء، حيث تجرى شمس الصيف الاستوائية منفجرة من جوف تلال الشرق بلون الفضة كل صباح جديد وتسقط جريحة تشخب دماً وقت كل غروب — هناك فوق القمم المدببة لتلال الغرب حيث ينطبق الأفق وتنتهى حدود العالم .

ها هي الخمسون فداناً مغطاة كالعادة بشجيرات العدس القصيرة الكثيفة المتشابكة، وقد صارت صفراء تنتظر منجل الحاصد المعقوفة ذات الأسنان الحادة القاطعة .

وسط شجيرات العدس الصفراء الكثيفة المتشابكة ترقد الجثة ، لرجل فى الحادية والخمسين من عمره ، الرأس مفصول عن الجسد ، بضربة واحدة قوية

مباغطة أتت من الخلف ، واستخدمت البلطة كأداة وكانت ذات يد خشبية قصيرة وسلاح من الصلب الأسود المسنون جيداً ، هذا بينما بات سلاح البلطة ليلة في العراء تحت قمر مكتمل — داخل إناء فخارى مملوء بالسّم القاتل ، ومرسوم على سطح الإناء الخارجى جمجمة بدم ذبيحة بشرية .

المقتول : واحد من أجساد قليلة ممتعة على الرصاص ، من القلة المحكوم لصالحها بالخلود ، يتدلى من أذنه اليسرى قرط من الذهب النقى انتزع عنوة وترك ذلك الخيط من الدم الذى جمد وتفحم .

القاتل المؤمن بالخرافة : رمى بالجثة وسط شجيرات العدس القصيرة الكثيفة المتشابكة الصفراء القاسية دوماً .

شجيرات العدس : كانت حنوناً هذه المرة فالمقتول واحد من الخالدين ، لمت الجثة ، سترتها ، غطتها ، ضممتها جيداً .

الأرض تحت الجثة كانت جافة وسوداء ومتشقة وعطشى ، وشمس الصيف استوائية حادة عامودية تلامس رأس التلء وكافرة فى هذا الوقت من النهار .

طيور القبر الضئيلة الحجم القليلة اللحم اختبأت وسط شجيرات العدس حين حومت الحداة ذات البصر الحاد القوى فوق المكان . وحين أتت ثلاث حدهات وحومت فوق نفس المكان طارت قبرة خائفة ودفنت نفسها فى العشب القصير الأخضر الكثير النابت بالسهل — بعيداً عن الجثة .

الدف والصندوق

سمكة ميتة كانت طافية فوق سطح الماء — فجأة — انقض طائر نهري .
حملها بين مخالبه وطار . وعاد ماء النهار يتماوج بلمعة الذهب وحرارته .

على الضفة الاخرى — تحت قدمى الجبل الغربى الكبير — بانث البيوت :
أكوام من تراب — من صنع صبية صغار ، تشكلت البيوت فى خيال مريم :
خراف ضامرة بمرعى واسع من الرمال الصفراء اللامعة ، وبدت لها الشمس : صبية
عمياء مسوقة بنداء الطلسم المخبوء بصدر الجبل العريض .

(الكون عاكف عن الكلام — منذ أمس — والأشياء أيضاً تحدثت مع مريم
على هواها وقد عادت من النهار ، انفجر ثديان كانا مخبوءين طوال أربعة عشر
عاماً هى عمر مريم اليوم) .

* * *

تركت مريم الجرة تطفو فجرفها سطح الماء المتحرك ، لمت ذيل ثوبها — كى لا
يبتل — وأنامته بين فخذيه وضغطت عليه ، خاضت فى الماء بتعثر حتى لحقت

بالجرة . أمسكتها وأمالت عنقها ، جرى الماء في العنق إلى الجوف وهو يقول :
بك .. بك ، تابعت مريم صوت الماء وشعرت براحة تحيى وتصحب راحة كأن
يهبها بسخاء دفء الماء الذى يغمر ساقها : بالقطع لو وصلت مريم لعمق أكبر
تحصل على راحة أكبر — لكنها تخاف البنات وتخشى الغرق ، تخاف أن تطيع
رغبات النفس ، ربما كان كل شيء — الآن — بإيعاز من الجنيات ساكنات
القاع .

ودت مريم لو تنتظر حتى يحضر الصبيان . ويقفوا فوق رأس النهار ، ثم تحضر
البنات وترشهن بالماء ، ولكنها بسرعة طردت ما فكرت فيه وقالت : « لو الهوى
هوايا والأمر أمرى كنت أقلب الدنيا وأجعل عاليها سافلها ، لكن يا حسرة فعلة
منى تسخط أُمى وتجر على لوم صالح (بعد مقتل الأمين الطواب ، هجرت تفيدة
حسين أهل الكرك القديم ، طلقت العمران و بنت البيت الوحيد الخراب بحوض
الخمسين ، سكنته وحدها مع صالح ، كان صالح صغيراً وقتذاك وكانت مريم في
الغيب : من الرحم للدار لحياة النفوس الثلاثة ، في الخارج كان يحيط بهم عالم
واسع وقرية يسكنها آلاف البشر) .

حين لاح حوض الخمسين دهم مريم انقباض مفاجيء (خمسون فدانا هي
ملك لهم ، مغطاة بشجيرات العدس — هي زراعتهم ، تحوط البيت الوحيد —
بيتهم ، والكل نائم تحت الظلال الصفراء العليلة للشمس الغاربة) .

البيت الكبير الواسع مثير للضجر وموحش أيضا .. وهو الآن : ينقض على
النفس كما تنقض حوائط القبور على الموتى . تنهت مريم وقد جنحت في غيط
العدس ، عادت للخط الجاف الذى يجاورها وضربت فيه ، كان يمتد تحت قدميه
موصلاً لمدخل الدار — وحين قفز إلى وعيها أن أمها لم تغادر الدار قط منذ مقتل
الأمين والدها — أدركت باليقين أنها وصالح وحدهما صنعا بخطوهما هذا الطريق
وسط شجيرات العدس ، تبسمت مريم بالرضى لاكتشافها الجديد .

* * *

كانت الأم جالسة أمام نار الكانون ، نفذت لأنفها عشب الخبيزة رائحة
خاصة تميزها تفيدة ويفوح بها العشب حال نضوجه ، أمسكت بالقدر من

أذنية ، لسعتها الأذنان الملتهبتان ، لمت طرف ثوبها ولفته حول كفها اليمنى وأمسكت بالقدر من أذن واحدة وأنزلته ، جفلت حين لسع وهج الجمر جلدها المكشوف ، أرخت بصرها ورأت ظلال اللهب الرمادية تتطوح على فخذها العاريتين ، أمسكت بفرعين لينين من الحطب وألقت النار ، اقتربت من النار أكثر وظلت تزحف ، وهى تتراجع بعيدة عن النار شعرت بخوف يهزها : ستصبح عجوزاً. أغمضت عينها : اللون الأسود ثقيل ، رائحة الخبيزة قوية ، طرحتها السوداء شديدة القتامة ، فخذان شاحبان هرب منهما الدم ، مريم صبية .. وحلوة ، مريم من الأمس أنثى ، أنثى بحق ، وتأملت فى ملاح مريم — مريم تشبهها ، وشعرت بالخجل لأنها حين أشارت لصدر مريم المبتل .. لم تلمح مولد فرخى يمام .. كانا قبل كلمتها يرقدان مطمئنين على صدر مريم ، وهى أفرغتهما ، وتفيده كانت صغيرة وتعرف بأى جناحين يضربان ، لقد صنعت تفيده بفعلتها الحمقاء الجفوة التى تجعلها وابنتها لا تتواجهان منذ الأمس .

لم تتقدم تفيده لتعين مريم فى إفراغ الجرة ، قالت مريم لنفسها : الخير فعلت ، ثنت ساقها اليمنى واراحت ثقل الجرة على ظهر فخذها ، ثم رفعتها بعنت وأفرغت ماءها فى الزير بعجل .

مسحت زجاجة الفانوس الداخلية دون غسلها ، لم تمسح زجاج الفانوس من الداخل ولم تلمعه من الخارج ، أقنعت نفسها بأنه نظيف ، أضافت كمية من الجاز للمبة الفسحة الوسطى — دون شد الفتيل كى لا تغسل يديها ، هشت الدجاج ليبيت فى « الكن » ، ضاقت بشدة من دلع الديك . « صدر العريان » ، ووضعت للحمار كمية من التبن الأبيض ، وخلطت كمية من التبن الأبيض بدراس الفول ووضعت أمام البقرة ووضعت كمية مماثلة للجاموسة ، ثم عادت ووقفت أمام بوابة الدار ، أسندت جذعها على حائط المدخل ، كان الأفق متوهجاً ، ثم انطفأ فجأة : زرقة داكنة حومت فوق البيوت المتفحمة ، وسواد كثيف صنع من البيوت والنخيل والأشجار كتلة واحدة شديدة التماسك . أغلقت البوابة وأسقطت اللسان الحديدى من الداخل ، وتركت طاقة البوابة مفتوحة ، رغم الظلام الذى تعديه الليلة ليتساوى المبصر والأعمى ، وجلست قرب البوابة بانتظار صالح ، وعندما جاء الكلب وقعد بجوارها طردته — وقالت : لا ينقصنى إلا أنت !!

جاء سعيد — بعد آذان العشاء بساعتين ، كانت الأم تنتظره ، خاب ظن
مريم حيث توقعت أن يسبق من هنا صالح سعيداً من زمن ، رفعت مريم لسان
الأمان الحديدى وفتحت البوابة ، دخل سعيد وسأل مريم عن حالها .. ردت
باقتضاب : خير ، وقالت إن أمها بالحجرة البحرية ، وزعقت منبهة : سعيد ابن
خالتي يا أماءه سبق سعيد مريم ، قالت محذرة : الكلب حر . أبطأ سعيد خطواته
ومضت مريم لكوة بجدار الفسحة وأتت بلمبة الجاز . فكر سعيد فى شراسة —
شبيب — كلب حالته تفيده حسين ، توقف حتى عادت مريم وتقدمته ، فكر فى
أن يقول لمريم إنها كبرت وصارت عروسة .. ويوم يحمل مهرها ستخلع خالته
الأسود .. سيكون الفرح سبع ليال .. بنات الحاج « ركابى » . سيقصن على
طوبة عبد العزيز .. ثم عاد وفكر فى شراسة — شبيب الكلب ، كان ظله وظل
مريم يتطوحيان أمام عينيه تحت ضوء اللبة الأصفر القليل — تساءل : الجاز
قليل ..؟ ردت مريم : لا .. الفتيل قصير !! — وهزت اللبة لتؤكد أنها عامرة
بالجاز ، وناولتها له ليتأكد هو أيضاً .. أمسك سعيد باللمبة ، شد باثنين من
أصابعه الفتيل المشتعل ورفع لأعلى ومسح الوسخ بجلبابه « الدمور » . كادت
مريم تزعق — وقد أفزعها أن يلمها ظلام مباغت بسعيد : حاسب اللبة تنطفى ،
طاول رأس الفتيل خنصر الأصبع ، وصار لشخص سعيد ظل واضح يموج على
أرضية الفسحة الترابية .. كما كان لها ولرأس الفتيل المشتعل ظلان واضحان ،
اكتفت مريم بالقول لنفسها . بطريقة بكائية ، يقولون زفوا الوسخ سعيد لمريم ..
بنت الأمين تصير لسعيد زوجة .. يقصدون العبيط يصبح سيدى وله الكلمة ..
هو الراجل !!

زام الكلب الراقد أمام باب الحجرة البحرية ، رفع قائمته وشد جسمه
متحفزاً ، صرخت تفيدة حسين فى الكلب من داخل الحجرة : اخرس يا
شبيب .. سعيد سيدك يانجس .. تشمم الكلب ذيل ثوب سعيد الطويل النائم فى
التراب — من خلف — ونهه شبيب بصوت رضيع .. دخل سعيد من الباب
النصف موارب ، دفعه قليلاً دون أن يفتحه . وعاد الكلب لمكانه القديم وأقعى
من جديد ، دفن رأسه بين ساقيه الممدودتين إلى أمام ، وكف عن أى صوت .

قال سعيد ، ازيك يا خالة ، ومد يده . سألته تفيدة قبل أن تمد يدها ليده .
الممدودة : سبيع يا سعيد ؟ رد سعيد بعجلة : سبيع يا خالة ، وراها تبتسم ،
ورأى قطع اللحم السوداء الراقدة تحت جفونها ترجف — وسمعتها تقول : اقعد .

قعد سعيد بجوار خالته على السجادة العجمي — المفروشة على أرضية الحجرة
المضفورة بقوالب الطوب المحروقة : القوالب جافة وصلبة وغير مريحة .. وخالته
تسأل إذا كان قد قابل صالحاً في طريقه . قال : سلكت يا خالة طريقاً لا أنظر
فيه مخلوقاً ولا ينظرني فيه مخلوق — وسمع خالته تقول — سبيع بعلم الله .

كانت الخالة صامته . وكان سعيد يتوقع أن تتكلم الخالة .. تقول كذا أو ..
كيت — قال سعيد مكلماً نفسه : الأمر كبير ويجب أن تتكلم الخالة . لكن
الخالة كانت صامته .. وانشغل سعيد برسم على السجادة ينام تحت فخذ
اليسرى : طبع من نسيج بلون الرمل لحظة الغروب — لوعل هادىء نفر قرناه
واستقاما بفروعهما الجرداء .. كشجرتين معاندتين .. ريف الخريف جردتهما من
الأوراق وخابت في إرغامهما على الانحناء .

* * *

دخلت مريم تحمل صينية الشاي ، دق الباب الخارجي ، وضعت مريم الصينية
بجوار أمها وجرت لتفتح الباب .

قال سعيد لخالته : صالح .. صالح أكيد .. مين غير صالح !! — وابتسم .
تأملته الخالة وقالت لنفسها — حين يبتسم سعيد يبدو أبله وخام ولم يدخل دنيا
قالت له : وشك محروق . رد سعيد بسرعة : الشمس .. شمس الصيف يا خالة .
ابتسمت الخالة ابتسامة مصنوعة وماكرة . قال : أنا أخاف .. أخاف من
ايه !! — ابتسم وهو يواجه نظراتها الصعبة وشعر بالارتباك . حدثت تفيدة
نفسها : سعيد غير مليح .. ما يليق بمريم القمر . هل أكون ظالمة لبنت الأمين ؟
لكن سعيد — رمى نفسه في الموقف الصعب من أجل خالته .. أنا أزفه لبنت
الأمين .. سعيد راجل (وقد عادت مريم من النهر .. قامت تفيدة لتعنيها في رفع
الجرة الملائى .. لامتها لأنها بللت صدرها بالماء ، أشارت بيدها لصدر ثوبها المبتل
اللاصق بالجلد . راغت مريم كعادتها وابتسمت .. تحت إلحاح بصر تفيدة
الغاضب على صدر مريم .. أنزلت مريم عينيها على صدرها .. فجأة .. غامت
فرجة الطفلة .. نكست مريم رأسها ورمت بعينيها على الثوب .

دخل صالح وخلفه الكلب « شيب » يهر ذيله ، ضربه صالح بقصبة ساقه اليمنى بعنف عوى الكلب وجرى للخارج .. عبر الفسحة الخارجية .. ثم عاد وأقعى بمرقده القديم وهو ينهه .

مد صالح يده لسعيد الذى قام ماداً كلتا يديه : مرحب صالح .. مرحب . ودخلت مريم خلف صالح .. طلب صالح من مريم أن تتركه مع سعيد — قال : بيننا كلمة خاصة — ونظر للكويين على صينية الشاى وطلب منها كوباً ثالثاً .

خرجت مريم وقالت الأم : الليلة يا صالح . صمت صالح .. أمسك بيراد الشاى وصب فى واحد من الكويين وقدمه لسعيد . وجاءت مريم بالكوب الثالث وأعطته لصالح ووقفت . صمت الكل . طلب صالح من مريم أن تغلق باب الحجرة أثناء خروجها . خرجت مريم متباطئة ونظرت لصالح وأبدت له أنها متذمرة ، أخذت باب الحجرة خلفها ، وتركته مفتوحاً قليلاً . قام صالح وأحكم غلق الباب . وتحت حائط الفسحة الوسطى جلست مريم قريبة من الباب وبعيدة عن الكلب مسافة ذراع رجل .

* *

بصوت مخنوق وحاد قالت الأم : الليلة يا صالح . صب صالح الشاى فى الكوب الثانى وقدمه لأمه . أزاحته يدها . سقط الكوب وأغرق السائل الأسود السجادة وطرفاً من ثوب سعيد . صرخت الأم : باليقين الليلة . ظل صالح صامتاً ، أخذ يحرق فى لهب الفانوس المعلق بسقف الحجرة ، أجهده البياض القدر ، أزاح بصره فوق على ثوب أمه الأسود ، أحس بكره لشيء ما ، لمعت عيناه والتقتا بعيني سعيد . مد سعيد ساقه اليمنى وأزاح عنها الجلباب .. ثم شدَّ سرؤاله الداخلى الطويل : بانث لفة قماش صفراء قدره .. كانت راقدة تحت سمانة الساق وقد شددت بخيوط القنب ، انهمك سعيد يخلص الخيوط مستعينا بأسنانه حتى يفك اللفة ، أمسكها ورفعها فى وجه الخالة وصالح .. هزها موضعاً ثقلها .. فعل ذلك مرتين .. ثم خفضها بأناة ومضى يفكها : وضحت الطبنجة فى الضوء .. سوداء .. بطول ذراع البالغ .. برقت ماسورتها فى الوسط . تناول صالح الطبنجة من سعيد وضربها بكفه ووثق من صلابتها .. قرب فتحة الماسورة لعينه نصف المفتوحة : ظلمة أيضاً وغدر أيضاً (كان الظلام وكان شيب صديقاً

لأنى .. وكان أنى يركب حمار شبيب الأبيض والرصاص المجهولة كان مقصود بها شبيب .. حين سقط الحمار سقط أنى .. والثأر هو رأس شبيب أرميه فى حجر أمى !!) أرقد صالح الطينجة بحجر ثوبه وسأل — سعيداً — وهو يصب الشاى فى كوبه : والذخيرة ؟ . مد سعيد يده لجيب صدازه الداخلى .. أخرجها قابضة على ست رصاصات صفراء تلمع .. رماها بحجر صالح .. رن الرصاص وهو يتضارب رنات مكتومة .

هبت الأم صارخة : الليلة يا صالح يموت .. قاتل أهلك الليلة يموت (كفان أطبقا على العنق .. رأت وجه شيبا .. ثم تبدل وأصبح الوجه لصالح .. كان المكان شيبا بمغارة .. ضيقا ومعتما ورطباً .. وكان سعيد يطارد هما وهى خائفة .. كانت ملابسها قد تمزقت .. كان الأمين جسداً مملوداً هربت منه الروح .. حوم ذباب كثير .. وكان له ذيول .. جاء الرجال بشجيرات العدس الصفراء الجافة وستروه .. وهى كانت عارية .. وكانت لينة من الدم تغطى وجهه .. ظهره كان للشمس تحرقه بغلء وتصيب على حوض الخمسين شواظ اللهب) .

ظل صالح صامتاً . رأت الأم صمته لغزاً محيراً .. رفاقته وهو يصب الشاى . قابلها ببصره فاهتز يراد الشاى بيده .. أعاد البراد للصينية وأطرق ببصره (غائب هو ومجبر على الحضور .. وهناك خدعة ما .. شبيب لم يقتل الأمين وشبيب يعرف القاتل .. والمقتول كان الأمين لأنه ركب حمار شبيب) . حولت تفيدة بصرها عن صالح وظلت تكنس المكان ، لم تكن تقصد — شىء ما بذاته — ارتدت أمام ساق سعيد العارية : سمانة الساق سمراء ومنتفخة وهناك جراح راقدة كوزغة ملساء .. حوله العشب .. شعيرات كثيفة وسوداء ، بكت تفيدة فى صمت (طلبت من ثوبها أن ينشق .. ومن ثديها أن يبعث اللبن فى وجه صالح .. والحيتان الصفراوان تنهشان ولا ترحمان) . كادت تفيدة تصرخ فى صالح « كان ذلك بمدى عمرك » ، لكنها ناحت ، كانت تنتفض وقد ظفر العرق : الليلة .. الليلة (لتظل تصرخ) القديم الغابر المتقيح المكوم على الصدر .. هكذا .. لتجرى الكلمات بطرقات الكرنك القديم .. مجنونة .. تلطم الحوائط .. تهز جدران العالم الأربعة .. تلك جدران الحجرة التى تحوطهم) يموت شبيب الليلة .. وابن عبد الرحيم يشوف الظلمة .. لتعرف روح أبوك يا صالح الراحة وتذوق نوم الميتين .. الأمين أبوك .. أبوك يا صالح — وهوت بجماع كفيها على وجهها .. وأسلمت نفسها للنحيب الطويل .

ضغط صالح على كوب الشاي بقوة كفه : هنا شيء شديد القسوة .. غليظ .. عفن كعشب الخبيزة ، ليضرب بكره ويحقد ، طوح ذراعه بقوة وقذف الجدار المقابل بكوب الشاي .. تهشم الكوب وتناثر الزجاج . ودخل الكلب — شيب — الحجرة وهو يعوى .. ثم انفلت جارياً للخارج الساحة وظل يعوى في الفضاء العريض بصوت عال .. عاد ودخل الحجرة وهو يعوى . وقذف صالح برصاصتين داخل الطبنجة .

* * *

ضغط باصبعه وقفز الكلب يعلو النصف قصبة وأطلق عواء فاجعاً .. وسقط تحت قدمي الأم .

هبت تفيدة واقفة .. الكلب أطبق فكيه على لسانه وعيونه المفتوحة بدت مريعة . واهتز جسد تفيدة .. لأنها تشعر بالخوف ولأول مرة من الكلب شيب .

حين دخلت مريم كانت الطبنجة ترقد بين فخذي صالح . وتفيدة كانت تشد طرحتها السوداء على وجهها . وللم سعيد جلبابه وغطى ساقه العارية : كان وجهه باهتاً . والكلب راقد مبقر البطن وقد اختلطت أمعائه المتفجرة بدمه . أدارت مريم ظهرها وخرجت باكية .

قال صالح لنفسه : إنه كان يكره هذا الكلب .. وكان يكره أيضاً تلك الدار .. وربما الجاموسة وأمه والحمار وزراعتهم والدنيا بجملتها .. وأنه لابد أن يقتل .. وفكر في مريم فيما لو قتل .. وقال : كيف يكون حال مريم ؟

انتحت مريم مكاناً بعيداً ، صدر السقيفة كان مفتوحاً ، نظرت للسماء المعلقة فوق السقف : زرقة داكنة وليس سواداً داكناً (لحظة يسهل فيها الخداع) ، نجوم قليلة باهتة الضوء (ليس لها ذيول لامعة .. ليس لها ذيول قط) ، ثقل جثم على الصدر (همَّ وعَرَّ ما خيره إلا يتيم الأب) ، شهقت مريم .. طلبت لروحها الراحة وطلبت من عينيها راحة الدموع (الدموع محال .. الجوف حشوه بالثلج وأرقده على نار .. والهواء الساخن حاصر المكان ، قامت مريم .. دارت في المكان دورتين .. ساقاها ارتعشتا وناختا تحت ثقل الجسم)

المراكب الصغيرة تنطوح في البحور الهائجة وتلعب الأمواج العالية بالمراكب الصغيرة) ، قالت مريم هاذية : أريد الراحة ، وضربت صدرها بكلتا يديها وأبقتهما تضغطان : أطلب هواء مريحاً وأطرد هواء متعباً ، أمسكت بالشوب شقته إلى نصفين .. وانفجر ثديان (أربعة عشر عاماً .. يمامتان فزعتان تأهبتا للانطلاق — لكنهما محشوتان من الداخل برمل وحصى ساخن) .

(ضربت بعود التوت الجاف فرع شجرة الجوافة . شمس الظهيرة لاهبة . الشمر يبرق . والأوراق الخضراء تلمع أطرافها . عليه ألف رحمة .. هو الذى غرسها أمام بوابة الدار . قامت الأم ونشرت قميصها الداخلى البمبى مع الضربات الأولى سقطت الثمار الناضجة ثمرة واضحة الصفرة واضحة الاستدارة وعنيدة . قال صالح — كان يعيد الحادثة على مريم وقد ادعت أنها نسيتها : كان عمرك أصغر من اليوم بخمس سنين .. كنت عنيدة يامريم . أمسك الفرع بيده . قالت مريم : لأنك طويل وأكبر منى . ناخ الفرع تحت يد صالح الجاذبة . قالت مريم لنفسها : الرجل ذراعه قوية . قبض صالح على الثمرة الصفراء .. قضمها بغمة وهى راقدة بين كفه .. بصق وضحك .. قرب الثمرة من فم مريم . قضمت من نفس المكان الذى قضم منه صالح .. بصقت قالت : مرة .. طعمها مر . ترك صالح الفرع . استقام الفرع لأعلى وظلت الثمرة تطل على مريم بعناد) . رددت مريم بصوت واهن : صالح .. يا صالح . تمتنت لو جاء على صوتها فهى فى ضيق (لو سمع لجاء) . عادت الدموع إلى عينيها فى دفع غزير (كانت مستحيلة وساخنة هذه المرة) .

بالحجرة البحرية وجدت نفسها . انتفض صالح قائماً . سعيد رمى بصره على الأرض . على ساعد صالح وساعد أمها وصلت للسريـر (جسمها انتفض ورفض أمها . هى لا تكره أمها .. لكنها ترفضها الآن .. أمها تسوق صالح للموت . أبوها مات . الأمين قتله شبيب عبد الرحيم .. صالح يقتل شبيب .. الموت يذوقه شبيب ، اليوم بيد صالح) .

ألبسوها ثوباً آخر .. وهى راقدة على السريـر وفوقها الغطاء له وبر .. وحولها ظلام وهواء حار (يخرج من جوفها ويزفر به أنفها) .. صالح خرج .

صالح يضرب والطبنجة تلمع نبح الكلب شيب وسقط .. والجاموسة
سقطت وكذا الحمار والبقرة .. والحمام سقط من الأبراج .. النار تلتهم كل
حى .. وصالح يضرب بالرصاص .. كل حى يسقط والأرواح تطير .. والظلام
يغرق الأرواح فى السواد الشديد .. وكانت مريم غير قادرة على الصراخ أو حتى على
الحركة ونوم ثقيل قادم لا تريد أن تسلم نفسها له .

أعطته يدها .. تأرجح كشمرة صلبة .. كان أسود بمثل ثمار الزيتون الراقدة
تحت الشمس .. سمعت صوت دف وندب معولة وصوت قفص يتكسر ..
جرت على الأرض الحامية .. الحصى لامع وخشن ويؤلم قدميها .. هى خائفة من
ذلك الذى يتبعها فى فضاء شديد الزرقة .. طائر محوم مقطوع الرأس ريشه شديد
البياض يصبغه الدم .. استقام النهر لعينيها .. وأنكسر بصرها أمام سطحه المتوهج
الاحمرار .. طففت صابونة على السطح .. تولاهها فرح اطفال .. وقذف النهر فوق
سطحه باللياف النخيل وعلق كثير أحاط بها وغطى فخذيه العاريتين .. كانت
عارية .. السواد زال من ثدييها عندما غطتهما رغوة الصابون .. البقع السوداء
كانت ثابتة بين فخذيهما وتحت إبطيهما .. الألياف خشنة والدم حار وتدققه لا
يجعلها تشعر بأذى ألم .. شعور جديد وحار .. وراحة مخبوءة .. عاد الوهج
الأحمر يضيء الكون من جديد .. برهان مفاجيء عكسه سطح الماء وتراجعت له
جفونها .. أطبقت على نظرها المنكسر .. أمسكها من الخلف .. بكلتا ذراعيه
القويتين .. لامس صدره ظهرها .. كان يغطيه الشوك .. وهى معه — كانا
يتدحرجان .. كانت الهوة عميقة ومعتمدة وغائرة الجوف .. كان الأفق بسمائه
الزرقاء وقمره البارد ونجومه اللامعة منطبقا على أحراش الأرض ورمليها الحار .. لم تعد
خائفة — حيث هما يتدحرجان .. ظلت تضحك فى جلجلة وجهه الآن — بان
واتضح .. إنها تعرفه .. قالت له وهى تضحك .. إنها كانت خائفة .. لأنها لم
تكن تعرف أنه هو .

أنا وهي
وزها ور العالم

الشجرة

حدثت نفسي بصوت خافت يحبه ضميري :
« والسماء ذات الصدع .. لقد خالف أمراً .. مما لاشك فيه أنه خالف
أمراً — لهذا أمسكت به الشرطة ، هو صديق وأنا أحبه — لكنني ما خالفت أمراً
قط .. قط .. قط . قط والله أمراً ما خالفت — فلماذا لا يأخذ هو نفسه بما
أأخذ أنا به نفسي ؟ لماذا يارب السموات !! ، ثم إنه لا يجب أن يراني حتى لا
يُدعى أنه رآني .. وما من أحد من المارة — وهم قلة — يعرف علاقتي به حتى
يأخذني بلوم .. ما من أحد .. ما من أحد يجرو ، كما أن اليوم يوم راحتي .. ولي
صديقة تنتظرني — هناك بالحديقة تحت الشجرة : يالها من شجرة .. ساقها
أملس صعب على الإنسان أن يعتليه .. صعب صعب .. جذورها الواضحة فوق
الأرض تسعى طالبة لماء العين البعيدة .. لحاها أبيض ناصع البياض .. أوراقها
الخضراء تلمع كأنها أجنحة الطير ترف تحت الشمس .

* * *

ها هي ، ها أنا ، ها هو العالم ، وهاهي الشجرة. يا للسنوات .

قالت : كنت هناك .. كنت بالشارع .. يوم كنت هناك .. يوم أمسكوا بك .. لم أجزؤ .. يا للسنوات .

قلت : كنت هناك .. كنت بالشارع يوم كان هناك .. يوم أمسكوا به .. لم أجزؤ .. وكنت أظن أنك هنا وكنت أنت هناك .. يا للسنوات .

قالت : يا لك من ولد طيب .. يا لنا من أطفال مساكين .

قلت : يا لك من فتاة طيبة .. يا لنا من أطفال مساكين .

(قلبي وقلبيها مازالا محفورين على ساق الشجرة بأسمينا)

قالت : أذكر يوم أعطتنا ما يعطيه ثدى الأم : كان لبناً ناصع البياض .

قلت : أذكر .. كان دمعاً ولم يكن لبناً ناصع البياض .

صرخت وضربت الأرض بقدميها الصغيرتين : كان لبناً ناصع البياض .. لا تجزم هل ذقت طعمه ؟

وخلعت نعلها ومدت يدها : صغيرة مبلولة ترتعش . وكنا نطوف حول الشجرة .

قالت : ولكن هل يعرف الشجر الأمومة مثلنا نحن البشر ؟

قلت : للبن طعم .. والدموع مالحة .

قالت : ولكنك لم تجرب .

وقالت : لا أنا ولا أنت .. نجزؤ .

وقالت : يا لها من شجرة .

فصرخت : نعم .. يا لها من شجرة .

اليوم الأحد

(١)

كان يعبر الطريق مسرعاً ، وكانت العربة أيضاً تقطع الطريق مسرعة .

(٢)

خلق كثير صنعوا حلقة حول الجثة والعربة « الفيات السوداء » . صاحب العربة السوداء الذى هبط كان قصيراً ببطن ، لا يكف عن مسح جبهته وعنقه بمندپل أبيض كوره فى كفه .

(٣)

نادى رجل مسن يحمل بيده منشئة — الجميع يستر عورة الميت . بائع صئحف طويل ضامر يلبس جاكطة قديمة قذرة طويلة الأكم — انحنى وفرش كمية من ورق الصحف فوق الميت ، وعاونه فى هذا شاب له شعر غطى عنقه وكتفيه ،

بيناً رفيقة الشاب الشابة أدارت ظهرها كى لا ترى . « قصيرة القامة قصيرة الثوب قصيرة الشعر كأنها غلام ، رغم ذلك فهي حلوة » — بهذا القول حدث الولد زميله . تلملت هي وكشرت وتقدمت خطوتين وسمعتة يقول لزميله « ستموت هي .. وأنا وأنت « فجأة » وهي تعرف .. والحياة فرصتنا فلماذا ؟ » . دس صاحب « الفيات السوداء » يده في جيبه ويبد مرتعشة قدم عشرة قروش معدنية لبائع الصحف الذى رفضها قائلاً : « الثواب عند الله » . جاء ذباب كثير وعف فوق المكان . وأتت عربة هبط منها ثلاثة رجال جادون بملبس كامل حسن برفقتهم عسكرى — وفى التو انضم اليهم عسكرى المرور . رجل من الثلاثة كان يتكلم أما الثانى فكان يكتب فى دفتر صغير ، والثالث كان يشير الى أماكن محددة ليرسم العسكرى بالطباشير على الأرض دوائر صغيرة ودوائر كبيرة وعلامات (X) .

(٤)

وقد مر وقت ، استرد صاحب العربة السوداء توازنه فخفت حدة حركاته وهو يتحدث مع الرجال الثلاثة . ولما أتت عربة الإسعاف انفرط العقد وهبط الرجال وحملوا الجثة على خشبة .

صفوت الحلقة ، وانفض الجمع كله لما غادرت العربتان المكان : عربة المحققين والفيات السوداء . وغادر عسكرى المرور المكان لينظم حركة المرور المعطلة : تلك التى تجعل العربات تزعق وتناديه .

(٥)

« الضاوى » العامل بدكانة أحذية « النجمة الزرقاء » أتى بجردل من البلاستيك — وهو يتابع بعينيه عسكرى المرور الذى لم يبلغ مكانه الخشبي بعد ورش مكان الجثة بالماء وكنسه بمكنسة . وطار كثير من الذباب . وسارت العربات بطيئة فمسرعة : رتلاً طويلاً بكل لون .

أنشودة الطراد والمطر

كان المطر مازال يسقط ، وكان أقل حدة مما كان ، وكان الجو ممتلئاً بالرطوبة تماماً .. وكذلك كان باطن الأرض ، وكانت السحب الدكناء تعد بالمزيد .

كان الشارع خالياً فالمطر لم ينقطع منذ الصباح ، وكنت قد ابتسمت فتسللت قطرات من ماء المطر كانت على وجهي إلى شفتي : أحسست بجسمي كله متشبعاً بالرطوبة والملح .

كانت أضواء المدينة تبدو من بعيد — في الظلمة — كنجوم هاوية بين الأرض والسماء المنطبقتين ، وكنت أضرب أسفلت الشارع المبتل بخطوات سريعة وكنت أتابعها وكانت تعود بدق المطر على الأسفلت الأسود اللامع وصوت الماء الهارب للبالوعات .

كنت قد بلغت سدة الشارع ، كان هناك أمام البوابة المغلقة ثلاثة أشخاص ، وبدأ لي الذراع الأحمر الممتد بعلامة الخطر كما لو كان معلقاً متدلياً من السماء ، ويدت لي المسافة بين السماء والأرض قريبة جداً — وهكذا كانت دائماً في الليالي المظلمة حيث المطر .

كان واحد من الأشخاص الثلاثة قد استدار — تاركاً زميليه أمام بوابة محطة السكة الحديد المغلقة — وانسل من بين الأعمدة الحديدية المنتصبة كالرجال السود — بامتداد الخط الحديدى ، وكانت هناك صرخة تحذره — وكنت قد تبعته ، كنا قد نفذنا من الجانب الآخر فجعلت ضحكات الرجلين أمام البوابة .

كان القطار قد مر وكنت قد اصطدمت بظهر الرجل ، وكانت ضحكات الرجلين قد تحولت إلى مزق ، وكنت قد باعدت بين وجهى وبين التفاتته السريعة ، ولكنه كان قد عاجلنى بنظرته وتأكد — أخيراً — من أننى أنا ومن أنه هو الذى سيتمكن منى .

جريت فى الأرض الخلوية الواسعة ، كانت الأرض مجدورة بمئات الحفر التى تحولت إلى برك صغيرة من الوحل .

وها — أنا — ذا : قد بلغت المنحدر حيث ينتهى الزمان والمكان ، لم يكن أى من الرجال خلفى . مسحت الطين العالق بحذائى ، وبقيت تلك الارتعاشة بأطرافى وبالداخل ، كان المطر قد كف ، وكان الحجر الذى جلست فوقه شديد البياض وقد غسله ماء المطر ، وكان ظلى هناك — بعيداً — يسبح فى برك الوحل الصغيرة .

البكاء والثالث

حل المساء . كانت قاعدة على شلثة قديمة ، عن يمينها باب الحجرة الوحيدة الضيقة نصف مفتوح ، يواجهها باب الشقة الخارجى المغلق بالمفتاح من الداخل قامت مستندة على جهد ذراعيها وساقها : دقت بالأرض مسمارين وبالهواء مسمارين وعلقت جسدها القليل اللحم .

عبرت مستطيل الصالة القصير إلى ركن المطبخ الضيق . فكرت فى القبة وقالت إنها تشبه ذلك الطائر الترانى اللون الضئيل الحجم القليل اللحم المختبىء وسط شجيرات العدس القصيرة الكثيفة ، قلبت الأوانى القليلة والعلب الفارغة المكومة وعثرت وسط الكراكيب على عودين من الكبريت مبلولين من الرطوبة ، أشعلت لمبة الجاز وأعادتھا إلى مكانھا : معلقة بمسمار مدقوق بحائط الصالة — فحل محل عتمة الغروب الرمادية ضوء أصفر شديد الشحوب ظل يتغامز ، أغلقت النافذة الواحدة الوحيدة ذات الضلفة الواحدة فاستقر الضوء والظل فى خطوط تقاطعت فى حدة .

عادت وجلست على الشلثة القديمة ، وبجوارھا قعدت ابنتھا الوحيدة بنت العام الرابع عشر . ظللتا صامتتين . وكانت تلبس ثوباً أسود جديداً وطرحة سوداء

جديدة تذكرت زوجها المتوفى من عامين — فجأة ظلت ترثيه وتعدد محاسنه في سرها ثم جهرت بصوت خفيض ، وبالتدريج ارتفع صوتها وصار له صدى خفيف مسموع يصطدم بالحوائط في خبط هين .

« قالت : كان كذا ، وكان كيت ، وكان وكان ، أشياء تعرفها هي وحدها دون سائر البشر ، وأشياء عرفها هو عنها دون أى مخلوق في العالم ، كانت نكدة وكان يحبها أكثر مما كانت تحبه . لهذا مات ، قالت : « أنا أعيش الحياة وأتعذب » .

انفجرت في بكاء حاد متصل ..

فجأة ، نشجت الابنة ، أخذت نفساً قوياً من الهواء وكتمته وأطلقته قصيراً متقطعاً موجوعاً ، ثم مضت في بكاء حاد متصل .

تلاوة ماسونية

جواب

مر وقت طويل وأحمد بانتظار الأوتويس (١٤) ، وما قد جاء الأتويس (١٤) ، وكان اليأس قد تمكن من روح أحمد الصابرة ، جاهد أحمد جهاد المؤمن وتمكن من كرسى وقعد أحمد ، ومازال أحمد قاعداً .

مطوق أحمد باللحم الحى والدم الساخن والعرق الذكر والعرق الأنثى والروائح الطيبة والروائح الخبيثة .

ها هو يفكر فى الله مالك السموات السبع وملاك الموت الذى يلم تحت جناحيه كل حى ، وهاهو وحيداً فى مواجهة البدن الهائل والدود النهم المحب للحم ابن آدم .

رد

ما كان يجب أن يفكر بمحض اختياره — وهو قاعد — فى الصندوق المقفل بإحكام ، ما كان يجب أن يستسلم لتلك الرؤيا — وهو قاب قوسين أو أدنى من غايته ، عليه — الآن — أن يخلص روحه بالكتف ، ليهبط ، عليه أن يتقبل العقاب .

جواب

عن يسار أحمد : شجر مورك ، والنيل يجرى بقوارب تحمل العاشق والعاشقة .. وقوارب قادمة من جنوب مصر محملة بآنية وقوارير من فخار .

وهو — بشارع الكورنيش مع عربات « عامة وأجرة وملاكي » مسرعة تزعق وتنادى وتكشح الدخان والهواء والورق اليابس الساقط من الشجر .

أدخل أحمد يده بجيب بنطلونه ، وأخرجها قابضة على تذكرة الأتوبيس وكور التذكرة وضغط عليها بإصبعين ، وطوحها للريح الخفيفة التي صنعتها العربات الزاعقة المسرعة .

رد

ها هو مرة أخرى تحت طائلة العقاب ، لا يملك — مهما حاول — دفع أو إيقاف ذلك الذي داهمه : هذا الشعور الواقعي أنه مهان .

فانتازيا .. العنف القبيح

متى ضرب الباب الزجاجى بقدمه دخل البار ، وراح الباب الزجاجى وجاء ،
وأمرت السماء فى الخارج ، ينظر للمروحة العاطلة : لا تدور .

يطلب نصف زجاجة براندى « متوسطة السعر والجودة » وزجاجة صودا
« حالما يفتحها الجرسون تفور — وإلا فهى فاسدة » وطلب طبقاً به شرائح ليمون
حلو ، صب كأساً وشربها دفعة واحدة ..

يشرب كأسه الثانية دفعة واحدة أيضاً ، ينظر للمروحة العاطلة لا تدور —
ويكون قد شرب كأسه الرابعة . كأسه الرابعة .. كأسه الرابعة ..

على البار ، يجلس الجميل ، لا تتجاوز سنه الثانية والعشرين لا يكف عن
الحديث بصوت عال مع العجوز الايطالى المتصانى. رفيقان لا يفترقان . العجوز
الايطالى يدفع الحساب دائماً ويسخو فى البقشيش . الجميل صورة مماثلة للممثل
الأمريكى الذى يؤدى دور « الدركى » فى أفلام شركة « بارمونت » الأمريكية :
بنطلون ضيق ، إسراف فى الحركة وانفعالات حادة وانضباط مفاجيء ، يونانى
الأب ، الأم من أسرة مسيحية أتت من لبنان واستوطنت بمصر منذ أعوام بعيدة ،

من العنق تتدلى سلسلة ذهبية ، تنتهى بصليب ذهبي يتأرجح على الصدر العارى
(الأملس ، كعب الخذاء يشبه الكوب ، القميص المفتوح . أحمر أحمر أحمر ..
وياقته طويلة حادة الأطراف) .

ينظر للمروحة العاطلة : تدور : ويتذكر أشياء فى حياته ، ويشعر برغبة فى
البكاء ، ولكنه يقاوم ، ويشرب كأساً والمروحة مازالت تدور ، يشير للجرسون
ويدفع الحساب ، وتعاوده الرغبة فى البكاء ، يشرب كأسه الأخيرة ويغمغم :
السفلة ، ويبصق ويندفع للخارج : يتوقف المطر ، والمروحة العاطلة تدور لا
تزال .

تحت ضوء اللمبات الأصفر يلمع أسفلت الشارع الأسود المغسول ، لأعمدة
النور ظلال ساقطة ، يشعر بثقل الظل .

يمشى خلف ثلاث فتيات يلبسن « المينى جيب » ، واحدة منهن قصيرة وسمراء
ونخيلة اسمها « إيناس » طالبة بكلية الفنون الجميلة ، بالسنة الثانية قسم
الديكور ، لا تحب اللويا ولا الفاصوليا ، تحب « مامتها » جداً جداً وتصارحها
بكل شئ ، لا تحب الفول الأخضر أيضاً ، تحب الأطفال حتى سن العاشرة تحلم
بالسفر لألمانيا الغربية — تحب أصدقاءها جداً جداً — لها أصدقاء هناك ، تكبره
القعود على كرسي لمدة ثلاث دقائق بأية سينما حتى ولو كان الفيلم « زوربا
اليونانى » .

النسور المدرية يا الله هناك عند المنحنى .. النسور المدرية جيداً يا الله .. كل
نسر يا الله قبض بمخالبه القوية على فتاة .. لا يلتهمها بعد .. يطرح فتاته أرضاً
ويوسع فتاته ضرباً .. قابضاً على لمة شعرها .. شعرها القصير يا الله .. ويجرحها
على الأرض (التم جمع كبير وتحركت عربة الأخلاق : كسرت الحلقة وتفرق الجمع
وأتى الهدوء المعتاد المؤلف) .

قال لنفسه : هناك ، فى القسم ، تكتب كل فريسة إقراراً واحداً بعدم العودة .
للبس « المينى جيب » وينتهى كل شئ .. كل شئ يا الله .. كل شئ .

انتظم فى الإيقاع الجماعى : بهدوء كالمعتاد ، الأضواء على الأسفلت تلمع ..
الأسفلت الأسود ، أعمدة النور واقفة كالرجال .. واقفة تسقط الظلال على أرض
الشارع المبلول الأسود الأسفلتى اللامع .

وجد نفسه وحيداً وعادته الرغبة فى البكاء ، وانتظر شارة العبور ، وفى الميدان
وقف أمام فاترينة محل بيع الملابس النسائية ، فوق قطعة ملابس داخلية كان
تمساح صغير من البلاستيك يزحف ببطء .. ولح الرجل القصير الأبحر يقف
خلفه ، وشعر برعدة شديدة لما أشار القصير الأبحر — بصحيفة الصباح التى
يمسكها بيده — إلى شارع جانبى خافت الإضاءة .

هبط الدرجات الست وبلغ مدخل القبو ، شعر بالرطوبة وشم رائحة
الرطوبة ، وانهمز بصره أمام تماسك اللون الأسود ، وظل ينتظر ، وسمع وقع الخطوات
وعاش التوقع : واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة ، ستة ويأتى القصير
الأبحر ويضربه بعنف وحقد وكره راهن ، ربما يضربه القصير الأبحر — هذه المرة —
حتى الموت .

شموس

(أ)

سيارة الرجال الثلاثة — وقفت ، بجواره ، فجأة — بحللهم السوداء ذات
اللمعة المخيفة . الثلاثة — كالغريبان ، وقد طوقوا أعناقهم برباطات سوداء تتدلى
بميل على قمصانهم البيضاء بياقاتهم الطويلة الحادة . وعلى صدورهم كانت القرنفلة
البنفسجية مرسومة .

(ب)

كان مع المارة وأعمدة النور وأسفلت الشارع والعربات وسائر الأشياء — لما
مزقت ضلوع صدره حربة النار ذات الشعب : التي يمسك بها الخوف صاحب
الدرع والخوذة .

(ج)

ولّى البرد المهلك عن بدنه وفارقه الرعشة الزرقاء — بفضل رب الموت وبأمر
رب الموت المطلع على أعمار كافة البشر : الذى صرف السيارة لغاية أخرى ، وبلل

لمصبغه بلعابه الأصفر المر ومرره على الجرح الميت — فإذا بالجرح الذى كان مميتاً
يصير إلى جرح غير مميت وإن بقى الوخذ الموجد .

(د)

هو المحب للسير مع الحذر الواجب — وقف ، أمام محل بيع اللب والفل
السودانى والحمص فى قراطيس ، واشترى — هو الذى يحب الفول السودانى —
قرطاس حمص تغطيه طبقة بيضاء من السكر .

(هـ)

سار بالشارع مع الناس ، يمص السكر ويشعر بحلاوته ، ويجرش الحمص
بأسنان رجل مكتملة . وما هو بالمخمور ، وما هو بالراغب فى الخمرة ، لكنها
السنوات تطوح به، تطوح به — وهاهو يهبط السلم عارياً بيدن يرتعش .

١ - جاء المدينة بملايس ذات ألوان ، وكان شاباً ، وكان يملك مالاً (بعث
الأرض التى ورثها عن أمى بعد أن ماتت ، بعث الأرض بعد نزاع مميت مع أبى
الكهل المقعد الذى ما لبث أن مات ، فدخلت عراكاً مع خالى وعمى وقريتى
التى تطارد من يخاصم أهله كما تطارد ثعالب الحقول وذئاب البر) .

٢ - ماتت ، ومات ، ورأيتهما فى كيسين أبيضين ، ورأيت الحفرة مظلمة ،
النهار أيضاً مفزع أقضيه حتى يحل الغروب المرعب بحجرتى — وقد قنعت بها
مسكناً بعد أن أنفقت الكثير من مالى القليل على الخمرة والدخان والأكل
الرخيص (ممدد على سريره الخشبى ، نصف يقظان ، يرى السياج — الذى
صنعتة أشجار السيسبان — من نافذة لها قضبان من حديد أسود وشبكة من
السلك القديمة — ممزقة) .

٣ - يعرف كل خمارات المدينة ، يسعى — برغبة دائمة فى الكلام
والمشاركة — إلى تلك الخمارات التى يتردد عليها نصف المشهور ونصف الموهوب

من ممثلى السينما والتليفزيون والإذاعة والمسرح ، وموهوب نصف مشهور فرض عليه
أو قدر له ألا يبلغ الطريق حتى منتهاه ، شعراء وكتاب قصة ورجال صحافة —
أصحاب ميول سياسية تجلب السخط على أهلها .

٤ - تنقطع عنى المياه وأنا أستحم — ربما بسبب هؤلاء . وربما لأنى ، وإن
كنت أجزم ، آه ، لا أذكر ، هل ارتكبت ذنباً ؟ لم تغمز لى لمبات الشوارع ، لم
يطاردنى بشر ينظرون إلى ساعاتهم فور دخولى أى مكان ؟ (يضربونه بالكثف من
غير سبب ، ويتخطاه الأتوبيس المسرع ولا يقف إلا وهو مزدحم ، يعامله
الكل — الباعة والمارة والصحاب — تلك المعاملة التى لا تليق بكلب ، تطارده
الوساوس ، ولا يقف له التاكسى ، حواليه دوماً عربات : عربات إسعاف وعربات
شرطة وعربات جيش وعربات صحافة وعربات القطاع الخاص والعام) .

٥ - أى ، الى متى؟ ، الى متى يسرقنى الجرسون ويدس لى صاحب المطعم
الحصى بالطعام؟ ، لم لا يرن جرس التليفون لما أطلبها ؟ وإن رن لا أسمع ردها !! ولو
رد أسمع من أريدها تقول إنها ليست هى !!

٦ - على كرسيين من خيرزان وقش ، قعدنا على كازينو مطل على النيل به
شجر وورد — بعد أن فشلنا فى الحصول على مسكن لنا .

قالت : أشعر بيدنى قرية بعيدة هناك ، الليل بنجوم قليلة متباعدة تعارك ظلمة
تحجب تلأل الشرق الزرقاء ، وهناك وعد بمطر ، أما الرعد فلا أسمعه ولا أحسه .

٧ - قالت : أمر البيت لا يهمنى الآن ، لا شىء يهمنى الآن ، لا أود أن
أكون معك ، ولا أود أن أكون مع أحد ، ولا أود أن أكون وحيدة وأود أن يتوقف
كلية شعورى بيدنى الذى أكرهه .

٨ - وقفت غاضبة ، وأخفته عنى بثوبها الواسع ، قالت : أردت بدنى ،
وتظن أنك تمكنت ، تدس نفسك الخوافة وتنتظر امرأة أنا ، وأنا قرية ووطن ،
وأنت سيد بدنى ، يالك من فالح .

٩ - تقول إننى أدبر لها — أنا الذى أقرأ الكتب ، وهى ألا تدبر لى ؟ ، لقد صنعناه معاً ، وهى بمقدورها أن تهينى الطفل أو تمنع عنى الطفل ، وبمقدورها أن تخنقه ، لكن — هل تكون المحبوبة قاتلة ؟ هى المحبوبة ولا أريد أن تكون قاتلة .

(و)

الزجاج عكر ، وأنا وجه مملوء بالتجاعيد ، جفونه واردة والبرص يرقد فوق حاجبه الأيسر ، ينتظر الموت الذى ينتظره ، والأيام التى مرت من العصى أن تعود : هذا ما يحزننى .

إلى الشاطئ الآخر

ناديته ، وهببت واقفا ، كنت فرحاً به . كنت طائراً لا أظن إلا أنه أسود ،
وها هو في أحضان بيضة دافئة ، كم هو رائع صديقي هذا .

قال « تعال .. قم يارجل .. ذات يوم سترفع من مقهاك هذا الكئيب إلى
الحفرة على خشبة » .

ناولته سيجارة رفضها ، وسعل ، وسب البرد والدخان وكذا ليالى الصيف
التي تجعل الآدمى منا ينام عارياً وتجعل — ليالى الصيف تلك — الفرد منا لا ينام
ونافذة حجرته مغلقة وسألنى عنها .

قلت « هى تعرف أننى هنا .. دائماً .. بهذا المقهى .. ومع ذلك تمر
لأراها — لكن دون أن تلتفت إلى » .

وشققت صدرى ، ومن البيوت المهدمة المحترقة انتزعت قلبى وهو ينتفض —
المسكين — فى كفى صغيرا ، وأسلمته له . ورآها منقوشة بالإبر ، وقال
« حلوة .. عرفت كيف تنتقى ثوبها وكيف تهذب شعرها ليبدو وجهها الحزين
هكذا ضاحكاً : عارية القدمين بنعلها ذاك ، القدمان أرنيان صغيران من ثوبها

الأبيض القصير النظيف رأيت الساقين كوين من الخمرة باللبن ، تمسك منديلاً
منقوشاً صغيراً في كفها تهصره وتخضب الكف الصغيرة المرتعشة — يالوعتى —
بالدم ، يا لله كم هي قلقة ، ما أروع حزنها ذاك كأنه كوبان من القهوة باللبن :
تبرق به العينان — من خلف نظارتها الطبية — كأنهما كوبان من القهوة باللبن .

وكان يتكلم هو وكنت صامتاً ، وكنت أراها مستعجلة تضرب الشارع بنعلها
فيفر الأرنبان ، وتقطع الطريق القصير إلى مارقة ما بين العربات — حزينة
ضاحكة ، ومن فتحة الصدر رأيتها : في عشمها .. يمايتين فزعتين بزغب
وبمنقارين ، وأغلقت عيني — أنا الذى أفرعتهما ، وسمعت رفيف الأجنحة العارية
من الريش .

وقال هو: « الداء الداء » . وشعرت بشهيتى تتفتح للخمر . واستضافنى هو،
كوى نشعت على سطحه الخمرة الباكية قطرات من اللؤلؤ النقى ، كوى قبضت
بكفى عليه وسمعت صوت حبات اللؤلؤ تتكسر وشعرت بالعرشة المشتهاة ،
حركت كوى وسمعت صوت الخمرة وهى ترتج وصوت النسغ فى عروقي وصوت
قوالب الثلج الصغيرة وهى ترتطم بالزجاج .

كأسى السابعة ، ذابت قوالب الثلج الصغيرة فى كأسى السابعة ، وصديقى
سخى اليد والقلب ، وهى أمامى فوق ورائى هنا هناك : فى نيل رائق .. ما أقرب
شطيه .. ما أبعد شطيه ، يا ذراعيها اضربا بمجدافين .. أنتما : الفأس وساق
الشجرة ، أيتها السماء فوق يا عيونها التى تطل بالنجوم .. ارقدى يا أيتها العيون
لأرقد فأنا جد مخمور وصديقى تركنى وحدى .. وأنا جد حزين .. أنا هالك
سيدتى .. الطريق بعيدة والسير أتعب أقدامى .. يا لطرقات تلك المدينة ذات
القباب .. يالى من تعس .. يالى من فاشل بأكفان بيضاء .. هذا يوم بخمسين
ألف سنة والأمس كان كذلك .. وغداً .. سيدتى .. سأعرج وحدى أنا
العاشق — عاجزاً عن الفعل .. مؤمن كطبعى بالكلمات :

« ميم صاد راء .. السنوات .. الماء النار .. اللبن .. الخمر .. الزرع ..
القوارب . ميم صاد راء . الرمح الريح .. القلاع .. المآذن .. السهم .. الأهرامات
البيوت .. ميم صاد راء .. الطفل القوس .. الحشائش . الدم .. الحرب ،
العيون .. سيناء الرايات .. الحب الحب الحب » .

الدرس

ثم أضاف باللاتينية : لأن خلقى يا بنى سيكون أسداً هصوراً لا يفتش إلا عن فريسته .

- الأب بيرار -

ماذا يعنى هذا ، إنه فخ دون رب ، لنستمر فى اللعب بحذر .

- جوليان -

- الأحمر والأسود ، ستاندال -

رفع المزلاج الحديدى الثقيل ليفتح الباب الخشبى الثقيل من الداخل انفرجت أصابع اليد فى قسوة — كما ترى ، عروق اليد نافرة وقد حالت الى اللون الأزرق بعد الوفاة .

انقلب على الباب بوجهه — وقد أيقن كلياً عجزه ، كان ينبغي فتح الباب ليفلت من مطاردة ، شعر بماسورة البندقية تلامس ظهره ، وسبق هذا شعور هائل بالرعب — خلفه المطاردة : بخطواته الواسعة وقدميه الثقيلتين تحملان البدن العظيم وتهرسان أحجار الجير البيضاء الرخوة التى تغطى السطح ، انظر لحجم القدم .

انها لإنسان بدائى ولا شك ، من جانبى أفضل أن أسميه بالإنسان الأول أو إنسان العهد القديم . ولن نترك للبندقية كسلاح قريب العهد أن تضللنا وتطمس شخصية المطارد — لا القاتل — بالتحديد هذا ما أعنيه بالطبع ليس بإمكانك أو بإمكان غيرك أن يرمى الفاعل بأية صفة لا تتناسب مع الفعل ، إن نوعية الفعل هى التى تحدد لى الصفة التى أطلقها على الفاعل .

كان الأمر هكذا إذن ..

ارتقى بوجهه — ولكن بقسوة وعنف وبقوة اندفاع — أجزم أنها مقصودة ثم حدث الجرح المميت الذى نراه بالجبهة هنا من مفرق الشعر حتى قصبة الأنف ، ومنه — من فتحة الجرح — يمكن لكفك أن تنفذ وتخرج لولا الدم الذى انفجر بغزارة ثم جمد وتيبس : إنه ذلك اللون الأسود المتفجّم وقد مر على الوفاة ما يتجاوز العشر ساعات

الاستطراد المنطقى وحده هو الذى سيقودنا إلى النتائج المنطقية المقنعة : اصطدام الجبهة العنيف بالباب الثقيل أحدث الشق المؤلم ، وحدثت الوفاة ، ثم أتت الرصاصة متأخرة — ربما أقل من عشر الثانية بعد الوفاة .

كان صاحبنا وقد شك فى قدرته على النجاة — هذه المرة لم أقل الفرار — قبض على المزلّاج الحديدى الثقيل ودفعه قليلاً : بهاتين اليدين المتصلبتين ، تلك الأصابع المنفرجة والعروق النافرة ، وضرب جبهته بالباب الثقيل الموصد بكل ما أوتى من قوة الراغب فى الحياة الهارب من الموت ، وبرعب شديد من المطارد — هكذا تمت الوفاة .

الأمر كله فى ظنى — بل فى يقينى — لم يكن أكثر من لعبة ، لعبة سمجة ولا شك ، ولكن لم ندع الأمور تضللنا نحن الرجال — بعد تاريخ طويل أنجزنا فيه تفوقاً مذهلاً فى الكشف عن أشد الجرائم غموضاً : بنعمة العقل وصلابة المنطق وخبرة التدريب وقوة السلاح وحقائق العلم .

نعم .. دعنى أكرر — كيف نسمح لأنفسنا وتحت أيدينا العديد من الوسائل المتقدمة إلى أقصى حد فى مواجهة العنف اليومى المتكرر ، كيف نسمح

لنفوسنا بأن تخدع، أنت لا ترى مقدار ما يصيبنا — ولا أكون مغالياً حين أقول
يلاحقنا — من سخرية مرة لن نحتملها ، وقد تدفعنا نحن الذين لم نهن ولم نعرف
اليأس بعد ، نحن المنوط بنا تنبيه الآخرين إلى الفجأة وحمايتهم منها — إلى
الانتحار .. هل نسقط أخيراً ضحايا خدعة تجوز على العامة فتصيب روحهم
ببليلة تؤدي إلى مقتل حتمي .

الأمر الخصة في أن الرجل المتوفى أراد أن ينفلت من ظلمة المكان ومن مطاردة
البدائي الواسع الخطوة الكبير القدم : انظر إلى الأحجار الجيرية المتفتتة — هاك
طبع القدم : من هنا إلى هنا ..

كان المتوفى يجرى. وجرى البدائي خلفه مدفوعاً بلذة الطفل ورغبته في المحاكاة .

وأنت معي في أن « من أين للبدائي عقل الرجل الناضج مثلي ومثلك !! ثم وأن
البدائي لاشك قد شاهد الرجل المتوفى في المكان قبل ذلك مرة بل مرات عديدة :
رآه يغتسل وينام ويشخر ويأكل ويقضى حاجة ويحمل بندقية ، وأنبهك أن البندقية
أصلاً ملك للمتوفى — بهذا تشير كل الدلائل : من أين للرجل الأول رجل العهد
القديم أن يحصل على بندقية ؟ بل كيف له وهو صاحب العقل البدائي أن يدرك
ماهية البندقية كأداة قاتل !!

لم يكن الأمر أكثر من عبث طفولي بحث من جانب الرجل الأول : محاكاة
للرجل المتوفى في عملية الجرى، تلتها اللذة الطليقة التي تخلقها روح المطاردة —
وهذا لا يتوفر لعقل البدائي فحسب وإنما لأي حيوان أو حشرة خسيصة كشعور
غريزي .

كان يعابته ، ألصق فوهة البندقية بالظهر ، وبالمصادفة أو بدافع المحاكاة
اصطدم الإصبع بالزناد ، وتنطلق الرصاصة ، ولكن بعد فوات الأوان ، بعد أن
يكون رجل زماننا قد قضى على نفسه منتحراً : باليأس من رفع المزلاج وفتح الباب
والخوف من رجل العهد القديم ، الخوف غير المبرر ، وانطلقت رصاصة ثانية
وثالثة ورابعة وخامسة حتى الرصاصة الألف : أحدثت هذه الثقوب بالظهر ،
فأحرقت الثوب وتركت ابن زماننا عرياناً وجعلت ظهره كمصفاة بها ألف ثقب .

لو كان البدائي يملك قدرات الوعي — التي هي منحة التجريب والتاريخ — إذن لما أطلق الرصاصة الأولى وقد مات الرجل قبل بلوغها بعشر الثانية من اصطدام الرأس بالبواب .. فما بالك بألف .. ما حاجة الميرت لألف رصاصة ليموت .. هل هي رغبة الرجل البدائي في التأكد من موت الرجل : الذي تراه أمامك بفضل جسده العارض ضئيلاً متناهي الضلالة ، هل كان رجل العهد القديم يخاف المواجهة الصريحة المباشرة وهو العظيم الجرم الفائق النقص — حتى فيما لو جردناه من سلاحه وهو بندقية ليست حديثة الطراز ولا يوجع مخزانتها سوى ألف رصاصة ؟ أنت واهم حين تظن ذلك يشكك في قدرات رجل العهد القديم الطبيعية ، وها أنا أضع تلك الفرضية أمامك .

« هل كان الأمر سيتغير وترى جثة رجل العهد القديم بدلاً من جثة رجل زماننا فيما لو نزعنا البندقية كأداة قتل من يد الأول ولم نسلّمها ليد الآخر ؟ » .

أقول لك : لا .. سيظل التفوق الطبيعي للفرد القديم على الفرد الجديد ...

ها هي وجوه الخدعة تتكشف أمامنا .. وها أنا أراها كشمس الظهيرة هناك عند خط الاستواء ، وشيء واحد كان بإمكانه أن ينقذ رجلنا المنتحر : المواجهة .

لو واجهه ابن زماننا البدائي لرأى البدائي — بدلاً من ظهره — تقلصات في الوجه وجحوظاً في العينين وفماً فاغراً ، أشياء تنطلق بالخوف الصريح ، هنا كان البدائي لاشك سيتراجع بهدى التجربة والغريزة اللاهمية — التي لن نسمح لأحد بأن يشككنا فيها ، ولما حدث شيء — أي شيء للحصانة المدعورة : تلك التي تعرف حكايتها .

أنا وهى .. وزهور العالم

كنا بالحديقة — أنا وهى ، وكنت طامعاً فى علاقة تربطنى بها : أية علاقة .

وكان بالحديقة شجر مورق ، وحشائش خضراء ، وطير بأجنحة ، وعين ماء — أراها مرة ياقوتة ومرة زمردة .

إنه الربيع : وتلك شمس اللينة تنفذ من بين أفرع الشجر بشعاع كأنه الفضة النقية — وقد رمت فوق الحشائش: الضوء واللون والظل والشكل .

كان للشجر رائحة ، وللأرض رائحة ، وللحشائش رائحة ، ولشعرها رائحة ، ولقمى رائحة .

هو الربيع ، وتلك طيور الربيع عند هين الماء تطلب الماء، وتغتسل وتنفض عن ريشها الماء، وتتمرغ بالحشائش وتنط وترف فى الجو بأجنحة وتصوصو وتحتمى بأفرع الشجر .

— احب الموت وكلما أجدنى على حافته أحب الحياة .
— أود لو أمتلك زهرة سوداء .

— ثمة زهور سوداء بالعالم .. ثمة زهور سوداء .

* * *

بالحديقة كنا — أنا وهى ، وكنت طامعاً فى علاقة تربطنى بها : أية علاقة .

كان بالحديقة شجر سقط ورقه وحشائش يابسة وكل الطيور ، وكانت الشمس طالعة ، وعين الماء قل فيها الماء وغطاها الورق اليابس والكلس ، إنه الخريف .

— أحب الحياة ، وكلما أجدنى فيها أعرف أنها الموت ..

— أود لو أمتلك زهرة بيضاء ..

— ثمة زهور بيضاء بالعالم .. ثمة زهور بيضاء .

الرفقة المباعدة

إهداء

إلى ادوار الخراط وعبد الفتاح الجمل وغالب هلسا
وإلى مديحة محمد ابراهيم : أم إبتى « أسماء وهالة » :

عُقدى مُفصّل — بين كل لؤلؤتين خرزة .

أغنية العاشق إيليا

(الى صاحب القلب الأبيض والعقل الأبيض)

كان العاشق إيليا يسير بلا هدف — على غير عادته في مثل هذا الوقت المبكر من بعد غروب شمس هذا اليوم الحار . وكان العاشق إيليا حزينا لأن سامية — الفتاة التي يحبها العاشق إيليا — لا تسير بجانبه الآن .

* * *

كان العاشق إيليا مازال يسير بلا هدف في الشارع الذي تقع على جانبيه أغلب دور السينما بالمدينة، وقد استقرت يده اليمنى المضمومة بحجب بنطلونه الأيمن واستقرت يده اليسرى المضمومة بحجب بنطلونه الأيسر — بينا الراديو الصغير بحجب قميصه المقلّم بخطوط بيضاء وخطوط سوداء يرسل أغنية مهداة لفريق الاسماعيلية الذي فاز أخيرا ببطولة الأندية الأفريقية . وكان إيليا يفكر في سامية ويشعر بأنه أكثر أبناء الله ألماً على الأرض ، وما كان إيليا ليرحم نفسه لو لم يشعر بهذا الشعور ولرمى نفسه بخيانة سامية محبوبته التي لا تسير بجانبه الآن .

* * *

الكثرة من الناس — التى تسير مع إيليا فى نفس الشارع — تجعل الشارع مزدحماً . بعض الناس خرج تَوّاً من دار سينما انتهت حفلتها فى السادسة وبعض الناس كان سيدخل دار سينما ابتداء حفلتها من السادسة ، وهناك الواقفون أمام واجهات المحلات المضيفة والمصنوعة من الزجاج يتأملون الأشياء تحت الضوء من أحذية حريمى ورجالى وأولاد وشنط أيضاً وزجاجات عطر وساعات وخواتم وولاعات وراديوهات وتليفزيونات متعددة الأحجام والمراكات وثلاجات بشتى المقاسات وملابس خارجية وداخلية للجنسين ولكل الأعمار ولكل الأذواق ، بعض الناس كان يقف ليتفرج، وبعض الناس كان يدخل ويشترى ، وكان للمحلات أسماء « ميكى وريفولى وستار والهيبى هوم والسلفر شوز » .

* * *

كان كل ما يستطيع أن يصنعه العاشق إيليا — حيث أنه يسير بمفرده ولا تسير معه سامية محبوبته المفضلة الموجودة الآن مع أسترها بالصعيد ، أن ينقل عينيه ويقرأ أسماء المحلات ويتأمل صنوف الملصقات والاعلانات على الحوائط وأعمدة النور ، وأن يسأل نفسه « ماذا أفعل ؟ » وأن يسأل الأب المقدس « ماذا أفعل ؟ » وأن يسأل الأم المقدسة « ماذا أفعل ؟ » .

* * *

توقف أمام صورة فدائى يحمل بندقية ، وصورة رجل فرنسى يلبس معطفاً ويسمى بالغامض ويعرض فيلمه لرابع أسبوع بدار سينما رمسيس ، ولرابع أسبوع أيضاً بسينما ميامى . كانت الفتاة الملقبة بسندريلا الشاشة العربية تلبس « مايوها » ترك ظهرها عارياً وهى نائمة تحت شمسية على البلاج وأمامها البحر له زيد ، وكان طفل نظيف يشرب حليب « أسترا » من زجاجة بها « بزازة » وهو يبتسم ، وكانت الفتاة ممزقة الثوب وحولها صحراء وخيمة مزقتها الرياح وسلك شائك .

* * *

حاول إيليا البكاء وكان راغباً فيه ولكنه فشل ، وكانت ألياف برتقالة قد اختبأت بين أسنانه تسبب له ضيقاً ، ظل يبحث عنها بلسانه حتى عثر عليها

أخيراً ، قذفها مع البصقة فى الهواء وهما هو يحس براحة من تخلص من هم صغير . وعادته ذكرى حبيبته سامية فاغم ، وبرق خاطر نفذه فى الحال « استدعى صورة مدير بريد العتبة رئيس والد سامية فى العمل والذى أمر بنقل والد سامية إلى مكتب بريد صغير بمدينة صغيرة بالصعيد » ، بصق إيليا مرة ثانية ، « كان الرجل سمينا حليق الذقن والشارب له بطن منتفخة تحت جاكته سوداء وله رأس مستدير وعنق غليظ وعربة خاصة ووجه صامت مصنوع من الشمع ، وكان إيليا يرفع يده ويشير بالسبابة وهو يشرح الأمر ، كان مرتبكاً فى البداية ثم استقام لسانه وخرج الكلام من فمه سهلاً وقد أيقن من عدالة قضيته ، وكان الوجه مصنوع من الشمع صامتاً فثار إيليا وشم وبصق للمرة الثالثة .

* * *

تلك هى المرة الأولى التى شعر فيها العاشق إيليا ، — وهو تحت الضوء وفى الزحام — أنه وحيد ، وفوق واجهات الحوانيت كانت الإعلانات الملونة تنطفئ وتضىء لتدهش أبناء الريف والمدن الصغيرة ، لو كانت سامية مع إيليا لبحثا عن الوجوه المندهشة ولنظر أحدهما للآخر وابتسما، فتلك واحدة فقط من ألعابهما الكثيرة التى تجلب السرور لقلبيهما العاشقين ، ولكن سامية الآن مع أسرتهما بالصعيد البعيد حيث ينام الرجل الصعيدى وبندقيته وزوجته وأولاده والحمل والبقرة والكلب والحمار فى حجرة واحدة ، وحيث تسلك الذئاب والشعالب تلك الدروب الضيقة على المارة ، وحيث يتعذر عليك أيها الغريب أن تميز الآدمى من الوحش والناس والأشياء، وإيليا تحت الضوء الآن، وإيليا وحيد ، وإيليا حزين .

* * *

عن يمين إيليا العاشق — هناك على الطوار الأيسر — كانت فوانيس الشارع مضئية ، أما فوانيس الطوار الأيمن — حيث يسير العاشق إيليا — فمطفأة ، لأن ذلك يتفق وظروف الحرب التى تعيشها المدينة الكبيرة وخلفها المدن الصغيرة ثم القرى القريبة والنائية ضد عدو خسيس لا يتورع عن قتل الأهالى غير العسكريين — بل يقتلهم بالفعل ، لكن الشارع رغم ذلك كان يعيش حياته بالطريقة التى اعتادها وبنفس الطريقة التى ما زال يألفها منذ آلاف السنين . وكان الراديو القابع بجيب قميص إيليا المقلم بخطوط بيضاء وخطوط سوداء سريع

التقلب — فهذا هو الرجل الذى يغنى قد توقف وها هو رجل يتكلم :

« قالت وكالات الأنباء الغربية المعادية لنا والتي تساند العدو وتشجعه على العدوان المستمر على مواقعنا العسكرية والاقتصادية والمدنية — فى شبه اعتراف كما قالت الصحف العربية والأذاعات العربية — إن الطريقة العادية التى تسير بها الحياة فى الشارع المصرى تعتبر أقوى أنواع التحدى والصمود أمام غارات إسرائيل التى لن تحصل بالقطع على النصر السهل .. نعم لم تحدث الغارات الإسرائيلية التأثير النفسى المطلوب وفشل مخطط إسرائيل فى إسقاط نظام الحكم المصرى » .

* * *

ها هم الناس عن يمين إيليا وعن شمال إيليا وأمام إيليا وخلف إيليا — رغم العدو — يشكلون الطواير ويتوقفون أمام باعة الثلجات ويطفئون الحر داخل صدورهم بزجاجات الكوكاكولا والبيبسى كولا والسيكو ليون والسيكو برتقال والسيكو فراولة وغير ذلك من صنوف الثلجات — ما عدا البيرة فهى تشرب من محلات لها واجهات من زجاج نظيف تضاء من الداخل، وأصحاب تلك المحلات حصلوا من الحكومة على تراخيص خاصة بمقتضاها يقدمون لزوار محلاتهم المشروبات الروحية، ويتعرضون لعقاب قانونى هو الغرامة المالية أولاً ثم إغلاق المحل فيما لو تكرر وسمح أحدهم لصغار السن بتناول أى مشروب روحى .

هذه الأمور كانت تقلق بال العاشق إيليا فيما قبل، فحجمه وطوله و ملامحه الصغيرة لا تتناسب مع سنه التى تقول إنه بلغ مبلغ الرجال منذ شهر ونصف شهر ، نعم كان إيليا يتخلص من المأزق تلو المأزق بأن يبرز بطاقة الشخصية فى الوقت الملائم ليفصح عن سنه وهويته كموظف له راتب أول كل شهر جدير باحترام الآخرين ، ولو لم يكن إيليا كبير عائلته ووحيدها وعائلها لكان الآن جندياً يحيا حياة الجنود الخشنة ..

وتعرف سامية ذلك من خطاباتته التى ستنقطع ، وتبكي سامية وتردد « الحب أقوى من الموت — الحب أقوى من الموت » .. ثم يأتى النسيان وذلك ما لا بد أن يكون فى يوم من الأيام ..

وهكذا أيضا كانت تصورات إيليا تجبره على أن يعود حزينا من جديد .

* * *

لم يكن العاشق إيليا يعتقد أنه سيفكر في أى من تلك الأمور الآن كأن يكون إيليا طفلاً أو أن يكون إيليا رجلاً ، كان إيليا يدرك نفسه القلقة ويبعث فيها الأطمئنان ببطاقته الشخصية ، ولكن بماذا يدرك إيليا نفسه أمام الألم ، هل هو طفل أو هو رجل ؟ ، وان كان بالأمس قد شاهد — بشغف من يهيمه الأمر — الرقيب السينائى وقد ظهر أخيراً على شاشة التلفزيون وكان شاباً يلبس بذلة سوداء وكرافة تسقط بجبل على صدره .

(قال الرقيب : الحكمة التى تجعلنا نكتب على بعض الأفلام للكبار فقط هو أننا نريد حماية صغار السن من أفلام الرعب والجريمة والجنس ، وقال مرافقه وكان عالماً من علماء النفس وكان يكلم مقدمة البرنامج ذات الأسنان الجميلة البيضاء والابتسامة الحلوة : الصغير صغير القلب والعقل لا يحتمل ما يحتمله الكبار ، وقال الأستاذ الثالث الذى كان موجوداً وقدمته المقدمة للرقيب وابتسم الرقيب وقال إنه يعرفه ، وابتسمت المقدمة ولعت أسنانها البيضاء وتوجهت بكلامها للمشاهدين وقدمت الأستاذ الثالث ، قال انه درس علم الاجتماع بأكبر الجامعات الأمريكية وقالت إنه عائد بالأمس فقط من بعثة استمرت ستة أعوام ، وقاطعها عالم الاجتماع مصححاً « خمسة أعوام فقط » ، وابتسمت المقدمة وضحك الكل بصوت مرتفع ، وتكلم عالم الاجتماع مع من حوله ثم توجه إلى المساعدين فى لقطة كبيرة : الصغار كالقردة يحبون التقليد ومن السهل أن ينحرفوا نحو الجريمة ولا بد من حمايتهم وحماية المجتمع ، وهذا ما يفعله القانون وهذا ما يجعل المشرعين يسنون القوانين ولذا يجب معاقبة من يخالف القانون بعقوبة كافية ، ووافق الجميع وانتهى البرنامج .

كان ذلك أول أمس وليس أمس كما اعتقد إيليا، وكان إيليا فى بيت عمته بعد أن فرغ من توديع سامية العزيزة التى هى بالصعيد الآن مع والدها موظف البريد الذى نقل لأنه ساخن الطبع، ولم يكن على وفاق مع رئيسه مدير مكتب بريد العتبة ، وهذا ما يجعل العاشق إيليا وحيداً وحزيناً تحت الضوء وفى الزحام ، وهذا ما يجعل إيليا يسير فى الشارع بلا هدف .

* * *

كانت أغلبية من الشباب صغار السن تقف أمام دور السينما التي من الدرجة الثانية؛ والتي تتجاوز عن شرط السن بنصف قرش يعطيه الولد الصغير السن للرجل الواقف أمام باب السينما فيدخل فيلماً للكبار فقط ، قال العاشق إيليا مكلماً نفسه وهو يبتسم : كل القائمين على أبواب « السينات » هكذا .. حتى « سينات الدرجة الأولى هكذا تتغاضي عن الصغار الداخلين مع أسرهم » أفلاماً للكبار فقط « .. وبالتحديد تلك الأسر ذات المقام تلك التي تجلس على مقاعد « أ » الممتازة ، وقال العاشق إيليا لنفسه وهو مقطب : لو كانت البنت سامية معي الآن لدخلنا فيلماً للكبار فقط .. ولاحتفلنا أنا وهي بانتصار جيلنا على الرقيب ولدخلنا محلاً له واجهات زجاجية وشربت أنا البيرة وشربت سامية الليمون أو الایس كريم وربما بيرة لو أحببت ، وقال إيليا : نعم سأصرف الجنيه الذي في جيبي وكذلك العشرة قروش الورقية وأصير مفلساً وأكون سعيداً .. ولكن سامية لا توجد معي الآن وهي هناك بالصعيد مع أب ساخن الطبع ورجال ملثمين يَحْمِلُون البنادق .. سامية بمفردها تواجه الوحش ، وتهد إيليا : ميسكينة أنت يا حبيبتي سامية ، وعاد إيليا العاشق حزناً ووحيداً من جديد .

كان الشبان يلبسون قمصاناً إما بنصف كم وإما بكم كامل وإما بأكمام « مشمرة » ، وكان من المؤلف أن يسود الشباب إحساس عام بذلك الحر المؤلف في مثل هذا الشهر من السنة ، أعفوا أنفسهم جميعاً من غلق الزرار العلوى لقمصانهم ، ظهرت صدورهم العارية الطليقة يعلوها أحياناً شعر وأحياناً زغب وغالباً ما كانت الصدور ملساء ، وكان الضوء الكثير يسقط على الصدور ويجعل جلدها يلمع ، ورأى إيليا الصدر الأسود كالرخام والصدر الأسمر الداكن كركوة القهوة والصدر الأسمر فقط والأسمر الفاقع والأشقر والشديد الصفرة والأصفر فقط ، ومن بعض الصدور تتدلى السلاسل وتنتهى بمصحف أو صليب من الفضة أو البرونز أو النحاس أو الذهب الحقيقي أو الذهب المخادع ، ومن بعض المحلات كانت الأغاني العاطفية تصل لأذن العاشق إيليا من جراففونات أو ركوردات أو من الراديو وتذكره بسامية الغالية ، وبين الحين والحين كان الراديو الترانزستور القابع بحيب إيليا يقطع إرساله العادى ويتلو بياناً عسكرياً ، وكان العاشق إيليا يرى أن ذلك يتناسب مع ميلو دراما الحياة ويتمشى مع جلال موقفه الحزين ، لذا سمع العاشق إيليا أقرب تعليق عسكري بصورة تجعل كل من يراه على

اهبة الاستعداد بأن يشهد : أن العاشق إيليا مهتم بالسياسة لأقصى حد .

* * *

ولكن هل حقا أكل الوحش سامية ! .. سأل العاشق إيليا نفسه بلهفه جعلت قلبه يدق بسرعة أكثر من المعتاد ، وقال إيليا انه لا يصدق تلك الخرافة ولكنه بهذه الوسيلة يخوف نفسه ويحصل على الألم اللذيذ ، إيليا يفضل سامية على بقية بنات العالم لأنها الوحيدة دون بنات العالم التي تحب إيليا بشعره الأفريقي الأجعد الأسود الكثيف الخشن .. سامية تحب إيليا دون سائر المخلوقات التي تسعى فوق كوكب الأرض .. وإيليا لا يريد من العالم سوى سامية .. ومن اليوم سيعيش إيليا على ذكرى سامية مخلصاً لها وإلى الأبد — كما تعاهدا .

« جرح كل منهما إصبعه ، بالدم رسم إيليا قلبه يخترقه سهم وكتب اسمه واسم سامية على الورقة وأعطى الورقة لسامية ، وكذلك فعلت سامية جرحت إصبعها ورسمت على الورقة قلباً يخترقه سهم وبدماها كتبت اسم إيليا واسمها وأهدت الورقة لإيليا » .

سيحتفظ إيليا بالورقة إلى الأبد فسامية جعلت إيليا يحس بأنه سعيد في اللحظات السعيدة التي قضاها معها فوق حشائش الحدائق العامة أو متجاورين بدار سينما مظلمة أو على كورنيش النيل ، كان إيليا يتحرك بخفة ورشاقة كالروح ، وكان يحس بالسعادة أحيانا وهو واقف وأحيانا وهو جالس وأحيانا وهو يسير وأحيانا وهو يشاهد مباراة كرة القدم ، سامية حلوة متوسطة الطول سمراء بخديها حمرة خفيفة وغمازتان ، سامية ليست قصيرة وليست سمينة وشعرها الأسود الناعم اللامع يصلح ضفيريّتين طويلتين، إلا أن وجهها يصبح صغيراً وتنضح الظلال الزرقاء تحت جفونها العلوية والسفلية وتبرق من عينيها السوداوين لمعة حزينة ، وحين تجمع سامية شعرها وتصنع منه كحكة يرى إيليا الكعكة ويرى أن ذلك لا يناسبها ، ومتى رمت سامية شعرها خصلتين من أمام وأخلته سائبا من الخلف وعقصته يرى إيليا ذلك الفرس ويعود وجه سامية كما كان ، يتمنى إيليا لو يصدق دق قلبه السريع فتلك عادة تسبق اللقاء وتصبح سامية في مواجهته كما يحبها أن تكون « بحذاء واطيء كأحذية الصبيان وبدون جورب على ساقيها وجيب فوق الركبة أو ميني جيب أو ميكروجيب أو بنطلون ، يمسكها من يدها ويطيّران

فوق الرؤوس كما تفعل الملائكة في الصور والرسوم ، ويشريان البيرة بالجنيه والعشرة قروش الورقية .

سامية ثالث فتاة يحبها العاشق إيليا ، الأولى كان اسمها هدى وكانت صديقة لهدى أخت العاشق إيليا وزميلتها بالمدرسة الإعدادية ، والثانية كان اسمها آمال وكانت صديقة لهدى أخت العاشق إيليا وزميلتها بنفس المدرسة الإعدادية ، وأخيرا سامية التي كانت صديقة لهدى أخت العاشق إيليا وزميلتها بنفس المدرسة الإعدادية ، وسامية لازالت بالمدرسة حتى الآن لأنها تحب التعليم ووالدها قادر على مصاريف التعليم ، أما هدى فتعمل الآن بمصنع نسيج مع هدى أخت العاشق إيليا ، وقال العاشق إيليا مكلماً نفسه : لابد وأن البنت هدى أختي تحب شاباً من الحى أو زميلاً لها بالمصنع وربما كان طالباً مازال ، ولكن هدى ماهرة وقادرة على إخفاء أمورها الخاصة ، ولأم العاشق إيليا أخته وقال إنها لا تثق فيه هو الذى يعرف معنى الحب ، وقال إنه كان مخطئاً حين باح لها بعلاقاته بحبيباته الثلاث ، وقال إنه غير مخطئ وقال إنه مخطئ وقال أخيراً إنه غير مخطئ ، قال : هدى تخاف من أمها التي عملت خياطة بعد وفاة زوجها والد هدى وإيليا حتى خف بصرها ، كل ذلك فعلته أمه من أجل هدى وأجل إيليا . ورفضت أزواجاً كثيرين كى لا يكون مصيرهما الشارع والبهدة من زوج الأم لذلك فهي قاسية أحياناً على هدى لأن هدى بنت ولكنها تحب هدى وإيليا . وإيليا يختلف مع أمه أحياناً ويوافقها أحياناً ويحبها دائماً ، ويحب سامية أكثر من هدى حبيبته الأولى وآمال حبيبته الثانية ، وقبض إيليا على الصليب البرونزى المعلق على صدره الذى أهده له سامية وقال لنفسه : لو طلب منى أحدهم أن أقايسه بهذا الصليب على صليب من الفضة الخالصة لرفضت وحتى ولو كان صليبه من الذهب عيار ٢٤ لرفضت .. نعم هذا الصليب رمز كبير لحبنا الكبير أنا وسامية ، وحين تنبه إيليا أنه نطق اسم سامية — البعيدة عنه الآن — عاوده الحزن والشعور بالوحدة من جديد .

كان العاشق إيليا قد بلغ نهاية الشارع الذى على جانبيه أغلب دور السينما بالمدينة وقال لنفسه : من العدل أن ينقل والد سامية من عمله بالمركز الرئيسى بالعبدة إلى مكتب فرعى بأقصى الصعيد لأنه ساخن الطبع وليس على ود مع

رئيسه ولكن سامية مظلومة .. سامية المسكينة ما ذنبها !! ، ومشى إيليا فى شارع جانبى قليل الأهمية وإن كان على ناصيته بنك أهلى حوله كشافات تضىء بقوة كضوء الشمس ، كان إيليا يسير ويفكر وكان الضوء يخفت بالتدريج ، وقال إيليا منذ سافرت سامية وأنا لم أنظر لفتاة غير سامية .. آه لو تعلمين أيتها الشيطانة سامية مقدار حبى لك مقدار إخلاصى لك ، عند منتصف الشارع عرج إيليا وسلك دربا قليل الشأن أيضا وشعر إيليا بشراسة الظل وحاول أن يتذكر اسم الدرب وفشل ، وقال إيليا : أنا متأكد الآن من أننى صاحب ضمير .. لم أنظر لفتاة بعد سفر سامية .. وبعد ما أنهيت علاقتى بهدى لم أكن ارتاح للون عينيهما الزرقاوين .. أما البنت آمال فحين واتها الفرصة وتعرفت على ولد وسيم بوجه أشقر كالخواجه يعمل كومبارسا بالسينما قطعت علاقتها بى وقالت إنها ستصبح ممثلة فى السينما فى يوم من الأيام و تملك عربة حمراء وفىلا على النيل وتسوق العربة وترى الماء الأزرق كل صباح من نافذة يتعلق بها ورد حقيقى ، وصرخ إيليا مخلصا لآمال كأخ : هذا الولد كذاب .. وقالت آمال مؤكدة ومتبرمة : ليس هناك من ولد ولكنها بنفسها دخلت سينما كوزمو وشاهدت الفتاة التى كانت تسكن فى حارة فى بداية حياتها وهى تسوق العربة الحمراء وقد صارت ممثلة مشهورة تملك فىلا على النيل لها نافذة يتعلق بها ورد حقيقى ، وصرخ فيها إيليا مخلصا كأخ وقال هذا شغل سينما ، وقال لنفسه : لقد ضاعت آمال ، وكان قد بلغ نهاية الدرب المسدود فمال ومشى فى الشارع الموصل للأتوبيس ، وكان عمال المجارى هناك يصلحون المجارى وقد علقوا فانوساً دهنوا زجاجة باللون الأحمر ، لاحت زجاجة الفانوس لعينى إيليا بقعاً حمراء شاحبة وبدا له أن هذا أمر طبيعى من فانوس صغير يتغذى فتيله المشتعل بزيوت البترول الوسخ ، كان الفانوس مثبتاً على حامل خشبى يغلق الشارع من منتصفه ، على الحامل كان هناك كتابة باللون الأحمر تحذر من الخطر ، ولم يكن عبور المشاة ممنوعاً فلم يعترض واحد من الواقفين طريق إيليا حتى العسكرى الذى كان موجوداً يشرب الشاي من كوز من الصفيح لم ينظر لإيليا ليسأله عن بطاقته ووجهته وما إلى ذلك فى مثل هذا الوقت المتأخر ، كان العسكرى مشغولاً بالحديث مع عمال المجارى ، وميز إيليا من لهجة عمال المجارى أنهم خليط من صعايدة وأولاد ريف بحرى وأولاد نفس المدينة التى يعيش فيها إيليا وكانت سامية تعيش معه فيها وكانا سعيدين مع سائر صنوف البشر من صعايدة وعمال مجارى ورجال شرطة ومسلمين وأقباط وأغنياء وفقراء وأولاد عرب وأجانب .. مدينة كبير بها التاكسى والعربة الملاكى والعربة الكارو والتروماى والترولى والأتوبيس والبسكليت ، وقال إيليا وهو يسير إن القاهرة رمز لمصر كلها ، وفكر إيليا العاشق

فى البغل والحمار والحصان ولا ىدرى لذلك سبباً سوى أنه مرتبك وعاشق ، وعاد مرة ثانية وفكر فى البغل والحمار والحصان من حيث يرمز لكل منهم للغباء ، كان إيليا مندهشاً ومتعجباً كيف لا تسقط تلك الحيوانات الغبية التعيسة التى لا تقرأ فى الحفر والمجارى العديدة التى يجرى إصلاحها من جانب عمال المجارى ، وإيليا رأى بغلاً وحميراً وخيولاً واقعة على الأرض وكان ذلك إمّا لأن الأرض زلقة موحلة مثلاً وإمّا لأن الحمولة التى تجرها الحيوانات الغبية التعيسة والتى لا تقرأ ثقيلة .

* * *

عاد إيليا العاشق يفكر فى حبيبته سامية من جديد وحين تصور نفسه وقد سقط فى حفرة يجرى إصلاحها من جانب عمال المجارى تخيل سامية وهى تضحك من منظره ، وقال إيليا إن الخجل من الموقف ربما يدفعه إلى الجرى ولا يعود يرى وجه سامية إلا بعد مدة طويلة وربما لا يراها بالمرّة ويبحث عن فتاة أخرى بمعاونة أخته هدى ، لهذا السبب طرد العاشق إيليا هذا الخاطر الخبيث وقال إنه من ذلك النوع من الناس الذى يخاف الشك ويخاف اليقين ، وشم رائحة فم سامية فى الهواء المحيط ، وقال إيليا إنه يكره رائحة الجوع وإن لكل فم رائحة ممتحنف رائحة الفم حين يأكل الإنسان ، وقال إنه يحب رائحة فم سامية وسامية من أجله لا تأكل البيض ومن أجل سامية يوضع هو اللبان قبل اللقاء، وقال يوم يكون لى مرتب طيب سأزوج من سامية وسيقبل والدها ذلك وكذلك أم سامية وأمى ستقبل أيضاً لأن هدى ستكون قد تزوجت وأمى قادرة على إعالة نفسها من عملها كخياطة وأمى لا يهتمها غير سعادتى وسعادة هدى ، وجرى إيليا نحو الأتوبيس القادم والذى كان مزدحماً لأن الكل الآن فى وقت من اللّازم للإنسان منهم أن يقضيه فى بيته — حتى ولو كان عاشقاً مثل إيليا ..

الحكاية المثال

— ١ —

يحكى أن فطناً من زماننا — وكان فقيراً أقرع بغير سكن — اختار صحبة
الأموات : فهناك يقتات من خبز الصدقات، وهناك مسكنه — طال عمره أم
قصر .

ولما وجد الفقير الأقرع كل المقابر المسقوفة مشغولة بالأحياء؛ طرد الكلب
الضال الأجرى ، واحتل مكانه : حفرة بعيدة ضيقة لمت عظام ميت .
— الميت قليل الشأن لا ريب —

قالها ، وكشع التراب الملوث بعلّة الكلب خارج الحفرة، وكذا عظام الميت
النكرة — بينما الكلب الضال ينبع ولا يقدم على الفعل .

شرق الفقير بعقله الفطن وغرب :

الناس مراتب ، والحيوان مراتب ، والقبور مراتب ، والأحياء في بطن القبور
مراتب — فهل تبقى المراتب بعد الممات يانكرة ؟ خبرني يا من عرفت مرتبتك بين
الموتى ؟

إنسان وحيوان ، رجل وكلب ، أقرع وأجرى ، ضال أعجمى وضال بعقل ،
فما قيمة العقل يا أجرى ؟، وأنت هل عندك الجواب يا أقرع ؟

ما الذى أضناها وعذبهما وسهدهما وأقامهما وأقعدهما فى الدنيا ؟
كيان الدنيا يكيل بمكيالين ؟ لماذا ؟ لا سَليم ولا دام عيشه .

وصرَّ الفقير الأقرع الفطن ما اهتدى إليه ودسه فى ركن قصى من واعيته ،
حتى لا يتهم — هو العارف بزمانه العسكرى — بالكفر أو الشغب ، وتوسد
ذراعيه ورقد داخل حفرة القبر — وكان الكلب الأجرب الضال قد سبقه ورقد فوق
كوم التراب والعظم خارج الحفرة .
رأى الأقرع يبول ويشرب بوله ، ورأى الأقرع يتخلص من حاجته ويأكلها ،
فهب الأقرع من نومه هلوياً بيدن بارد والأيام قلب الصيف .

قال : الخير فى العتمة .. والله ستار .. وعصيان العبد عقوبته السجن أو
الإعدام ، وانهمك فى الفعل — وما أن تخلص من ذلك الذى اهتدى إليه ومحاه من
واعيته حتى أحس بالأمن والأمان وراحة السلام وريح السلام الرخاء وطعم السلام
الحلو .

ومدَّ يديه — برفق وحب — وحمل الكلب الأجرب بين ذراعيه وأنزله إلى الحفرة
واحتضنه ، وناما بواعية بيضاء لا تعرف الحقد ولا الفروق ولا تطالب بمميزات ، وما
فتحا العيون إلا مع إشراقة شمس النهار .

— ٢ —

اليوم رحمة ..

ويوم الرحمة يوم للجميع — الموتى والأحياء ، فالموتى يرحمون بصدقة من حى
قادر لحي محتاج ، الأموات (بسم الله الرحمن الرحيم) يبطن القبور : أبناء وأزواج
وأمهات وآباء وجدود وجدات لا يشكون من جوع أو عطش ، والأطفال
(والحمد لله رب العالمين) لا يصرخون على لعبة أو ثدى ، والأحياء (قل أعوذ
برب الناس) فوق القبور مشتبكون بالصوت : حسنة قليلة تمنع بلوى كبيرة .. يا
غالى ليتنى أنا .. ييب ييب .. يا زينة الشباب .. ييب .. أعمى وكسيح .. (ألم
نشرح لك صدرك) .. أنا لا أطلب مكربة من أم عجزة .. لله يا محسنين .. ييب
يبب .. فتنى للهوان يارجلى .. ييب .. (ألف لام ميم ذلك الكتاب لا ريب فيه) .

والأحياء : قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق .
نسوة : باكيات ومولولات ونائحات ولاطمات خدود .
ورجال : فى الحزن أجلد وفى مقام الرغبة أصرح .
وامرأة : فى كل أحوالها — بخصر وثدين ورموش وكفل وفرج .
وبائع مزامير : غريب ، جاء من مكان بعيد ، بيد وجيب ومزمار وفم وقلب ،
زمر للأشواق والتلامس والتماحك وللمواعيد ولقاء العيون وللصد بالوجه والقبول
بالقفا (فيوم الرحمة يوم الذكور والإناث) .
وصغار : منقسمون — جماعة فرحة تنفخ فى المزامير ، وجماعة فرحة تتطلع إلى
النافخين فى المزامير ، وجماعة سعيدة تحجل ، وجماعة سعيدة تصفق ، وقلة سعيدة
تنفض التراب عن الحذاء الجديد وتبتعد عن مواطن الزحام كى لا يتلوث الثوب
الجديد، وقراء قرآن ومتسولة أصحاب عاهات وحراس مقابر — فى يوم مشهود :
لأن أيام العام طويلة وممدودة وأيام الرحمة قليلة معدودة .

وفقير فطن لم يقبع بحفرة — بانتظار أهل ميت نكرة لا خير فيهم ولا خير
عندهم — بل جال بالمقابر وعرض عاهته حتى غاب الشفق وحلت العتمة، فعاد
إلى حفرة وقد نال من حسنات المحسنين : ما يملأ كفيه مرتين تمرأ وستة قروش
وكعكتين بالسمن والسمنسم والسكر واللبن وأربع كعكات بسكر ولبن .. وعشرة
كعكات بالكركم ولا سمن فيها ولا سكر ولا لبن .

— ٣ —

مكث بالحفرة يومين وبعض يوم — حتى فرغ زاده فقصد جاره ساكن أقرب
قبر ، وبعد السلام تم التعارف ودار الكلام وفهم الفقير الفطن : أن القبور
كالبيوت تدخل من أبوابها وأن الرأس الكبير اسمه الباشا لأنه يسكن قبر الباشا وهو
الناطق بالكلمة الأولى وصاحب الكلمة الثالثة وهو اليد القابضة واليد المبسوطة ،
وارتاح فؤاده لما علم أن الجميع يرحبون بوجوده بينهم — فتشجع وطلب من جاره
طعاماً لكن الجار اعتذر بلغة لا تخرج . قال : « أنا صاحب مرض أقوم بعمل
هين وجهدى محدود والأجر هنا بقدر العمل .. اذهب إلى الباشا واطلب العمل
تجده .. كل شئ عندنا يا أقرع مقدر محسوب، لا حاسد ولا محسود .. والعمل
قسمة بيننا .. والنظام مطلب مطلوب وهو والحمد لله موجود، فلا تخف ولا تحزن

وتوكل على الله وخذ بعضك وتوجه إلى الباشا تجد خلاصك وتعرف رَجُلَكَ من رأسك .

— ٤ —

في قبر كأنه القصر — بل هو القصر : به المكيف والثلاجة والتليفزيون والراديو .. أرضه مفروشة وسقفه مدهون — يقعد الباشا على كرسیه وسط صحبه وخدمه عزيز الأهل والنفس بوجه مبتسم وبدن عفى يلفه الحرير المنقوش ، قال الباشا : أهلا بك يا أقرع رد الأقرع : أهلا بك يا باشا . قال الباشا : البصير قرأ كتابك .. فنحن نحتاج ولا نخاف .. انظر يا أقرع ، وأدار الباشا قرص دولابه فأثار وجه الدولاب وتحركت فوقه الصور . ورأى الأقرع : الأقرع وهو يبول .. وهو ينتف ما تحت إبطيه ويكوره ويرمى به الكلب الأجرب ممزحاً .. وها هو الأقرع يجاهد ليخرج الريح السامة من فتحته . أوقف الباشا تتابع الصور — وقال : خير الكلام القصير .. لم تكن عينا للنهاب — فلا تكن .. عد إلى حفرتك وكن الوحش يحرس صيده .. الصيف هين والشتاء ستغلبه بلبس الوبر .. وإن جاء المطر فسقف جارك الذى يحرسك وتحرسه — يحميك .. كن العين والأذن، ولا تكن اللسان. ولا تسأل وتجلد على السهر بالأفيون، وطعامك سيأتيك في المواقيت .. وكل رغائبك مجابة .. العمل يا أقرع العمل .. انصرف يا خازن ..

— ٥ —

نعم . هو خازن قاعد على حفرة ظاهرها التراب والعظم، وباطنها الحشيش والأفيون والكوكايين والهرويين وإبرة الماكس وبرشامة الهلواس .

— ٦ —

الخازن الأقرع — الذى طرد الكلب الأجرب وتنكر لصحبته — بيدن عفى وعقل فطن عفى ، وهو فى وحدته وسهره وصمته وبفضل مَصَّهُ للأفيون

(قعر بئر) مُلِّم بما يخفيه الحكام في جزارهم :
* الحشاش العسكرى يقبض على الأمور بيد من حديد تضرب بالحديد وتكوى بالحديد ويشنق بالظن ، ورجال المقابر تحت إمرة الباشا ورجاله .

* والنهاب الذى عاش تحت ظل الحشاش فى إمان — وقد اجتمع له المال وكثر الأعوان وانتشروا كالجراد الحاصد — يجهر بالعصيان، وقد يتمكن من تراب الأرض ويقعد على تلها فى القريب .

* والقواد يحيا تحت ظل الحشاش ويعلن له الولاء فى كل آن ، إلا أنه خبيث الطبع لاعب على الحبلين .

وزن الأقرع الفطن بميزان الصائغ قوة المتعاريك، وبان له أن كفة النهاب راجحة ، وفى هذا زوال مكانة الرأس الكبير أو قطع الرأس الكبير وحبس الأتباع إلا من أعلن الولاء فى حينه. وتلاعبت بالأقرع الفطن عواصف الفكر :
إن أعلنت الولاء للنهاب — بعد فلاحه — نفدت بالروح والجسد ، ولو انتكست فعلة النهاب هانت روحى وتعذب جسدى ، وفى التمهل روية مردولة من كافة الأطراف ، هل حسدك الزمان يا أقرع أم أن الجبن طعام الخاملين والقانعين والمهانين إلى يوم الدين ؟ ، وفى المغامرة خسارة للقمة مضمونة وبدن برأس أقرع أو كسب لما تحت بدن الأقرع من ثروة ، وقد تفوز بلقب الباشا يا أقرع ذلك الذى يراهن على العسكرى الحشاش — لما تفتدى قومك سكان المقابر .. ومن ثم تفوز بقصره وما حوى من نفيس وتجلس حريمه على حجرك .. والأيام دولة والمال دولة بين الناس ، ومن عز بزّ.. قامر يا أقرع .. قامر .

— V —

الباشا الذى يدس رأسه الأقرع — منذ زمان — تحت عمامة كبيرة من حرير الهند بعد ما يدهنها بمراهم فرنساوية لطيفة الرائحة ذات أثر طيب على قروحه — خلع عمامته وطواها ودسها فى صندوق مطعم بالصدف والعاج ، واحتفظ بها كتذكّار لجهاده الشاق ، وتقدم من لابس الجلّة حاسر الرأس — ليلبس قلنسوة الحكم ، بعد ذلك عاد واستوى على سرير الحكم محروساً بالجنّد ، واستمع إلى لابس الجلّة وهو يتلو مراسم التتويج وتعاليم التاج من كتاب :

« يا أقرع بن حابس يا أقرع
إنك إن يُصرع أخوك تُصرع »

- ما اليانكى ؟
- بعض الجهال تمكن منهم الظن الفاسد « اليانكى نظير الموت : كلاهما يسلبك ظلك » وهذا — والله حق ناقص : فاليانكى بظلم كبير (وما الموت هكذا) واليانكى يحجب بظلمه الكبير كل ما عداه من ظلال — إلا أن الظلال تبقى ظلالاً في ظل واحد كبير (وما هكذا يفعل الموت) ،
— اليانكى منا وفينا وبنا .

- لماذا كان رجال اليانكى أقوياء ؟
- الممتازون قلة .. أصحاب مال — والمال عافية ، والمنتخبون أهل بصيرة وهم أوفر عدداً من المختارين ، إلا أن المختار هو الذى يقرأ فصيحة الدم المنتخب، ويصله بدم من نوع دمه حتى يصح بدن المنتخب (فالعقل السليم فى البدن السليم)
- فروق أخرى بين المختار والمنتخب ؟
- المختار مختار والمنتخب منتخب — والفروق بينة لكل ذى عينين !! وفى الزيادة إفادة — لا الهراوة تربة النترون ولا الثلاجة قُلة .
- وما بين اليانكى ومعاونيه ؟
- الكل واحد ، والواحد كل ، وفى البعد عن الصواب صواب، وفى القرب من الصواب صواب ، والإقدام خير من الخوف ، ومن اغتتم فقد جنى عديد الفوائد ، وإليك تلك الحكاية (المثال) :

« يحكى أن فطناً من زماننا — وكان فقيراً أقرع بغير سكن — اختار صحبة الأموات : فهناك مسكنه وهناك يقات من خبز الصدقات ، وهناك قد يهتدى للذى أضناه وغدبه وسهده وأقعده من أمر تلك الدنيا التى تكيل بمكيالين .. » .

السيد أحمد السيد

— ١ —

البيت حجرتان ، قديم ، بحى شعبى قديم ، وهو ميراث من أب مات وأم ماتت للأختين . الأخت الكبرى تسكن فى حجرة ، والحجرة الأخرى مؤجرة للسيد أحمد السيد .

والبارحة أتت الأخت الصغرى ، وهى عجوز ، لتزور أختها الكبرى ، ولسبب ماء لا يعلمه إلا علام الغيوب نشب بين الأختين خلاف .

قالت الأخت الصغرى : « أنت تسكنين فى حجرة وهذا حقك : وحقى هو إيجار الحجرة الأخرى التى يسكنها السيد أحمد السيد » . ردت الأخت الكبرى — وهى كاذبة — إن : « السيد أحمد السيد لم يدفع إيجار الشهر الذى فات .. كذا إيجار هذا الشهر » . هنا صرخت الأخت الصغرى قائلة بأنها ستطرد السيد أحمد السيد . فنبهتها الأخت الكبرى إلى أن ذلك غير جائز : « انتظري حتى يمر شهر ثالث » . (ومن ثم فعلى الشقيقة الصغرى أن ترسل إنذارا على يد محضر ، ثم يكون حجز ، وبعد ذلك ستصدر المحكمة أمر الطرد) .

كان السيد أحمد السيد يستمع لكلام الأختين وهو يرتجف : إنه الشتاء وهى السماء تمطر فى الخارج بغير توقف وهو خوف مبهم لازمه من الصبا الباكر ، ثمه حادث سيحدث له فجأة ، سبقه تدبير محكم ، لن يقدر على دفعه مهما حاول — وتحسس السيد أحمد السيد جرحا بالغاً فوق حاجبه الأيسر .

« كانت ليلة ممطرة كتلك الليلة ، والعتمة سلبت من بصره النور ، يسير بهدى من غريزته التى حفظت مواطن الحفر ومسالك الدورب الضيقة الملتوية ، بقدمين أثقل خطوهما الوحل الذى يفوح برائحة تفلقل معدته وتضغط على قلبه وتهده بالتوقف ، وفجأة ، صدمه جسم حى ، وسمع صراخ امرأة ، وفجأة : ارتد النور إلى عينيه أصفر كأنها السيوف الصدئة قد تقاطعت ، ليرى ضوء الفوانيس يطل من كوى بالحوائط ومن فتحات البيوت ، ولم يبرح مكانه ، كانوا رجالا وشبابا ونسوة يسدون عليه كل منفذ ، ولم يقاوم ، وكان عاجزا عن الدفاع بلسانه الذى شل فجأة ، ولما أفاق كان جسده يفور كالقدر فوق النار .. وقد عصبوا وجهه بخزقة قديمة ودسوا فى فتحة الجرح البن المصحون ، ولما حاول فتح شفتيه ظنه رب الدار الشيخ يريد الدفاع عن نفسه — فقال : « لقد قالت لنا يا ولدى .. قالت إنك لم تكن تقصدها بفاحشة » ، وسمع السيد أحمد السيد مصمصة شفاه النسوة المشفقات ، وكان راغبا فى النوم ، وفجأة وجد نفسه يبكى بدون توقف) .

رغبته فى الخروج قوية — لكنه المطر والوحل والعتمة ، وهو راغب فى السير بدون توقف فى شوارع خالية من الوحل والعتمة والحراس .. ويكون هناك بار خال حتى من البارمان .. ويظل يشرب ويشرب فجسده عطش للخمر ، لكنه عاد — على غير رغبة منه — يقرأ على ضوء فانوس فى كتاب بونابرت فى مصر ، ولم كانت دهشته بالغة حين وقع بصره على كلمات لصيدلى إيطالى :

« الكل خائف ، لا يدور حديث إلا عن المتاعب والفقر المنتشر والسرقات والقتل ، فليس هناك أمن — لا على الحياة ولا على الأملاك ، إنهم يسفكون دم الإنسان كأنه ثور ، والحراس فى جولاتهم بالليل والنهار يحاكمون ويحكمون

وينفذون أحكامهم فوراً دون استئناف ، وهم يسرون بصحبة الجلادين ، وما إن يصدر الأمر حتى يسقط رأس شيطان مسكين .

أهى محض صدفة ، أم هو بيد محكمة ، أم أن الأيام تتشابه ، أم أنه ليس أكثر من صيدلى إيطالى يحسن الكلام كالفرنسى بونايرت الذى ادعى « أن أراضى الممالك المصادرة ملك للأمة » ، « ومع ذلك وزعت لإشباع ذلك الإله الشره — ونعنى به مالية الجيش — وهكذا ظل الفلاح فلاحاً » .

هنا توقف السيد أحمد السيد عن القراءة وقد سمع وقع خطوات ، ثبت عينيه فى الشخص الذى دخل الحجرة — ولم يكن له به سابق معرفة ، وأغمض عينيه وصرخ :

« القول الأخير يا سيدى تعقيب لمؤلف كتاب بونايرت فى مصر وليس لى على أية حال .. أما بونايرت يا سيدى فقد قال عن مصر لحكومة الإدارة : « هذه الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التى أخذناها عنها من رجالتنا .. إنها أمة هادئة باسلة معتزة بنفسها » .

— ٣ —

هم السيد أحمد السيد للدفاع عن نفسه أمام تهديد الأخت الصغرى التى قالت إنها ستنهش لحمه ، لكنه لزم الصمت لأن الأخت الكبرى غمزت له بعينها ، وها هو يتعرج سالماً مع الدروب متأبطاً كتاب بونايرت فى مصر ، قاصداً مقاهى قلب القاهرة فله هناك صحاب ، وبالنهار يقل توقع السيد أحمد السيد للكوارث .

— ٤ —

« ها مقهى .. وها صاحب » .
كان صاحب متجهما ، سأله السيد أحمد السيد « خيرا » ، رد الصاحب « أمر عائلى » . مضى السيد أحمد السيد ينقر بأصابعه على الطاولة ، قال

الصاحب « هذا ما يقلقنى .. كف أرجوك » . دس السيد أحمد السيد يده فى جيب سرواله ومضى يعبث فى كم من القروش المعدنية ، وثبت بصره على لطخة بسقف المقهى أشبه بسمكة الكابوريا . قام الصاحب ورد السلام مسرعا . وطلب السيد أحمد السيد من الجرسون الواقف المحملق فيه قهوة على الريحة ، وكلم نفسه :

« سألته بتلهف فأجابنى بفتور .. لقد ضايقته ، ومضى مسرعا وكأنه يخشى أن ألحق به .. كأنه سليم وكأننى أجرب .. لقد ضايقتنى ، وأنا لم أكن بحاجة لفنجان القهوة . لكن كنت أريد إبعاد الجرسون » .



غاب الجرسون والصاحب المهتم بالسياسة كان صامتا ، كرر السيد أحمد السيد الطلب على الجرسون ، فزقق الجرسون « قهوة عالريحة » ، قال السيد أحمد السيد يستنفر همه صاحبه على الكلام معه : « ضجة فارغة .. ما هذا .. نجاح نيكسون وهزيمة ماكجفرن وأصوات اليهود .. أى رئيس أمريكى ما هو إلا ممثل يقوم بدور فى لعبة على مسرح السياسة الدولية .

ما هو الا خادم لرأس المال الأمريكى يا صاحبنى .. متى نفهم يا صاحبنى أن أمريكا لن تقف معنا نحن العرب ضد اسرائيل حتى فيما لو تولى رئاسة حكومتها ملاك بأجنحة بيضاء .. تلك طبيعة نظام يا صاحبنى .. إنه رأس المال يا صاحبنى .. إنها امريكا التى تباعد بينى وبينك يا صاحبنى » .

همهم الصاحب وأخرج علبة سجائره وأشعل منها واحدة لنفسه ووضع العلبة فى جيبه وغاب برهة ثم أخرجها وقدم للسيد أحمد السيد سيجارة . وجاء الجرسون بالقهوة ، ورشف السيد أحمد السيد وقال بصوت هامس لصاحبه : « فى مدينة كتلك يموت الإنسان بالأفعال الصغيرة .. لقد طلبت منه قهوة على الريحة .. ومع ذلك فها أنا اشرب قهوة سكر زيادة » . قال الصاحب « لا تهتم » . حدث السيد أحمد السيد نفسه « ما كان يجب أن آخذ منه السيجارة .. ربما بدا منى هذا سلوكا جارحا .. لكنه ما كان ليهم .. كما انى فشلت فى أن أجعله يبادلنى

الحوار برغم انى قلت كلاما يوافق هواه « على أية حال أنا مؤمن بما قلب وهذا يكفينى كعزاء » ، وقال لصاحبه « سأقوم » ، وكذب ليخفى اضطرابه « معى موعد » . قال الصاحب : « أحيانا أجلس هنا .. أنت تعرف » . قال السيد أحمد السيد : « سأدفع ثمن القهوة » رد الصاحب « لا تهتم » .

— ٦ —

« .. هاك مقهى .. وها صاحب »

قال الصاحب المرح « ليس معى مال » . رد السيد أحمد السيد « لا أريد مالا » . سأل الصاحب الماكر « ولا حتى أجرة الاتوبيس » . قال السيد أحمد السيد « معى مال معى » ، وصفق وطلب لنفسه قهوة على الريحة ، وسأل صاحبه إن كان ينبغي شرب شىء.. ضحك الصاحب وقال للجرسون: « قهوة على الريحة لاثنين على حساب البيك » وأشار للسيد أحمد السيد . ودخل المقهى بائع يانصيب أعرج واشترى الصاحب ورقة ، وأتت متسولة تحمل طفلة مشوهة الوجه واليدين والساقين- قال السيد أحمد السيد « أعرفها .. مهاجرة .. وهذا الذى بالطفلة من فعل نابالم العدو الحارق » . قال الصاحب مبتسما فى خبث « إنها تصلح زوجة وأم وأنت تصلح أبا صالحا لطفلة مسكينة .. وطائرات اسرائيل رمت مدن القنال بكل أنواع القنابل ما عدا قنابل النابالم وسأل الصاحب بجنث « لماذا غاب الجرسون ؟ .. هه .. ازعق عليه .. ازعق فأنا ضيفك » . نادى السيد أحمد السيد الجرسون وكرر الطلب وأخرج من جيبه ثلاث سجائر أعطى للجرسون واحدة وللصاحب واحدة وأشعل لنفسه واحدة . سأل الصاحب « ما حال قلبك ؟ » . وجاء الجرسون حاملا فنجانين من القهوة وكوبين كبيرين من الماء . ورشف السيد أحمد السيد رشفة وقال « تلك قهوة مضبوطة .. لو أضاف الشيطان نصف ملعقة سكر بدلا من ملعقة لشربت أنا قهوة على الريحة » . وكرر الصاحب سؤاله « قلبك كيف حاله » أغنى ما أخبار تلك التى لا أحد يعرفها سواك » . وكان السيد أحمد السيد كان ممثلا يقف على مسرح يعرض ميلودراما هكذا رآه الصاحب ، وسمعه يصرخ « من المحزن ان يركز المرء كل مشاعره فى شخص واحد وفى قلب واحد » . قال الصاحب « لمن هذا القول .. انه ليس قولك على أية حال » ، أشار السيد لكتاب بونابرت فى مصر وقال: « قول لبونابرت فى رسالة لأخيه جوزيف » . ضحك الصاحب وقال: « يوسف .. يوسف يا

سيد أحمد . قال السيد أحمد « لا تسخر منى يا صاحبي . ففى كتاب بونابرت فى مصر أقوال صالحة لمثل هذا الزمان .. أقوال تعنى الكثير .. فقط لو تسمع وتتفكر .. أرجوك .. لا تحسبنى عيبط » . ومضى السيد يقلب صفحات الكتاب ويقرأه :

(يقول المؤلف : « لو ظلت قلوبهم العتيقة كنظمهم لقاتلوا كما قاتل أسلافهم من قبل دون نظر للعواقب ولكن قلوبهم كانت عصرية ») ، (ويقول الجنرال كفاريللى « أنا أزعم أن القوانين التى تقدر الملكية تقدر الاغتصاب والسرقة ») (ويقول بونابرت « إن البحر الذى لم نعد سادة عليه يفصلنا عن أرض الوطن ، ولكن ليس هناك بحر يفصلنا عن افريقيا وآسيا ، وعدونا كبير ، وعندنا من الرجال ما يكفى نواة لجيوشنا ، ونحن لا نعانى نقصاً فى الذخيرة ») (وقال كليبر عن بونابرت « إنه عاجز عن تنظيم أى شىء أو إدارته ، ومع ذلك فما دام يريد أن يفعل كل شىء ، فهو ينظم ويدير ، ومن هنا الفوضى والإسراف فى كل شىء ، ومن هنا حاجتنا لكل شىء ، ومن هنا الفقر الذى نعانىه ») .

فجأة دخل المقهى عدد مهول من الناس ، فهب الصحاب واقفا كمن لدغته عقرب — قال للسيد « عما قليل سيذيع التلفزيون مباراة اليوم فى كرة القدم . سأشاهد المباراة فى البيت » ، وضحك السيد أحمد وقال : « خذنى معك فتلك فرصتى لأركب اتوبيسا غير مزدحم » . قال الصحاب بلهجة عاطفية : « لو تركتك لقرأت لى الكتاب بكامله .. ستفقد بصرك فى قراءة الكتب .. صدقتى .. ولكن لماذا لا تكتب ؟ .. هه !! » . أجاب السيد أحمد وهو يلهث خلف صاحبه السريع الخطو « لست موهوباً يا صاحبي .. لست موهوباً » .



طال بهما الوقوف والأتوبيس لم يصل : وكان الفتى طويل الشعر والسوالف ، وكانت الفتاة قصيرة الشعر تلبس جونلة قصيرة زرقاء وبلوزة بيضاء مشدودة عند العنق يرباط أحمر ، قال الولد للبنت « لو ركبنا المترو .. ألم أقل لك .. كان يجب أن نركب المترو » ، ردت البنت على الولد « ونمشى محطتين .. لقد تأخرت وماما تعرف موعد خروجى من المدرسة » . قال الولد للبنت : « نركب ونتمشى المحطتين

معاً . قالت البنت بدلال وهى تعبت بسلسلة يتنبل منها مصحف « سيصل
الأتويس بعد قليل » ، قال الولد الذى اساء فهم البنت « طظ » .. ودق الأرض
بكعبيه ومضى ، ورفعت البنت حقيبتها وأخفت ثدييها عن نظر الرجل الغاضب
الذى كان يتابع حديثهما مع الولد والذى كان يلبس بالطو مرفوع الياقة وعلى جبهته
علامة من أثر السجود . ولما لم يغير الرجل موقفه من البنت علاوة على أنه بصق —
أسرعت البنت تجرى لتلحق بصاحبها .

لما جاء الأتويس تضارب الناس بالمناكب ، وتعذر على السيد أحمد الركوب ،
ونظر يمينه ويسرة وأيقن أنه فقد صاحبه وأن صاحب بلغ غايته ، فولى وجهه
صوب مقهى قريب وكان حسن الحظ فيها هو صاحب بديل .



كان الراديو يذيع مباراة الكرة ، وكان صاحب مستمعاً بأذنيه قارئاً بعينه
التفاصيل التى تسبق المباراة فى صحيفة « المساء » بملحقها الرياضى ، وكانت بقية
الصحيفة ملقاة على كرسى مجاور ، استأذن السيد صاحبه فى الاطلاع على
الجريدة ، رد صاحب : « خذها .. خذها لك » ، وقد صارت الصحيفة ملكا
للسيد أحمد وجد اعلاناً فقطعه بحرص ، لمح صاحب فخطف منه القصاصة
وقد ظنها ذات قيمة عينية — لكن خاب قصده فدارى خجله بقراءة الاعلان
بصوت مسموع « حفلة ساهرة كبرى لجماعة سيدات مصر بفندق النيل هيلتون
بقاعة ألف ليلة وليلة غداً لصالح اقامة دار ضيافة والعشاء يعقبه برنامج ساهر تحييه
نخبة من الفنانين والفنانات » ، ضحك صاحب بعصبية ، وقال السيد « قد
تحضر » — وقال معتذراً لصاحبه ، وكان فى قرارة نفسه تغيساً لأنه عاجز عن
التصريح باسمها « نعم إنها مدام تامبيه : الحساء الرياضية الجسم .. واحدة من
نجوم التيفولى بالقاهرة .. أثار سخطها أن يصدر بونايرت الأمر بأن أرتداء ثياب
النساء رمز على الجبن .. لم تطق التهجم على بنات جنسها .. فأعلنت أنها على
استعداد لمبارزة بونايرت .. وأنها ستريه والمسدس فى يدها .. أن الخوف — حتى
الخوف منه — لا يملأ قلوب جميع النساء » .

عند محطة الأتوبيس حكى السيد لصاحب قابله حكاية الولد مع البنت مع الرجل الغاضب المتدين ، وقال إن أهداب البنت كانت طويلة ، سأله السيد عن معنى ذلك فأجاب بأن مؤلف كتاب القاهرة وهو إنجليزى يقول — ولا تأخذ يا صاحبي من قول الرجل المعنى البسيط « إن أهداب المصريين الطويلة هي سلاح ضد التراب لا مجرد زينة » .

قالت العجوز للسيد أحمد السيد إن أختها عادت لبيتها في الحى المجاور « لاردها الله » ، قالت إن أختها مريضة بالقلب وستموت حتماً في بحر هذا العام « لكنها بمفردها » وإن الله كان عادلاً حين جعل أختها الصغرى لا تنجب من يرثها .

وقال نابليون بسانت هيلانة لرفيقه جورجيو :
« إن المرء في هذه الدنيا يجب أن يبدو صديقاً للناس ، وأن يبذل الوعود الكثيرة ، ولا يفى بوعدها منها » .

وقال ج كريستوفر هييرولد — مؤلف كتاب بونايرت في مصر — للسيد أحمد السيد :

« ولكن الأجيال القادمة ستعجب بعمق ما فيها من ذكاء وبصر — إن قمم وأخررسييس والاسكندر الأكبر وعمرو بن العاص وسليم الأول — كلهم دخلوا مصر من صحراء غزة » .

وسأل الرجل — الذى دخل الحجرة فجأة — السيد أحمد السيد : « قل لي .. من هو آخررسييس هذا ؟ » . أجب السيد أحمد السيد — وقد دفن وجهه تحت الغطاء — بصوت أقرب الى الصياح :

« لا أعرف .. لا أعرف »

وختم روفان تقريره قائلاً :

« وحين استأذنت للانصراف ، لم يقدم لى الشربات ولا العطر ولا المنديل التقليدى ، فأيد إغفال هذه المجاملات رأى ... » .

الفجرى

رزق لا ينحدر من أصل غجرى

بنت الناس القاصدة بيوت العرب البعيدة أحست بتعب ، فمالت على خيام
العجر القريبة ، وقعدت تحت ظل نخلة ووليدها فى حجرها ، وحطت يدها على
قلبها وماتت .

من فتحة الخيمة أطلت العجرية العجوز على الميتة وظنتها نائمة ، ففتشت
بعينها الواحدة عن عقد بالرقبة أو أساور باليدين ، ولما خاب ظنها فتشت بأصابع
أمهر الحواة عن مال بالجيوب — فخاب ظنها أيضا ، هنا ارتابت (البدن يابس
وبارد) فقبضت على المعصم . هكذا أدركت العجرية العجوز أن الميتة ميتة .
حملت الوليد وكلمته — هو الذى لا يعرف الكلام :

« أنت رزق ساقه الله إلى .. بعد ما أغير ملاحك بإبرة الوشم سأطرق أبواب
أصحاب البيوت — وأقول باكية : مات أبوه وهو فى بطن أمه .. والبارحة ماتت
أمه .. وحيدتى تركت لى اليتيم قطعة لحم ببطن وفم .. يا أولاد الحلال تصدقوا على
اليتيم بكسرة أو تمرة يرحم الله موتاكم » .

رزق كائن أرضى صاعد

في حضن الجدة وعلى كتف الجدة وَبِحَجَرِ الجدة — عاش رزق عامه الأول وعامه الثاني وعامه الثالث متسولا بلسان الجدة ، ولما بلغ عامه الرابع خرج إلى الطرقات يتسول بلسانه هو — ممسكا بيد الجدة العمياء حقا وصدقا ، وعاش رزق متسولا حتى بلغ سن السابعة .

كيف بدل رزق جلد اليتيم بجلد الغجرى

بعقل عمره سبع سنوات فكر رزق — بعد موت الجدة :

« بطنى تشتكى الجوع والخبز بالأفران .. واللحم فى الطير والحيوان .. والشمر على فروع الشجر ، وأنا متسول — لأن لكل شئ على الأرض صاحبا يحرسه ، وما فوق الأرض من خيرات يجعل الأرض تصرخ من ثقل ما فوقها وتنادينى : الخوف علة الجوعان يا رزق .

هكذا برع رزق فى نط الحوائط واقتناص طيور النسوة الغافلات وشق جيوب الغير بجد موسى .. وبالخطاف والقصبية قطع الحبل العالى واستولى على ثياب العروسين العاريين .. وبالليل طرق الباب وقال لأهل الدار: « أنا يتيم بلا دار » فأرقدوه على فراش، فنفخ بطنه ولعب لعبة الحيوان ولما ناموا حمل الفراش وطار بجناح الطير .

وها هو الغجرى يبطن لا تشتكى الجوع وحلق لا يعرف العطش وبدن حر لا يغله قيد : يأكل اللحم الحرام مشويا ومقليا فى الدهن، ويشرب البيرة الحرام من زجاجة أو فى سطل، ويدخن الحشيش المكروه فى السيجارة أو الجوزة، ويمص الأفيون وقد يغليه مع القهوة، ويعاشر من بنات الغجر من تروق فى عينيه ويسرق قرشها الذى أخفته بين ثديها عن أعين أهلها الغجر .

حكاية الغجرى مع ست الدار

فى العام الذى شح فيه الزيت والكيروسين والسكر وتغيرت العملة من فضة إلى نيكل — تزوج الغجرى رزق من الغجرية ست الدار ، وبقي — ككل الغجر المتزوجين — فى الخيمة لا يبرحها إلا إلى خيمة مجاورة . هذا بينما ست الدار تلف

وتدور تحت شمس الصيف وتحت سماء الشتاء المطيرة، تقرأ الطالع أحياناً وتتسول وقتاً وتسرق إن واتها الفرصة وتنام مع هذا وذاك في العراء — لتفى بحاجة رجلها الغجرى إلى الأكل والخمر والمخدر .

وفي يوم قالت ست الدار لرزق : زهقت ..

رد رزق : نفترق .

قالت ست الدار : لا .. تزوج من ثانية تطعمك .. وسأبقى أنا بجوارك خادمة مزاجك وزوجة تنجب البنت والولد .

قال رزق : واحدة لا تفى بحاجة اثنين .

قالت : تزوج من اثنتين أو ثلاث .

سألها رزق : ولو جاء ولد أو أتت بنت ؟ .

قالت ست الدار : تزوج ما تشاء ومن تشاء من بنات الغجرى يا رزق .

هذا ما جعل رزق يتزوج من هنده وسعدة ومنصورة ، وفي العام الذى تربع فيه النطع على عرش البلاد تزوج من انشراح و قمر (لقد تجاوز الملعون الحد وتخطى شريعة الله — ولكن لا لوم عليه فهو غجرى) . أما ست الدار — أول الزوجات وأكبر الزوجات — فهي سيدة الخيمة : الآمرة .. الناهية .. الموقعة أقسى العقوبات على المقصرات ، ومن رضيت عنها ست الدار من حريم الغجرى نام معها الزوج الغجرى ليلة .

أفسحوا يا غجر .. الحظ في طريقه إلى خيمة رزق

(الشمس غربت ، واليوم يوم السوق فى القرى ، عما قليل يجتمع شمل الكل وينفق الحمار ويهز الكلب ذيله وتأكل القطرة . والزوجات جلبن الماء من البئر فى الصباح — والحوض مملوء ، وشمس هذا النهار كانت حامية ، والأرض تبخ — الآن — ناراً) .

قامت ست الدار ورشت تراب الأرض بالماء ، وفرشت سجادة من قماش قديم أمام الخيمة — تمدد فوقها الغجرى لما تنفست الأرض الهواء الطرى . وقمر أصغر الزوجات سبقت الأخريات ، ولعبت بأصابعها فى ثديها ورمت فى حجر الغجرى جنبيين من ورق ملون جديد ، وضربت الكلب بساقها وناحت من ألم فى

العرقوب وقالت : كيسه مملوء بورق مثل هذا سيسهر معنا الليلة وسيتركنا لما يطلع
الفجر فهو متزوج .. بفمه سمكة ميتة .. قلت له اغسل فمك بالصابون ..
لولاك الخائب لبانة سيروح العفن من الفم وتبقى رائحة اللبان الحلوة .

زجاجة ويسكى للفجرى

رحب الفجرى بالغريب ، وأمسك بالزجاجة التى جاء بها الضيف — وقلبا
بين يديه ، وسأل : حلوى ؟ . قال الغريب : لا .. خمرة من أحسن صنف .
فرح الفجرى وهلل : اللمة يا انشراح .. ارفعها لفوق حتى أرى ، وأخرج
الزجاجة من العلبة ورفعها لفوق ، ورأى الفجرى على نور الفتيل المشتعل : رجلا
منتعلا يمشى فوق أرض خضراء .. على رأسه قبعة ويده عصا قصيرة سوداء ..
بحلة صدرها قصير وذيلها المشقوق طويل ، فقال للغريب : بعد ما نفرغ من
الشرب سأخذ أنا الزجاجة والعلبة . قال الغريب : خذها .. عندى مثلها . وغمز
الفجرى لقمر : رتبى الفراش ، قال للغريب : ستنام عندنا .. أنت ضيفى ،
ودخل الخيمة خلف قمر وقرص أذنيها : قد أعجز أنا عن كشف سر الباشا ..
حاولى مع الباشا ولك منى رطل من بسبوسة الأشم . لكن الغريب لما سكر —
رمى نساء الفجرى بكلام فاحش .. وحكى حكاية فاضحة وقرص فخذ ست
الدار .. وقاء على حجر هنده .. وجرى لسانه جريان الخيل ففضح سره دون جهد
من أحد .

الفجرى يفكر دون توقف

(صاحب حرفة ارتحل إلى بلد عربى مجاور وعاد بعد عامين من البلد الغنى
بكل هذا المال) ضرب الفجرى الكف بالكف — وزعق فى السماء : واه .. لا بد
من السفر .

شرب أقة من الخمر — فى اليوم الأول — وفكر : كيف يا رزق ؟
فى اليوم الثانى — شرب المخدر وسأل نفسه : كيف أسافر وأنا لا أحسن
حرفة ؟

وفى اليوم الثالث أكل الأفيون سيد الكيوف — وفكر : لكل سؤال جوابه ..
الحكومة هى التى تقول للمسافر سافر .. والمخير عين الحكومة التى ترى وأذن

الحكومة التي تسمع ويد الحكومة التي تجر العاصي إلى المخافر .. والخبر لا يعجز
عن حيلة تجعل الحكومة تقول للفجري : سافر يا رزق .. مع السلامة .

صداقة الفجري مع المخبر عبد العاطي والصول عبد الباري

(قال المخبر المخمور للفجري المخمور : بعد يومين سأرد على ما تبغى
وزيادة) .

(بلغ المخبر دخان المخدر وكح وقال : يقول الصول عبد الباري — قل لرزق
يدخل دكانه مصور يرسم ملامح وجهه حتى تعرفه الحكومة . سأل الفجري : قد
أضار لو عرفت الحكومة وجهي ؟ . قال المخبر : لا تخف) .

(سأل المخبر الفجري بلسان مر من طعم الأفيون : وأين شهادة ميلادك يا
رزق ؟ وأين شهادة خروجك من الخدمة في جيش الحكومة ؟ . رد الفجري في
خوف : لا شهادات عندي . قال المخبر : لا تخف .. سأحضر مساء غد مع
الصول عبد الباري .. الصول عبد الباري ابن مزاج جلال عقد .. هات نصف
جنيه يارزق) .

(قال الصول عبد الباري لرزق ورمش بعينه لانشراح : قم الآن واذهب إلى
طبيب .. خذ معك المخبر عبد العاطي .. ادفع للطبيب وسيحدد لك الطبيب
السن التي تعفيك من الخدمة في جيش الحكومة .. واترك الباقي لله ولي ..
سأجعلك يا رزق من حملة الشهادات) .

وها هو الفجري — بعد مرور نصف عام — يحمل جواز سفر بصورة عليها
أختام وتواريخ وأرقام وتوقعات من ناس يلبسون الحلل ويجلسون خلف طاولات
على كراسي هناك بدواين الحكومة ، بالمال وبفضل مرفته بعبد الباري وعبد
العاطي — شهد الكل للفجري : أنت مواطن .. أنت يا رزق بناء عمره فوق
الأربعين .. لا تشتك الفقر يا رزق .. سافر فبلاد العرب واسعة .. إخلط الرمل
بالأسمنت وضع الطوبة على الطوبة حتى يحك سطح العمارة أنف السماء .

ما جرى من رزق وما جرى لرزق في بلاد العرب

عارك الكلب الذى يحرس القصر وخرج من المعركة بيد أقصر من يده، وراوغ سلاح الشرطة الفتاك . وحطم زجاج العربات الواقفة تنتظر أصحابها . وفك أحزمة الحجاج النائمى فى حماية الحرمين — وفاز بمالهم . ونام مع شيوخ مخنثين وعجائز شمطاوات . وعاد بعد غيبة طالت إلى خيام الغجر بجيوب منفوخة وثياب جديدة وراديو يغنى بكل اللغات ، يشعل السيجارة من قداحة ولا يشرب إلا الخمر الملفوفة فى علب ، ولما زار المدينة رأى العمارات ورأى الأرض الفضاء فدفع لصاحب الأرض الفضاء المال واشتراها ، ومكث فى الخيام أسبوعا ويومين وليلة مع زوجاته — وقد انجبن جميعا فى غيابه — ثم قفل عائدا إلى بلاد العرب فى غزوة جديدة .

الحاج رزق يكفر عن معاصيه

وعمل الحاج رزق بنصيحة صديقه عبد البارى : طلق انشراح ومنصورة واشترى الحاج رزق الأسمنت والحديد وأحجار الرخام من السوق السوداء ودفع للبناء والفعلة المال وأمرهم ببناء المسجد والحجرة الواسعة أسفل العمارة (عمل بنصيحة صديقه عبد البارى : بناء المسجد يارزق سيجعل الحكومة تعفيك من الضريبة المفروضة على العقار) .

وعمل الحاج رزق بنصيحة صديقه عبد البارى : طلق انشراح ومنصورة تصبح يا رزق نظيفا أمام الله والقانون والناس (انشراح تزوجها عبد البارى لتعيش مع لطيفة أم أولاده فى حى السبتية ببولاق المحروسة ببركة سيدى أبى العلاء . ومنصورة تزوجها عبد العاطى بعد ما طلق أم سماح ومحروس) وذلك كله فعله الحاج رزق بوحى من ضميره .

(١) العنزة ذبحها واحتفظ بجلدها وباع ابنها وأكل لحمها مع جماعة الغجر فى يوم مشهود .

(٢) باع الحمار والخيمتين وطرد الكلب والقطعة .

(٣) أمر زوجاته بمفارقة الخيام مع أولادهن والعيش بالحجرات التى تشغل سطح العمارة .. وأمرهن بعدم الاختلاط بالسكان .. وأمرهن بالتلون مع الحياة الجديدة المحترمة .. والزوجة التى يريدونها منهن ستهبط لتبيت معه على سرير طرى الفرش فى الحجرة الواسعة الملاصقة للمسجد .

آخر صورة للغجرى مع السيد عبد الصمد

قال رزق للسيد عبد الصمد : إشرّب قهوتك ياسيد عبد الصمد قبل ما تبرّد .. يوم سكنت عندي يا سيد عبد الصمد كان الماء يصل إلى الدور الخامس .. في هذه الأيام لا يصل الماء إلى الدور الخامس .. حين تريد الحكومة أن يصل الماء إلى الدور الخامس سيصل الماء إلى الدور الخامس .. أنا يا سيد عبد الصمد برىء من كل ذنب .. لما بنيت العمارة اشتريت مواسير ماء قطرها شبرين .. غيرى من أصحاب العمارات اشترى مواسير ماء قطرها أقل من شبر .. وفي العام الماضي — أنت تعلم أنى بنيت خزانين للماء أعلى العمارة .. غيرك يسرف في الماء .. أنا لا أقول أنت مسرف يا سيد عبد الصمد .. كذا لا لوم على .. اللوم على سكان العمارة المسرفين .. اذهب وكلمهم يا سيد عبد الصمد فأنا زهقت والله من كثرة الكلام .

قال السيد عبد الصمد : لو بات الماء في الخزانين يا حاج لوجدت أنا الماء بالنهار .. ولكن أهل بيتك هم المسرفون .. إنهم لا ينامون الليل وديبهم والله يا حاج لا يجعلنى أنام .

انتفض الغجرى : اسمع يا سيد عبد الصمد .. هل أحرق أولادى ؟ ، (ورفع إصبعه في وجه السيد عبد الصمد) بالقطع لا .. أنت دفعت لى أجر عامين مقبلين فى مسكن من حجرتين .. ها هو مالك خذه (ووضع المال على الطاولة أمامه) وأنت لو عشت فى مكان أنا صاحبه عشرين سنة كم ستدفع لى ؟ (وأخرج رزمتين من المال ورماهما فوق الطاولة ، وأخرج القداحة من جيبه وأشعلها) نعم لن أحرق أولادى يا سيد عبد الصمد (ودلق الكحول من زجاجة الكحول فى الأوراق المالية وأشعل فيها النار) افتح عينيك يا سيد عبد الصمد .. وانظر إلى المال وهو يحترق .. والآن — هل من كلام باق فى صدرك يا سيد عبد الصمد ؟

كلام للبحر

سمّاها أبوها « فاطمة » على اسم أمه الميتة ومات ، الا أن أهل حارة السبع نخلات ينادونها « بطة » . وأهل الحارات في مصر محيرون — القملة عندهم بيبة . والاسم هنا حمال أوجه يا بحر — فانتظر (بعد موت الوالد « عجلان » عملت الأم عمل الأرامل قليلات الحيلة : تجلس على حجر وتبيع لأولاد وبنات الحارة أزهار عباد الشمس ملفوفة في قراطيس من ورق مصور ، وتقعد على الأرض وترص فوق الحجر شرائح البطيخ والشمام — لما يكون الأوان أوان البطيخ والشمام) .

لم تكن « بطة » وقتها طفلة خائفة تمسك بجلباب أمها ولا تفلته إلا إذا سمعت صوت صفارة الجدع بائع البالونات . والجدع بائع البالونات الملونة هذا يا بحر — جدع ماجن ، وأنا أزيدك به علما . (يربط الجدع بالونات المنفوخة بخيوط متينة في عود طويل من الخطب ويتركها ترقص في الهواء بكل لون فوق الرقاب الممدودة ، ويختبئ من عيون الكبار بالأركان ويفتح حجره ويقول للبنت « أقعدى » ، ويضع بالونة غير منفوخة في فم البنت ويقول للبنت « انفخى » ، ويعرك بيديه صدر البنت (ويقبض) مع حركة البسط والمد أثناء نفخ البنت للبالونة ، ويحدث الجدع الخبيث نفسه الخبيثة « كل طفلة امرأة لا تبوح .. وكل امرأة طفلة بصدر منفوخ قد تبوح ولا تبوح — لكن القرب من هذا الصنف غير مضمون وغير مأمون وأنا أطلب السلامة .. وكيفيك يا طبياخ الصدود أنك طبخت وتطبخ لأصحاب القدور) .

! أما الآخر يا بحر ذلك الذى طبخ له بائع البالونات صدر « فاطمة » فكان صاحب دكان على مدخل حارة السبع نخلات ، صاحب دكان من ذلك النوع من أصحاب الدكاكين .

(كل السلع المرصوصة على رفوف دكانه وفي السقوف حصل عليها ولم يدفع ثمنها بعد — أخذها من تاجر بالموسكى يقال له تاجر الألف صنف صاحب الملايين ، وصاحب الملايين هذا يعامل أصحاب الدكاكين بعرف يسمونه عرف السوق ، يقول تاجر الألف صنف صاحب الملايين لأصحاب الدكاكين : خذوا ما يلزمكم من بضاعتى ، واتركوا لى على تلك الكمبيالات بصمات أصابعكم حتى يضرب القانون — وهو حليفى — بيده الطويلة وهى من حديد رقبة المنحرف منكم والأعوج وابن الهرمة الذى يشكو كذبا من الإفلاس ، يبعوا بالعجل أو بالآجل .. وارفعوا سعر السلعة واخسروا فى الميزان — لا دخل لى بأحدكم ما دام لا يدلّس علىّ ، يبعوا واكسبوا — كل شيخ بطريقته — وردوا لى ثمن ما أخذتم لأحصل أنا أيضا على مكسبى وهو والله ملايم .. هكذا حتى يدور الدولار ويرمى فى حجركم وحجرى ، وتلك سوقكم يا أولاد العريان — والمال دولة بين الأغنياء منكم) .

لكن ما لنا نحن وحكاية تاجر الألف صنف مع تجار الحارات — نحن نحكى عن تاجر بالذات له دكان على مدخل حارة السبع نخلات . هذا التاجر يا بحر أغرى « بطة » بقرص نعناع لتقترب منه وغافلها ومرر راحته على صدر بطة فجفلت « بطة » من وجع الخضر الطالعين ، خلاصة الأمر جرت « بطة » ، وخاف العجوز من فضيحة بجلجل فيما لو تكلمت « بطة » ، ولام نفسه وقال « الأخذ والرد يتعب قلبى أنا العجوز .. لماذا النظر من بعيد ؟ .. بين البائع والمشتري نعم ولا .. والزمان زمان البيع والشراء .. والقوم فقراء .. سأكلم أم « بطة » وعلى الله التوفيق .

وقام من فوره وقفل الدكان وقصد أم « بطة » حرم المرحوم « عجلان » ومعه قمع السكر الملفوف وزجاجتين من شربات الورد . وعلى ضرب الطبل دق العجوز باب بستان « بطة » فردت بطة « ادخل يا حلالى » ، لكن العجوز ما هش وما نش ولا رفع العصا ولا نط الحائط ، مد كفه المبسوط بحب الفول السودانى — وقال لبطة « وحق هذى النعمة دفعت المال لأرى طيرك يا بيضاء عن قرب » ، ومد الكف وقال لطير بطة « القط يا طير » .

(وها هما يا بحر — كل حمامة يبضاء بجناحين تروم الطيران في الكون الفسيح ، لكن الحريصة عرفت كيف تعامل طيرها وتحببه في الحبس : تلبس الثوب الضيق بشق من العنق حتى الفلقة ثم تغلق الشق بخيطين ، اما المتعة فمكانها الحمام — مع النفس ومع مرآة صافية وصابونة معطرة ذات رغوة وفيرة أو ثمرة موز طرية تشبه العضو ويطلقون عليها أدباً إصبع الإنسان .. آه يا بحر — لعن الله الكلام في مثل هذا المقام .. وما أغربك أيها الإنسان لما تجبرك الظروف على الهنك والرنك في الخفاء .. وأف منها تلك الحياة التي دامت عامين و نصف عام : كأنها الكوايس في المنام) .

قالت « بطة » لأُمها « على غير عادته أغلق الدكان ودخل الدار العصر والمؤذن يقول « الله اكبر » ، ورقد على السرير وناداني فقلت نعم وقلت خير ، قال أحس بوجع ، قلت أين ؟ قال « هنا » — وأشار الى القلب والجنيين ، قلت « سلامتك » .. بعد ما تشرب المغلى ستعود اليك عافيتك وبيتعد الشر » ، وكنت أمام النار لما سمعت الطرق على الباب ، فقممت وفتحت فما رأيت عيني الضيف الذي هو لا إنس ولا جان ، وأنا راجعة سمعت صوت النزاع بين الإثنين ، ولما وصلت إلى الفراش كان الملاك قد مضى ومعه الروح ، وتركني مع الجسد الميت ، وها أنا يا أم أملك البيت والدكان بلا رجل بكح حتى يخاف الطامع فلا ينط الحيطان .. وأنا شابة ويدي يغطيها الذهب من هنا الى هنا ، وها أنا يا أم أدرك بعد ماشق الفأس الرأس أن كل بضاعة المرحوم ملك غيره ، والآن ، هل أغلق الدكان ؟ وأكل من بيع الذهب قطعة قطعة حتى ينفذ فأبيع البيت وأعيش بقية عمري على الخبز واليمك كزلطة أم كرملة وفتفوتة أم وزه وشمعة ؟ أم أفتح الدكان وأعيش عيشة زوجي لما كان معنا في الحياة ؟

أأجر الدكان يا أم — لغريب — وأحيا حياة ناس الحارة صباحي الفول بالزيت وليلي الفول والطعمية ؟ « قالت أم بطة « ما كان كان والفالحة من دبرت أمر عيشها وحال دنياها — لا تلك التي تضع يدها على خدها وتبكي تقلب الأيام » .

قالت « بطة » « نطقتم الصدق يا أمي .. ما ولّي مر وفات .. كيف أدبر يا أم لأكون الأرملة المرغوبة من الرجال ؟ »

قالت أم بطة لبطة « جمالك يستر عيوبك والمرغوبة من الكل لو ابتسمت للكل فقدت سعرها في سوق الرجال » قالت بطة « تعملين أنت يا أم بالدكان وأحبس أنا نفسي في البيت فأحتفظ بحسن السمعة ويظهر زوجات التجار الوقورات — لما أغلق بابى في وجه غيرك ، ومن اليوم وحتى ينقضى عام سأرفض الخطاب ولو كانوا المئات وأقول « الميت عزيز » ، بذا يرتفع قدرى ويرتفع سعرى .. ويتكلم الناس عنى أنا الوفية . فتموت حاسدنى من الكمد ، وتنصحنى العجوز المأجورة من صاحب المال « لا تدفنى شبابك يا بنية ، فالموت حق على الحى .. والحياة حق للحى » — فأرد « بعد اكتمال الحول يا خالة » ويحضر صاحب المقام والمال بعد انصرام الحول ومعه الشيخ والشهود ويدق بابى فأفتح بابى على مصراعيه .

ذاك ما قدرته « بطة » ، لكن الأقدار في بلاد العرب عريية مولدة تحت الضحك من المفارقات الماسخة . لما طرق الطارق باب « بطة » فتحت « بطة » ووجدت أمامها الثور على هيئة إنسان وشباب انسان : هذا فتوة الحارة الملقب بالطبل يا بطة .. والطبل .. يا بحر .. يأكل لقمته بفرض الإتاوات على الضعاف وكسر عظام الأقوياء .

قالت بطة لنفسها « الثور نطاح تغضبه كلمة لا الحمراء .. الأسلم أن أحاوره وأداوره حتى يأتى الفرج » وقالت بطة للطبل « يعلم الله أنك خير رجل يا طبل .. وكل أنشى تتمناك .. غب يومين وتعال ثم غب شهرين وتعال — هكذا حتى تتعود العين على رؤياك ويشتعل فؤادى إذا ما غبت » .

وجاء الفرج المنتظر — وكان حلو الصورة ، له ثلاث زوجات فانتات — لكن الوارث يحب امتلاك كل تحفة جميلة يعجز عن امتلاكها الغير ، سمع عن « بطة » ورفضها للرجال ، فراهن أصحابه وكانوا على مائدة القمار فقال : « هى لى ولو خسرت ربع مليون جنيه » .

قالت بطة لحلو الصورة الواقف على الباب « الفتوة يقف في طريقك » . فرد عليها وقال « أنا أيضا فتوة بمالى ، والجنيه يذبح كما تذبح السكين » .

أخفت بسهام الرموش سواد وبياض العينين وقالت « أنا لك .. زحزح العقبة

وتعال .. وقدم الصداق ألفين .. والمؤخر ضعفين والعصمة بيدي ..
(أواه يا بحر من المال — أنظر : ها هو يصرع الواحد القوى) .
أرسل الوارث في طلب الفتوة، وقال له لما جاء: يا طبل لي مطلب وسيكلمك
رسولى على انفراد .. واللقاء بينك وبين الرسول هناك في مكان بعيد .. ما رأيك
في الخرابة الواقعة خلف بيت الصراماتي في وقت بين المغرب والعشاء ؟ »

قال الطبل الأجوف — وهو لا يدرى ما يحاك له: « موافق .. أفديك بنور
العين .. كم سأخذ نظير خدماتي ؟ »

قال حلو الصورة « ورقتين .. كل ورقة خضراء بمأذنة » .
سال لعاب الفتوة وذهب إلى الخرابة بعد المغرب ، وقبل آذان العشاء جاء
رسول حلو الصورة راكبا عربة فيها ضابط بنجمة على الكتفين وعسكر بسلاح
وخبير بباطن الأرض، تَبَشَّ الأرض التي يقف فوقها الطبل وأخرج لفة قماش بها
حشيش وأفيون ، لما وزنها فاقت الأقتين . وبعدها ذهبت الحكومة بالفتوة إلى
قاضي المخدرات الذى حكم عليه بالسجن مع العمل الشاق لمدة عشر سنوات ،
ذهب الوارث حلو الصورة إلى بيت « بطة » وأركبها العربة التي تجرها الخيل. وتحت
الرايات والنور وعلى رنين الصاجات بأصابع الراقصات — ألبسها الخاتم الثمين
والسوارين ورفع كأسه وخاطب أحبابه الأكابر: « ليالى العرس بعدد أصابع اليدين ،
والخمرة فرنساوى وإنجليزى وألمانى يا إخوان » .

(عشر سنوات يا بحر — عاشها فاطمة كأنها عشر ساعات وأنجبت منه
البنتين والولد الجميل ، وعشر سنوات عاشها حلو الصورة مع فاطمة — نصفها
الأول حلم جميل ونصفها الأخير كابوس ثقيل ، فكل يوم يمر يعجل بخروج الفتوة
من السجن — والطبل على ظهر الأرض يدٌ ثقيلة وغل ورغبة أكيدة في الحرق
والتحطيم) .

دفع الوارث للمخبرين والعساكر المال الكثير رشوة للسجانين ليهدموا بنيان
الطبل القوى حيث يتحول إلى أنقاض .. وليلعبوا ألعابهم الماكرة حتى يتعود الطبل
على المذلة والطاعة واحترام كلمة السيد فالدنيا يا بحر عبد وسيد والسيد مطاع .

« هل أفلحوا ؟ » ، سؤال سأله الوارث لنفسه وللمخبرين والعساكر مئات المرات

وكان الجواب : « عيب يا ابن النوات .. نحن الحكومة .. والحكومة لا تختال .. الفتوة الآن بالسجن أجبن من قطة وأضعف من غملة .. وأحققر من صرصار .. فالسجن يا ابن الأكابر تأديب وتهذيب وإصلاح » .

وكان لحلو الصورة العيون والآذان التى يدفع لها المال المعلوم لتثقل له كلام العامة — آباء وأخوة وأمهات وزوجات كافة المساجين بكافة سجون مصر .

(وكلام العامة من أهل مصر يا بحر قطعاهم — الفول بالكمون .. والسملك المملح بالليمون ، وخياهم جامع ، يقول الواحد للآخر « اسمع يا ... » ويغمز — فيفهم الآخر أنه لا يكلمه ولكنه يكلم العين والأذن المأجورة ، ثم يكمل الواحد كلامه « غيره بالسجن يكسر الحجر .. أما هو فيبيع الحجر .. والثأر كما يقولون القدر تغلى وتفور .. حاول الهروب مرتين وفشل .. لو عشنا سنرى الجزار يذبح الخرفان ، ويبيع الرطل للقادر منا بقرشين وللشقيان بمليمين) .

ضاعت الحقيقة لما اختلط كلام الناس بكلام العيون العسكر بكلام المخبرين بكلام السجانين، وتاه عقل الوارث فكثر شروده وقل طعامه وزاد طلبه للخمرة، فهزل بدنه وبهت النور فى عينيه وتقطع نومه وارتخى عضوه وغاصت نظرة وجهه ، وتخيل الحبل ثعبانا ، وظلّ الحائط إنسانا وخبط الصحن بأيدى الطباخين فرقة سلاح ، وخبر حاله الأطباء ، فرفعوا راية الإستسلام وقالوا « عجز طبنا » ، وقبل حلول الموعد، الذى يخشاه حلو الصورة خشية الموت، بأسبوعين — نام حلو الصورة على فراشه ومات بيده لا بيد طبل .

والآن ، دعنا — يا بحر — من طقوس الحزن التى تفرضها الأعراف العربية على أرملة ابن الأسرة الغنية — كأن : (تلبس مجروحة القلب الثوب الأسود حزنا على زوجها الميت ، وتدفع المال لصحف الصباح فتكتب نعيه على صفحاتها مصحوبا بصورته وتجعل الشيخ الذى يراه الناس على شاشة التليفزيون يرثى على روحه سورتين من القرآن الكريم ليلة مأتمه ، وتحضر فرقة موسيقا ملجأ الأيتام لتتقدم نعشه ، ثم تتقبل العزاء فى الميت من رجل عسكرى صاحب منصب كبير) .

دعنا من كل ذلك يا بحر ، وتعال نشهد المشهد الأخير — بين الأرملة الجليلة وسبع البرمة فتوة زمانه :

(أحاط الخدم المسلحون بسيدتهم الجلييلة وقالوا « نرّميه بطلقات البنادق والمسدسات » .

ردت السيدة الجلييلة : « لا .. احرسونى .. وارشدوه إلى أقصر طريق .. ودلوه على قصرى أنا أعرف منكم بما أريد » . تفرق الخدم على السمع والطاعة . وبقيت السيدة الجلييلة بحجرة النوم الموصدة تنظروها ، تنهشها نيران رغبة قديمة لم يخمدوها رجل له قوة الثور ، وقالت لم لا أكون السمكة فى الماء .. والصياد الذى بلا شبكة يصيد باليدين ؟ » ، وكان ان دهنت الجسد بزيت الكافور والشعر بزيت القرنفل والإبطين بالعنبر والثنيات بعطر يقال له الفارسى الحار ، ثم لفت فواكهها بملاءة حمراء من حرير هندى ، وسمعت خطوة القادم ففتحت الباب وأدارت ظهرها للقادم — وقسمت بيد عادلة شعرها إلى نصفين ورمت النصف على الظهر والنصف على الصدر وكلمت الواقف « كنت صاحب حق .. والسجن للرجال . هل أتيت تطلب حقلك يا طبل ؟ »

قال الطبل « أتيت لأبوس القدم وأعلن الندم » .
قالت « أنت خبيث يا طبل تلعب معى لعبة القط مع الفأرة .. وأنا ما تنكرت لحقلك » .

قال الطبل « لا تذكرينى بما فات .. فما فات فات .. أنا طامع فى التوبة ولا يدوم على حال غير وجه رب السموات » . ولما نظرت إليه خاب الأمل — فصرخت صرخة اللبوة فى الغاب « يتمت أولادى وخربت بيتى وحرقت كبدى يا كلب .. لا تجعلنى أراك وابحث عن طعامك مع الكلاب .. ففى الفضلات المرمية بالطرقات ما يكفيك ويكفيها » . وما ان فارق الطبل الذليل المكان حتى سارعت السيدة الجلييلة ودخلت الحمام — ومعها الكلب المدرب على الفعل وكافة الحركات — ونادت أمها بالتليفون من الحمام ، فردت عليها مدام عجلان — وكيلة شركة كان ياما كان الفرنسية « تعالى القصر الليلة وستشاور فى الأمر » .
ذلك كل ما جرى يا بحر .. ولو كان هناك المزيد لزدت .

حاشية :

من يومها وأهل حارة السبع نخلات يميزون السيدة الجلييلة عن سمياتها بقولهم « بطة ملبن وشطة » . وإليك يا بحر تفسير المعنى الخفى لقولهم « بطة ملبن وشطة » .

« البط من البط ، والبط طير معروف نظيف يعشق الماء ويعيش في البيوت ..
لحمه أبيض كثير طيب الطعم ، والملمن حلوى بيضاء طرية — يحبها الكبير لأنه
بلا أسنان ، ويأكلها الصغير فيرعى السوس في أسنانه ، أما الشطة فبهار حار
يسيل الدموع من العينين ، ويحرق اللسان ويلهب الحلق والشفتين ويملأ الفم
باللعاب فيسيل من الشدقين أبيض الرغبة حتى تظن الإنسان كلبا » .

حاشية ثانية :

ما من نخلة واحدة بحارة السبع نخلات — ومع ذلك يصبر الكل أنها حارة السبع
نخلات ، ربما (في الزمن البعيد) كانت هناك سبع نخلات بالحارة .. أما الآن
(ونحن في عام ١٩٧٨) فلا ، لماذا (وحتى متى ؟) تغفل الحكومات المتعاقبة
التي تتبادل الأماكن (وهي رشيدة) عن أهمية الاسم للمكان ؟

حاشية ثالثة :

من أين حلو الصورة ذلك المال الذي لا ينفد — وهو لا يعمل ؟
أبوه — عليه رحمة الله — كان بلا نعلين ، سريع القدمين يخطف ويجرى ، وفي
يوم تعثر ووقع فأمسكت به الشرطة ، وبالسجن تاجر الرجل في المخدرات وكسب
المال الكثير — رغم ذلك لم يحب الرجل حياة السجن ، عاون الرجل — في ظل
الحريات — تجار السوق السوداء وشاركهم . ولعب معهم لعبة إخفاء السلعة في
مكان بعيد .. وطرح سلعة بديلة أقل جودة في المكان القريب ، وفي تنقلاته
خلف السلعة بين القرى والمدن — لحق به عهد الانفتاح السعيد — فضارب
الرجل بما جمع من مال وريح : وتلك خبطته الكبيرة التي جعلت منه الاسم
اللامع في دنيا السوق والمجتمعات .. فسموه عاشق الخيل — لأنه حقا كان يعشق
تربية الخيل .. ونادوه بملك البيض .. ولقبوه بالثعلب الأعظم — لأنه كان يطعم
الثعالب الدجاج — حتى تسمن الثعالب فيذبحها ويسلخ جلدها ويبيع لنسوة
الأكابر فروها .. ويرمى لحمها في الثلاثات بانتظار حضور الجزار الغشاش وباعة
الكباب ، وبعد موت الأب توزعت الثروة على الأولاد والبنات — فياع حلو الصورة
ما يخصه لأخوته ، وحفظ كل ماله في البنوك الأجنبية ، وجهر في مجالسه التي
تضم الوجهاء — هو الذي لا يفرق بين حرف الألف وحرف الخاء « لماذا
أتعب ؟ مالى في البنوك سهام تصيب — المال في البنوك يجرى في البلدان ويربح —
وأنا بينكم قاعد سعيد ..

وحفظ المال فى البنوك الأجنىة — يا أخوان — ففعل بالكم فى أمان وففبفبكم
الآفوف من الففكفر فى أمور مفل فلك الفف فكلمنا عنها الراففوفاف .. وما آاف
من الفوفاء فى الشهر المشؤوم قاف ففكون مقفمة من المقفماف .. والبنوك بفعة
إنسان له عقل شفطان » .

آاشفة آخرة :

مال السففه فى البنوك الماففة — رغم ففعدد الفففسفاف — سهام ففصفب
المأموع المهلهل ، والجماعة الماففة الواعفة بفبافها — يا بحر — لها الفلفة ولها
الأرض بطفبافها ... هل فففهمنى يا بحر ؟

الرقصة المباحة

مهداه للشيخ سيد ، ومحروس الترنزى
ومحب طالب الطب بالسيدة عائشه

ارقص يا غريب : رقصتك ويا الغجر مباحة
رقصتك وسط الغجر مباحة
م الحياة وسط الغجر مباحة يا امه
للشياء : هزه يا امه
للربيع : هزه يا امه
للخريف : هزه يا امه
والصيف لنا يا غريب وعيش « الدميرة »
والشرف لنا يا غريب وعيش الدميرة
عيش الدميرة يا غريب والشمس الكبيرة
وانته يا غريب رقصتك ويا الغجر مباحة

« أغنية من جنوب مصر »

كان اسماعيل أب على يعضغ عود نعناع أخضر ، ويشعر بألم حاد في أسنانه وضروسه وفكه ومفاصله ، وحين أتى الحاج عبد الكريم محمد عبد الله صاحب البستان نسي اسماعيل الألم وهروا مستقبلا الحاج . وتبسم .. وقبل يد الحاج .. وقدر الوقت بـ : قبل الظهر بقليل : كان ظل الحاج مائلاً تحت قدميه باتجاه الغرب ، تذكر اسماعيل أب على أنه فلاح أرض البستان وحارس ثماره — قال يخاطب الحاج مبتسماً : « باكر أسقى أشجار الليمون فهي في حاجة لماء .. سأرمي تحتها بالسباخ » وقال فيما يشبه اللوم للحاج : « الشجر محتاج سماد يا حاج .. في الصباح الباكر يأتيني السماد .. باكر الأحد يأتى الولد حجازى من طرفكم ومعه السماد .. أنا غداً سأسقى الشجر .. »

تحت ظل تكعية العنب وقف الحاج عبد الكريم وبجواره اسماعيل ، كان الهواء رطباً وطرياً وطازجاً يدخل الصدر فينعشه ، قال اسماعيل : « النبات ليس كالإنسان .. الإنسان كافر وجاحد » تناول الحاج بندقيته من على كتفه بسرعة وثبتها وشد الزناد وأطلق رصاصتين . ومن وسط الحشائش وورق العنب الجاف المكوم أخرج اسماعيل الثعبان الكبير الميت ، بالمنجل شق اسماعيل بطن الثعبان الصفراء ورماه في الشمس وغطاه بالتراب الساخن ، طوق أسود غليظ كان يلتف

برقة الثعبان ، قال اسماعيل بفرح أطفال — وتذكر أن عمره قارب على السبعين :
« لو لم تقتله يا حاج لنبت له جناحان .. هذا أخطر أنواع الثعابين .. أنا أعرف . »

أخرج الحاج حافظته الكبيرة المنتفخة والمرسوم عليها ثلاث أهرامات وثلاث
نخلات وجمل قاعد وجمل واقف يركبه رجل بيده عصا ، قال اسماعيل مذكرا الحاج
بالثعبان الميت المدفون تحت التراب الساخن : « سأسلخ جلده باكر .. ومن
جوفه سأملأ سطلين من الشحم .. وأدهن عقب الساقية .. سيلف العامود
خفيفاً كما لو كان طائراً بجناحين حتى لو ساقى الساقية معزة جرباء . » ، ضج
الحاج بضحكة نزت بالدهن المكوم على صدره العريض الغليظ المشعر ، وناول
اسماعيل الجنيه الجديد والمرسوم عليه أبو الهول الأخضر ، وأدخل الحاج حافظته
الجلدية ذات اللون الليمونى بحبيب صديريه الصوفى الأسود اللامع ورمى بسلام الله
على اسماعيل وتوكل ، ونادى اسماعيل ربه فى السماء بصوت يسمعه الحاج عبد
الكريم : « بحق نبيك محمد اجعل اليايس أخضر إذا داسته قدم الحاج محمد ..
أمين يارب . » ، ونادى بصوت أعلى : « باكر ارسل حجازى بالسباخ .. لا
تسن يا حاج بحق النبى »

* * *

اسماعيل أب على جلس تحت حائط الساقية ، انتهى لتوه من قتل حبل غليظ
من ألياف النخيل البنية اللون المكومة تحت قدميه الممدودتين أمامه ، النسيم رطب
محمل برائحة الليمون والبرتقال ، الشمس حمراء بلا حرارة معلقة فوق سن الجبل
الغربى ، برغوثة ملعونة قرصت اسماعيل فخلع جلبابه الأزرق المصبوغ بسرعة
البرق ، شم اسماعيل رائحة عرقه ، رأى نفسه عارياً كما ولدته أمه « ولعانه » وبحث
عن البرغوثة التى قرصته للمرة الثانية ، اقتنع اسماعيل بأن البرغوثة قرصته تحت
الجلد فلبس جلبابه ومد ذراعه وقاس الحبل وحك وسطه وقال : « ثمانية عشر
ذراعاً .. أفتل ذراعين ويصبح الحبل بعمق بئر الساقية » . شبك الحبل بخنصر
قدمه اليمنى ومد ساقه ومضى يفتل بهمة .

« الحمد لله » ، قال اسماعيل — ورمى الحبل بعيداً . وتملكت اسماعيل حالة من
الصفاء والابتهاج جعلته يحزم بأن الدم يجرى صافياً فى عروقه كما يجرى الماء الرائق فى

القنوات ، وإذا كان الماء الصافى يلمع كالفضة النقية دافعا تحت شمس الظهيرة —
فكذلك أيضا داخل اسماعيل — والصحيح : يتوهج الآن بمثل الشفق الأحمر
الذى يلون الأفق الغربى . خمسة فناجيل من القهوة السادة شربها اسماعيل وامتنص
فصا من الأفيون دفع ربع جنيه لـ « فكرى الكور » ثمنا له .

الجنيه الذى أعطاه الحاج عبد الكريم لاسماعيل كان جديداً ولامعاً وكانت أطرافه
الأربعة مستقيمة حادة ، بطرف واحد من أطراف الجنيه الجديد اللامع كان بمقدور
اسماعيل أن يذبح طائراً جارحاً لو أراد : هذا كما يقول المثل الجارى بين الناس ،
رغبة كانت ملحة فى الاحتفاظ بالجنيه الجديد اللامع الحاد الأطراف ، والحاج عبد
الكريم لن يدخل البستان إلا مع قطف الثمار، وأبو الهول كان يتربع وسط الجنيه
بلونه الأخضر الزاهى .

للحظة أحس اسماعيل بمرارة الأفيون فى حلقه ورمى نفسه بالتعاسة وقال :
« هيه » ، وسمع « هيه » ترد لأذنيه مرة أخرى وسمع صوتاً هناك تحت تكعيبية
العنب ، وأتت رعشة مفاجئة هزت جسد اسماعيل القليل اللحم ، وضح
لاسماعيل أن أنثى الثعبان القريبة أتت لتنتقم لذكرها المقتول ، شد اسماعيل الفأس
القريبة وتقدم وزايلته الرعشة وتملكه إحساس وحشى غامر .

* * *

الغلامان جريا ، مد اسماعيل يده وتناول سروال القماش الملقى فوق الحشائش
الندية وجرى يلاحقهما وجعر : « يا كفرة .. يا أنجاس يا أولاد الشياطين . »
الولد الكبير قفز السياج الطينى الذى يطاول قامته ثلاث مرات — واختفى :
وحاول الأصغر مع السور المرتفع مرة بعد المرة وفشل : خذلته قامته القصيرة
وجسمه البدين ، واسماعيل أضمر بأنه لو أمسك بالولد فسيرفعه لأعلى وبكل قوة
سيرميه على الأرض « هكذا ألف مرة : الخنث ابن الـ .. » . جسم اسماعيل كان
ينتفض من الغضب والأرض ربما كانت تتقلقل تحت قدميه : هذا ، فللسماء سبع
طبقات وللأرض سبع طبقات تهتز لهذا الفعل .

أفلت الولد ، كانت المسافة بينه وبين اسماعيل قصيرة — لكن الولد كف عن
محاولة طلوع السور ولجأ إلى الأشجار الكثيرة والمساحة الواسعة .

« أحدهما فلت أما الآخر فهو فأر في المصيدة : خمسة وعشرون فدانا استقامت فوقها أشجار البرتقال والليمون والجوافة وطوقت بسور قوى مرتفع . »

— هكذا وضع الأمر لاسماعيل فعاوده الهدوء وصرخ : « سأمسكك يا ابن الكلب . » . بدت رؤوس الأشجار — وكان يوسف الأعور قد نادى المصلين من فوق جامع عبد الله لصلاة المغرب من وقت قريب — سوداء كالفحم المحروق جيداً والمنطفئ بالماء — كوجه « يربوية » زوجة اسماعيل أب على .. كذا بنفس لبدة الشعر الأسود الأجعد الخشن .
— « أمسك به وأفعل »

سريعاً مر الخاطر بذهن اسماعيل ، رأسه شعر بها ساخنة تحت نار الغضب الشديدة ، سأل اسماعيل نفسه : « لو طلبت العون من عافيتي ونور عيني هل أفشل ؟ .. منذ سبعين سنة وأنا أعمل . »
صرخ اسماعيل بنشوة :
— « يا ولد .. لك الأمان مني . »

قرر اسماعيل فتح باب الجنيئة الخشبي الكبير المطل على شارع عبد الله ليستعين بشخص من المارة أو من المصلين ، قبض على ذراع المزلاج الحديدي ورفعته وتعمد أن يضربه بالباب الخشبي ليصدر صوتاً مرتفعاً ، وصرخ من جديد وأحس بقلبه يدق بين ضلوعه بشدة وبسرعة وبنشوة .
— « أمامك فرصة العمر .. اظهر ولك مني الأمان »

سمع رائحة هسهسة الطيور — المعتادة قبل الغروب — فوق الشجر ، وشم لزهر الليمون والبرتقال رائحة أكثر نفاذاً اختلطت برائحة عرقه القوى ، وشعر بمسام جسمه تتفتح كلها فجأة — وتضخ العرق الذي يبلل جلبابه ويجعله ندياً .
— « سأفتح الباب يا بن القحبة » .

* * *

هبط المصلون الثلاث درجات الحجرية لدخل جامع عبد الله بسرعة وتحلقوا حول اسماعيل ، بأقصى غضب استطاعه وبأعلى صوت استطاعه زعق :
— « أولاد الكلب .. الاتنين .. الأنجاس .. ابن الجنيئة هرب .. الثاني

بالداخل .. رجل وامرأة .. الأسافل .. الأنثى بالداخل . امسكوه ابن
الضلالى ابن الزانية .»

* * *

فوق سقف الساقية دفن الولد وجهه بكوم من خوص النخيل الجاف
وستره بذراعيه الملمومتين .
صرخ منصور الصادق :
ها هو . —

امتدت رقاب الرجال بعيون النسور ، بخلقوا ، كشف حسان النوالى
ملاح الولد قبل أى من الرجال وزعق :
عبده .. عبده ابن شحات الجبالى . —

كالسيف يَمْضى فى اللحم الحى شق شحات الجبالى لحم الرجال ، وشق
صدره إلى نصفين وصرخ بالألم العظيم ، وبكى الطفل أعلى السقيفة ،
وأسفل السقيفة صرخ شحات :

عبده .. يابن الكافرة .. من منكما ؟ أنت أم هو ؟ .. من الذكر ؟
أنا .. —

سريعة خفيضة حزينة فرحة طرية خائفة دقت الكلمة طبله كل أذن ،
وتمثل شحات لحم زوجته الطرى وجسم ابنه الأبيض الجراج باللحم وعيون
عبده الصفراء كأمه .

كذاب .. كذاب يابن العاهرة .. سأكل لحمك، مع من ؟ .. مع من ؟
مصطفى .. —

.. ابن من ؟ .. بالبلد ألف مصطفى يابن الكلبة . —

ابن فكرى . —

ابن فكرى الكور ! —

« مصطفى ابن فكرى الكور » : كررها شحات عدة مرات ، كان
كنادبة تحب على دف لا تتوقف .

— أشار شحات لبئر الساقية العميق المعتم .

« أرمى رمثك .. مصطفى الذكر يا كلب .»

ولمعت عيون شحات وقدحت الشرر ، وهمهم الرجال ، واشتد نجيب
الولد ، زعق شحات :

— من يحمل عني العار ؟

قال يوسف الأعور :

— الضنا غالى يا شحات .

صرخ شحات ورد صوته من تجويف البئر :

— والشرف غالى .

قال الصادق محمد : « أطفال .. أطفال صغار يا شحات » .

صرخ شحات : « أنا وأنت كنا صغار . هل كنا ؟ .. بدء الصغر يموت الأشيئ .. إنها دودة ملعونة تنهش في اللحم وبحسم وقطع أشار شحات لبئر » الساقية ، رآه الرجال ذئبا جائعاً داهمهم منفلتاً من ظلام المكان : لا شيء يصده الآن .. سينهش في اللحم الحى ، لاذوا جميعاً بالصمت وسمعوا : صوت اصطدام الجسم الحى بالماء : أقرب ما يكون لصوت اصطدام حجر كبير بالماء .

* * *

أتى الحاج عبد الكريم فور سماعه الخبر ، جثا شحات فوق جثة ابنه يبكى ، بكى كما لم تبك امرأة يوماً في القرية على ميت عزيز ، وقال الحاج عبد الكريم : — كفى يا شحات .. كفى ..

قال شحات : « أنا فقير يا حاج .. فقير لا أملك غير شرفى » .

قال الحاج : « لا غنى غير الله يا شحات . »

قال يوسف الأعور : « كلنا فقراء يا شحات ولا نملك غير شرفنا . »

— هل كنت تحترمنى يا حاج ؟ هل كان يحترمنى أحد ؟ من كان يحمل عني العار ؟ أنا الآن أملك شرفى .

قال الحاج مواسياً : « أعانك الله يا شحات . »

* * *

ضم جمع الرجال فكرى الكور ، الحق كان وجه الرجل أمام الملاء أشد صفرة من وجوه الموتى ، بحث الرجل عن ابنه الشارد بين الشقوق وتحت الأحجار وما عثر له على أثر ، ومابقى لفكرى غير الوهن والخزى ورقبته التى قدمها لشحات الذى ساحت دموعه .

— ما الذى يرضيك ؟ أنا فقير مثلك ولا أملك غير شرفى .. أنت جارى يا شحات .

قال شحات : « عافاك الله يا فكرى .. الحاج يحكم بينى وبينك » .
فرد الحاج : « إبنك يا فكرى يترك البلد .. يرحل لا يعود .. لا يدخل البلد نهائيا » .

قال الشحات : « رضيت بحكم الرجال يا فكرى ؟ »
أقبلت الهواجس دفعة واحدة « يعيش مصطفى غريباً .. يموت غريباً ..
تماما كالغجر الرجل : عديمى الشرف سارق الدجاج » ، أزاح فكرى
الهواجس .. فهو عاقل والفرد لا يعارك بلداً ، قال بحزن :
— أمر الرجال ينفذ يا شحات .. قبلت يا حاج . غادر شحات المكان ، قال
للرجال بأسى :
— ادفنوا الجثة .. صلوا على روح الميت يا رجال .

* * *

نصف الليل ولّى ، والنوم أيضا ولّى ، واسماعيل اب على طرد أكثر من مرة
رغبته فى بربرية زوجته الراقدة تتقلب بجواره على الحصيرة ، وعلى الأجران وداخل
الحقول وفوق المصاطب وبالجحور وتحت الأغطية : رجال ورجال .. ورجال
ونساء .. ونساء ونساء .. وبنات وبنات .. وقطط وقطط .. وكلاب وكلاب ..
وضفادع .. وجردان وجردان ، وقالت الأفكار السود لاسماعيل اب على : ابحت
عن مصطفى .. اقطع البلد شبر شبرا .. اقتله .. واشرب دمه .. انتقم للجار
وحقه فى الشرف .. مصطفى يستحق الموت عشر مرات خنقا .

لم يكن اسماعيل راغبا فى النوم وفى بربرية زوجته يوما من الأيام كرهته الآن .
قال اسماعيل مطمئنا نفسه مناديا النوم : سيحيا عمره بعيدا وغريبا وبلا شرف ..
وكذلك سيموت ميتة الغجر الرجل ..

ومد يده ولامس ظهر بربرية اليابس وشدها إليه .

رؤيا

آتاك الميت الحى عابثا - بغير ظل وقد لفته الخالدة برايتها ، وحلته بأساور
من فضة وأقراط من ذهب - وقد تدلى من جيبه عُقد من الجواهر يضوى .

وكنت قد فرغت لتوك من ثروة يومية معتادة مع زميل لك غادرك وبقيت
أنت بانتظار زميل لك آخر تقتله . وتتعاونان معا على قتل الوقت ، ولم تكن تتوقع
أن يأتى الحى إلى هذا المقهى الكئيب ، لقد باغتك وطوح بكأسك ، وخاطبك
أنت المخمور : « اليوم خمر وغدا أمر .. إنها ما تزال تطلب الضحايا .. قم » ومد
لك يدا من نور ، وطالعت بعينيك الأرضيتين الابتسامة تطل من عينيه السماويتين
وتبعته خاشعا متصدعا حتى بلغتها - وقد سجد الليل ، ورأيتها : زيتونة
مباركة .. أصلها ثابت وفرعها فى السماء . « إنه الوادى المقدس .. وتلك هى
الشجرة » ركعت على ركبتيك وكلمك « أن يذبل ورقها ويجف فرعها - فهو الماء
عنها قد شح أو هى الجذور اصطدمت بصخرة : هذا ما علمتنا اياه الأيام » ،
وقال « ألا يأتى الماء من العالى - فقد منع ساكن العلا لماء ليهلك زرعك قوت
أولادك » وقال : « جادله .. وأعلم إنه قاتلى » ناديت : يا ساكن العلا .. لقد

منعت عنى الماء وهو خالق كل شىء حتى .. الماء لزرى يا ساكن العلا ..
- يابن آدم .. ستهلك شجرة الجد القائمة منذ الأزل . وسيهلك الزرع وكذا
النسل .

« اغلق عينا وافتح عينا حتى يرى الذئب فيك .. آه .. افتح العينين ليرى
البندقيتين .. آه .. اطلقهما .. هو خصمك : إن لم تقتله قتلك .

« إرفع فأسك المصرية ، ويديك القادرتين هاتين : إضرب . واجرح الأرض كما لو
كنت تقتل حية : مزق جسد الصخرة .. وارفع حاجز الموت عن الشجرة التى
تمنحك الظل والثمرة » .

الفلسطيني

(١)

خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب .

(٢)

حشت فمها بخرقه قماش .. وأطبقت عليها بأسنانها ، وصرخت
صرخة الألم والخلاص : وكان دافقا .. وكان دافقا ، وغابت عن الوعي .

(٣)

لما حامت الطائرة : الطائرة بجناحين . صرخت الحصاة البيضاء :
« العدو » . فتلونت الحرباء بلون الرمل . وزفر الجبل ووضع كفه الغليظة على
صدره حتى لا ينشق إلى نصفين : « آه .. لو لم أكن للأرض وفي الأرض
وتدا » . وكشع كشاف بعيد الضوء مرة للشمال ومرة لليمين ، فلمعت الرمال
كالترتر . وانغرس الرضيع في حضن أمه ولم يفارق فمه الثدي .

(٤)

كان على مبعدة منها يجبو في ظل عينيها الحارستين ، وحامت الطائرة ذات وجه الكوكلييس بعينه الواحدة المخوفة ، فعاد إليها صارخا ، لمته ، وأعطته ثديها ، ومسحت دمه بكمها ، حتى لا يختلط دمع العين بلبن الثدي .

(٥)

بفرح كانت ترقبه وهو يجبو ، وحامت الطائرة التي تحمل في جوفها قنبلة ناسفة وقنبلة حارقة ، فعاد إليها باكيا ، لمته ، ونضت ثديها الذي دهنته بعصير ثمرة الحنظل المرة ، مص مصة ، وبصق ، وتأهب للبكاء فدنندت تناغيه : « حميدة ولدت ولد .. سمته عبد الصمد .. حامت فوقه طيارة ... »

(٦)

لما حامت الطائرة الكافرة بكل حي . وكانت هي تغزل بالمغزل من فرو الشاة خيوطا من الصوف ، توقفت ، ونظرت إليه : رفع قائمته في الهواء ، وتصلب على قدميه ، وخطا خطوتين ووقع ، تقدمت إليه ، وقبلته ، وتفلت على الأرض - على الشيطان - حيث وقع .

(٧)

ظلت ترقبه وهو يتابع الطائرة بعينين سوداوين ، ورأت في عينيه : بئرا وليلا وخرزة زرقاء .

(٨)

تحت ليل الله الأسود وقمر الله الأخضر : مضت تخلص الخيوط وقد تشابكت - بينا رشق الولد ريشة حمامة بجنب ثمرة بلح صفراء ، ورشق ريشة بخلفية التمرة ، ورشق ريشة بجنب التمرة الأيمن : لقد فرغ من صنع لعبة .. لقد

فرغ من صنع طائرة ، من تمرة صفراء رشق فيها ثلاث ريشات من جناح حمامة
سوداء برقيتها طوق أبيض .

(٩)

الطائرة رأت اللعبة . وكانت اللعبة على شكل طائرة . الطائرة التي يجرى
خلفها خيط الدخان الأبيض تكره اللعب .. كل اللعب .

(١٠)

قالت السماء للمتعال الجالس على العرش :
« سيدى .. لقد رأيت بعينى الزرقاء الكبيرة المخادعة تلك .. كل
مايجرى .. إنها مشيئتك .. ولكنه فلسطينى .. وأنا أيضا فلسطينية » .

وغدا أيضا الأحد

- (أ) أعرف أنها تمر على المقهى كل يوم أحد .. متى تعرف هي ؟
- (ب) لم تمر . الحصان العجوز الأبيض كان يجز العربة المحملة بأكيامس الدقيق . أنا الأرق والحصان العجوز والحوذى العجوز والشرطى الساهر والمومس الخمورة .
- (ج) هذا موعدها الثانى : اغفر لها يا قلبى وقد عرفت .
- (د) أيتها الكارهة : أحبك .
- (هـ) الآن : لا أحبك .
- (و) أنت لا تستحقين ، نعم ، ورميت زهرة القرنفل — وقد عريتها من ورقها — فى كوب الخمرة ، وشربت ، وشربت ..
- (ز) يا أيها العالم — أنت شاهدى : أنا لا هو .. أنا الذى أحبها ..
- (ح) رغم السنوات : اليوم الأحد .

الغول

وقف المطرود من أهله ، وتفل على الأهل القساة ، ورمى بنظرة أخيرة على البيوت القصية . ولم كانت فرحة كبيرة بوفاء الحيوان لما وجد قطته الحبل تتبعه .

سارءوسارت خلفه وطال سيرهما إلى أن أوغلا في القفر فاستبد بهما العطش والجوع - وكانت القطعة الحبل قد ولدت عددا من القطط الصغار العميان . وسدت جوعها بلحم واحد من أولادها الصغار ، وروت عطشها بدمه ، قلد المطرود من أهله فعلة الحيوان - إلا أنه لم يستطع اللحم النىء ، ف ضرب حجرين وأشعل النار فى حطب له وشوى قطعة وأكلها ، وما أن أحس بقسوة العطش حتى شرب دم ضحية جديدة .

وهكذا مر اليوم حتى وجد المطرود نفسه فى يوم هو وقطته يتعاركان ، إلى أن دان له النصر فأكل لحمها . وواجه صاحبا ابن ذلك الزمان وحده الجوع والعطش والوحدة والخوف من الوحش ، فقرض أظافره ، وقضم نصف أصابعه ، وأوقد النار العاليه ليرهب الوحش ويهدى الضال والضارب فى القفر ، فقد يعود يوما إلى دنيا الناس .

وما أن واجه المطرود الإنسان الضال حتى غلب عليه الخوف من العودة إلى الجماعة ، فصرع ابن جنسه وشرب دمه والتهم لحمه نيئا ومشويا .

ومع الوقت تمكنت منه العادة ، وأصبح هذا طبعه ، وبمرور الزمن ذاع صيته لما هاجم جماعة الأحياء ، وتفنت الناس فى وصفه ورسمه ، وأصبحت الأم ترهب ابنها إن عصاها بالغول ، وتحذر زوجها المسافر والد ابنها من الغول .

هى وهو

- لم يكن الظلام قليلا ، رأيت اليد المرفوعة ولمعة السكين ، كنت قد بوغتّ وها أنا هنا .

رفعت يدها عن جبهته ، وقامت .. طارت حمامتان ، والنار ماتزال مشتعلة .
ظهرها له ، تعبت بعلب الأدوية فوق طاولة قريبة ، ربما لتخفى دموعها : كانت
الضربة نافذة .. وكان الجرح غائرا .
رفعت يدها فى وجهه - قالت « يدى هذه ليست يدك .. ويدك لن
تكون أبدا يده .. حاول ... هل تحاول ؟ » .
وقالت لنفسها :

سأحميه بماء ساخن .. وأرشف جلده بماء الورد .. وأدهن جسده بزيت
الكافور .. وأرمى على جبهته خصلة من شعره أشبك فيها خرزة زرقاء وعجينة من
مسك ، وأصنع من شعر رأسه ضفيريّين سوداوين خشنتين .. حين ذاك سيكون
قادرا ..

الجوع

جاوز الحد وخاف من قسوة التشريع فثقب الحائط بالهمة واليدين وبذراع من حديد ، هكذا فر آدمى ذات يوم بعيد - من جحيم الأهل ونعيم الحضر إلى جحيم البيد : حيث الوحش وحيث لا ماء ولا بشر . والآدمى لا يواجه الوحش إلا بالنار التى تولد من ضرب حجر بحجر . فر آدمى ذات يوم بعيد من جحيم التشريع .

البكاء

قطع رجل - ذات يوم - بقضيب من حديد ذيل حية ، فهربت الحية من
بيته - واحتمت بيتت أرملة عجوز .
قالت الأرملة العجوز - وكانت حكيمة - لنفسها :
« حياتي في دجاجاتي .. فأنا أقايض صاحب الدكان - يأخذ البيض ويعطيني
كيس الشاي وقرطاس السكر وعلبة الكبريت .. كذا الزبال يأخذ زبل دجاجي
ويعطيني الإبرة وشلة الخيط وحفنة الملح وحبات الفلفل .. والحية رفيقة قبر ، وهي
في الدنيا رسول موت بخاخة سم بنات قاتل .. الحية تحب البيضة مطبوخة
بالبصل .. سأطبخ للحية كل يوم بيضة بالبصل .

هذا ما فعلته العجوز من أجل الحية . وعلى هذا الحال مرت الأيام وفي يوم
باضت الحية بيضها الارقط أخفته كما تفعل كل حية أم .. ثم جاء يوم وطلعت
ديدان تتلوى تحت أرجل الدجاج الآمن . وماهى إلا ايام - وإذا بالديدان حيات
تسعى في أركان البيت الآمن . ويوم وجدت الأرملة العجوز دجاجة قتيلة - قعدت
على تراب الأرض والدجاجة القتيلة في حجرها وظلت تبكي ضعفها وخيبة حكمتها
وهوان أرملة عجوز أجبرها الزمان على مواجهة صغار حية مقطوعة الذيل .

أما الحية التي قطع رجل ذات يوم ذيلها بقضيب من جديد - فقد لمت صغارها وشمتهم الواحد بعد الواحد وكانت قد شمت الدجاجة المقتولة ، ولما تمكنت من فاعل الفعله أطبقت على عنقه بأسنانها ومنعت عنه الهواء ، ولم تتركه إلا جثة بغير روح ، ثم فارقت الحية الوفية المكان يتبعها صغارها إلى عراء رحب لأمان فيه . بينا الأرملة العجوز - في جحرها الضيق - مع دجاجاتها وقتيلين تبكى ولا تعرف متى تتوقف عن البكاء .

هكذا تم الفراق .

الضحك

العليلة علية من سنين .. خاب طب الأتية .. كما خابت وصفتك
ياعجوز يا مجرية .. فهل تفلح ساحرة مقنعة وقد لعاق ؟

زعقت (والناس حولها دائرة محكمة) : هاتوا العليلة ، ومن جراها اخرجت الطين
والحجر وأكياس اللون وعيدان الحطب المعطر والسفودين ورشت اللون على تراب
الأرض . ورسمت آية الحق ورموز الباطل ، وضربت الحجر بالحجر فتطاير الشرر
الأحمر واشتعلت النار حمراء في الحطب (هكذا خلقت الساحرة العارفة من
اللهب الصغير الراقص - الحدود التي تفصل بين لابسة وعريان) ودقت الطبل
فرقص القرد وظل يرقص ، وكلما زادت في الدق زاد القرد في الرقص ، إلا أنها
توقفت بغتة عن الدق على طلبها - وصرخت في القرد الذي لم يتوقف عن
الرقص : قدامك بيتك .. بدّد خوفك - وارجع لأهلك . وما إن تخطى القرد
حاجز اللهب وعيون الجمر المبحلقة وهمّ بالفعل بعدما طلع (وكان قد عرى
الجسد) - حتى هاجت الحلقة .

الخوف

تزوج صاحب حانوت - لا ينجب - من جميلة ، وحرص عليها كما يحرص على بضاعته . فالجميلة صورة في إطار : تزار ولا تزور ، كريمة في نعيم البيت - مع طير مغرد في اقفاص ، وسمك زينة ملون يسبح في آنية من زجاج ، حواء مطوقة الجيد بعقود مفصلة من كريم الحجر ، بخلاليل من فضة واساور من ذهب ، تلبس الثياب الغالية موشاة بالقصب والمناديل مولونه ومعطرة ومطرزة بترتر وخرز .

والأيام - كما شاء خالق الأيام - قسمة بين ليل ونهار ، ونهار ابن زماننا صاحب الحانوت أبيض : أبيض بالنور السماوى .. وأبيض بالريح لما تتزاحم الخليقة على السلعة الشحيحة ، أما الليل فوسواس خوان .

كلما جاء ليل : أغرق رب البيت صاحب المال وحارس الجمال البيت بالنور الفاضح وأطلق الكلب النابح .. وعرى الخليفة ولاعبها وأرضها بالفاكهة والحلوى ولحس ومص ، وبعدما ينال البعل مراده ينام ويشخر - حتى يذهب هذا الليل ويطلع نهار أبيض جديد ، بريح أبيض جديد .

على هذا المنوال - كرت الايام ، وذات ليل - وعلى نباح الكلب الأمين - هب

صاحب الحانوت من النوم هلوعا : فيها هى خيالات تتحرك فى النور تبغى المال او تبغى الجمال - وهو حريص على المال والجمال .

رمى الخيالات بكل ماوصلت إليه يده من أشياء ، وسقط خيال فُحمله زميله وفرا من النور إلى العتمة ولم ينم هو تلك الليلة . ولما طلع النهار رأى الدم على السجاجيد ، وأيقن بفطنته أن الدم الذى سال من الخيال قد يفقد الخيال حياته . هنا زاد خوفه من انتقام خيالين لصاحبهما الميت ، فأشترى بندقية تزحق روحين وكف عن البيع واغلق حانوته ، واذا ماجاء الليل - فهو سهران قابض على بندقيته يحمى المال والجمال ، وبين الحين والحين يطلق رصاصتين فى الهواء ..

الموت

يروى أن الملاك العبوس عزرائيل أراد أن يعاين روحين لعبد وعبدة يعملان في غيط السيد ، فتنكر على هيئة شيخ ضرير بلحية ، تحت إبطه لوح ويده ريشة ودواة .

استبد العجب بالعبدین الغافلين : ما حاجة شيخ ضرير إلى اللوح والريشة والدواة .. ولم لا يدب بعضا كسائر العميان ؟

وقالت العبدة لزوجها العبد : لو أمرتني سأله ؟ .. إلا أن الملاك الذي سمع حديثهما قال : العبد لا يسأل يابنية .

فسأله العبد : وهل أنت سيد ؟

قال الملاك : أنا سيد لا أسأل .. وأنا عبد لا أسأل .

ركع العبدان وقالوا : يالك من حكيم .. علمنا أيها السيد الحكيم حكمة تنفعنا .

قال الملاك : ستموت زوجتك من فعلك .. وتموت ياعبد من فعل زوجتك .

قال العبدان : فسر لنا قولك الملعن يا حكيم .

قال الحكيم : عطشان .. وشربة من بئر السيد تسقينى .

قال العبدان : سنسقى السيد الحكيم من بئر السيد العذبة .

أنزلت الزوجة الدلو في البئر ، وهي تسحبه رأّت سمكة كبيرة بعيون مضيئة ، فتركت الدلو وهبطت سلام البئر ، ولم تكن على قدر من الحكمة حتى تدرك أن الملاك عزرائيل قادر على أن يكون سمكة كبيرة بعيون مضيئة ، يراوغ ويعض كل من يمسه .

فلما عضتها السمكة صرخت : الحقنى يا زوجي .. سارع الزوج العبد لنجدة زوجته العبد ، وهبط البئر .. وهنا تمكن الملاك عزرائيل من الإثنين ، فشقق شهقة كبيرة ولم الهواء النافع ، وزفر زفرة كبيرة وبخ الهواء الضار.. يموت العبد والعبد اختناقاً في بئر السيد .

أشكال

ها أنا راكع أغسل بدموع المعذب المقهور قدميك .

ياربى ، يامن خلقتنى من طين . أنا أصير بأمرك البغل الذى يجز العربة المحملة بكل صنوف الثمر الحلو الملون فواح الرائحة .. بغل من هذا النوع ياربى : بغل لا يقول لا ولا يقول نعم . بغل يسير ويجرن وقتاً وبعد الجلد يواصل المسير . بغل يشتهى كل صنوف الثمر الملون الحلو .. فقط يشتهيه ثم لا شىء آخر .

أقول إني بغل يشتهى ويستعيز عن متعة الأكل بمتعة الاشتها . فليس من الضرورى أن يأكل بغل ، فالدجاجة لا تأكل بيضها . إن الاشتها حرية مأمونة حتى وإن كانت منقوصة . أما مبتغى - الطعام فقد يقع يوماً فى قبضة العسكرى ، ويدفن فى السجن المعتم الرطب ، لا هو بالحى ولا هو بالميت ، ولا صديق له إلا الحشرة والرائحة النتنة .

كُن المِصرى الصالح : كُن السيد

تزوج - هو الفارّ من أهله - زوجة جميلة فارةً من أهلها ، ووعدّها بمسكن :

هكذا لبس ثوب الوحش ملك الحيوان ، وقصد العراء . ولما وجد الماء يشقّ المجرى فى بطن الصخر بنى بيته وسوّره بالشجر الذى التفّ على الشجر .

جاء الضال وطلب منه الطعام فأطعمه ولم يطلب منه الثمن . وبعد رحيل الضال بأيام عاد الضال ومعه أهله ليشكره وليشكروه ، فأطعمهم وأصروا على دفع الثمن . وهكذا شيد حانوت « كل واشكر » الذى صار واحة للمسافرين .

قسم أوقات اليوم مع زوجته يتناوبان العمل ، ولما فاضل بين ربح المرأة وريح الرجل ، وسفاهة السكران ونصاحة الواعى .. قرّر قراره على أن تقوم زوجته بالبيع أغلب أوقات اليوم ، وشدّد عليها :

« إرمى ذلك المشتري بنظرة تمسك وتفلت ، ولا ترقدى على ظهرك فنخسر الجلد والسقط ، وتبقى المهانة بعد العودة إلى أيام عشناها - أنا الفارّ وأنت الفارة - وخبرنا مرّها » .

وتحت إلحاح الراغبين فى النوم شيدّ الفندق من طابقين فوقهما طابق مفصّل لا يبلغ الماشى نهايته . هكذا خلق الدنيا كاملة : أكل ، وشرب ، ورقص ، وجنس ، ونوم ، وأطفال - هم أحفاده وهو جدّهم الشرعى . وهامهم يلعبون فى الكرمة تحت الشمس ، وينتظرون ابتسامته العصيّة .

* * *

دجاجة تبيض ، وبيض يفقس ، ودجاج يطلع - هكذا المال يلد المال . فإن لم تحكم به الغير حكمك الغير ، وهم الكثرة وأنت القلة ، أنت الفرد وهم الجماعة . وهكذا الجماعة إن اشترت قليلها أخضعت كثيرها ، ليكونوا لك اليد التى تبنى وتزرع وتقلع وتصفق ويكونوا الفم الهاتف بالحمد .

* * *

سألها : ما حاجتك للاسم ؟ وما حاجتى للاسم ؟
قالت : تناديني حورية - وأنا فى الماء حورية - وأنا نأديك بهاء ، فيدوم بيننا التعارف .. لا تضل ولا تدق الطبل واهتدى بشمسك ..

هل فهمت .. أم أكرّر قولى يا بهاء ؟!

* هذه القصة كانت مخطوطة ضمن مخطوطات وأوراق يحيى الطاهر عبد الله . وكان يحيى الطاهر - قبل وفاته - قد أشار إلى هذه القصة خلال حوار مع صديقه حسين حموده عن « مشروعاته » القصصية التى لم يكتمل بعضها ولم يكتب بعضها كتابة نهائية .

ويقول الأستاذ ادوار الخراط إن يحيى الطاهر كان قد أشار إلى هذه القصة باعتبارها قصة مكتملة

إلى سنوحى

- (١) على البيت سقطت القنبلة : يالونه الأزرق .. يالونه الأزرق .
على القلب سقطت القنبلة : يارنة الفضة .. يارنة الفضة .
- (٢) نذرت أنا للشارع ، ونذرت هى للأوجاع . علاقتنا بلا غايات بعيدة ،
لا الخمرة ولا أن تصالحنى تلك التى أحبها — سيقم البيت الذى دمرته
القنبلة .
- (٣) صوتها قادم من صحراء أعرفها ولا أبوح حتى لا أسقط فى أيدي
الشرطة . صوتها قادم بالأزرق والفضة .
- (٤) فى النوم رأيت نفسى مهرة سوداء ، نعم : فى الحلم كنت المهرة
السوداء .

فى الحلم يعشق الموتى

سمعت الصوت « الجبل ياسارية .. الجبل »
ورأيت :

طائرة العدو تطير ، وتكرهنى ، دمرت بيتى بقنبلة ، ودمت قلبى بقنبلة ،
ودمت قلب محبوبتى بقنبلة - وكنت قد سمعت الصوت .

لم يعد قلبى فى بدنى ، فحملنى ذلك على قطع الصحراء . لم يلمنى
أحد ، ولم يبصق فى وجهى أحد ، ولم أسمع أية إهانة ، ولم يرد إسمى على فم أى
مخبر .

بيدى (صنعتها) ، زرقاء من ورق ، لكنها تطير ، طائرتى ، أنا ، الملاح
الماهر صانع الصندوق والقارب ، الروح الحية الهائمة بغير ظل ، عدوى
أدمية بقنبلة ، والعاشق والعاشقة أرميهما بوردين .

« لا تفلت الخيط » ، أنت من صلبى ، « لا تفلت الخيط » .

الرسول

رسول الموت - وهو مخادع قادر - خلع أثواب الحرير وعقود وأقراط
وخلائيل الزينة : وتنكر في هيئة سمكة حية تسبح في ماء حلو .

رسول الموت - وهو مخادع قادر - خلع أثوابه الحريري والعقد والقرط .

رسول الموت المحب للزينة - وهو مخادع قادر - خلع أثواب الحرير والعقد والقرطين
والخلخال - وتنكر في هيئة سمكة كبيرة حية تسبح في ماء بثر حلوة الماء ونادى
رب الدار عليه بلغة السمك « تعال » الرسول قابض الأرواح - وهو مخادع قادر
- خلع ثياب الحرير .

ابريل ١٩٨١

* تعتبر هذه القصة آخر ما كتب يحى الطاهر في حياته حيث توفى في ٩ من أبريل ١٩٨١ .

صكايات
للأمير كتي ينعام

من الزرقة الداكنة حكاية

الحمد لله الذى لم يسلبنى كل نعمة فمنحنى نعمة الخيال ..
والصلاة على النبى الذى أجار غزالة البر لما استجارت به من شر صاحبها
اللئيم ..
والثناء الشاء عليك أميرى ..

(أقول)

إن الكونت الإيطالى شاذ الطبع ، دخل مدينة الشتاء بالصيف ، فما أن
حدقت فيه شمس صيف المدينة — هو الغريب — بعين كبيرة ورمته بألف رمش
من نور وألف رمش من نار — حتى سارع بخلع كل ثيابه وأبقى على البنطلون
القصير ولولا الملامة لخلعه ، ودس رأسه الأصلع تحت قبعة زرقاء ، وأشار بيده
الممسكة بالغليون — فهرول نحوه الجندى الأسكتلندى بنخوذته ذات الريش الأزرق
وثيابه الزرقاء الزاهية وسيفه المتدلى من جنبه ومد يديه بزجاجتين من الويسكى ،
شرب الكونت المحب للشراب زجاجة وهو واقف وزجاجة وهو قاعد على درج
المطار ، وفرك راحتيه فتحركت باتجاهه عربة زرقاء مقفلة نوافذها تغطيها الستائر
الزرقاء وهبط منها رجل ضخم حمل الكونت وأقعده على الكرسي الخلفى ، واعتلى
الجندى الأسكتلندى حصانه وتقدم العربة شاهراً سيفه .

(أقول)

من شرفة الفندق المطل على النيل أطل الكونت الشمل، ورأى النيل رجالاً بشباب
الموج الداكنة الزرقة وقد تناثرت حوالهم النجوم الزرقاء — فهاجت روحه واشتاقت
للفعل : رسم على الورق البيوت السبعة، وأحاطها بسور من حديد مدبب ينفذ
في اللحم وجعل بوابة السور في حماية كلاب تنهش اللحم ، كل بيت من البيوت
السبعة بحديقة وحوض ماء به سمك ملون ونافورة ، وداخل السور كان اسطبل
خيل ، البيت الأول من طابق واحد والثاني من طابقين — وهكذا تدرج (١ =
١ ، ٢ = ٢ ، ٧ = ٧) ، ودهن البيوت بلون أزرق يقيم (من ١ الى ٧ أو من
٧ الى ١) ، ورفع الكونت منظاره واختار من الرجال ستة (البناء ماهر ، والحداد
قوى ، والحوذى شاب ، وفالح الأرض فحل ، وصانع الآثاث ييدين مدربتين
رائعتين ، والنقاش مرح) .

(أقول)

أخيرا تكلم الكونت بالإيطالية ، وهو راقد على بطنه فوق مرتبة من المطاط
محشوة بهواء رطب من تحت شمسية يتدلى منها ورق الزينة الأزرق : برافو .. لقد
وثقت لى وقد وهبتكم البيوت ... وها أنتم أمامى سادة بحل سوداء وأحذية تلمع
تتمخطون فى مناديل .. كل شيء هنا داخل السور صار لكم .. واليوم للخمر
والمتعة الصافية .. ومن غد سأعلمكم لعبة الورق فخلال شهر سنستقبل هنا
أضيافنا وهم من علية القوم .. سيكون كل منكم قد أحسن الإمساك بالشوكة
والسكين وعرف كيف ينزع اللحم من العظم .. سأبذر فى نفوسكم المتباعدة
روح الجماعة التى ترفض أن تُغلب — تلك التى تخطط للنصر الذى سيجعل
منكم الأغنياء السادة بحق لهذا العالم الذى لا يحترم إلا السيد الغنى .. لقد
اكتسبت أنا تلك الروح بعد جهاد شاق وحياة دون كادت تحشرنى فى زمرة الموتى
عرياناً جائعاً .

ورفع الكونت كوبه — فرفع الأسافل أكوابهم وقرعوها كأنهم السادة منذ زمان
بعيد .

(أقول)

مر الشهر وتلاه شهر وشهر ، وهاهم القوم يستقبلون أضيافهم من ثرة العالم — الطامعين في كسب مستحيل — برفع القبعات ، يرطنون مع بعضهم بالطليانية ويكلمون أبناء جلدتهم بخلطة من كلام العرب وكلام الطليان ، يلعبون الورق بخفة الحواة ويحسنون الغمز واللمز الذى نهايته الظفر بمال خصومهم ، ويشربون من جيد الخمر: البئر والنهر والبحر فلا تدور لهم أدمغة ، ويأكلون من اللحم المشوى والمقلى والمسلوق: التلال والجبال والسهول والوديان — فلا يصيبهم مغص أو وجع .

(أقول)

بعد الثناء عليك أميرى والصلاة على النبى — لله الحمد على هذه الخاتمة الحسنة :

فها هى ذى العربة قادمة من البعيد بستائر زرقاء مسدلة — وقد داست بعجلاتها فوق بشر وشجر وحيوان وطير داجن وهدمت بيوت النمل ووقفت أمام البوابة وهبط منها الرجال الأقوياء الصالحون لكل شىء . رفع الكونت قبعته الزرقاء بيد ، وأشار بيد ممسكة بالغليون للكلاب فكفت عن النباح ، وبأسى قال الكونت للرجال : كيف جاء الموعد هكذا سريعاً ، ولم يسمع جواباً ، فركب العربة . وركب بعده الرجال . وركضت الخيل . وتصاعد الغبار فغطى كل شىء ..

حكاية صيف

بعد رحيل الكونت (ذلك الذى حكيت لك حكايته أميرى) ثار الغبار الكثير فى أعقاب العربة فحجبها عن أعين البشر .

هنا — أقول أنا : إن ثمة صيفاً أقبل ، لا ككل صيف؛ فهذا الحر فى الجوف لا يلطفه ماء ، ورطوبة الجو تخنق الأنفاس ، والشمس الكبيرة القريبة من الأرض لا غاية لها إلا أن يشب الحريق بعالمنا فى التو واللحظة .

(والله واحد يا أميرى والشمس بوجهين) .

قالت الأم : أبوك رحمة الله عليه كان طيباً ، يمشى فى حاله ، ويطلب من الحوائط أن تداريه ، والكونت يا ولدى اشترى الأرض من جدك بماله .

ردّ البكرى : جدى كان يسكر وكان يقامر — وتلك شيمة الرجال ، لكن بأى حق يرث القرين الأرض ، لا هو كونت ، ولا هو ابن كونت ، ولا من سلالة كونت ، كذا لا أنا ولا أنت نعرف طليانى حتى نحكم إن كان كلامه طليانى أم غير طليانى ؟ كما أن اسمه القرين !!، طظ ، سأمنعه بعصاى هذه من زراعة الأرض .

صرخت الأم ، فتجمع الجيران ، ودار جدال ، لكن البكرى شق الجمع ويده
عصاه — والأرض مقصده — ومن خلفه سارت أمه تلطم ومعها جمع من النسوة
المولولات .

صرخ البكرى في القرين : انزل من فوق البغلة وكلمنى .
قال القرين لنفسه : هذا كلام قبيح .. وسروالى ابتل ، وهذه الرائحة الكريهة
التي أشمها بنتُ خوفي (وهمز القرين بغلته فركضت) .

(وآه ياأميرى الليل أيضاً برأسين ، والله في ملكه لا شريك له) .

قال القرين للحداد : اصنع لى حجرة جدرانها من الصاج المتين ، بسقف من
الصاج المتين ، ولها باب من الصاج المتين يغلق من الداخل بلسان متين ، واجعل
للباب عيناً مسحورة — أرى منها الطارق ولا يرانى ، ولك منى يا أيها الحداد عشرة
جنيهاً ورقية،وعشرة جنيهاً ورقية،وعشرة جنيهاً ورقية .

وقال القرين للقتلة الثلاثة — ورسم لهم البيت والشجرة والمنحنى والتل
والترعة : أريده حياً ، مربوطاً بالحبال ، سأبصق على وجهه الكلب ابن الكلب —
أنا القرين ، وسأدفع لكم عشرة جنيها ورقية،وعشرة جنيهاً ورقية وعشرة جنيهاً
ورقية،وفوقها عشرة جنيهاً ورقية .

وقال القرين لنفسه — بعد أن فارقه القتلة : قلت لهم إنه كلب وابن كلب
ونسيت أن أقول لهم إنه ثعلب وابن ثعلب ، قد يضللهم ويغطس في الترعة أو يلبد
في جحر وينتظر الحين المناسب ليثب على هنا ، ربما في ثياب خادمي الذي يحمل
لى قلة الماء وصينية الطعام ...

حكاية عبد الحليم أفندى وما جرى له مع المرأة الخرقاء

أنا لم أشهد تلك الأيام لكنى حضرت ليلة أحيائها ثلاثة ، ثلاثة من أفضل الرواة — يا أميرى ، خطفهم الموت الظالم فى عام واحد ، عليهم رحمة الله ، لقد كانت خسارتنا فيهم كبيرة ...

* أكتع يدق على عود ، فيبكي وتر ويضحك وتر ..

* وأخرس يرسم الدنيا بالصرخة والإشارة : دنيا ببحر وشجر وطيور وناس ...

* أما الأهم فكان ضارب دُفّ لا نظير له ..

بعدما أكلوا الأكلة الدسمة وشربوا وشمّوا ، صرخ الأخرس ، فدق الأكتع على عوده وضرب الأهم على دُفّه — ذلك الضرب السريع المسمى بالقادوس ، وقالوا : فى ليلة — كأنها الليلة ، ورب الكون شاهد على صدق ما نحكى نزل الإنجليز من القوارب ، ونصبوا الخيام — هناك فى فضاء الأرض الرملية .. وظلّوا على حالهم قرابة الشهر بينما النهر يفصل بينهم وبين بيوت ناس الشرق حتى جاء ذلك اليوم :

تفل ولد من أولاد ناس الشرق تفلة ، وراهن الولد أنداده — قال : ما قولكم لو عبرت النهر من الشرق إلى الغرب وعدت قبل أن تجف تفلتي ؟ .

رد الأولاد : نسميك البطل .. ونحكى حكايتك لكل الناس قال الولد : لا .. قولوا عبد الحليم أفندى راح وعبد الحليم أفندى جاء .. لقبوني بالأفندى .. ونادوني يا أفندى ..

ضحك الأولاد وقالوا : أمرك يا أفندى .. تمام يا أفندينا .

خلع الولد خرقة ، ورمى في الماء بدنه ، وعارك الموجة حتى بلغ بر الغرب بيطن منفوخة — فكلّم نفسه : هنا فوق الرمل الناعم أقف وأبول وأفرغ القرية .

وسمع الانجليزى يناديه بلسان أعوج : لا تخف أنا كبير مطبخ الانجليز ، وناداه الانجليزى بلسان حلو ملوى : سبحان من صور بدنك ورسم وجهك ، وناداه الانجليزى بلسان أحمر : اسمح لى بلمس بدنك وتقيل خدك .

خلاصة القول — يا أخوان ، أن الكلام الحلو الملون فرض الطريق إلى خيام الانجليز بالورد والحناء .

واسمعوا يا سامعين : قال الانجليزى لعبد الحليم : أدخل الحمام واستحم — وناولہ صابونة معطرة . دخل الولد الحمام وحك جلده ، وطرّد القملة والبرغوث ، وخرج الولد من الحمام بينطلون أزرق وچاكت أبيض وبشيشب في القدم ، وقعد على كرسي .

وجاء مُزيّن الانجليز وقص شعر رأس عبد الحليم ودهنه بدهان طيب الرائحة .

وكما ضحك الأولاد من عبد الحليم لما قال لهم : نادوني يا أفندى ، ضحكت الأقدار من الأولاد ، وها هو عبد الحليم أمام عيون الكبار والصغار أفندى بحق ، يلوح بيديه بينما رسول الانجليز يلوح بمنديل أبيض ، أما القارب فكان بموتور يهدير : فو .. فو ..

ذهب عبد الحليم أفندى للمنادى ، فدار المنادى الأعمى فى الدروب . ومن القارب كلم الإنجليزى رسول الإنجليز الناس بلسان أعوج وطلب منهم بناء سور من الحجر ، وأعطاهم ريات الفضة ، واشترى من أم الأولاد البيضة والدجاجة ، كما باعت له البنت الأرنب والحمامة .

صلوا على طه النبى :

فى نهارين أقام الرجال السور وشيدوا البيت اللطيف الذى سكنه كبير الإنجليز ، وبنوا المطبخ والورشة والمخزن ، وأصلحوا الطرق ورصفوها لتتخط فوقها طائرات بمراوح وطائرات بأجنحة .

وفى شهرين — وبفضل كبير مطبخ الإنجليز — تعلم عبد الحليم كيف يطبخ طبيخ الإنجليز وكيف يصنع الفطيرة الحلوة والفطيرة المالحه ، وعرف رطانة الإنجليز فصار يرطن كالإنجليز .

وقال المعلم لتلميذه : إذا جاء الصيف البس له الحلة الفاتحة من قماش الشاركسكين .. وامسك بيدك منشة — ففى الصيف يكثر الذباب يا عبد الحليم .

وقال الخواجا لابن البلاد :

وفى الشتاء البس الحلة من قماش غامق .. والصوف الإنجليزى كما تعلم خير صوف يا حليم ..

وتحت نور الكهرباء تلاصق الجسد بالجسد ، وقال المحب : لو صاحبت كبار القوم سيحترمك صغار القوم ويقفون لك ويطلبون منك العون ... ساعدهم يانور العين، واحمل شكواهم لكبار القوم القادرين على حل المشاكل وإخراج الناس من الحبوس .. هكذا يكبر اسمك ويطير صيتك .. وتصبح كما أردت أنا لك أن تصبح يا حليم .

وكما تدور السواقى دارت الأيام ، وسافر الإنجليزى معلم عبد الحليم مع بقية أهله الإنجليزى الى بلاد الإنجليز .. وجاء ضابط من بر مصر وسكنوا المطار وحكموه .

وفي اليوم الذى هطلت دموع الحزن من عيني عبد الحليم وهو يودع معلمه الانجليزى ، هطلت دموع الفرح من عيني عبد الحليم وهو يسمع الأمر من المصرى كبير ضباط المطار : أنت من اليوم كبير مطبخ المطار .

وهكذا — يا أخوان — صار عبد الحليم كبير مطبخ مطار مصر ، يجلس على كرسى ، بينا الكل خلية نحل تعمل : يغسلون الأطباق وينشفونها بالمناشف .. ويلمعون الحلل والشوكات والسكاكين بدقيق الفيم .. وينزعون القشرة عن التمرة .. ويهركون الأخضر ويصحنون اليابس ثم يطبخون وجبة الطعام ليأكل ضباط مصر .

على صوت المؤذن والديك تصحو أم عبد الحليم من نوم حلو ، وتحمل إبريق الماء الأحمر بيد والطست الأبيض بيد ، وتقول بصوت خفيض : يا عبد الحليم . يصحو عبد الحليم وينظر لساعته ويغسل وجهه دون أن يفارق سريره ، وبعدما يشرب فنجان قهوة بلبن وسكر — يدخل سيجارة من صنف انجليزى رسم على طرفها القط الأسود قاعداً على كرسى وفوق رأسه برنيطة ، وقد دخل عبد الحليم سيجارته يفارق سريره ، ويحلق ذقنه أمام مرآة بلجيكية ويلبس حلة نظيفة مكوية ، ويشرب فنجان قهوة بسكر ، وينظر لساعته ويخرج ليمتع العين برؤية بنات الصبح حاملات الجرار ، ويركب القارب من بر الشرق إلى بر الغرب ، وهناك فى المطبخ يجلس على كرسى وينظر إلى ساعته ، ويسألهم : هل سلقتم البيض ؟ ويسمع ردهم : سلقناه ، فيسأل : والزبدة والجبن والمربات ؟ ، ويأتيه ردهم : بالأطباق ، ويسألهم : وهل شطرتم الارغفة ؟ فيجيبوا : شطرنها .. وينظر عبد الحليم أفندى لساعته ويقول : الآن قدموا وجبة الفطور لضباط مصر وهاتوا لى فطورى .

وهكذا يا سادة — كما يفطر ضباط مصر يفطر عبد الحليم أفندى : خبز مشطور مدهون بزبدة وبيضضة مسلوقة وبيضضة مقلية .. وصحن مرى وقطعة جبن رومية ، ثم يشرب فنجان قهوة من غير سكر ، ويدخن سيجارة وينظر لساعته ويأمرهم : بعد ما تغسلوا الأطباق وكافة المواعين هاتوا من صنف الخضر كذا ومن صنف اللحوم كذا .. ومن صنف الفاكهة كيت وكيت .

وهكذا يا سادة يختار عبد الحليم أفندى نوع الطعام الذى سيأكله ضباط مصر فى وجبة الغداء ، وينظر إلى ساعته ويقوم من كرسيه ويتبعه تابع ، وهناك فى

البيت اللطيف — يقف وخلفه التابع أمام سيدة المكان زوجة كبير ضباط المطار
التي تقول :

أريد من صنف الخضار كذا ومن اللحوم كذا ومن الفاكهة كيت وكيت ،
فيقول عبد الحليم أفندى لتابعه : اذهب إلى المطبخ الكبير .. وهات سلة بها من
صنف الخضار كذا ومن صنف اللحوم كذا ومن صنف الفاكهة كيت وكيت ،
وقبل أن يعود التابع — يدخل عبد الحليم أفندى المطبخ الصغير ويغسل القدر
والصحون والشوكات والسكاكين والملاعق وينشفها بالمناشف ، ولما يعود التابع
يأمره عبد الحليم أفندى بغسل الخضر ونزع القشر عن الثمر ومسح قعر الحلل
بالسمن وبياض البيض ، وبعد ذلك يطبخ عبد الحليم أفندى ما ستأكله زوجة
كبير ضباط المطار مع ابنها حسام الدين وزوجها كبير ضباط مصر ، ويعود إلى
المطبخ الكبير ليأكل من طعام لم يطبخه لنفسه .

زوجة كبير ضباط المطار هذه يا حضرات : كانت كريمة صفات مقيمة
حفلات لها من صاحبات العشرات وكلامها مسك وعنبر . بفضلها عرف الأكابر
ونسوة الأكابر وأبناء الأكابر عبد الحليم الذى يتكلم كلام الانجليز ويطبخ طيخ
الانجليز ويصنع أحلى حلوى ، وبفضلها طار صيت عبد الحليم فبلغ المدين وعرفه
المأمور والحكمدار ومفتش الصحة ، كما عرفته زوجة المأمور والحكمدار وزوجة
مفتش الصحة ، وكذلك عرفه أبناء المأمور والحكمدار أما غيبريال مفتش الصحة
فلم يكن عنده أولاد حتى يعرفوا عبد الحليم أفندى .

لا غرابة ولا حسد يا أخوان ولكنها الحقيقة نحكيها كما جرت بغير زيادة وبغير
نقصان :

قام الشيخ المسن ولم يقعد إلا بعد أن قعد عبد الحليم . وقبلت أم الخطاب يد
عبد الحليم لأنه أخرج ابنها من ظلام السجون ، وجاء الخطاب بنفسه أيضاً قبل
يد عبد الحليم وأعلن التوبة على يديه . والتناش أيضاً قبل يد عبد الحليم — وقال :
أنت الذى أنقذتني من ضرب الكراييج . وخطيب الجمعة قال عنه : عبد الحليم
أفندى — الذى يتكلم بلسانين — صورة للعبد الحامد الشاكر ، يتكلم أمه —
التي ربه — بصوت خفيض ، ويشكر ربه الذى ساق إليه الانجليز الذى علمه
الجرقة التى فتحت له أبواب بيوت أفاضل الناس ، وعبد الحليم أفندى يسير بيننا

وفى صدره أسرار البيوت العالية — فإذا كلمناه عن ساكنة القصر مثلاً .. كلمنا بالمدح فيها والثناء عليها .

مع هؤلاء — يا مستمع — عاش عبد الحليم أفندى عيشة العزيز المكرم ، وتلك كانت عاداته : بعد ما يتناول ضباط مصر فى المطار طعام عشائهم ، يعود عبد الحليم بالقارب من الغرب إلى الشرق ويدخل بيته فيستحم ويبدل ثوبه ، ويسير ، مع المساء ، على قدميه تحيط به الأشجار ، وفى قهوة العنبة يجلس مع خلّائه فيلعب مع واحد عشرة طاولة ويدخن شيشة ثم يلعب عشرة طاولة مع آخر ويشرب كأسين من كورنيك فرنسا ، ويخاطب صحبة الأفندية ضاحكاً : الشط هو الذى يفصل بين الإنجليزى والفرنساوى ، ثم ينظر لساعته ويقوم ، ويركب عربة يجرها حصان توصله حتى بيته .

على هذا المنوال مرت السنوات ، وعلى هذا المنوال سارت حياة عبد الحليم ، لم يغير عادة. ولم يبدل مسلكاً إلى أن جاء اليوم الذى أوقفته فيه امرأة — وكان فى طريقه إلى قهوة العنبة .

قالت المرأة : ولدى الغائب يا عبد الحليم أفندى .

رد عبد الحليم أفندى على الفور : يعود سالماً بإذن الله .

قالت المرأة : هذا مكتوب منه ، وقدمت ورقة لعبد الحليم أفندى ، وقالت : اقرأ كلامه لى أنا أمه يا عبد الحليم أفندى واسمعنى حتى يرتاح بالى وتبرد نار شوقى .

وقع عبد الحليم أفندى فى حيص بيص وأحس أنه سمكة فى شبكة ، وقال فى سرّه : الخرقاء بنت الخرقاء تقول لى اقرأ أنا الذى لا أقرأ ، وتذكر معلمه الانجليزى فعاتبه : لا أنا ولا أنت حسبنا حساب هذا اليوم .

طار الوقت فلعب الفأر فى عيب المرأة وولولت : لماذا أنت ساكت يا عبد الحليم ؟.. تكلم يا عبد الحليم أفندى وخبرنى .. هل جرى مكروه لولدى ؟. انطق يا عبد الحليم أفندى .

صرخ فيها عبد الحليم وهو الحليم : لا تصرخى فى وجهى أنا لا أقرأ الورق ،
ورمى الورقة على الأرض .

هنا جعرت المرأة الملهوفة بالصوت العالى : آه .. مت فى بلاد الناس البعيدة يا
ولدى .

أطبق عبد الحليم على فم المرأة وأسكتها ، وقال لها مستعطفاً : لا تصرخى حتى
لا يلتم حولى العاقل والباطل ، ورفع كفيه عن فمها ، وانحنى على الأرض وناولها
الورقة ، وقال لها : أنا لا أقرأ ولا أكتب يا أم .. أنا أفندى بثوى يا أم .. وها أنا
ياأم أشق ثوى أمامك .

ولم يذهب عبد الحليم أفندى على قهوة العنبة فى هذا اليوم ، عاد إلى داره ،
وأغلق بابه ، ودس نفسه فى حضن أمه .

تلك هى حكاية عبد الحليم أفندى مع المرأة الحرقاء ، رويتها لك -
ياأميرى - كما سمعتها من الرواة الثلاثة ، أنا الذى لم أشهد زمانها ، والله على
صدق ماحكيت لك - ياأميرى - شهيد .

حكاية الريفية

صفة :

الغبراء يتيمة الأبوين تبيع السلة التي تصنعها أم الأم من خوص النخيل ، لتأكل من كد يدها وعرق جبينها ، وتحيا ككل بنات الفقراء في قفص ، بانتظار زوج فقير يمسك بيدها ويقودها للعيش معه في قفص ، وتمر الأيام وتفقد الحلوة ابتسامة الفم وعافية البدن، ويبقى الأبناء والزوج المكثرون والصيف والبرد والحشرة الضارة وتراب الأرض وعفونة المشّ ورغيف الشعير باليد ، ولا فكاك لبنت الفقراء من ظلمة المصير المحتوم المسطور في لوح الغيب إلا بالفعل الزاعق ... ثم يأتي النور ويحكمون عنها في الحكايات :

(ولما كثر الكلام وشاع عن جمال الفقيرة وبلغ مسامع الغنى في قصره ، تعلق بها قلبه قبل أن يراها ، وقال لرسله هاتوها ، فلما أحضرها ورأى الغنى شعر الخيل على رقبة الطير والوردة الحمراء بعين بقرة متوحشة ، قال : سبحانك ربي .. كأنها الطبيعة أم الكائنات ، وأرسل في طلب القاضي ، فجاء القاضي في الحال وكتب في كتابه : على شريعة الله وعلى سنة خير الأنعام تزوج صاحب القصر وخزانة المال من ذات الضفيرتين أخت الشمس والقمر)

يوم الثلاثاء :

يلتقى أكابر القوم في البورصة ويلعبون لعبة « الإنسان والقدر » بالخيط ودمية الخشب :

* فيذبح الجزار البقرة

* ويرتفع سعر الطماطم من قرش إلى قرشين .

* وتفقد الأم ابنها في زحام اليوم العظيم ، فتسأل عنه المتسول الأعمى .

* وتصرخ أخت الأيتام : الغشاش سرقنى فى الميزان وباعنى البطاطس معطوبة .

* ويمد الحصان الشريد فمه ويأكل من غلة مكومة فتنهال على بدنه عصا التاجر والمشتري والوسيط والكيال ، فيغادر المكان وهو يصهل : هيهات هيهات يا أراذل الناس .. من منكم يجسر فيعتلى ظهرى ويجبرنى على جر عربة بعد موت صاحبى .

* وللخارجين من السوق يغنى المجنون من فوق حائط متهدم :
« ولع الوابور يا جودة ... القطنة أكلتها الدودة »
« والبنات عايزة تتجوز ... والصبيان نفسها مسدودة »

فيضحك صاحب العقل من خرقه ، ويضحك رب العلم من ركافة شعره ، ويرميه صبى بحجر ، وتندس بائعة الأساور الزجاجية حفنة بلح فى حجره وتطلب من الله أن يلطف بحالها وحال زوجها المريض وحال المجنون .

يوم الثلاثاء :

باغتت صفية ابن الأكابر ولطمته على خده لطمه أوجعته فطار الشرر من عينيه وصرخ فى صحبه : اضربوها ، لكنهم وجدوا الأنثى الضعيفة محاطة بعشرات الأنفس لحمايتها من غضبة الذكر المفترى .

قال المضروب : والله بلا سبب .

ردت صفية : كاذب .
وقالت بائعة اللبن الحامض : قرصها بفخذها .

وردت القرية منها : لا يا أم حفصة ... رماها بالكلام اللين فرمته بالخشن المؤلم .

ودق العجوز الحدوة بحافر الحمار وتكلم في عبه : من جاور الحداد اكتوى بناره ... ومن خرج من داره قلَّ مقداره .

بعد وقوع الواقعة :

تراحم شباب الفقراء — على باب صفية — المغلق — يخطبون ودها ويباركون عفتها وينادونها لتعيش في حماية سواعدهم كريمة النفس ، فسألتهم : ومن يطعم الجدة العجوز ؟ .. وتملصت من وعدهم وخاطبتهم بلسان يحفظ قول السابقين لكل ثمرة أوان قطف، ولكل زرع وقت حصاد .

ونهرت صفية مالك القيراطين المتزوج من امرأتين ونعته بالغراب . وقالت صفية للعجوز الميسور الحال : لكل حبة مكيال يا جدى .. ولما تقدم لخطبتها ابن الأكابر — الذى لطمته في السوق بلا سبب — رفضته : وهى موقنة من أنه ما جاء إلا لينتقم .. يريد أن يدس لها الفخ تحت ورقة سيكتبها شيخ ويشهد على ما فيها شهود .. ثم يكون الهوان الذى ما بعده هوان .

النعيم :

تزوجت صفية من غريب عن القرية : لعب في تجارة الحبوب والأقطان لعبة حققت له حظ التجار وصيت التجار ومكانة التجار المرموقة — فملك البيت المرتفع السقف الذى يقوم على أعمدة بيضاء من الحجر ، وعاشت صفية — كما تروى الحكاية :

(فراشها لث من ريش النعام ، وحلوها الفاكهة طازجة ومطبوخة ، وطعامها لحمه فى صينية أو حمامة مشوية ، بدولابها الثوب الملون والثوب المنقوش والثوب المخرم ، وصندوق زيتنها مقفل على المكحلة والسوار والحجر الكريم . تحت قدميه

عبدت سوداء وعن يمينها جارية بيضاء تروح بمروحة ، لو صرخت حضر الطبيب ولو
زعقت هرول خدم ، وإن طاف بخيالها خاطر سبب الضيق نظرت من شرفة ذات
خروم لترى الماء الجارى والنبات المتحرك وقبة السماء خضراء .

الحافة :

كان من عادة صفية — فى الليلة التى يكتمل فيها القمر — أن تتركب العربة
التي يجرها حصانان أبيضان يسوطهما حوذى بجيبه المسدس الفاتك بالأرواح ،
وتنظر من وراء ستائر الدانتيل المخرمة إلى ابن العامة وهو يفر خوفاً من
العجلات وأرجل الخيل والسوط كما تفر أشجار النخيل وأشجار مخاط النبي وكلاب
الطريق — فتضحك صفية من القلب ، وكلما راح بصر صفية إلى القاعدين
والنائمين أمام الدور المبنية من الصفيح والعيدان والطين والقش — انكمش
القلب .

(أنت يا صفية بنت هؤلاء — رغم النعيم الذى تتقلين فيه ، لقد هربت —
وإلى الأبد من مصيرهم المعتم .. إلا أنك — وإلى الأبد — مربوطة بسلاسل من
حديد إلى أبدان أهللك الفقراء التى نخرها دود القبور منذ زمان بعيد ، الحق حق يا
صفية — فتكلمى بالحق :

ذاكرة الفقراء تعرف النسيان ... أما ذاكرة الأغنياء فلا تعرف النسيان قط ...
لم يحضر الأغنياء يوم عرسك .. وفى العيدين لم تترك غنية واحدة .. وفى أيام
المرض التى مرت بزواجك — لم يسأل عن صحته غنى واحد ، زوجك مثلك يا
صفية من صلب فقراء — ضحكت له الدنيا كما ضحكت ذات يوم من
الأيام) .

الهاوية :

السائرون فى طريق الانتقام أحكموا غلق المصيدة على الزوجين : فباتا لا
يلتقيان تحت نور ... وعلقا الأمل على الأيام حتى تزول الغمة .. إلا أن الأيام
جعلت واحدهما يقنع بنقيصة الآخر ويسخط على نقيصته هو — ومن هنا نبت
الشعور بالشفقة على الآخر المصحوب برعدة الخوف من الآخر ، وهكذا استعصى
الحب الذى يوحد الأجساد ويثمر البنين .

السلام :

جاء يوم ورأى ملاك الموت — وهو يطوف — شجرة الحياة تحمل فرعين
يابسين متباعدين ... فقصفهما .. وطوحهما لريح الخريف الأبدية .

حكاية أم دليلة .. طاهية الموت

بعينى هاتين — وأنا أعرف أنهما طعام الدود الملعون فى يوم معلوم — رأيت البنت يا أميرى تركع على ركبتيها وتبلل بالدموع قدم والدها — وتقول : زوجنى يا أئى من الغنى ولا تجعلنى كشجرة جف عودها ومال فرعها لما غاب عنها الماء .

وبأذنى هاتين — سمعت الأب الأمين يحاول رد ابنته عن مرادها بالكلمة اللينة وبحكمة الأقدمين — قال : يا ابنتى .. المال يصلح حال بيتى أنا الفقير .. لكن الرجل عجوز .. وأنت بستان بثمر .. وهذا يغرى الغير باعتلاء حيطانك .

ناحت البنت — ودموعها على الخدين دجلة والفرات : لا تخف يا أئى .. قلبى البارد هو الذى أحب ذهبه البارد .

ومالت الأم إلى صف ابنتها وناصرتها ووسوست فى أذنها : البنت سر أمها .. ولنا كلام .

هنا قلت أنا لنفسى : وقع المحذور يا ولد .. وها هو الزمان يكرر على مسمع الدنيا — حكاية أم دليلة طاهية الموت .

وها أنا أسوق إليك الحكاية القديمة يا أميرى ، من بدايتها إلى منتهاها بتفصيل
محكم :

قالت أم دليلة لزوجها — وعصرت على الفول ليونة : لا تجزع من قولهم
(الرجل الفقير باع ابنته للعجوز الغنى) واسمع قولى (قل للعجوز الغنى الراغب
فى مصاهرتك والزواج من ابنتك .. سأخذ مهر ابنتى ثقلها من نقى الذهب ..
ولن تدخل بنتى قصرى العالى إلا بعد مرور شهر) ، وحين يصرخ الغنى : هاتوا
الميزان (سنمسك نحن بطرف الخيط ونشد عامة الفقراء إلى بيتنا ليمدحنا لسانهم
ويرفعنا إلى مراتب الأغنياء) .. لو سألتنى (كيف يكون ذلك ؟) سأرد عليك
بالآتى (سندبح كل يوم وحتى يمر شهر بهيمة ليأكل الفقير والمسكين وابن
السييل .. سيكون شهرنا بثلاثين يوماً تتدحرج .. حين ذلك ستتطلع عيون فقراء
المسلمين إلى شمس يومنا كما لو كانت هلال العيد .. هكذا يحسبون اليوم عاماً ..
وثلاثون عاماً من اللحم يا زوجى ستردم الحفرة التى حفرتها أعوام الشدة بدماع
الفقير) .. وهذا كلام الفقير لصاحبه الفقير — بينما اصبعه يشير إلينا : (ها هم
الأغنياء منذ زمن بعيد يصاهرون ابن طبقتهم الغنى) .

وقالت أم دليلة لدليلة الراقدة فى حضنها : لن أخاطبك كما خاطبت الأم البلهاء
ابنتها — وقالت (اغرفى من ماله وارمى فى حجر أملك) ولكنى سأعلمك فى
شهر واحد أنا المجربة طبخة الموت .

أ - وضع القدر على الكانون :

تحت الخميطة — همست دليلة فى أذن بعلها العجوز : أحس برفسة الجنين فى
بطنى .

قطف العجوز الغنى من كل خد برقوقة وزعق فى خدمه : إلى بالحكيم
الفاهم .

ولما جاء الحكيم الفاهم دخل حجرة نوم دليلة وبعد ما رد الباب عاين جسد
دليلة وفتح الباب وقال للعجوز : مبروك — ادخل ورش ماء الورد على وجه أم
وارث مالك واسمك .

خط العجوز كفه على قلبه وأن : انجذنى أيها الحكيم الفاهم فقلبي لا يحتمل
الفرح .

ب - القدر فوق نار هادئة :

دست دليلة قشر البيض تحت فراشها ، ورقدت وتقلبت وجعرت : آه يا
ضلوعى . جاء العجوز يجرى كصبي ، ووقف أمام سرير دليلة وهو يلهث ،
وشوح يديه في وجه خدمه وقال : هاتوا الحكيم المعالج ، وراح يلف ويدور حول
سرير دليلة ، يفرك قلبه تارة ويفرك راحتيه تارة أخرى — حتى جاء الحكيم المعالج .
رد الحكيم المعالج الباب وعاین جسد دليلة وفتح الباب وهو يضرب الكف
بالكف — وقال للزوج العجوز : تلك حالة محيرة ونادرة .. أما الجنين فبخير
وهذا من فضل الله ، وفتش الحكيم المعالج في جسد الغنى وقال : كن على
حذر .. فنسيانك لِسَنِّكَ يفتك بقلبك لا تفعل كما يفعل الشباب .

ج - تحت القدر نار حامية :

كسرت دليلة مرآة قصرها الشتوى وصرخت : الجرح في رقبتي ، ركضت
الوصيفة — وهى عين لسيدها ، وقالت سلم عقل سيدتى يا سيدى . وضع
العجوز راحته على قلبه ليحميه من الوقوع ، وهول حتى بلغ غرفة الزينة وخاطب
دليلة : سبحان الله في طبعك يادليلة .. أنا انا لا أرى الجرح .. لكنى أرى رقبتك
كبرج لبنان المطل على دمشق . بكت دليلة وظلت تلطم خديها وصرخت : ها هو
زوجى يتهمنى بالعمى وها هو يلاطفنى بكلام جميل لأنه يظن أننى بلهاء، ولم
تسكت إلا بعد ما أحضروا الحكيم العارف الذى طلع برج لبنان ورأى دمشق ولما
نزل خرج من غرفة نوم دليلة وهمس في أذن العجوز الغنى : وزيتك بخير ..
وسيدة بيتك مريضة بالوهم .. لاطفها .. وأحطها بالمغنيات والماشطة والمذلكات
والمضحك الخصى وضاربات الدفوف .. وعامل قلبك العجوز برفق .. لا تحزن ولا
تفرح .

د — بعدما ينضج الطبخ - ترفع القدر :

في القصر الصيفى — سألت دليلة زوجها الغنى العجوز : متى يتسم لى
الزمان وأراك وقد نفضت المرض عن بدنك آه .. متى يقبل هذا اليوم ؟ .. وقت
ذاك نجلس أنا وأنت متجاورين على كرسيين ونطل من شرفة قصرنا العالى .. ونمتع

العيون برؤية الماء والخضرة ووجوه ناس هذا الزمان ، وصرخت دليلة في الخدم : إلينا بكرسيين .. أنا وزوجي هناك بشرفة قصرنا العالى .. إلينا بسلال الفاكهة وجوزة الهند .. وهاتوا لنا أطباق الجوز والفسق واللوبز المقشور ، وحطت دليلة يد زوجها العليل فوق كتفها وزحفت به إلى الشرفة ، وهمست في أذنه : فعلت مافعلت خشية أن تموت ولا يتحقق حلمي ، وبالشرفة زقت دليلة بأطراف أصابعها حبة عين جمل في حلقوم بعلها الغنى العجوز ، وسألته — وأشارت بيدها : تلك البنت الماشية تدب وتنشئ — هل تعرفها ؟ .. نظر العجوز إلى أسفل ورأى : الماء والشجر والزرع والزرع والحصاد والحاصد .. والأجران وحامل المذراة .. لكنه لم يعثر على بنت ماشية أو واقفة — فقال لنفسه : من الأسلم لى أن أجاريها حتى لا تهمنى بأنى أتهمها بالعمى ، وقال لدليلة : ها .. تقصدين تلك البنت الحافية .. أعرفها .. إنها بنت نافخ الكور . فسألته : مالى أراها معلقة البصر بشرفة قصرنا وكأنها تقول لى : قومي لأجلس مكانك . قال الغنى العجوز هذا حال الفقراء يا دليلة .. يتطلعون بعيونهم إلى فوق — فرؤية الأغنياء تبهجهم وتجلب لقلوبهم المسرة .. كشرت دليلة : البنت تنظر إليك أنت لأنك تعرفها وها هي تشير بيدها نحوك .. وأنا ألمح بعينك الرغبة . أسند العجوز رأسه على صدر دليلة وسقطت عمامته فلم يلتقطها وقال : آه يا دليلة .. هذه البنت غملة .. وكذا كل بنات العالم .. أما أنت يا دليلة فقمر فى السماء . مالت دليلة وقبلت رأسه الأصلع ، وتمتمت : أنا أحبك وأغار عليك يا مالك قلبى ، أحلفك بالله وبرسوله الكريم — لا تطلقنى من أجل تلك الجربوعة .. لا تطلقنى يا سيد بدنى .. فأنا من حبك لا أنام الليل .

كح العجوز — وقال : وأنا يا دليلة لا أنام الليل ، ولا أنام النهار ... وهذا مافعله لى حبك .

هـ - رش الملح والتوابل :

كحلت دليلة الرموش ورشت العطر على الثوب المنقوش وربطت العنق النافر بمنديل ملون وأمسكت بيدها وردة وطلعت على زوجها الراقد فوق سرير المرض بوجه يضحك وجسد يرقص وقالت : والآن قل قولك يا رجلى ، ومالت فقطف العجوز من الغصن الدانى قبله ، وقال : أنا فى النعيم وأنت حورية .. وأنا فى الجحيم وأنت جنية ... أخ . كل مرادى ضجعة فوق صدرك .. ثم أغمض العين . فتحت دليلة ذراعيها — وقالت : تعالى يا رجلى .. هنا — يا والد ابنى ستستريح .. تعالى ..

حكاية الصعیدی

الذى هذه التعب فنام تحت حائط الجامع القديم

صحا على صرخة، ووجدها فوق رأسه تبكى ، تلبس الأسود وتحمل بين يديها طفلاً ميتاً . قالت . يا فلان يا بن فلانة هل ضاقت بك الدنيا الواسعة فلم تجد غير هذا المكان تراحمنا فيه أنا وأولادى .. لقد قتلت ابنى يا قليل النظر .. وحتى يخفّ حزنى على ولدى عليك أن تفارق بيوتها قبل أن يدركك صبح .

لَتَّ الصعیدی فى الكلام وعجن — قال : أتيت إلى المكان ولم يكن بالمكان غبرى .

فصرخت فيه : لو لم أكن جنية مؤمنة ، بنت جنية مؤمنة ، بنت جنى مؤمن ، لركبت كتفيك عامين قمرين كما تركب الدواب يا دابة .

ضرب الصعیدی ضربتين، ولم تذل ثوبه وأطبق عليه بأسنانه وانطلق يسابق الريح وهو لا يصدق أنه أفلت من شر جنية تسكن الخفاء، ولا يراها ابن آدم إلا حين تريد هي لابن آدم أن يراها .. بعد وقت صدق أنه نجاء، وسأل نفسه : كيف أبارح أم القرى التى تلمّ عظام جدودى ؟ .. سأذهب إلى حامل البخارى، حافظ كتاب الله المهاب من الجن وأشتكى الجنية .

وقال :

وجدته قاعداً تحت العنبة وأمامه الحطب مشتعل ، جعلت المسافة بيني وبينه
قصبه ونصف قصبه وقلت السلام عليكم ، ولما لم أسمع رده تقدمت وجعلت
المسافة بيني وبينه قصبه وقلت السلام عليكم ، ولما لم أسمع رده تقدمت وجعلت
المسافة بيني وبينه نصف قصبه ورددت السلام فلم يرد — بينما النار التي أشعلها
لا تزال مشتعلة ، قلت — وقد فهمت : انتهى كل شيء إذن .. جاء الطواف قبلي
وقضى الأمر ، وحفنت من تراب الأرض بالكفين وكشحته على النار فخمدت ،
وقعدت أبكى .

(كانت اليد الكبيرة يا أميري قد رسمت له الطريق — خطين حديدين تجري
فوقهما القطارات .. وأعمدة خشب تشد أسلاك التلغراف) .

لما وجد الصعيدي الطريق مرسومة أمامه مشى فيها ، ظل يمشى وبلاد الله تترى
حتى بلغ أم المدن، فدخلها حافياً متورم القدمين في اليوم الخامس من ذى الحجة
وكان العام عام الذئب والديبة ، وفي بحر من الحديد والنار رأى الإنسان يحجل
ويطلب الصدقة ورآه على البسكليت ورآه يدب ورآه بالأتوبيس وبالترولى وبالترماي
ورآه يطير ورآه يسوق العربة ، وقف يتفرج ويتعجب ونسى زمانه حتى جاء الرجل
وسأله عن شخصيته . قال : فلان ابن فلان . قال الرجل : أنا أسأل عن
بطاقتك ؟ . قال : معى بطاقة . قال الرجل : هات ، وأخذ الرجل البطاقة —
وقال : أنت المرسوم أمامى ... يبقى الكلام المكتوب وتلك معضلة فأنا لا أقرأ .
قال الصعيدي لنفسه : مادام لا يقرأ .. ومادام الكلام المكتوب كله عنى أنا ..
وأنا الذى قلت هذا الكلام لكاتب البطاقات فكتب كاتب البطاقات بطاقتي ...
إذن تلك فرصتى للتباهى ، وقال للرجل : أنا أقرأ ، ومضى ينظر في البطاقة
ويتذكر كل ما قاله لكاتب البطاقة ويقول للرجل . باغته الرجل ولطمه على فمه
ليسكت فسكت ، وظل الرجل يضربه بالكف على القفا وهو ساكت ، ولم يكف
الرجل عن ضربه حتى وقع الصعيدي في أول يوم له بأمر المدن على الأرض مغشياً
غليه ، أفاق فوجد حواليه ناساً يجهلهم ويجهل قدر الشر وقدر الخير في نفوسهم
(الشر مطوى داخل كل نفس ولا يعلم دواخل النفوس يا أميري الا الله) كان
عليه أن يتكلم معهم ليعرف مقاصدهم فتكلم ، وكان عليهم أن يردوا على كلامه
فردوا ، وفهم الصعيدي أن الناس حوله (متفرج ومشفق ومصلح وناصح) ...

قالوا : لا عليك .. الرجل شرطة ، وقالوا : أنت هنا ولست هناك ، ونصحوه أن يغير محل إقامته وقالوا : بسيطة .. شَجَّ حاجبك الأيسر ، وقالوا مادمت من صعيد مصر فقل لنا إلى أى طائفة من الصعايدة تريد أن تذهب ؟ وعددوا له قومه : (باعة خضار وبوابون وعمال بناء وباعة جوالون) . قال لهم : لا مال معي أشتري به الشيء لأبيعه ، وقال لا أملك غير بدني ..

قالوا : اذهب إلى عمال البناء ، ووصفوا له الطريق . ذهب إلى عمال البناء وكان النهار قد انقضى فوجدهم قد أشعلوا النار وتحلقوها . رد السلام وقال : أنا ابن فلان . قالوا : أهلاً أنت مِنَّا . وحكى حكايته . قالوا له : ما حدث لك يا فلان حدث لعبد الحليم أفندى . تحسس جرحه وأنَّ ، قال : ليت أمي ما تزوجت أنى — وكان قاعداً فرقد . أقاموه ، وسقوه العدس الساخن ودعكوا قدميه بالماء الساخن والملح ، ولاموه ، لأنه أتى بمفرده ، وقالوا له : الأرض مرسومة يا فلان .. ونحن لا نمشي هنا فرادى وإذا مشينا فنحن قوم نعرف الحد ولا نتجاوز الحدود ، واعتذروا عن ضيق ذات اليد ، وقالوا : اليوم يوافق قبل نهاية الأسبوع بيوم، وها نحن لا نملك المال لنشتري البن لجرحك ، وقام واحد منهم ودفن الرماد في جرحه ، ووعدوه بشراء البن لما يقبضوا راتب الأسبوع . وقالوا له : لما ينتهى نهار الغد ينتهى الأسبوع .

ولما انتهى الأسبوع اشترى الصعايدة البن ودفنوه في جرح الصعيدى ، واشتروا « منديل محلاوى » وربطوا به الجرح . وتنازلت الأسابيع وجاء الشهر وشفى الصعيدى من جرحه وأورام قدميه وطابت له الحياة مع أهله الصعايدة — إلا أنه في الليالى المقمرة كان يتجنبهم وينام مبكراً قبل أن تطلع القمرة . وظل يتنقل معهم من مكان لمكان، ويبنى معهم العمارات من الطوب والحديد والرمل والأسمت ويفنى مواويل حمراء ومربعات زرقاء واللوبالى الأخضر، لكنه لم يسمع صوت سواق أم القرى .

ومن زملاء العمل اختار له معارف من أبناء المدن الحرفيين سكان الحارات (الحدادون ... النجارون .. عمال رصف البلاط .. النقاشون) يزورهم في بيوتهم، ويشرب معهم ومع نسوتهم الشاي ويأكل مع أطفالهم البطاطا .

دعوه مرة إلى حفل ختان أحياء مطرب بأرغول وراقصة لحمها أبيض تدق
الصاجات فيقوم ناس ويقعد ناس . قام مع القائمين وقعد مع القاعدين — وكان
قد شرب الحشيش مع من شربوا الحشيش ، وتذكر أم القرى البعيدة فترحم على
روح جدوده وهاجت شجونه وتقدم من المكرفون وأمسك بشلن ورق وأمر المطرب
بالغناء لأم القرى ، وتكلم في المكرفون فلعلع صوته : السلام على الصعايدة الرجال
بينون العمارات ويعمرون أم المدين . قام واحد من الحرفيين أهل الحى ودفع للمغنى
والراقصة ربع جنيه وتكلم في المكرفون وقال : السلام على أرباب الحرفة الرجال من
أبناء أم المدين فهم الذين يعمرون أم المدين . وعلى كلام الحرقى قعدت الراقصة
تعجن لحمها الأبيض وغنى المغنى أغنية .

وكادت تنشب مشادة بين الحرفى والصعيدى، لولا الصعيدى العاقل الذى قام
ودفع للراقصة والمغنى نصف جنيه وقال فى المكرفون : السلام على الجميع ..
السلام على كل الحاضرين من صعايدة وأهل حرفة .. السلام على الرجال بينون
العمارات ويعمرون أم المدين . وقام حرفى خفيف الدم وحيا الصعيدى العاقل ودفع
نصف جنيه للراقصة والمغنى ، وقال فى المكرفون : الصعايدة ونحن نبني العمارات
ونعمر أم المدين ولا نسكن فى العمارات .. السلام على سكان العمارات .

فضحك الكل ، وهكذا انتهت الليلة بخير .. ومن تلك الليلة وصاحبنا
الصعيدى يكلم نفسه : نحن الصعايدة نبني العمارات .. ونحن وأهل الحرفة لا
نسكن العمارات لكننا نحن الصعايدة نترك الصعيدى منا — وهو أكبرنا سنا —
على باب كل عمارة نبنيا ، وسأل نفسه : متى يأتى دورى لاستريح وأقعد على
دكة ..

ظل صاحبنا يضرب فى المقبل بعد ما طرح ونسى الحاضر ، قال : الطيب
محمد وقع من فوق إلى تحت فقصفت رقبته وفقد دوره .. ومحمود الساكت فقد
دوره — لما قبض عزرائيل روحه وهو نائم .. كذا عبد البارى حين أراد أن يتمخط
وهو قاعد بيننا فتمخط روحه .. يأتى دورى لأصير بواباً قبل عبد الحارس وعبد
الملك، بعد حجاج ومحمود الظنى وعبد الحاكم ..

وفى نهار مشمس، وكان يطلع الدعامات الخشبية المربوطة بالحبال وعلى كتفيه حمولة الرمل والأسمنت — طرح صاحبنا وضرب ونسى الحاضر ، قال : لما انتهى من بناء هذه العمارة سيقعد على بابها عبد الحاكم ونمضى لبنى العمارة التى سأقعد على بابها أنا فوق دكة من خشب .

فى هذا النهار — يأميرى — ضيع الصعيدى عمره كما ضيعت بائعة اللبن الحمقاء اللبن .

حكاية برأس وذيل

يا أميرى :

مر شتاء ، وهذا شتاء ، وكل الوصفات لم تفلح فى القضاء على وجع الروماتزم ، وأم شعلان حرم جاد المولى شعلان تولول ، والصاحب المجرب ينصح جاد المولى أن تأكل أم شعلان لحم قطعة سوداء ، قطعة سوداء وبالبيت قطعة بيضاء !! قطعة بيضاء ، لا قطعة سوداء — يا جاد المولى ، فلماذا قطعة سوداء ؟.

(هو السر — يا أميرى — أحاط به كالسوار بالمعصم ، كالعسكر بسوق الخميس ما دام البيع والشراء لا يتم بغير الكلام ، هو السر وهو عاجز بعقله حتى آخر العمر وكذا الكل عاجز — إلى أن يأمر الله الحريق فى ذلك اليوم لتحترق الدنيا التى لا تزال تخالف) .

اشترى العبد العاجز — جاد المولى — فص أفيون من فكرى الكور ودفع له من جهد بدنه ربع ريال ، والشابة (حلوة رغم الصفرة والقشف وتسوس الأسنان) صنعت له فنجان القهوة — كما أمر — سادة ، فشربه ومص فص

الأفيون وأطبق على حمامة راقدة على بيضها ونزع ريشها ريشة ريشة وقام وعاشر أم
شعلان — وتلك عادته لما ينتوى التدبير والتفكير :

(هي شابة — رغم قساوة الأيام ، حلوة — رغم ندرة الصابون ، وحرام يارب
أن تصير كسيحة ، وحرام والله أن يطلقها — لا قدر الله — فهي مطيعة أنجبت
وكلفته فوق العشرة جنيهاً مهراً دفعها وعليه خمسة جنيهاً يدفعها لو طلق —
لطف الله — فالطلاق بغيض والحياة مع كسيحة بغيضة ، والزواج من ثانية
بطلاق الأولى = خمسة عشر جنيهاً × زمن نحن فيه + ما يحكم به القاضى ومن
جاوروه — لا أرانا الله أياهم ، والزواج من ثانية بغير طلاق الأولى = عشرة جنيهاً
في زمن نحن فيه !!) .

خبط جاد المولى جبهته ثلاث خبطات موجعة فقامت أم شعلان وصنعت له
فنجان قهوة آخر شربه وضاحكها فرقدت فعاشرها وضحك فضحكت فظل
يضاحكها حتى نامت .

(الأفيون — يا أميرى : رعاك الله — يشعل النار فى الرأس ويصنع الوهج
الحق والوهج الخادع لتلوح الطريق البعيدة قريبة : وجاد المولى شعلان الآن (الذى
لا نراه) بليل أسود يمسك بجذع لشجرة سنط سوداء يهزه لتساقط الثمار السوداء
المرّة فيجمعها بعد ضنى من أرض سوداء متشققة ويهرول فى طرقات سوداء حتى
يبلغ داره (فنراه) تحت لمبة جازء هي الشيطان بعينه، بألسنه من نار ودخان يطوح
بسكاكين مثلومة من ظل وسكاكين من نور) وها هو جاد المولى يرى أم ابنه
تحضن شعلان ابنه النائم دوماً ويرى القطة صاحبة بيضاء ويرى الثمر المر بكفيه
أسود فيرميه فى حلة ماء ويوقد النار بالخطب والكبريت ويرقب الماء الذى سيصير
لماً يغلى أسود والقطة بيضاء حتى يلونها الماء الأسود ولا فرق بين لحم قطة سوداء
وقطة بيضاء — لكنه ما وقر فى النفس من زمان بعيد صنع للجدود كل هذه
القبور : وبذلك خبرنا الغراب الأسود) .

هو الأفيون — يا أميرى ، كذا هي قدرة ابن آدم صاحب الحظ القليل
من علم العلام الرحمن على العرش استوى :

قال جاد المولى : ها هو ثمر السنط المر فى الماء .. والماء غلى وصار أسود ...

أدلق الماء مغلياً على القطرة البيضاء فتدوخ وتصير سوداء .. ثم أهز أم شعلان فتصحو من نوم وترى القطرة سوداء فيدخلها اليقين .. وبالقضيب وهو من حديد أضرب القطرة وأضرب حتى تصير ضعيفة فأذبحها — كما أمر الله .

ذلك — سيدى الأمير — ما فعله ابن آدم الملقب بجاد المولى شعلان ، كان قد دبر وعرف ما يريد ، فلما فعل في القطرة فعلته فهمت الأعجمية الحيوان ويا للعجب ما يريد ، ربما — سيدى الأمير ، عافاك الله — لأن الماء كان مغلياً ، خمشته القطرة في ركبته وعضته بعد أن ولولت كما تولول بنت حواء ، فصحت أم شعلان وصحا شعلان من نوم طال : على ولولة أنثى وصرخة ذكر ، وخجل جاد المولى من خوفه وأربعة عيون تراه يواجه قطرة تكورت — فواجه القطرة وضرب ضربة الخائف فخابت وضرب ضربة الذكر فأصاب وضرب ضربة الأب وأصاب وضرب ضربة الكاره وأصاب فضرب وضرب كاتماً صراخها ، بينما القطرة، الدم اللحم، تخمش وتصرخ تخمش وتصرخ ، آه يا مولاي حتى ماتت ...

وتلك — أميرى — نهاية حكاية الأعرج والكسيحة .

حكاية بزخارف

كان أبوه يملح اللفت ويلونه بزهر العصفور ويبيعه — تلك أميرى أول ضربة على قفا عباس من دنيا ظالمة بنت كلب والت الضرب بغير رحمة :

طلق أبوه أمه وكان اسمها أسماء بعد أن أنجب منها سبعة ماتوا الواحد بعد الواحد — وبقي عباس ليرى أمه العجوز ممزقة الثوب حافية تجمع وسنخ البهائم وتبيع للكل وقود الأفران حتى للكاره ما دامت تبيع وما دام يدفع .

وتزوج أبوه من بنت بائعة كرشة اسمها سالحة فكانت شديدة القسوة عليه لأنه مولع بالحرب وفرقة البمب — بينا البيت حجرة ضيقة وصالة ضيقة .

ومن بائعة الكرشة — التي اسمها سالحة — أنجب أبوه البنت وسماها غالية ، وكانت كأمها مليحة الوجه مدورة البدن حلوة اللسان ، كلامها أثواب من حرير هفهاف مطرز بالترتر الغماز ناعم نعومة بطن حية خداعة تلدغ : لقد رضعت غالية من ثدى أمها اللبن الأسود ، أمّا عباس — يا أميرى — فكان عليه أن يناديها: يا أختى وأن ينادى أمها: يا أمى .

يا لها من حياة دون ، يالتلك الأيام من أيام ، كل يوم بليلة طويلة ونهار

طويل ، وجلد عباس جلد آدمى ، وجلد الآدمى لم يكن فى يوم من الأيام جلد جاموسة بليدة ، كما أن الآدمى لا يملك قوة ثور نطاح حتى يغضب غضبة ثور نطاح ، وأنت عليم بل أنت أعلم الناس يا أميرى أن لكل ليل أسود نهاره الأبيض ولكل النهارات السود لياليها البيض — كذا الصغار أبناء الفقراء يكبرون فيحطمون الزجاجات ويخرجون للدنيا فى الشوارع بملايس الحيوان رجالا يلتقطون الرزق بمناقير الطير : خطافون سفهاء جهلة .. يتجنبون النور الفضاح .. قتلة لا يقتلهم إلا العشق .. غايتهم الفوضى واغلاق المدن الآمنة — لهذا تبغضهم الحكومات وتطاردهم الشرطة .

إلى هؤلاء — اميرى — كان لابد أن ينتمى عباس لما قال لنفسه (الشارع أفضل من البيت ألف مرة) إلا أن عباس اختار — بتوفيق من الله — ثوب الثعلب الذى يموت حين تريد منه أن يموت — بهذا : نال رضا حلوانى فعمل صبي حلوانى ، ولما انتهى أجل الحلوانى مات الحلوانى فبكاه عباس لينال عطف صاحب مقهى كان صديقاً للحلوانى ، وبالمقهى قضى عباس السنوات وتدرج من مرمطون إلى صبي جرسون وعرف العاقل والباطل وصبية الورش والخير وشارب الكحول وباعة الصحف والصاحب الذى يشتم صاحبه من خلف ظهره وهذا الذى لو غضب لحطم الكراسى وقلب الطاولات .

من هنا — سيدى الأمير — من مقهى بياين كل باب يطل على حارة صار لعباس ثلاثة أثواب : ثوب ثعلب ماکر وثوب قرد وثوب قط له سبعة أرواح ، يخلع هذا الثوب ليلبس هذا الثوب أو ذلك حتى جاء يوم ووقفت — هناك بالشارع — عربة بمحجم مركب وعلى شاكلة أوزة ، وهبط منها رجل بملبس حسن يخطر كأنه يمشى فوق ماء ودخل حارة أفضت به إلى حارة إلى أن بلغ المقهى وقد أدركه تعب فجلس وطلب كوب ينسون رغبة منه فى ملاطفة الروح الشعبية . جاء عباس ورحب واختفى يزق وأقبل ينقر على الصينية بالملعقة نقرات لو سمعتها راقصة طلقت الرقص لعادت للرقص غير أسفانة . قال الرجل المبتهج وكان غنياً لعباس « اترك المقهى وتعالى معى » ، وصرخ عباس : أنا ؟

ذلك ما حدث — يا أميرى — ولك أن تعجب ، لكنها دنيا بنت هوى تدبر ظهرها لسنين ، ثم تقبل بوجه ضاحك وجيد مثقل بالأجراس .

هناك بيت الغنى تعلم عباس حروف الهجاء الثمان والعشرين — هكذا سريعاً — لينظم من الحروف العقود من خرز يلونه ليزين عنق ومعصمى ولى نعمته الذى علمه كيف يمسك السكينة يمينه والشوكة يسراه . هذا بينما الغنى، يحق يتناول إفطاره وغداه وعشاءه بصحبة عباس بالنادى : لحوم مقلية ولحوم مشوية .. بط وديوك رومية وسمك ودجاج وفاكهة أيضاً ونبيد ، وما بين الغداء والعشاء من وقت يقضيانه معا — الغنى وعباس — بحمام السباحة مع العراة من الرجال والأولاد والنسوة والشابات . ما مر شهران — يا أميرى — حتى تحول عباس إلى شخص يجمله كل من عرفه : طبع رقيق .. وأصابع رقت ما شاء الله وصار لها ملمس الحرير .. بروح شفاقة تعشق كل فتاة بشعر مبلول .. وولع لاحد له بالتصاوير والرسوم والموسيقا وغناء المغنيين ولسينا بحداثق الشرق تعرض الأفلام بلون وصوت .

هنا « يا أميرى » دعنى أحكى لك فيلم شافه عباس تسع مرات وأعجب به الإعجاب كله : ناس عراة يلبسون الريش يسكنون غابة ويقتلون الناس بنبال مسمومة لأنهم لا يسكنون معهم فى الغابة (فجأة) يأتى ناس يلبسون الملابس ويركبون الخيل ويحملون البنادق ويطلقون الرصاص من بنادقهم على العراة ليموتوا جميعاً — إلا كبيرهم صاحب الريش الكثير الذى راوغ الرصاص ونط (فجأة) فوق ظهر حصان أسرع من موتوسيكل وأسرع من نعامة . وها هو الوغد (فجأة) يخطف الفتاة الرحيمة التى عاجلت جروح الرجال من النبال المسمومة وطبعت على خد كل منهم قبلة — ما عدا الفتى الوسيم فقد أعطته فمها ليشرب منه ماء الحياة لأن جرحه كان قتالا ، وها هو الوسيم يطارد بحصانه لابس الريش الكثير — ليرد الفضل لصاحبة الفضل، ولكن ما كاد الوسيم يلحق بالوغد حتى سقط حصانه (فجأة) فى حفرة ماكرة ذات عين كبيرة سوداء ، وهاهو الوغد يسوق الفتاة كما لو كانت معزة ، لايدرى عباس ان كان الوغد سينجحها أم سيحلبها — إلا أن عباس صرخ فى الوسيم «هنا» وأشار عباس إلى كثف يختفى خلف مزق الثوب الطويل (فجأة) لنرى كل العيون الراغبة فى الوغد : شجرة انفلقت — بعد أن شبت فيها النار الحمراء — إلى ساقين من جمر ، وصرخ عباس فى الوسيم « اسرع » وصرخ فى الفتاة « قاومى » فأمسكت هى ببيلطة وتقدم الوغد وواجه الكل بعينى مارد مخيف فقالوا « لا دخل لنا » ، ولكن الفتاة رمز المقاومة لا تزال تمسك بالبيلطة : عارية الفخذين — ولا ملامة عليها ، (فجأة) دخل الوسيم الشجاع وقتل الوغد — حتى لا تصير الجميلة قاتلة .

وانتهى الفيلم — يا أميرى — بقبلة طويلة تحب الإنسان منا فى الأفلام وتجعل كل صناع الأفلام ، أبناء زماننا ينهون أفلامهم بالقبل التى تحبنا فى الأفلام ، بعد هذا الفيلم — وهذا ما جعلنى أحكى لك « يا أميرى » حكاية هذا الفيلم : أتقن عباس الحاذق صناعة الكلام فقتل من الكلمات حبلا تصلح لشئ آدمى وربط دابة وتقييد وحش وإغلاق طريق — كما أفلح فى كتابة حكاية مشوقة عن رجال يعاركون الحيوان المفترس ويهزمونه ويصنعون من جلده النعال التى يلبسونها ، ذلك ما كان ، بينما — أنا — سيدى الأمير — نسيت إخبارك بخبر الرجل الغنى الذى يسكن بيتاً من أربعة طوابق بكل طابق أربع شرفات ، وكان بالبيت حديقة بها شجر لا يثمر وأشجار ورد مزهرة تنشر العطر ، وكان الرجل الغنى يحب مثله فى عفة جعلته يلبس قناعاً : لا يمس أحداً ولا يدع أحداً يمسّه — فقط يحب ويذبل كما تفعل زهرة النرجس المحبة لنفسها وللماء . تلك كانت حاله مع عباس حتى أدركه وأدرك عباس اليوم الذى تحكى من أجله الحكايات وتنشد الأناشيد ويحجن من يحجن من بنى الإنسان :

كانت بالطابق الرابع للعمارة المقابلة ورآها عباس وقال « يا أيها النور » ، فأغلقت هى باب الشرفة وغابت ، وأشرقت فى اليوم الثانى وكان يوم ثلاثاء فقال عباس « يا أيها النور » ومضت وهى غاضبة ولم تغلق باب الشرفة واحتجبت يوم الأربعاء لتظل يوم الخميس وبدت كما لو كانت غاضبة ، ولما هم عباس بفتح فمه أدارت ظهرها وتكرر هذا منه ومنها ، وفى اليوم الذى يستريح فيه المسيحى أطلت بوجهه هو الأزاهير ومررت كفها على شفيتها ونثرت فى الهواء زهرتين شم ريحهما عباس فداخ وأفاق وطالبها بقاء عاجل فى النادى فهزت رأسها رافضة ورمت على جيبتها من شعرها خصلة ، وقال عباس الملهوف « بسينا حدائق الشرق » — فرمت هى رأسها إلى الخلف رافضة وأعادت خصلة الشعر إلى مكانها ، وفتح عباس فمه وأغلقه ولما حركت يدها وأشارت إلى حديقة بيتهم ورسمت الشجر ورسمت الغروب .

أخ ، ليت اللقاء ما تم تحت الشجر الذى يشتعل بالنور إذا ما داهم الغروب بيوت السادة ...

أخ ، يا أميرى ، كان الرجل سيدا وكان فاضلا وكان كهلا احتاط لحماية عرض زوجته الخامسة الحلوة من طيش يتملك نفس كل شابة حلوة ومن ضعف

قديم في طبيعة الأنثى ومن أحيابل السفهاء مثل عباس : سَوَّر البيت وحصنه بالحديد والسلك والشجر والأجراس والكلاب السود والطهارة السود والخدم السود ...

وكان عند السيد الكهل « يا أميرى » عصا من العاج يهش بها وبها يجلد — تجعل كل من يراه يخافه فيحترمه ويفسح له الطريق إن كان ماشياً يتريض أو راكباً عربته التي يسوقها سائق بسوط ، هكذا « يا أميرى » بات من المقدر لعباس أن يقع صيداً : يتوجع ويستنجد بالله في السماء وبرحماء الناس على الأرض ، حتى قيض الله له ذلك الشرطى فجره للمخفر سارقاً لا عاشقاً ، وخرج من المخفر إلى مستشفى يصحبه شرطى فقد ثبت أنه السارق لا العاشق ، ولما طابت جروحـه وجد نفسه حيواناً في قفص من حديد ورجل هناك خارج القفص — لا يعرفه — يسبه لرجال جادين بوجوه صارمة لبسوا الأسود كالقسيس يسمعون من فوق منصة عالية فيهزون أدمغتهم ويهمهمون وكبيرهم أمسك بمطرقة، قرع بها لما تجاوز الرجل الذى يسب عباس فسب أم عباس والحلوانى وصاحب المقهى ، أحنى الرجل الشتام رأسه وقال إنهم — أم عباس والحلوانى وصاحب المقهى — زرعوا بذرة الشر السوداء فى نفس عباس .. فلما مد له السيد الكريم يده الكريمة عضها عباس فأدماها ودمر حياة صاحبها الغنى الخير الذى أصيب الآن بصدمة قد تجعله — وقد كان عباس بالنسبة له بمثابة الابن — مطيعاً لأوامر الطب حتى نهاية عمره : يشرب اللبن الساخن مخلوطاً بالويسكى وحب الحبهان .. مطلقاً هو الغنى كل طبيبات الدنيا الزاهرة كما يعلم سيدى القاضى وسادقـى القضاة الأفاضل .

ومن عجب — مولاي الأمير — أن الرجل الشتام قص أدق التفاصيل فى حياة عباس بما يدل على نفوذه وسعة اطلاعه فى الكتب والملفات السرية الكثيرة التى دونت فيها سيرة عباس وغير عباس من بنى الإنسان .

وبعد « أميرى » وقد بلغت سيرة الكل — ها أنا أنهى على الباقي من سيرة عباس (حمته سنه الصغيرة من عقوبة السجن فهو بعد حدث — كما قال القاضى : رغم ما شاف لا يفقه من أمور الدنيا قدر خردلة .. ليوكل شأنه إذن لإصلاحية تربيته وتهذب روحه وتعيد خلق الإنسان فيه من جديد . تمالك عباس نفسه فلم يصرخ ، سمع الحكم الظالم الصادر من ناس لا يعرفهم بإيعاز من رجل شتام لا ريب مأجور من زوج المحبوبة الجميلة التى لن ينساها عباس — فالحب لا

يموت هكذا سريعاً .. كما أن مقادير الناس لا شك ليست بأيديهم فها أنت يا عباس الرجل تُعامل معاملة طفل لتصير حياتك المقبلة بالإصلاحية بأيدي بشر في الغالب الأعم كالكل قساة لا يرحمون ، وبفرض أنهم رحماء فلا نبيذ عندهم ولا لحم ولا تصاوير ولا موسيقا ولا شرفات ولا حمام ساخن ولا سينا حدائق الشرق تلك التي تعرض الأفلام بلون وصوت .

نعم — لا أنت ولا حتى أنا كنت أتوقع تلك النهاية الظالمة لعباس يا أميري.

حكاية ميلودرامية

البيت

بمدينة الفسطاط ، من طابقين من حجر أبيض ، بكل طابق أربع حجرات مرتفعة السقف ، الطابق العلوى للمعيشة ، وبالطابق السفلى : حجرة الزاد وحجرة الغلة وحجرة الراحة وحجرة الواجب — وتلك حجرة منفية عن سائر الحجرات وقريبة من المرحاض والحمام وقد أعدت لاستقبال الضيف الرجل .

وهو بيت من بيوت أشرف ذلك الزمان البعيد ، فى زمن لاحق ملكت مفتاحه — بحق المصاهرة — سيدة تركية ، وقد آل بعد موتها إلى ورثة سفهاء — باعوه لما اختلفوا فى أمر إصلاح درجه الخشبى الذى يوصل الصاعد من الطابق الأول إلى الطابق الثانى .

بابه الكبير من خشب الأثل ، يغلق من الخارج بسلسلة متينة الحلقات يطبق على طرفيها قفل كبير ، ويغلق من الداخل بمتراس ، فإذا ما جاء القادم طرق الباب بكف من حديد قابضة على خوخة من حديد مثبتة هناك فوق الباب — ووقف ينتظر ، ومن فرجة بصدور الباب تطل عيون أهل الدار — حتى يستينوا العدو من الصديق .

كواء الطرايش :

مالك البيت الجديد ، قبطن مؤمن ، اختار الحياة بمصر العتيقة — بالقرب من بابلون الدير والحصن والرمز والذكرى الحية ، وحول حجرة الضيف إلى دكانه ، وعاش بالدور السفلى مع أمه العجوز ، ولما ماتت أمه لم يطق حياة الوحدة في البيت الكبير — فأصلح السلم ، وتزوج من قبطنية شابة عاش معها بالطابق العلوى حياة سعيدة — وكانت أما لابنه جرجس .

جرجس ولعبة الزمان :

ورث البيت عن أبيه وورث الحرفة ، لكن يد الزمان المخاتل امتدت ورفعت الطربوش عن رأس المسالم وباركت المتزلف ودقت عنق لابس الطربوش (المكابر والعنيد والمتمسك بعهد ولّى وفات) ، وما هو جرجس يميل على قميص نوم السيدة الخرم وفتان البنت القصير وقميص رجل البيت العارى الرأس (دنيا غرور كاذبة .. مثل السواقى النادبة)

مرقص مواطن صالح :

مرقص ابن جرجس .. الد حنا — جمع الأحياء من أهله وخطب فيهم ليقنعهم ببيع الدكانة وكذا حجرات الطابق الأرضى ، وقال : أنتم أبناء وأحفاد كواء الطرايش . أرغمكم الزمان العاقى على الرضوخ لحكمه .. قولوا معى الحمد لك فى ملكوتك أيها الرب الممتحن فتلك مشيئتك .. خلقت حنا ابنا وحامل اسم أسرتنا لا يحسن العدو ولا يفرق بين التمرة والجمرة .. ولولا عيون المحبة الحارسة — نحن أهله — لهام على وجهه وتاه فى زحام الشوارع .. وما أنا اليوم بينكم العجوز المحنى الظهر الذى لا طاقة له على العمل .. لكن لا تتركوا اليأس يتمكن من نفوسكم المؤمنة .. واعلموا أن ابنا حنا يصلح للزواج .. وعلينا نحن أبناء وأحفاد كواء الطرايش أن نساعدته وننتظر عطاء الرب .. والآن : هلموا يا أبناء الرب وكلوا من طيبات ما أحضرت (شرائح لحم الخنزير ولحم الضأن وفاكهة الصيف وشراب العنب والروم والبراندى والشموع لتمثال العذراء) .

محمد كمبل الأول :

مالك الطابق الارضى ، السيد الجديد ، بدين بيطن وقلب من البلاستيك ، بعين من زجاج وعين ضيقة مزرورة .. يدايهما بنظارة سوداء كبيرة ، يملك بيتاً بباب الشعرية تعيش فيه أم أولاده زبدة مع أهلها وأهله ، وله شقة بشارع سليمان

باشا الفرنساوى — يحيا فيها مع خليلته الراقصة الكتوم التى عاونه بلخلاص فى أعماله « بيروت » قبل نشوب الحرب الأهلية ، له فى البنوك البعيدة مال جامد وله فى أسواق البلاد مال يتحرك ، بماله حول دكانة الكواء إلى بوتيك ميامى — حبس الضوء فى أقفاص من زجاج سبحت فى مائه الملون ثياب الأنثى الداخلية وزجاجات عطرها وعلب زينتها وآلات كى شعرها الكهربائية وكذا سيجارتها الأمريكية المفضلة « كنت » ذات النكهة الفاخرة .

وكيل الأعمال :

صباح يوم افتتاح بوتيك ميامى — جاء العمال ورشوا الرمل أمام البوتيك — وصفوا أكاليل الورد وعلقوا الصورة وقد كتب تحتها بخط كبير (كبير العائلة بطل يوليو ومايو وأكتوبر وكل شهور السنة) .

وفى غروب يوم افتتاح بوتيك ميامى هبط محمد كمبل الثانى من عربة أمريكية سوداء وتقدم — تحيط به عصابة من صحبه وأتباعه الأشداء — وأمسك بالمقص وقص الشريط ، بينما المسجل يصدح بالأغنية التى يفضلها محمد كمبل الأول (الطشت قال لى قومى استحمى يا بنت يا ..)

وفى صباح اليوم التالى لافتتاح بوتيك ميامى — نشرت الصحف الصباحية الثلاث صورة لمحمد كمبل الثانى وهو يضحك وقد أحاط به جمع يضحك كما نشرت إعلانا عن بوتيك ميامى — هذا نصه : محمد كمبل اخوان يبشر المواطنين بمصر القديمة وينقل أعماله من بيروت ويخطو أول خطوة له مع بداية عصر الانفتاح على طريق العلم والإيمان .

الإصبع الثالثة :

لم محمد كمبل الصغير الملقب بالإصبع الثالثة حبات مسبحته الملونة ودسها فى جيبيه ، وأخرج منديله ففاح عطر فرنسى وتمخط وفرك راحتيه وأخذ سميت محمد كمبل الأول — وقال للرجال الواقفين بجوار الشاحنتين : افرغوا الحمولة وأدخلوها الخازن — وأشار بإصبعه إلى الطابق الأرضى للبيت .

العشاء الأخير والأحد الأخير :

مذ رأى حنا المال وجل اهتمامه بهذا الورق الملون والصور المطبوعة عليه ، أكل

قفص لكل الطيور

١ - وحيداً في بيتي :

دق بابي — ففتحت ، وعجبت أن يكون الطارق جاري الحريص على وحدته ، فصحت : من .. ؟ وحيد !! وقال هو — دون أن يرد السلام : لا تستغرب زيارتي .. فبينما أنا أفتش وأقلب في نفسي كعادتي — اكتشفت أني لم أضحك منذ زمان .. ولما حاولت وفشلت — شعرت بخوف من نفسي . قلت : سلمت يا جاري من كل سوء .. لكن ما تقوله هو الخطر بعينه .. هيا بنا إلى حكيم من زماننا يقال له عبد البصير .

٢ - إلى عبد البصير :

قابلنا عبد البصير بوجه عبوس ، وقال لوحيد : طبك عندي .. لكنني اليوم في أسوأ حال .. فالضريير زوج الخرساء أختي — والدنيا عليمة بمدي حبي لها — محبوس ، وصباح الأحد تجري محاكمته . فصحت أنا : ولم الخوف يا عبد البصير — والأستاذ فصيح بيننا ونحن أبرياء ؟

صرخ عبد البصير : بالله عليك لاتذكر اسم زفت الطين هذا أمامي .. لقد طلبت منه أن يترافع ويدفع التهمة عن زوج الخرساء أختي — فطلب مني زجاجة

كيننا .. ومن أين لى أنا والفقراء أمثالى بثمان زجاجة الكينا ؟ قلت : حياى فذاك
يا عبد البصير .. لا تشغل بالك .. أنا لها .. عالج جارى وبمشيئة الرحمن
ستصلك اليوم زجاجة الكينا . قال : لما تحضر زجاجة الكينا سأعالج صاحبك ..
فعاتبته : ألا تثق لى يا عبد البصير ؟ قال مستكراً : معاذ الله .. كيف لا أثق
بك .. لكننى أحسب الحساب .. ماذا يقول الجار عنى حين يسمع جلجلة
الضحكات فى بيتى — بينما زوج أختى المنكوبة داخل قفص من حديد ينتظر
أفطع مصير ! قلت — وقد طاب خاطرى : صدقت يا عبد البصير ، وقلت
لوحيد : تعال معى يا وحيد لنحضر زجاجة الكينا .

٣ - من أجل زجاجة كينا :

دخلنا دكانة الصيدلى ، وقلت أنا للصيدلى : هات زجاجة كينا ، فلما جاء
بها أخذتها منه وناولتها لوحيد ، وسألت الصيدلى : كم ثمنها ؟ . قال الريال لا
ينقص مليماً . فلطمت : أفقأ الدملى بريال ؟ قال : وما علاقة الكينا بالدملى ؟ .
قلت : بجسمى دمل عمره يوم .. وقد نصحنى صاحب بشرب زجاجة كينا ،
وسألتى الصيدلى : وهل صاحبك عليم بالطب ؟ . قلت : لا .. صاحبى يبيع
العرقسوس .. ولكن ألا تصلح الكينا لفقء دمل ؟ . قال الصيدلى : لا تخرف ..
الدبوس والمرهم يصلحان . فصرخت : انجدنى بربك ، وسارعت بخلع ثوبى
وقلت : هنا — وأشرت إلى فخذى ، وغمرت لوحيد — فهرب بزجاجة الكينا .
ولما زعق الصيدلى زعقت أنا — فالتئم الناس . وقال الصيدلى للناس : يا ناس ..
هرب السارق وهذا شريكه . وقلت أنا : اخرس يا مأبون .. لماذا طلبت منى أن
أخلع ثوبى ؟ . قال : لأرى الدملى . قلت وأين الدملى ؟ . قال بفخذك .

فصرخت فيه . يا كاذب .. يا مفترى ، وكشفت للناس الفخذين ، وقلت :
انظروا يا ناس .. بالله عليكم هل رأيتم الدملى .. أم رأيتم اليمانى ؟!

وندبت : قلت للماكر « برأسى صداع » فقال لى أنا الذى لا علم له بالطب
« اخلع ثوبك » ... ولما هم صرخت لأجمعكم — لتشهدوا معى ما صار اليه
حال نفر من ناس هذا الزمان ، قلت قولى هذا — ورأيت أحدهم يخلع نعل
الصيدلى ويهوى به على رأس الصيدلى ، كما بصق آخر على وجه الصيدلى ، أما أنا
فمضيت إلى بيت عبد البصير لألحق بوعيد .

٤ - الضحك يمت القلب :

قال عبد البصير : لو وقع الرجل — فما موقفك منه يا وحيد ؟ . رد وحيد : أعاونه على النهوض .

قال عبد البصير : ولو كسرت ساقه أو ذراعه ؟ . أجاب وحيد : أصنع له الجبيرة . قال عبد البصير : ولو دقت عنقه ؟ قال وحيد : أترحم عليه .. وأحفر الحفرة وأستر عورته وأواريه . فسأله عبد البصير : هل كان بإمكانك أن تضحك على الرجل في أى صورة ؟ . قال وحيد : حاشا لله .. كيف أضحك على من يصيبه عطب ؟ . قال عبد البصير : مرحى مرحى ذلك شأن الأصحاء يا وحيد .. ابصق في عتبك يا حبة في عقد من لؤلؤ نضير ، وقال عبد البصير : بنا إلى الأستاذ فصيح . حاول وحيد التملص وقال : ما دمت بعافية وخالياً من المرض — فسأعود إلى وحدتى . فلامه عبد البصير . وقبض على يده بود : يارجل .. أنت من اليوم الفرد فى الجماعة .. هيا ولا تتلكأ — فالخير فى الجماعة .

٥ - مع الأستاذ فصيح فى بيته :

صرخ فىنا : لا تدقوا بابى هكذا .. كذا الوقت ليل .

قلنا : للضرورة أحكام يا أستاذ فصيح ..

قال : للنهار عيون .

قلنا : معنا زجاجة كينا .

عاتبنا بلطف : أبواب بيوت الفقراء التى نخرها السوس لا تدق هكذا يا

صحاب ..

وفتح الباب ، وخطف منا زجاجة الكينا ، واعتذر عن العتمة — لما رأنا نتعثر ، وقال ، بسراجى زيت قليل أحتفظ به لليلة سوداء ، وفتح طاقة دخل منها نور القمر ، وقعد فى ركن يجرع من فم الزجاجة ، ويشد بأسنانه جلدة تفرقع كلما أخلاها ...

وسأل : ما قضيتكم ؟

قال عبد البصير : الضرير زوج أختى الخرساء — لما أتاه غلام صاحب القلعة — ذهب إلى الحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل وقال

لهم « تنافسوا في صنع قفص لكل الطيور — في زمن مقداره سنة .. والغالب منكم سيحصل على ألف قطعة من النحاس .. وصاحب القلعة سيهبط بنفسه ليمنح المال ويكمل المنتصر » ... ولما مرت السنة — وكانوا قد فرغوا من صنع الأقفاص وبانتظار هبوط صاحب القلعة الذي لم يهبط — ذهبوا إلى القاضي ورفعوا صوتهم بالشكوى فما كان من القاضي إلا أن أمر بالقبض على الضرير زوج الخرساء أختى بنت أمى وأنى .

قال الأستاذ فصيح : لا تقلق يا هذا .. سأنام بعد جرعتين .. وحين يصيح ديك الفجر أيقظنى لأشرب ما بقى من الزجاجة .. ثم أمضى معك لأحصل للضرير على البراءة

يوم الحساب :

دخل القضاة المقنعون — فوقفنا . وقعدوا على الكراسى — تحت السيف الذى يصارع السيف — فقعدنا على الأرض . القاعد بالوسط له وجه الأسد ملك الوحوش ، والذى عن يمينه له وجه النمر الوثاب ، أما الذى عن يساره فكان بوجه الثعلب الواسع الحيلة .

ملت على أذنى وحيد وهمست : لقد تاه الضرير فى الغابة وعما قليل سنرى لحمه فى فم الحيوان المفترس .. وهذا الفصيح ضل طريقه وضللنا معه بعد ما خدعنا وشرب زجاجة الكينا بمفرده .

قال وحيد : كنت أفضل أن أبقى فى بيتى ..

القضية شرم برم :

كشر القضاة الثلاثة فى الضرير المحبوس داخل القفص — وزام الأسد : لم غررت بالحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل ؟ . رد الضرير : لا .. كنت رسولا لصاحب القلعة .. زام الأسد : وهل قابلك صاحب القلعة ؟ . رد الضرير : لا .. ما من أحد قابل صاحب القلعة .. لكن غلامه جاء إلى خُصِّى وأمرنى أن أبلغ قول صاحب القلعة للحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل . كشر النمر : لكنك بغير عينين فكيف رأيت الغلام ؟ قال الضرير : زوجتى هى التى رأت .. أما أنا فسمعت . زام الأسد : زوجتك رأت .. أما

أنت فلا .. كيف تقطع إذن بان الرسول هو غلام صاحب القلعة ؟ . قال
الضرير : زوجتى وصفت لى صورته . زام الأسد : كيف تصف لك صورته وهى
خرساء ؟ . قال الضرير : خرساء نعم .. لكنها تفهمنى وأفهمها . أنا وهى فى
المسرة والضرء شريكان نقتسم الكسرة . كشر الذئب : وما هى أوصاف غلام
صاحب القلعة ؟ . أجاب الضرير : صبح الوجه أمرد .. على خده شامة ..
جيده المطوق بعقد من لؤلؤ كأنه جيد يمامه .. بمعصمه سوار من نقى الفضة ..
وعلى بدنه قميص من حرير أبيض .. والقرط الذهبى يتدلى من أذنه اليسرى ..
والكتاب يمينه .

فعوى الثعلب : تلك العلامات الكل يعرفها عن غلام صاحب القلعة ..
والخرساء شريكة للضرير فى التهمة ومكانها داخل القفص لا خارجه .

قبض الحراس على الخرساء المعلقة البصر بالسما وأدخلوها قفص الحديد .
وجعر عبد البصير : وأختاه . فهب الأستاذ فصيح وشخط فيه : اخرس انت ،
وكح وخاطب القضاة (بعد السلام عليكم .. الرحمة نطلبها منكم — يا ظل
صاحب القلعة على الأرض .. ونحتمى بكم من قيظ هذا اليوم ... يقول الفقير
الأريب : ما من مخلوق على الأرض التى نعرفها يجسر فيدعى كذبا أن غلام
صاحب القلعة قد أتاه .. كما أنه ما من مخلوق ممن نعرفهم يجسر ويتنكر فى ثوب
غلام صاحب القلعة .. ذاك يقينى .. فصاحب القلعة قوى مهاب طويل اليد
شديد العقاب ... باطش لو أصاب وكلنا تحت القلعة — قضاة ورعية —
الضعاف المنخورون المرتعدون من برودة الخشية التى نحن فيها منقوعون .. أليس
كذلك ؟ هذا سؤالى الذى أطلب جوابه فوراً — من القضاة ومن الحضور ومن
الحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل ؟ .

قال القضاة : نعم .. الأمر كذلك .. وكلنا كذلك .. ولا أحد يجسر ..

وقلنا نحن الحضور : نعم .. لا أحد يجسر .. ونحن كذلك ... وكلنا
كذلك .. نحن الرعية من برد الخشية نرتجف

وقال صانع الأقفاص من جريد النخيل والحداد والنجار :

نعم ... نحن كذلك .. من ذا الذى يجسر ..

وسألنا الأستاذ فصيح : والذي يجسر ؟
فهتفنا خلف القضاة : مجنون أو أحرق ..

قال الأستاذ فصيح : ما دام الأمر كذلك .. فالضريير والخرساء لم يكذبا
لأنهما كالكل لا يجسران ... وبفرض أن ما زعماه كذبا — فهما ينتسبان إلى
الجنون والخرق — وهذا يدفع عنهما التهمة ويحيلهما إلى المورستان أو إلى دار
الإصلاح ...

زأر الأسد : دعونا نتشاور .. وساد في صفوفنا هرج ومرج . وهب عبد
البصير — وجعر : وأختاه .. هل سيأخذونك إلى الخانكة أم سيأخذونك إلى دار
إصلاح ؟

٨ - الأستاذ فصيح يستمر في مرافعته :

زأر الأسد : محكمتنا ليس من اختصاصها محاكمة المجانين أو الخرق .. لذا
يحال المتهم والمتهمة إلى المورستان أو إلى دار الإصلاح فهذا من اختصاصهما .

قال الأستاذ فصيح : لا يا رمز القوة .. الضريير والخرساء صادقان في قولهما
(ويتمتعان بعقل كامل) فصاحب القلعة — الذي يريد قفصا لكل الطيور —
كلم غلامه .. وقد جاء الغلام للضريير والخرساء وكلمهما .. وذهب الضريير
بدوره وبشر النجار والحداد وصانع الأقفاص من جريد النخيل — بالجائزة التي
رصدها صاحب القلعة لمن يصنع القفص لكل الطيور ... وفات العام ولم يهبط
صاحب القلعة ليسلم أيا من الصناعات الثلاثة الجائزة — فجاء الطامعون في مال
صاحب القلعة واتهموا الضريير بالكذب .. ولكنهم لو سألوا أنفسهم هذا السؤال
الواقعي : لم لم يهبط صاحب القلعة كما وعد ؟ ...

لو أنهم سألوا أنفسهم كما سألت أنا نفسي لأتاهم الجواب كما أتاني (ما
من أحد حقق الشرط ... ما من قفص مهما كبر حجمه يكفي لحبس كل
الطيور) ياه — قفص لكل الطيور ؟ ... يا لكم من سذج طامعين في مال
صاحب القلعة ... ها ها .. لعلمكم — يا من سقطتم في أول اختبار — هناك
طيور الجهات وطيور البحر وطيور النهر وطيور الحقل .. وهناك طيور تسكن
البيوت وطيور بنت عشها في السحاب وهناك طيور تبيض ولا تطير .. ومن

الطيور الجارح والأليف والمغرد .. وبعد ، لقد ضيعتم وقت المحكمة الغالى وافترتيم على الأبرياء .

٩ - الجزء من جنس العمل :

دوت أكفنا بالتصفيق لمرافعة الأستاذ فصيح البليغة . وانشغل القضاة بالتشاور مع بعضهم . وصرخ النجار فى الأستاذ فصيح : خربت بيتى الله يخرب بيتك . وقال صانع الأقفاص : انجدنى يا أستاذ من كرب أوقعتنى أنت فيه . وقال الحداد : لو تعرضت لمكروه يا أستاذ فصيح فستدافع عنى يا حجة أهل زمانك . وقال الأستاذ فصيح : الخراب والمكروه والكرب واقع واقع .. لا تجزعوا .. سأدافع عنكم وسأحصل على أتعائى بطريقتى .. سأخذ الأقفاص الثلاثة .. وسأستخدمها بالطريقة التى تحلو لى : السرير من حديد لأنام عليه .. والطاولة من جريد النخيل .. وما الدولاب إلا من عند النجار .. لكن النجار الصفيق أهاننى .. وها أنا أطالب بزجاجة كينا طولها شبران وسعتها لتران ...

١٠ - الختام مسك وعنبر :

زأر الأسد : الضرير برىء والخرساء بريئة .. والنجار والحداد وصانع الأقفاص من جريد النخيل مدانون ويستحقون الحبس .

قال الأستاذ فصيح : حضرات القضاة ...

فكشر الذئب — وعوى .. ماذا تريد يا بومة ؟ .. خذ الضرير والخرساء واغرب عن وجهنا قبل أن نخلط لحمك بعظمك ...

انحنى الأستاذ فصيح — وقال : حتى تكتمل بهجة المحكمة وبهجتنا — أمروا المحاييس بخلع ملابسهم .

مد الثعلب لسانه — وعوى : لك ذلك ..

بكى المحاييس — وقالوا : يا ويلنا ها نحن عراة ، وقالوا للأستاذ فصيح : ألم تعدنا — ووعدناك ؟

وكلم الأستاذ فصيح القضاة : ها هم أمامكم يا أفاضل جلد على عظم .. وان كان ثمة لحم — فهو مر لا يؤكل ... ومن كان هذا بدنه — فدماغه فارغة من المخ .. وأنتم يارمرز القوة لاشك زاهدون فى تلك الأبدان المرة والأدمغة الفارغة .

هكذا تكلم الفران

٣ أحلام وحكمة و٣ أفعال

قلب لى الزمان وجهه وأدار ظهره — فغز النوم ، وكنت من المؤمنين بقول الحكيم القديم : سافر ففى الأسفار سبع فوائد — هكذا يا أميرى استعرت دابة جارى الطيب ، وقصدت صاحبى الميسور الحال الملقب بابن خلف — المقيم ببلدة العين من أعمال محلة صروف ، وهناك شكوت للصاحب من الفقر وعدم النوم ولعنت الزمان . فخبط ابن خلف على فخده ليرن المال فى جيوبه وضحك ، وقال : لا عليك من الفقر فهو مرض منتشر .. أما الأرق فميسور علاجه . قلت : كيف ؟ . قال : اصبر .. والله مع الصابرين يا صاحبى ، ونادى غلامه وأمره بإحضار الفران زوج أم أسماء . وبعد ساعة من الزمان — عاد الغلام ومعه زوج أم أسماء الفران . فلما نظرت اليه ووجدته : ضامر العود .. فاحم اللون .. ربعة .. بحاجة مجروح .. على بدنه قميص كله ثقوب من حروق .. وقد تلفع بخزقي كعادة أبناء الحرفة ، قلت فى نفسى : سبحانك ربي .. تبوح بسرك لأضعف خلقتك .

كلمه ابن خلف : ما تريده من ألوان الطعام .. سنأمر لك به يا فران .. ولنا شرط .

رد الفران : فول بزيت وفول بسمن وفول بطماطم — ذاك مطلبى .. وهات شرطك .

قال ابن خلف : لك علىّ هذا .. وهاك شرطى .. ستقص على ضيفى من تخاريف نومك ويقظتك حتى ينام .. ولن أسمح لك بدخول الحمام .. فإذا ما فشلت يا فران أمرت خدمى بفتح بطنك وإخراج طعامى منها ..

قال الفران : شرطك هين .. وعلاجى ناجع .. والآن عجل بطلب الطعام فبطنى خاوية ، وأشار الفران إلى : أما أنت فسأحكى لك الحلم الأخضر البهيج .. والحلم الأزرق المرعب والحلم الأبيض الذى لا طعم له .

وبسط الفران كفه الخاوية ، وأمسك الهواء بأصبعين ، وكمن يدس النشوق فى أنفه — دس الهواء فى أنفه وعطس ، وقال : لقيته أمام باب الفرن ، ممسكا بلجام بغلة ، ورددت عليه السلام قرّةً ، ولما أعطيته ظهرى — نادانى : إلى أين يا سيدى ؟ . قلت : إلى دار أم أسماء . قال : ولم لا تركب البغلة ؟ . قلت : لا مال معى يا فتى .. لقد عملت اليوم بضمن الأرغفة التى حرقها . قال : لكن .. تلك بغلتك يا سيدى . فقلت لنفسى : الفتى مجنون أو أخرق .. وعلى العاقل مثلى أن يتعد أو يتتهز ، وقلت له : ساعدنى على الركوب .. واجعل غايتك درب سعادة ، وقلت لنفسى : سأنزل قبل خُصّى بخصين حتى أضلله فلا يهتدى بعد ذلك إلى سكنى . وقال هو : ما الضرورة لدرب سعادة هذا يا سيدى وسيدتى بالبيت تنتظرك ؟ . وقلت أنا لنفسى : هم .. سيدته تنتظرنى ؟؟ .. لقد بان المستور — فهذا الولد تيس لسيدة من عليّة قوم هذا الزمان تبحث عن فحل من عامة الناس ، وسألته : وأين تسكن سيدتك يا فتى ؟ . قال : بحى الحدائق والزهور ياسيدى . فقلت له : ها .. حيث يسكن أبناء العرب وأبناء الفرنجة ويختلطون .. ليكن ... أنا لها .. خذنى يا فتى إلى حى الحدائق والزهور هذا .. ولا تقلقنى بعد الآن بقول .. فأنا راغب فى نوم أستعيد به عافيتى ، وقلت فى سرى : وهل ينام المشتاق المحروم ؟؟

وأمام بيت لطيف منير به حديقة صغيرة بسور وباب من حديد تتسلقه ياسمينة نعسانة — هبطت أنا من فوق ظهر البغلة بمساعدة الفتى وتقدمت صوب الباب — فهب بواب 'نوى' بثوب نظيف شديد البياض وحيانى ، طوحت رأسى — كما يفعل السادة — ورددت التحية ومرقت من الباب ، وسرت — أنا المزهو — بطريقة قصيرة مرصوفة بحصى ملون حتى قابلنى باب مغلق فطرقتة ووقفت أنتظر ، وألقيت نظرة عن يمينى ونظرة عن شمالى — وهالنى أن رأيت

أسدين رابضين وعيونهما علىّ — فنطقت بالشهادتين ، ولما سمعت صوت صفارتين ورأيت الأسدین يغمزان لى بعيونهما بضوء ملون أدركت أنهما لعبتان — فبصقت فى عبي وشكرت الله . ومن فرجة الباب أطل غلام أمرد كأنه بدر السما انحنى وتنحى . فمرقت أنا وتحت الثريا وقفت وأغلقت عيني لأحبيهما من قسوة الضوء . ولما سمعت صوت خطوات فتحتهما فإذا به أمامى بشارب مفتول وعلى رأسه طرطور .. يمسح دموع عينيه بمنديل ، فقلت — وقد ألهمنى الله ما قلته : أنت الباشا رب الدار ... وقد حلت بأهل بيتك مصيبة لم تكن فى الحسبان .. على أية حال أنا حزين وأنا لله وأنا اليه راجعون ..
أنأ يا باشا راجع .. سأفارقكم توا لكنى تحت أمرم فى أى وقت ترونه مناسباً ولا مقام فيه لمرض أو موت .

ضحك لابس الطرطور — وقال : أنت خفيف الدم يا سيدى وهذا طالع طيب .. لقد جعلتنى أنا الذى تعرضت لأشد ألوان الإهانات فى حياتى — أضحك . قلت له : لا تهتم .. فالدنيا دون والناس دون والزمان دون . انتفض كالملسوع وسقط من فوق رأسه الطرطور — وتهته : عفوا يا سيدى .. لم أقصد هذا .. كل ما فى الأمر .. بل كل الأمر .. وذاك قصدى .. نعم .. هذا بالتام والكمال ما أود أن أقوله .. لقد منعتنى سيدتى من طهو وجبة العشاء لك ولها وللمحروسة الصغيرة أطل الله عمرها .. ولكن لو لم تفارق سيدتى المطبخ فوراً يا سيدى — فسأفارق أنا البيت حالاً .. لأنى أحترم مهنتى يا سيدى . فصرخت فيه : لا يا طبّاخ .. لا بريك .. لا تنزع قلبى من موضعه .. تعال وأرنى سيدتك وأنا كفيل باقناعها وستغادر المطبخ بإذن الله .. فانا قادر على إطفاء نارها ولهذا أتيت ، وقلت لنفسى : سأجعلها ترى الخيرزانة .

وهناك بالمطبخ وجدت ، يالدهشتى ، من ؟ يا رب السموات هل أنا بحلم ؟ ، كأنها أم أسماء ، نعم ، تلك هى أم أسماء قاعدة وبحجرها أسماء تلعب فى كوم لحم وكوم قمح — وقد تدلى من أنفها على فمها خيطان من مخاط ، نعم تلك هى تدق الهاون ، وها هى أم أسماء أمامى تلوك قطعة لحم نيئة ، ضربت جبهتى بيدي — لأن اختلاط الأمور ليس بالأمر الحمود وسألت لابس الطرطور — لأقطع الشك باليقين : وأين سيدتك ؟ . قال — وانحنى : ها هى أمامك يا سيدى بهية النور .

فقلت له : انصرف وانتظر بعيدا ، وخاطبت القاعدة بأدب حتى يستين لي الأمر : لم يا أم أسماء تمنعين الطاهى الماهر من طبخ طعام لنا ؟ . ردت المشئومة : لا تحاول معي .. لن أفارق المطبخ ما حييت .. وها أنت ترائى أدق القمح واللحم فى الهاون لأطبخ لك كفتة . فقلت : أنت أم أسماء اذن . زعقت : ومن تظن ؟ .. أم بكرة ؟؟ . سألتها — لأفهم منها مغزى ذلك الذى يجرى : وهل لك جدة تركية ماتت بأسطنبول — فورثناها ؟ . قالت : لم وولى النعم صاحب الأمر العادل — أطال الله عمره — خيرنا بين حياتين ولقد اخترت أنا تلك الحياة لي ولك ولأسماء صانها الله من كل سوء .. سنقضى بقية عمرنا نأكل الكفتة يا زوجي الغالى .. وبعد ألا تستحق أم أسماء منك كلمة حمد . بعد هذا القول ارتاح خاطري ، وناديت الطاهى وأمرته : دع أم أسماء على حالها تطبخ لنفسها ما تشاء .. أما أنا فاطبخ لي قرع كوسة باللحم المفروم وقرعا عسليا باللحم المبروم .. ولحما خالصا ببصل وبفلفل وبثوم .. وعجل بريك يا طباخ . وبالبهو قعدت على كرسي مغمض العينين — أفكر وأطرد كل وسواس خبيث ، ورغم ليونة الكرسي وطراوة قاعدته — الا أنى كنت كالقاعد على جمر ، وكلمت نفسي : لنظل أم أسماء بالمطبخ — هذا فيما لو استمرت هذه الحياة — تدق الكفتة وتطبخ الكفتة وتعيش ما بقى لها من أيام راضية سعيدة .. أما أنا رب هذى الدار وصاحب هذى الدار فسأتزوج من ثلاث كما أحل الدين الإسلامى الخفيف : شامية ومغربية وبنات بلد مصرية لها لون المهلبية وطعم المهلبية وطراوة المهلبية .

وأيقظنى الغلام الأمرد من شرودى الحلو — وقال إن التليفون يطلبنى أنا سيده . فقلت له : وأين هو ؟ خذنى إليه أو قل له تعال . قال الفتى : هاك يا سيدى ، وأرشدنى فقال : من تلك الفتحة تكلم يا سيدى ومن تلك الفتحة يا سيدى استمع . ومن الفتحة قلت لمكلمى : من أنت ؟ . قال زعبوط الخياط . فسألته : ماذا تريد يا زعبوط ؟ . قال : هل أحضر لأخيظ لك ثوباً ؟ . قلت له : وتسألنى يا زعبوط ؟؟ . والله إن أمرك لعجيب .. ما الذى منعك عنى طوال تلك السنين يا زعبوط ؟ أحضر ثوبا يا رجل ولا تضيع وقتا . ومن فتحة التليفون العجيب — كلمنى مسمار الجزمجي — فقلت له : تعال يا مسمار وعجل .. أما كنت تعرف يا مسمار أن قدمى الخافية يلزمها حذاء ؟؟ .. باليقين أريده بلون أصفر يا مسمار . ولما اتصل بى رفاق صانع الفطيرة المالحه والفطيرة الحلوة ودعانى إلى حفلة سيخاصر فيها الرجل الأنثى ويرقصان . قلت له : لا مانع عندى يارقاق ، وقلت له : لا مانع عندى البتة .. سأحضر ، وسألته : ما الذى حدث فى الكون يارقاق ؟ وكيف كان ذلك ومتى تم ؟

قال : ما حدث حدث ولا فائدة من التفكير في الأيام السوداء التي ولت وما كان كان وهو خير .. وكل ذلك تم في يسر كأنفصال الخيطين وقت الفجر . قلت له : هذا بينما كنت أنا الغافل أمام نار الفرن بمخبز اسرافيل ؟؟ .. لقد أجبرنى الظالم على العمل بغير أجر نظير ما حرقت من أرغفة .. تخيل معى هذا يارفاق .. والآن أريد أن أغير حرفتى يا صاحبنى — فهى والله مهلكة . وأتانى صوت رفاق كأنه الصراخ : لا يا فران .. لا تفعل .. هذا غير ممكن .. كل منا فى مكانه يخدم الآخر .. أنت تعمل من أجل الغير والغير يعمل من أجلك ذلك هو الشرط الأوحد لولى أمرنا .. ماذا تريد بريك ؟ .. ما الذى تريده بنا ؟ .. لا تفسد حياتنا الجديدة يا فران .. أرجوك . قلت له : لا تقلق .. هذا يكفى يارفاق .. لكنى لا أحسن الرقص . قال : لا تشغل البال بمثل تلك الأمور .. هذا هين .. هنا معلم رقص يعلمك الرقص — وما عليك الا أن تحضر قبل الموعد بوقت .. سلاما . قلت : سلاما يا رفاق .. سلاما . وناديت الغلام الأمرد — وسألته : أين الطعام ؟ قال هناك .. ينتظر الآكلين ، وأشار إلى حجرة — دخلتها فوجدت طاولة فوقها أطباق تبخر ولها رائحة طيبة تسيل اللعاب ، وهجمت على اللحم هجمة ، وباليدين أطبقت على فخذة ، وفصلت العظم عن اللحم بضربة ، ومزقت بأسناني ما استطعت ، وفتقت بأصابعى ما أمكنتى ، ورفعت طبق القرع كوسة الساخن ودلقته فى حلقي — فكوتنى ناره — وجرى اللهب فى بلعومى وأيقظنى من حلم عزيز، أود لو يتحقق أو يتكرر .

* * *

فكرت فى قوله ساعة . ولف هو الفرن — من الوهم — سيجارة ، ودخنها بشهقة طويلة ، وطرده الدخان الوهمى عن رئتيه بزفرة طويلة — وكح . فعزمت عليه بسيجارة مرسوم عليها الغزالة — وقلت : هذا صنف رخيص أدخنه أنا بعد الفقر الذى حل بى .. وبمقدورك يا فران أن تدخن منه كل يوم علبة — تعوضك عن تدخين الوهم ونفخ الهواء . قال : أنا لا أجد ما آكله يا حكيم الزمان — فكيف بالله أدخن ؟ تلك هى الأولى .. أما الثانية — فخذ .. اليوم تهبنى أنت سيجارة وبالغد لن أجدك .. وهكذا تسلمنى لآخر والآخر يسلمنى لآخر .. وتدور الدورة وأتحول أنا الفرن — على يديك وبفضلك — الى شحاذ .. والثالثة يا اخا العرب — إن من لا يأكل يموت .. أما الذى لا يدخن افلا يموت .. والرابعة ولا مقام لها هنا — اقولها لك رغبة منى فى ابعادك عن كل حماقة فى القول أو فى الفهم ..

قال الفران : طردنى صاحب الفرن وحرمنى من أجرى — لأنى حرقت الأرغفة ، لعنة الله على صاحب الفرن ولعنة الله على الأسباب ، كنت واقفا أمام عين الفرن عريانا فى مواجهة النار ، وتحت قسوة الوهج لعنت واقعى وقلت . جهنم أرحم وسرحت بفكرى — فوجدتنى أمشى فى طريق معبد على جانبيه أشجار الكافور التى ترمى بالظل اللين — حتى بلغت الميدان الواسع وهناك وجدت جمعا هائلا من الناس — فداخلنى الشك أنى يوم الحشر ، وسألت جارى — فلكزنى فى جنبى وقال : هس ، ولما نفخ شخص — على رأسه ريشة — فى نفيى أقبل الرجال على صهوات الخيل وترجل سيدهم فحملوه على محفة ، وطلعوا به درجات النصب التذكارى ، بعدها نادى المنادى — وقال : السيد الكبير ملك الجاز والغاز لابس القبعة الكبيرة المرشوق بها ريشة نعامة والمتحلى بالحلى والأساور وعظام البشر — قال : سأدفع ألف جنيه لمن يحل اللغز ، وتقدم رجل أصلع علق بربقته فوطه — وزعق : ما الذى يمشى فى الصباح على أربع وفى الظهيرة على اثنتين .. وعلى ثلاث إذا ما هبط المساء ؟ . هنا صرخت أنا — ودفعت كل من حولى باليدين (الإنسان) .. وهكذا بضربة حظ كسبت أنا الألف جنيه ، وأحاط بى الخلق بعضهم يمسح بكفه على كتفى .. وبعضهم يطمع فى مالى الكثير .. ومنهم الحاسد والمادح والنتاش وسارق الكحل من العين .. ومنهم ذلك الذى سألنى : ماذا ستفعل بمالك ؟ . فرددت عليه فى الحال : لن أفعل كما فعل ابن بلدتى الصعيدى المنحوس الذى شترى ميدان العتبة الخضراء .. سأشترى الطعام الذى يكفينى لمدة عامين .. وأولى وجهى نحو الجبل المقطم .. وأزرع شجرة أحتمى بظلها .. والحجر الكبير بإزميلى — سأهذب حوافيه وأخلق منه هرما صغيرا بقمة وقاعدة وسرداب وباب .. بعد ذلك أستريح وأقعد تحت ظل الشجرة على دكة بغدادية فوقها فروة من خراف بركة .. وأرمى على كتفى شالاً دمشقى بشراشيب .. وألمّ بدنى تحت عباءة من جوخ مراکش .. وهكذا أجمع النقود من السياح هواة الفرجة على الأهرامات . جلجل سائلى وشنشل ولكزنى — شلت يده — لكزة أيقظتنى من حلمى السعيد وأعادتنى إلى واقعى المرير بمخبز إسرافيل .

قال الفران :

ولما حكيت حلمى لأُم اسماء زوجتى — قالت : يا لك من صعيدى منحوس .. لا يحسن اختيار معارفه ولا يعرف الاقتصاد فى كلامه .. كنا سنقضى

بقية أيامنا في نعيم يا رجل .. نأكل في كل وجبة سمك السالمون المملح .. ولكن
حلونا دوما عسلا أسود بطحينة .

شردت ساعة وافقت على كلام الفران وكان قد رسم على الأرض بعود :
الكلب والكلبة والجرو والعظمة . قال : في الربيع تصاب عيونه برمد الربيع —
فيرفضه أصحاب الأفران لأنه يحرق الرغفان . وذات يوم من أيام الربيع ، قالت أم
أسماء لزوجها الفران : ما الحل ؟ وما من صاحب فرن يقبلك عنده هذا بينما أنا
جلد على عظم .. والصغيرة السمراء لا تجد بالقريتين اللبن .. ما رأيك لو
خدمت أنا بيوت الأغنياء ؟ . فصرخ الفران في وجهها : لا يا أم أسماء .. حرة
العرب تجوع ولا تأكل بشديها ، وقال لنفسه : نعم يا رجل .. وادخل عيادة طبيب
وعالج عينيك ، وقال : لما نمت — توجهت إلى عيادة طبيب عيون يقال له « خير
الله » وجاء خير الله بوجه هاش باش ومعطف أبيض ، وقال لي — بعد ما
فحصني سأصنع لعينيك عوينات من زجاج ملون تحميها من ضوء الشمس ووجه
نار الفرن . قلت له : أشكرك ، وسألته : ومتى يتم ذلك ؟ . قال : تعال بعد
ساعة من الزمان أو ابعث برسول . فصحوت من النوم وقلت لأم أسماء — ورسمت
لها الطريق إلى عيادة خير الله طبيب العيون : قولي له : أنا زوجة صاحبك الفران
المريض .. أتيت في الميعاد لأخذ عويناته الملونة . وحملت أم أسماء على كتفها أسماء
ومضت . وقلت أنا لنفسى : والآن .. ما الذى ستفعله يا فران — حتى تعود أم
أسماء ؟ .. كيف تقضى الوقت وحدك في مكان هو القبر ؟ . وقلت : حاور أيام
الخراء بالنوم والفساء ، ونمت — وذهبت إلى كازينو يطل على النيل وقعدت على
كرسى تحت خميلة — بانتظار عودة أم أسماء من عند خير الله طبيب العيون .
ومرت أمامى واحدة في مشيها ميل ورقص — يفوح من بدنها وثوبها عطر ،
وجلست بقرى تحت الخميلة التى تلاصق خميلتى . وأغراني بمغازلتها أنها تقعد
وحيدة ، وفكرت في كلام حلو للين له طلاوة الشعر ، وارتجلت تلك الأبيات :

أنت في اليم سفينة

يا طرية كالعجينة

يا حلاوة في حلاوة

أنت ملبن يا سمينة

يا مليحة بخفر

هات خدك ننتصر

يا طحينة بعسل بعد قبلة نتصل

قلت قولى وانتظرت . فأقبل شاب كأنه الغيمة ورفعني من فوق الكرسي رفعاً — كأنتى كرة اللعب ، وبصق فى وجهى ، وأفعدنى مرة أخرى على الكرسي . فى هذا الوقت وصلت أم أسماء — فأمسكت بتلابيب الشاب وصرخت . والتم ناس . وقامت البنت — التى كنت أعنيها بشعرى واتجهت نحونا . وقلت أنا لام أسماء : أين نظارتى الملونة ؟ . قالت : معى : قلت : هاتيها حتى لا تنكسر . قالت : خذ . قلت : دمت لى يا أم أسماء زوجة صالحة ... لا تفلتى الشاب من يديك .. ولا تكفى عن الصراخ حتى يفصل الناس بيننا ، وقلت للناس يا ناس .. لقد أهاننى أنا العجوز المريض ، ووضعت نظارتى الملونة على عيني — لأمتع البصر برؤية فاتنتى الشابة وأقرأ تفاصيلها ، ولما دنت وقرأت — صرخت : هذا مستحيل . على صرختى انتهت أم أسماء ، ورأت وصرخت صرخة عظيمة ارتج لها الكازينو ، وسقطت مغشيا عليها . ولطمت أنا خدودى أمام الناس — وقلت : يا للعار .. أسماء بنتى أنا تجلس مع شاب غريب تحت خيمة بكازينو . ولما هم الشاب بمعاونة زوجتى على القيام من سقطتها — صرخت أنا فيه : لا تلمس عرض أشراف العرب يا عديم الحياء والذمة يا سافل ، وتقدمت ورششت المياه على وجه أم أسماء فأفاقت ، وقلت لها : هيا بنا من هنا فتلک أماكن لا يرتادها إلا أوباش الناس .. ونحذى البنت ولا تحدثها عن الذى جرى حتى نتوق فضيحة يتحدث بها الراكب مع الماشى والقاعد مع الواقف .

هكذا عدنا إلى البيت فى صمت . وفى البيت — منعنى الخجل من النظر إلى أسماء التى غازلتها بالكازينو — فقلت لنفسى نم .. فالنوم خير حل لما أنت به ، ونمت ومن نومى أيقظتنى أم أسماء — وهى تبكى وتتوجع : أنت رجل لا أمان له . سقط قلبى من بين ضلوعى — وقلت : يا امرأة لا تصدق . صرخت : كيف لا أصدق وقد عرضتنى للإهانة وألم البدن .. صاحبك طبيب العيون طردنى .. وتمرجى صاحبك طبيب العيون لكزنى فى جنبى وركلنى على مؤخرتى . قلت لها — وحمدت الله : اقعدى يا أم أسماء .. واحمدى الله معى يا امرأة .. لقد اختلط الحلم بالواقع ، وحكىتها لها ما جرى وما كان بالكازينو .

فقالت : ولكن أسماء يارجل بنت شهرين ومعها ملاك بجناحين يحرسها ..

وهى على كتفى كل الوقت .. لم تغادرني إلى كازينو أو خلافة . قلت لها : والله لو فعلتها في يوم لأذبحها كما تذبح البهيمة — فأنا رجل عربى محافظ أحمى التقاليد وأصونها ماعشت .

فردت — بنت الأزقة : خبيك الله يا عربى .. ومن تكون تلك التى غازلتها فى الأحلام ؟؟ .. ولعلمك — يا قنطار خشب ويا درهم حلاوة — انى من اليوم سأخدم فى بيوت الأغنياء حتى لا نهلك من الجوع .

* * *

صحوت — يا أميرى — على هزة من يد ابن خلف وهو يقول : قم يارجل .. نحن بالضحي . ففكرت عيني — غير مصدق أنني نمت ، لكن الشمس كانت فوق بعيدة عن سماء الشرق قدر ذراعين . وقال ابن خلف والآن .. قل لى — ما رأيك فى طب الفران ؟ . قلت : والله .. لقد جعلنى أفكر ساعة وأشرد ساعة وأنام أنا المفلس — على حُبِّ وكره .. وها أنا فى يقظتى — ككل الفقراء — أطمع فى الحصول على الجرة الذهبية .

حكاية للأمير عنوانها : من يعلق الجرس

هذا نور مأتى يا أميرى ، لقد مات الرجل الغنى اليوم والليلة سأقطف لك من حياته الشجرة المرة والشجرة الحلوة فقد تمام .

يوم حفظ كتاب الله :

علقت أمه فى أذنه المخرومة خرزة زرقاء ، وقالت « من شر عين الحاسدة والحاسد » ورشت أرض البيت بالملح . ولما جاء الرجال بالصرقة فكَّت أمه الصرة وقالت « من مال المسلمين » ونثرت ما فيها أمام عيون النسوة : الجبة حمراء مطرزة بالقصب ، والطربوش مغرنى أحمر والمداس الأصفر من جلد الجمل ، والحزام أخضر، والقفطان الأبيض بخطوط سوداء .

ولما لبس صابر — وهذا اسمه — ملابس الشيخ وهم بالخروج مع الرجال، قبلت أمه يده وقالت « يا مولانا » ومسحت دموع الفرحة بطرحتها السوداء .

فى جامع عبد الله :

ركع صابر ركعتين وشكر ربه ، وقام ، وقبل يد مولاه ومعلمه الشيخ سليمان ،

وتسلم من يمينه السيف الخشبي وتقدم — هو الصغير — جمع الرجال ليطوف بهم
دروب القرية .

في بيت أمه وأبيه :

أزاح صحن البصارة وقال لأمه « شبعان يا أمي » وحط يده على خده وفكر :
لن أركب قطار الحديد ، ولن تنظر العين مصر أم الدنيا التي يجرى فوق أرضها
الترموای ، ولن تدخل الأزهر يا صابر وتعيش عيشة المجاورين وتصاحب أبناء الشام
وعرب المغرب ، وسأل صابر ربه : لم يارب خلقت أی حارس حقول وأجران الغير
يهش الطير عن الحب بمقلاع ؟

وفي بيت أمه وأبيه :

قال لأمه « جوعان يا أمي » ورفع يده من على خده وفكر : لا فائدة من لبس
أجنحة الطير ما دمت تملك ثوب الشيوخ ، أنت تحفظ كتاب الله وصوتك لا
عيب فيه وكلام الله حلو لما يرتل وكلام الله يليق بالماثم ويليق بالأعراس ، كن ابن
يومك يا صابر ولا تعاند زمانك ، احبس نفسك في قرينتك وانشد القرآن ورتله في
أفراحها ومآتمها ، ولما يتوفر لك المال اشتر الدابة واركبها ، ورتل القرآن في مآتم
وأفراح النجوع البعيدة، ومن يقنع اليوم ببصلة فسيأكل في الغد اللقمة مغموسة
بالعسل ومن يقنع اليوم ببيضة فسيأكل في يوم بطة .

الأم الحاقدة — ذات الفصول — لا أمان لها :

جاء اليوم البارد فمزق حبلين من حبال صوت الشيخ صابر ..

وجاء اليوم الماطر فقطع حبلين من حبال صوت الشيخ صابر وشرخ القصبة .

خلص الشيخ صابر بقايا اللحم من بين أسنانه بعيدان الكبريت ، وقال :
حين تضعف همة الإنسان تقبل الفكرة السوداء وتنهش روحه ليظل قعيد البيت
كعجائز النسوة .

وفي يوم سبت طلع على الناس بثوب العارف :

قال : لكل مرض علة ولكل علة سبب .. هناك يا أخوتي داء لا يقتله الا الكى بالنار .. وهناك مرض لا يفيد فيه شراب يبيعه الصيادلة . كما أن العلاج بالعشب لا يتقنه الا أنا الخبير بخلط الأعشاب .. أما النمل الأسود فطرده من البيوت سهل لو كتبت أنا آية من آيات الله على ورقة بحجم إصبعي — ولصقتها أنت بعجينة على باب دارك .. كذا أنا قادر على طرد الجنى ومص سم العقرب .. وأنا أرفع الخوف من كل نفس خوافة قابلها العفريت في ليلة معتمة، يا أهل قريتي وناسي لا خوف عليكم من لدغة الثعبان وقرصة البرغوث .

ولما خبرته النجوم بيوم سعيده :

دخل السوق . وقصد مجلس الشمردلى شيخ تجار السمك ورد السلام . رد الشمردلى على السلام بسلام أفضل من السلام، وقام وصافح الضيف الغريب وأجلسه بجواره على الدكة فوق الفروة وطلب له قهوة ونارجيلة وسأله عن غايته . قال صابر : الخير كل الخير .. بكم تبيع السمك وبكم تشتريه ؟ . قال الشمردلى : أشتري القنطار بنصف فضة وأبيعه بواحد فضة . قال صابر : أنا أبيع لك القنطارين بنصف فضة .. كم قنطارا تشتري ؟ . رد الشمردلى : ما عندك . قال صابر : عندي الكثير . قال الشمردلى : أشتري منك نصف حاجة السوق .. قل عشرة قناطير . قال الشيخ صابر : الناس تقول (الذى أوله شرط آخره نور) وأنا أقول لك يا شيخ (هات نصف الثمن فوراً .. وأنفذ أنا اتفاقى بعد يومين والعقد على رقبتي سيف) . قال شيخ السماكين : موافق ومالى حاضر . قال صابر : على بركة الله هات الشهود والموثق .

وهذا نص الاتفاق — يا أميرى :

على بركة الله نشهد نحن الشهود أن شيخ العرب صابر بن فلان من فلانة سبيح كل عشرة قناطير من السمك الطيب لشيخ السماكين الشمردلى بن فلان من فلانة بسعر القنطار ثمن الفضة والعقد قائم لمدة شهر قمرى وقابل للتجديد لو رضى البائع والمشتري .. وبموجب هذا العقد يدفع الشارى فوراً للبائع نصف الثمن

فضة ، والعقد نافذ المفعول من بعد طلوع شمسين ، والعقد على رقبة البائع سيف .

الكلام الأزرق :

قالت الأم : بعت الهواء يا ولدى وقبضت الفضة .
رد صابر : بعت السمك يا أمى ومن يبيع الهواء لا يقبض الفضة .
قالت الأم : بعت ما لا تملك يا ولدى .
قال صابر : السمك فى الماء يا أمى .
قالت الأم : لكنك لا تملك سمك الماء يا ولدى .
وسألها صابر : ومن يملك سمك الماء يا أمى .
قالت الأم : لا أحد يا ولدى لا أحد .

قال صابر لأمه : صرر المال تحت حزامى .. أدخل حارة النجارين فيصنع لى النجار القارب من خشب التوت وأنا أشتريها ، وأبحث عن صياد قليل النط كثير الصيد وأقول له : اركب القارب وارم شبكتك فى الماء ولم السمك من الماء وكومه على الشط وخذ أجرة يومك منى ، والحمال لو رفع السمك وحطه فوق العربة سأدفع له أنا أجرة بدنه وعرق جبينه ، كذا الخوذى سيأخذ أجره منى لما ينقل السمك من شط النهر إلى السوق ، هكذا أفى بشرطى يا أمى وأرفع السيف عن رقبتى .

قالت الأم : حفظ الله عقلك يا ولدى ..

حديث الثعلب وبكاء النواطير :

مر الشهر وقال صابر للشمردى (نجدد العقد) ومر بعد الشهر شهر وشهر واشترى صابر القارب ومر شهر وشهر وشهر وشهر واشترى صابر القارين وقال للشمردى (أنا لا أرغب فى تجديد العقد) ، سأل الشمردى (لماذا) قال صابر (العقد ظلمنى يا شمردى نكتب العقد الجديد — وتقنع أنت بنصف ما تكسب اليوم) ، وكان صابر كلما مر شهر وشهر وشهر يشتري قارب صيد ،

وينادى الصياد الذى يحمل الشبكة على كتفه ويقول له (اطلع فوق القارب فهذا أفضل من مشيك على الشطوط بقدملك) ، بعد عام ونصف عام قال صابر للشمردلى (اقنع يربع ما تكسب يا شمردلى) ، قال الشمردلى (ما الذى غيرك يا رجل ؟) ، قال صابر (كن قنوعا يا صاحبي فأنت تكسب دون أن تقوم من دكتك) ، بعد عام فسخ صابر العقد بينه وبين الشمردلى ، ولما باع الشمردلى السمك بالسعر الذى يبيع به صابر اقتسما السوق ، لكن صابر خفض سعر السمك وخفضه فهرب المشتري من الشمردلى وهرب الشمردلى من السوق بما تبقى معه من مال وقضى بقية عمره فى خماره صاحبا مالطى .

هكذا بقى صابر فى السوق بغير منافس واحتكر بيع السمك :

اشترى قارب الصيد لكل صياد يروح على الشط بقدمين وفوق كتفه شبكة ، وحذر الصيادين من صيد السمك الصغير وقال لهم (السمكة الصغيرة اليوم هى حوت الغد) .

وبذل الموازين وأمر المنادى بأن ينادى فى السوق (البيع من صباح الغد بالكيلو لا بالأقة) ، وجاء بمصنف خبير بأنواع السمك ومنحه الأجر الكبير وقال له (قيم أنواع السمك واختر لكل نوع من السمك الاسم وحدد السعر فالناس عبيد وسادة وكذا السمك أيضاً) .

وقال صابر لرجاله :

(اطحوا نصف حافة السوق من السمك الحى والباقي ملحوه .. بذلك نرفع سعر السمك الحى ، ونحدد نحن سعر السمك المملح) .

وقال صابر لنفسه :

(ها أنا بعقلى الراجح أحكم السوق بقلب الأسد ملك الحيوان) .

حديث صابر مع الزمان :

أطل صابر من شرفة قصره وكلم الزمان :

- ملك السمك الحى والسمك المملح (عجوز) .
- خالق الزحمة بالأسواق (وحيد) .
- مالى يحرك القارب والصيد والحمال والحوذى والعربة والبغل والحمار وريشة الرسام (وأنا جامد) .
- عربتى يجرها حصان أبيض وحصان أسود (وأيامى يجرها ليل أسود ونهار أبيض إلى المقيّة) .
- يفسحون الطريق لى أنا الملك حامل السوط (وأنا راحل وهم باقون) .
- كما يرقد المال فى خزائنى سأرقد (باردا كالفضة)
- يا أيها الزمان أنت الوحيد الذى لم أهزمه (كأنك أنت الملك) .
- بذهبى سأشتري أجمل بناتك أيها الزمان لتلبس بعدى ثوب الحداد . وتنفخ بطنها من أى ابن زانية هذا فيما لو عجزت أنا وعزائى أن تظل ألسنة النار مشتعلة بالأسواق تُحدث الآتين بخبرى .

ترنيمه للأمير

كنت بزيارة صديقى ، وكان أستاذا ، وهناك التقينا فقلت لنفسى .. أخ ..
تلك فتاتك الموعودة .

وكانت هى تكلم الأستاذ وتسمع منه وتضحك وتميل لقدام فتطير خصلة من
شعرها الأسود وتحط على جبهتها فتردها بيدها وتعود لوراء كما كانت : كما لو كانت
الغصن يا أميرى يواجه نسمة .

بيديها بيديها .. آه بيديها — وقد قامت — صففت الورد ورسمت اللوحة
بالوان وعطر يا عقلى وغادرتنا « هكذا سريعا » وابتسمت وسلمت وابتسمت :
كأنها قالت لى أهواك هكذا سريعا ، وهكذا سريعا غادرتنى ، وتلك الرائحة التى
خلفتها ما كان بمقدور الورد أن يفوح بمثلها — وهل يجرو الورد .

طالبنى صديقى بالبقاء وكنت راغبا فيه : لقد كانت هنا ، وقال لى من عمرى
وأنا محتاج للمال لأعيش .. أنا الأستاذ كنت أبغى التطوع بالجيش الذى سافر .
للحرب باليمن فمرتبات الجند هناك كانت عالية .. لكننى الآن أفكر فى الزواج من
تلك التى أحبها — مع أن الفرصة أتتني الآن لأسافر لليمن معلما براتب يفوق

راتب جنديين إلا أنها لا تحب غير المدن .. وها أنا كما ترى حائر بين حبي ومستقبلي ومستقبلي وحبي ، وسألني أيهما الصحيح الزواج أم السفر ؟ ها هو الفالح يطالبني بالإجابة ، ولو قلت له (مستقبلك) لقال (حبي) ، وأنا أعرف أنه يقصدها هي ، دعه فهو لا يعلم ، ليكن يا أميري للصديق على الصديق حق لا يعرفه إلا الصديق ، من جانبي سأدمن الخمرة فهي كفيلة مع الأيام أن تأتي بالنسيان ، نعم سأدمن الخمرة — ما الذى بقى ؟ .

فى البار — بعد السنوات أتتني أخباره : لقد سافر إلى اليمن وتزوج من يمنية مات زوجها اليمنى فى حادث جد مؤسف فورثت الأرض الواسعة الجيدة تزرعها بُنًا ، بعد زواجها الثانى لم تعد تباع البن أخضر ، فقد أشار عليها صديقى بشراء محمصتين ومطحنين وكذا مصنعا لتعليب البن وقال لها : بمصر محامص كثيرة ومصانع لتعليب البن كثيرة معروضة للبيع بسعر قليل — وتلك فرصة لا بد أن تقتنص ، وافقت هى واشترطت أن لا ينزل هو بالفنادق الكبرى فسمعة الفنادق الكبرى تعرفها هى من أم لها ماتت ، وقالت له من الأفضل لنا شراء بيت بالقاهرة لتكون القاهرة لنا مسكنا شتويا ويبقى اليمن مسكنا صيفيا ، وكان هو قد تعود بفضل ذلك الشعور القديم بالفقر أن يعمل بما تشير به زوجته الغنية التى أطلقت حوله العيون : من وقت يقلع بالطائرة من صنعاء إلى أن يهبط بمطار القاهرة ... يقضى نهاره وبعضا من ليله بين المحامص والمطاحن ومصانع التعليب ويعود إلى البيت — تتبعه العيون — مهدودا فينام .

(فى الحلم قابلها صدفة فلامته وقالت له : لقد شغلت عنى بالمال وبزوجتك الأرملة الغنية اليمنية ، فقفز من نومه فرعاً لتكسر ساقه ، لكنه أصر على السفر بساق مكسورة : قصد مطار صنعاء وحده وركب الطائرة المقلعة لمصر ، وبمصر بحث عنها، ولما لم يجدها بحث عنى أنا الصديق المخلص مدمن الخمرة فوجدنى فى البار)

ذلك ما قاله لى ...

(سافرت إلى فرنسا لزيارة شقيقها المتزوج من فرنسية وهناك تزوجت من شقيق الفرنسية) وقلت له (هذا كل علمى) .

وكل علمى بعد ذلك — يا أميرى :

أن الأستاذ عاد إلى اليمن مغموماً ، أدمن القات يعضغه ويمصه ، حتى قالوا
يا أميرى—جن ، وفعلت اليمنية كل ما يمكن أن تفعله زوجة مخلصة : أتت له
بالحكماء المعالجين من كل بلاد الدنيا .. وبناء على تعاليمهم اشترت له طائرة
هليكوبتر كانت تقودها بنفسها — هى المحبة — خوفاً عليه ، وذات يوم غافلها —
هو المدمن للقات — وركب الطائرة وحمل معه خارطة ودليل فرنسا وكان يخفيها فى
ثنية سرواله ، وطارت به الطائرة إلى قدره وقدرها ، وكانت هى تطل من بلكون
تشير بيدها إلى تلك الحقائق الفرنسية الشهيرة — فظن العاشق المجنون مدمن
القات أنها تشير إليه هو ، ولما لم يحسن الهبوط اصطدم جسم الطائرة بإفريز
البلكون، فاحترقت الطائرة وأحترق هو واحترقت هى ...

وها أنا أيضاً — يا أميرى — بالخمرة أحترق .

حكاية أخيرة عن الطير الأليف والطيور الجوارح

أمام دار السينما — التى تعرض فيلماً ملوناً عن البنات والبحر ، كانت طيور
الهواء تجفف شعر البنت القادمة لتوها من البحر ، وكان البيغاء المحبوس داخل
قفص كبير ملون معلق على باب السينما يردد : فيلم ملون .. البنات والبحر فيلم
ملون ، وكانت البنت الجميلة التى تنتظر صاحبها الجميلة — تدق بقدمها
النشيطة الأرض ، تدق الأرض ليرتج الثدى ويبين الفخذ ويلطم الثوب الركبة —
فيصرخ البيغاء — الذى يجهل حب البنت الحلوة لبنت حلوة : البنات والبحر ..
فيلم ملون .

الولد — القادم من تحت الأشجار — وقف ، ورأى .

والحمامة — التى ترى بعين سليمان النبى — رأت ، وطارَت لتخبر سليمان النبى
بما رأت ...

والحمامة — من فوق برجها العالى — رأت ، وحضنت فرخها ، أما البومة —
فمن عجب أنها لم تهتم ...

ونوارس البحر — لم يكن بمقدورها أن تحلق بالأعلى لترى — والقواس الطائر ،
مر ، وما رمى بسهم العشق قلب البنت ورمى بسهم العشق قلب الولد .

وأنا الذى رأيت — تقدمت ، للبنات التى تبغ التذاكر — والتى تلبس
ملابس الطاووس ، أريد تذكرتين (تذكرة للولد القادم من تحت الأشجار وتذكرة
لى) .

لكن البنت — التى تلبس ملابس الطاووس — صرخت كما يصرخ البيغاء :
الفيلم للبنات .. وعن البنات والبحر .

لما رجعت أنا الخائب — يا أميرى ، رأيت الولد يدمى بمنقاره أجساد فتيات
الإعلان — الطالعات والنازلات البحر — الواحدة تلو الواحدة .

هكذا يا أميرى فررت — من مكان العشق على أرضه مستحيل ، وأنا
أضرب الكف بالكف من اختلاط الأمور فى هذا الزمان ، ولسان حالى يقول :
لا حول ولا قوة إلا بالله .. وآه من زمان أعيشه .

صكاية على
لهمان كلب

أيامى فى الريف

أنا ابن الصدفة العمياء

إسمى محظوظ ، ولاسمى حكاية تحكيها أمى : « ولدت جروين وجروين وجروين .. وكنت أنت أحدهم . وقال صاحب الدار لأم أولاده : « اختارى يا أم أولادى من تلك الجراء جروا يحيا مع أولادنا » . أشارت زوجته إليك — وقالت : الذى نصفه أبيض ونصفه أسود . فقام صاحب الدار وحمل اخوتك ورماهم فى الخلاء البعيد — للجوع والبرد والريح والمطر والحيوان المفترس . وتقدم أبوك منك وشمك ولعقك — وقال : أنت محظوظ . فقلت أنا : ما رأيك لو نسميه محظوظ ؟ . رد أبوك : موافق يا أم محظوظ .

القاتل وأنا فى بيت واحد

لما رأيت صاحب الدار نبحت فى وجهه : أنت رجل بلا قلب ، ونبحت فى وجه أوى — لما رأيته يهز ذيله مرحبا بصاحب الدار : كيف ترحب بقاتل اخوتى ؟! . رد أوى : لقد فعل الرجل ما فعله لأنه كامل العقل يا صغير العقل .

قلت : ما دام العقلاء قتلة .. فلنبحث عن بيت صاحبه مجنون . وتنهدت أمى :
حتى المجنون لا يقبل قبيلة من الكلاب فى بيته . وقال أوى : هل يطعم الفقير قبيلة
من الكلاب آآ؟ .. هه آآ؟ الرجل غير قادر وعنده قبيلة من الأولاد . وتنهدت
أمى : نعم .. الفقر سبب كل بلاء .. الفقر هو القاتل يا ولدى .

صاحب الدار وأوى واللصوص

— يا دنيا .. أمورك غريبة « وأحوالك عجيبة » !!
أوى وصاحب الدار — كلاهما يبيت خارج الدار. أوى يحرس الدار بالليل من
اللص — والدار مبنية من صفيح وطين وقش !! . وصاحب الدار يحرس بالليل
بستان الغنى من اللص — والغنى نائم !! . أوى ينبح كل الليل — بسبب ومن
غير سبب — حتى يخاف اللص فلا يقترب من دار ليس فيها ما يُسرق !! .
وصاحب الدار يقضى الليل كله يتمخط ويبصق — بسبب ومن غير سبب —
وقد يطلق رصاصه فى الهواء ثم يزعم « من هناك ؟ » : هكذا يخاف اللص فلا
يسرق البستان ! . وأوى لا يملك الدار !! وصاحب الدار لا يملك البستان !! .
أما اللصوص فيسهرون خارج الدور — لأنهم بغير دور ، وهم أفقر من أوى ومن
صاحب الدار .. ولذلك فهم يطعمون فى أشياء صاحب الدار القليلة — لولا أوى
الصاحى اليقظ !! .. وهم طامعون فى بستان الغنى النائم — لولا حارس البستان
الساھر والقابض بيديه على بندقية تخرج النار الحارقة من ماسورتها !! .

يوم لا أنساه

جاء ضيوف من أهل المدينة — لقضاء يوم فى الريف ، وقفز الأولاد والبنات —
من العربة المكشوفة التى تشبه الأوزة — وعانقوا وقبلوا أولاد صاحب البستان وبنات
صاحب البستان .

ونظت من العربة كلبة بيضاء .. قليلة الحجم .. نظيفة .. يكسوها شعر
غزير ، وكان اسمها « لولو » ، وكان برقبة لولو طوق من الجلد تدلت منه أجراس
تدق وتنشر النور ، وكانت لولو رشيقة الخطوة .. مشيها على الأرض يشبه الرقص .

أخاف - يا أُمى - أن يطير عقلى من رأسى

قلت : ليت أُمى فى مثل جمال لولو .
رد أُمى : الطبيعة هى التى أهدت لولو شكلها الجميل .. يا جاهل .
صححت كلامى : ليت الطبيعة أهدت أُمى مثل جمال لولو .
رد أُمى : لولو من عائلة اللولو .. ونحن من عائلة البلدى .. يا مغفل .
قلت : ولم ظلمت الطبيعة أُمى وأنصفت لولو ؟ .. الطبيعة غير عادلة يا أُمى .
نبح أُمى فى وجهى : لا تنبح فى وجه الطبيعة أم الكائنات أيها الغبى .
وتركنى أُمى - مع أُمى - ونط فوق سور البستان

يا أُمى : أخاف أن يطير عقلى من رأسى

قالت أُمى : مالكة السيارة هى صاحبة لولو؟ وهى التى أهدت لولو الطوق وهى
التي علمت لولو كل لغات الأرض .
فقلت لأُمى : وهكذا ظلمنا صاحب الدار - لأن الدنيا ظلمته .. يا لها من
دنيا ظالمة .
قالت أُمى : اقنع بنصيبك يا ولدى .. لا تعاند .. هيا بنا نلحق بأبيك ..
فهناك وليمة أقامها صاحب القصر ببستان القصر - حتى يرى الضيوف وهم
يأكلون : الخضرة والماء والمنظر الحسن .

عقلى سيطر من رأسى

من فوق سور البستان - نظرنا إلى مكان الأكل .
كانت لولو تأكل من دجاجة مشوية راقدة فى طبق .. وتلعق الخضار والمرق من
طبقين .. وتشرب الماء - الذى رشوا عليه ماء الورد والسكر - من طبق ، وكان
أمام الضيوف وأهل القصر مائدة فوقها البط المحشو والحمام المشوى والدجاج المقلّى
واللحم المسلوق ، وكان الضيوف يرمون البقايا من شحم وجلد وعظم فى أطباق ،
وكان الخادم الذى يلبس الطرطور يرمى مافى الأطباق على الأرض - لتأكل كلاب

صاحب البستان التى تشبه الذئاب ، وكان صاحب دارنا يقف كالناطور وبجواره
خادم بيده دورق الماء الملون .

قلت لأبى : أتينا لنأكل .. وها نحن نتفرج .

كشر أبى : لست وحدك الذى يتفرج يا عزة الكلاب .

قلت : هاهى كلاب أرمنت تأكل .

زام أبى : هم أهل المكان ونحن غرباء .. هل فهمت يا بلدى يا ابن البلدى ؟

وقالت أمى : الأكل كثير يا محظوظ .. بعدما تشبع كلاب أرمنت وتعاف
الطعام — سنأكل أنا وأنت وأبوك حتى نشبع .. سيبقى الكثير يا ولدى .

هممت بفتح فمى — فزقق أبى : إخرس .. لا تفسد على متعة الشم فهى
عندى كمتعة الأكل . ونظر لأمى — وقال ساخراً : إبحثى عن ريشة وضعيها فوق
رأس أبنك فهو يظن أنه الملك ..

قلت : لا يا أبى .. سأبحث أنا عن ريشة وأضعها فوق رأسى .

وقفزت من فوق السور ، وجريت إلى الطعام ، وأمسكت بعظمة بها لحم .

معركة غيرت مجرى حياتى

حاول الكلب الأرمنت الصغير نزع العظمة منى — فضربته بالعظمة على رأسه
ضربة جعلته يصرخ ، وتقدمت أمه مكشرة فكشرت أنا ولوحت بالعظمة
مهدداً — فوقفت فى مكانها تزوم . وقفز الأب ناحيتى فتراجعت خطوتين وملت
شبرين — فوقع على الأرض . ولما قام وواجهنى بعينين تشتعل فىهما النار — ضربته
على عينه بالعظمة هكذا لم يعد يبصرنى فطاشت كل ضرباته ، أما أنا فقد
أشبعته ضرباً بالعظمة .

المحاكمة

جاء أبى يجرى ، وكان غاضباً ، وعرضنى فى أذنى أمام الجميع ، ووصفنى
بأبشع الصفات . وهتف ولد من الضيوف :

اتركوا الكلب الصغير يصارع الكلب الكبير .. أريد أن أتفرج . وصرخت
بنت من الضيوف :

لا .. لا .. لولو خائفة .. إبعدوا هذا الكلب الصغير المتوحش .

عند ذاك صوب حارس البستان بندقيته ناحيتي — فجريت واختفيت بين الأشجار .. وأنا أنبح وأكيل له السباب : يا ناطور .. يا ناطور .. أنت تتفرج وهم يأكلون .

الخطبة التي جعلتني أهاجر

هاج أوى وماج ، وارتجل خطبة قال فيها كلاماً له ثقل الأحجار — كان يتساقط فوق رأسي وأنا منكمش تحت الأشجار :
« سيداتي سادتي .. أنا أحييكم برأس محنية .. وأعتذر لكم أيضاً برأس محنية .. في يوم أغبر ولدت شريكة حياتي هذا الكلب الفاسد .. في هذا اليوم بكى السماء فسقط المطر وكفت العصافير عن التغريد وجف في حلوقها النشيد .. ومرت الأيام وكبر الفاسد فقلّ ماء النهر وقل حجم القمر في السماء .. واليوم أفسد الكلب الفاسد متعة الضيوف، وأهان كلاب الأرمنت ، وأفزع المحترمة لولو .. ومن اليوم سأرى أنا الكلب الصالح النور ظلاماً والظلام نوراً .. هكذا تختلط الأمور ياسادة — حين يتناول مخلوق من مرتبة سفلى على مخلوقات من مرتبة عليا .. ومن اليوم — لا هو ابني ولا أنا أبوه .. سأطرده ليعيش عيشة الكلاب الضالة .. وسيعلم بعد فوات الأوان — لما تسقط على بدنه عصا الشحاذ — أن انتقام السماء عظيم .. وصدق الذي قال (لا تشتر العبد إلا والعصا معه — إن العبيد لأنجاس مناكيد) .. والسلام عليكم » .
صفق الضيوف وصفروا ، وهتف بعضهم بحياة أبى ، وهتف بعضهم بسقوطى .

الوداع

بحثت أمدى عنى ، ووجدتني ، وقالت وهى تبكى : قلبى هداى إلى مكانك يا ولدى قبل أنفى ، وقالت : كبد أملك يتمزق يا ولدى .. وأبوك تكلم بلسان الخوف ..
قلت : لا تحملى همك وهمنى يا أمدى .. أنا كرهت الحياة هنا .

فسألتنى : وإلى أين أنت ذاهب يا ولدى ؟
قلت : خلف العربة .. إلى المدينة .. وراء لولو .. سأجرب حظى .

الرحيل من الريف

جريت خلف العربة ، وناديت لولو المنكمشة فى حضن صاحبها : لا تخافى
يالولو .. ولا تصدق كلام أبى عنى .. أنا كلب طيب ومعجب بك .. والطريق
الطويل يحتاج لأنيس .. أنا ذاهب إلى المدينة وأنت من سكانها .. أنا لا أعرف
المدينة وأنت تعرفينها .. ساعدينى يالولو .

أخيرا تكلمت لولو — فابتسمت أنا . قالت لولو : لقد أفرغتني بتصرفك
المتوحش .. لكنى لا أمتنع عن مساعدة من يريد المساعدة . قلت : عشت يا
لولو .. ودامت لك النعمة التى تعيشين فيها .

فقلت : أشكرك، والآن كف عن الكلام حتى لا تغضب صاحبتى منى ..
وتعال بالغد مع الشمس إلى الفيلا التى ستقف أمامها العربة .. ستجدنى وحدى
ألعب فى الحديقة .. باى باى ..

أيامى فى المدينة

ليلة فى شوارع المدينة

ليل المدينة بنهارين .. كل نهار بشمسين ، والناس فى المدينة يجرون على أرض
الشوارع كماء السيل .. ملابسهم غريبة — وكأنهم فى مولد أو عيد .
رأيت العجب — وأنا اتسكع فى أسواق المدينة :
الطير الملون المحبوس — يغنى داخل القفص ؟! ، النور بكل لون ، الألوان
تغمز وتتبادل الأماكن ، المخلوقات والأحذية والثياب وكرة الطفل — محبوسة داخل
أقفاص من زجاج ، المرأة المعلقة على الحائط تصرخ بغير صوت — وهى تغرق فى
ماء البحر — ولا أحد ينجدها !! . الحوانيت أغلقت أبوابها — فقل النور
واختفى الناس ، لولا وجود العربات وأصحاب العربات لنبحث أنا فى وجه
المدينة : يا مدينة هجرك سكانك .

تمكن التعب من بدنى — فوقفت أفكر فى حالى ، وأفقت من أفكارى على
قرصة فى أذنى — فهرشت أذنى . وهمس صوت فى أذنى : لا تهersh من فضلك

فأنا نملة . نبحت . بغضب : ابتعدى . همست : ابتعد انت أيها الكلب عن هذا المكان .. وابحث عن مكان آمن يحميك من بندقية الصياد . قلت : أنا غريب يا نملة .. قادم من الريف .. لأصاحب لى هنا ولا بيت . همست النملة : مسكننا قريب .. تعال معى وقابل أُمى الحكيمة .. أُمى ستساعدك يا كلب — فهمى تفهم أكثر منى لأنها أكبر منى . قلت : أنت خيرة يا نملة . فهمست فى أذنى : أنا صابرة .. إسمى صابرة .. وسأقدم لك خدمة مقابل خدمة . قلت : اطلبى يا نملة . همست : سأبقى هنا بجوار أذنك وأتفرج على الدنيا .. لأن ما تراه أنت فى ساعات — بفضل خطواتك الواسعة — أراه أنا فى شهر وعامين . قلت : اتفقنا .. موافق يا نملة .

التصقت بساق الشجرة — فزحفت النملة الحكيمة وحطت فوق أذنى وهمست : لو كان بيتى يسعك لقلت لك : « أهلا بك فى بيتى » .. وأنا لا أنصحك بالبقاء فى المدينة — حتى لا تموت ميتة الكلاب على يد صائد الكلاب . قلت : لا أريد أن أغادر المدينة .. لى صاحبة تعيش بقصر وسأقابلها فى الصباح .

همست النملة الحكيمة فى أذنى : أنت كلب طموح .. ولكن لا تدخل المدينة بالنهار . فسألتها : وهل تبغى لولو هلاكى ؟ .. ردت النملة : لا تفهم كلامى بالمقلوب ولا تظلم لولو .. لولو تعيش فى قصر — ولا يعرف عيشة الشوارع إلا من عاش فى الشوارع .. ولولو قد تمشى فى الشارع — فهل كل من يمشى فى الشارع يعرف عيشة الشارع ؟ . الشارع بحران مالحان يا محظوظ — أنا أحذرك من السير بالنهار فى شوارع المدينة ، لأن صائد الكلاب يعمل بالنهار وينام بالليل ، وتلك خصلة محيرة من خصال أولاد آدم . قلت أنا بحزن وفرح معاً : ضاع لقاء لولو .. والمدينة مباحة بالليل .. ولا أعرف المكان الذى أختفى فيه بالنهار .

ردت النملة الحكيمة : لا .. اذهب الآن إلى قصر لولو واترك ابنتى هناك .. وستقول لها لولو ما تود أن تقوله لك .. وعندما يحل الليل اذهب مرة أخرى إلى القصر لتعرف ما قالته لولو لصابرة ، وقد تقابل لولو .. واقض نهارك بالأحياء الشعبية — فصائد الكلاب يعيش هناك ، ولكنه يعمل بالمدينة .. ككل سكان الأحياء الشعبية .

نهار بشوارع الأحياء الشعبية

الناس أكوام ، والقمامة أكوام ، والبيوت خالية من الرجال ، عامرة بالنسوة الجالسات أمام الأبواب يطبخن ويغسلن ويأكلن ويرمين بالفضلات لنا نحن الكلاب — لكن الصبي المتشرد يطارد الكلب بالحجر وينزع العظمة من فم الكلب . النهار — هنا — شمس بلا عيون ، والحياة — هنا — عذاب ما بعده عذاب .

ليلة أخرى بالمدينة

على باب فيلا لولو أسندت رأسي — فحدثتني النملة صابرة بحديث لولو ، قالت صابرة إن لولو تقدر موقفى وتقبل اعتذارى عن موعدى معها « ولولو تعتبرنى من أبناء جنسها الحيوانات — مع إنى من عائلة بلدى » ، « ولولو تعتذر الليلة عن لقائى لأنها تنام مبكرة » ، « ولولو تسهر أيام الخميس — لكن خارج البيت ، وهى فى كل مرة مع صاحبها .. فى زيارة للأصدقاء أو لمشاهدة مسرحية أو سيرك » ، « ولولو تقول إن اللقاء فى السيرك ممكن .. وعسير فى بيوت الصاحبات ، ولا يجوز فى السينما ، ولا يليق فى المسرح » .

وقالت لى النملة : لولو سترى ألعاب السيرك يوم الخميس المقبل — وهذا من حسن حظك — .. ولولو تركت لك قطعة لحم وفطيرة فوق قاعدة من الحجر يقف عليها تمثال من النحاس لأسد راقد يبخ الماء من فمه .. نُطَّ السور يا محظوظ وخذ قطعة اللحم وخذنى معك — لقد نلت مرادك من هنا . قلت : تعالى يا صابرة .. إن ضاقت عليك أذنى حملتك فى عينى .

من أقوال النملة الحكيمة

حكيت للنملتين ما جرى لى فى الريف — من الألف إلى الياء . فقالت النملة الحكيمة : « أنا لا أحب الانسان ولا أكرهه .. وأعجب من ظلم الانسان لأخيه الإنسان . حياتك مع النمل ستعلمك الصبر .. نحن جموع النمل ننال بالصبر كل ما نريد » .

فى السىرك مع لولو

درت حول مبنى السىرك دورتين من بعيد — حتى لا يعاملنى إنسان معاملة الكلب الشريد ، عرفت مداخل السىرك ومخارجه — لأضمن السلامة إذا ما حدثت المتاعب ، سأدخل فى أعقاب لولو — فيظن الواقف على باب السىرك أنى كلب صاحبة القصر ، وسأجلس بجوار لولو فى أدب ووقار — حتى لا تشك صاحبة لولو فى أمرى وتحسبنى كلب الإنسان الذى يجاورها .

ضربت المروضة الفيل بالعصا وأمرته أن ينام فنام ورفع أرجله فى الهواء ، وصفقت لولو فصفقت أنا ، ولما ضرب المروض الهواء بالسوط .. فرقع السوط وصفر الهواء وخاف الأسد فقعد على الأرض وقلد الفلاحة وهى تعجن العجين ، وقامت لولو وقعدت فقامت أنا وقعدت ، ومشى الدب بالدراجة على السلك الرفيع المعلق فى الهواء ، وقالت لولو أيها الدب .. سنلتقى كل يوم خميس من أول كل شهر ، وقلت أنا : ليتنى أراك كل يوم يا دب مرتين .

حديث القلب مع القلب

أمامى شهر ثم ألتقى بلولو فى السىرك .. وبعد الشهر سنلتقى أنا ولولو — ثم نفترق لنلتقى بعد شهر .. هكذا ستمر السنوات والسنوات يا لولو — وأنت بالقصر فى أمان وأنا بالشارع فى هوان .. الشهر زمان يا لولو والشهر مسافة .. والمسافات تباعد بيننا والزمان يعادبنى، والسىرك أحلى الأمكنة يا لولو .

أول هزيمة للزمان وهزيمة كاملة للمسافات

قالت لى النملة الحكيمة : لو عرفت الجماعة ما تريد لاقتربت المسافات البعيدة .. قل لى كل ماتريد أن تقوله للولو .. وسأنقل أنا كلامك لجارتى القريبة .. وجارتى ستنتقل كلامى إلى جارتها القريبة .. سيجرى كلامك من فم نملة

إلى فم نملة حتى يصل إلى أذن لولو ... وهكذا لا يتعرض النمل للتعب ولا تتعرض أنت للمتاعب .

رسالة إلى لولو

سأعمل بالسيرك يا لولو .. لا تندهشى ونجذى الحكمة من فم النمل ..
بالصبر سأنال كل ما أريد .. المروض في السيرك مسلح بالمسدس والسوط — لأنه
يخاف من لسعة السوط وغدر المسدس .. أما أنا فسأعلم نفسي بنفسى — فلا
تخافى يا لولو .. لن أحتاج إلى من يجلدنى أو يهددنى .. وأنا الآن أبحث عن ألعاب
جديدة تصلح للسيرك .. وحتى نلتقى — دمت لى يا لولو .

القص يتكسر

(١)

حذرتنى لولو : لن يكون موقفك اليوم افضل من موقفك يوم البستان . قلت :
حسبت حساى يا لولو ولن أضيع الفرصة .. الكل هنا يضحك على المهرج وعلى
محاولاته الفاشلة فى تقليد الآخرين .. وأنا سأشارك مع المهرج فى نمرته .. إن
فشلت فسيضحك الكل علىّ كما يضحكون على المهرج .. ولو نجحت فسأخرج
لسانى للزمان .

(٢)

وقفت على الأرض بساقين ورميت ساقين فى الهواء .. ومشيت على الساقين
الأماميتين مرّة ، وعلى الساقين الخلفيتين مرّة ، ووقفت على رأسى .. وكما تندحرج
كرة الحظ تندحرجت .. ودرت كما تدور الساقية .. وها أنا فى الأرض مرّة، وها أنا
فى الهواء مرّة أتفادى ضربات المهرج الطائشة .

(٣)

قال صاحب السيرك — وعقد العمل بين يديه : من سيركى نال شهرة ..

وليس من العدل أن يعمل مع صاحب سيرك غيرى .. سأدفع له كل ما يريد من مال .

وقالت رشا صاحبة لولو : براڤو ميزو .. وقالت لولو : براڤو .. رائع يا ميزو ..

صوت واحد لم أسمع .. صوت صابرة .. وقعت صابرة وأنا أصنع مجدى .

أيام الهنا .. كل يوم بسنة

- ون -

صرنا نلتقى أنا ولولو بالسيرك وبالفلا ، وكان أهل الفلا يرحبون بى ويفخرون بالرابطة التى تربطنى بلولو وبهم ، واليوم هس صاحب الفلا فى وجهى وبش - وقال لضيوفه : ميزو فى سماء الفن نجم .. وارتباطه بالمجتمع الراق طبيعى .. هذا حقه ، وأشار إلى الحائط : « كنا داخل الإطار الذهبى نبتسم من وراء الزجاج - أنا ولولو ورشا ابنته » ، وكانت الصورة الملونة معلقة فى المكان الذى يستقبل فيه أهل الفلا ضيوفهم .

- تو -

إسمى ميزو أسكن فيلا ينام فى حديقته الياسمين ، عندى عربة ليموزين وموتوسيكل ، أقوم بألعابى فى السيرك بقبة ودراجة وعصا ، الطوق فى رقبتي والأجراس فى قدمي من الذهب الخالص ، الباعة ينادون على تماثيل المصنوعة من الحجر والبلاستيك والشمع والسكر الملون فى القطارات والمقاهى وعربات الترولى باس ، والدمى التى على شاكلتى محبوسة داخل فاترينات كل المحلات ، ولبن ميزو أفضل هدية تقدمها الأم لطفلها ، وكلما سرت فى شوارع المدينة - سد على المعجبون المنافذ وطلبوا بصمتى على صورتي ، ويشق لى حارسى المسلح الفجوة التى أنفذ منها - فيرمينى عشاقى بالورود وأصابع الحلوى واللوز المقشور .

- ثرى -

أرسلت الرسول إلى الريف — فجاء أئى وأمى واستقر مقامهما فى حجرة تليق
بهما بدار الرفق بالحيوان ، وحاول أئى تفسير مواقفه القديمة منى — فقلت له : لا
عليك يا أئى .. عندما كنت تقسو على بلسانك — كنت أنظر فى عينيك وأرى
نفسى محاطة بكل حب ، وتركتهما — لأئى مرتبط بأداء دورى فى فيلم « ميزو
وعصابة المرأة المقنعة »

- فور -

اشتريت نظارة لأمى وأسنان صناعية لأئى ، وقلت لنفسى : لا بأس من وجودهما
بدار الرفق بالحيوان .. ولا مبرر للحزن، فتلك دورة من دورات الزمان لا ينالها إلا
المترف والمحظوظ .

هبة الكلاب أبناء الكلاب

تحت شمس الظهيرة — نصب العمال الصوان . دقوا أعمدة الخشب فى
الأرض ولفوها بالقماش المنقوش .. وعلقوا الرايات واللمبات الملونة .. وصفّوا
الكراسى وأكاليل الورد .

وتحت النور — جلست أنا ولولو على كرسيين كبيرين .. نبتسم للراقصة التى
تدق الصاجات وتتلوى كسمكة فى الماء .. ونتقبل التهانى من أكرم وأعرق
عائلات اللولو والوولف والرومى والسلوقى ، وفجأة سمعنا النباح العالى البغيض ودق
الطبول ونفخ المزمار البلدى وأفواه تغنى بصوت قبيح: « الدنيا حظوظ .. واليوم
يومك يا محظوظ » ، إنها وفود من الكلاب البلدى وكلاب أرمنت زحفت إلى
عاصمة البلاد فى مظاهرات صاحبة لتحضر فرحى .

بان الفزع فى وجه كل الحضور : صرخت إناث السلوقى وأغمى على ذكور

اللؤلؤ، وتعالى صرخات عائلات الرومى تطلب من الحرس المسلح العون فى وقت الشدة .

نظرت إلى حارسى وأنا أهو هو غاضباً : يا لهم من أغبياء .. لقد انقلب عرسى إلى مآتم .. فأشار حارسى إلى بقية الحراس — وصرخ : اطلقوا الرصاص .. دعوا الرصاص يلعلع .

على النجوم مسايرة الموضة

اشتريت سيارة رولز رويس صفراء ، ونزعت طوق الجلد وعلقت فى رقبتى سلسلة من الذهب تدلى منها تمثال لولو ربة الجمال وربة بيتى ، وعلى وسطى علقت الحزام المرصع بالحنافس المنحوتة من الحجر الكريم .

الشهرة كشجرة الفاكهة : طعمها حلو وبذرها مر

وقتى وزع بين السيرك والسينما والتليفزيون والإذاعة والسهرات والمقابلات والاتفاقات — مع المنتجين والموزعين والمخرجين .. وعند الكوافير والمذلل ومقلم الأظافر ، لا أرى أسمى وأبلى إلا قليلاً — ولكنى أرسل لهما الهدايا والتحيات مع سكرتيرتى « ساقى » وسائق عربتى « فرج الله » .

الحرام والحلال

طيبات الأرض كثيرة أمام عيني وفى متناول يدي — لكن أقل القليل منها مباح ، أطباءى فرضوا على النظام القاسى — حتى يحتفظ جسمى برشاقتة ومرونته . متعتان لا أسمع فيها رأى الأطباء : تدخين البايب والفرجة على لعب الورق المسماة « كُن كان » .

الماضى يطاردنى « أ »

ابنى من لولو — له وجهى الكبير وجسم أمه الصغير. شكله المضحك أبكاني وأصابنى بأرق جعلنى لا أنام — إلا إذا حضر الطبيب ورشق الإبرة فى جسمى : ليجرى السائل الأصفر فى عروقى .

إسم ابنى « لوز » حرف اللام من لولو .. وحرف الواو من لولو وميزو .. وحرف « ز » من اسمى أنا « ميزو » أبوه ، لكن الصغير الغبى ينطق اسمه هكذا: « لوظ » .. كأنه يريد أن يذكرنى باسمى القديم « محظوظ » .. ذلك الأسم الغليظ على السمع والقلب .

الماضى يطاردنى « ب »

بينما الكوافير يصفف شعرى — أحسست بقرصة فى أذنى ، كتمت الألم ولم أهرش ، أجلت هذا الفعل الذى لا يتفق مع الذوق الراقى — حتى أحتلى بنفسى ، ولما اختليت بنفسى — سمعت الصوت يهمس فى اذنى : أنا الثملة الحكيمة أم صابرة .. أتيت لأرى ابنتى يا محظوظ ، فنبحت فى غيظ : أنا ميزو .. وصابرة هناك مع محظوظ ، وهرشت أذنى — وأنا أعوى كذئب : والآن الحقى بهما فى نار جهنم أيتها الثملة الحكيمة .. وبلغى سلامى إلى صابرة ومحظوظ .

الماضى يطاردنى « ج »

لعلت الدورق الكبير الذى يطفح منه اللبن الدافىء — لتهدأ أعصابى الثائرة ، ونظرت إلى المرأة — وأنا أكلم خيالى : قل لى ياخيالى .. خيال من أنت .. خيال ميزو أم خيال محظوظ ؟! وقبل أن يرد دخل الطبيب ورشق الإبرة فى بدنى فجرى السائل الأصفر فى عروقى وتراجع الماضى . ولما أقبل النوم — وألبسنى نظارة سوداء رأيت بها كل شىء يحترق .. كل شىء .. والنار تقترب منى، وأنا لا أتحرك ولا أفعل شيئاً ..

الطوق والإهورة

للشجر المورق العالى .. وللريح المغنية وللإنسان ،
— على الأرض ذات الخير — فى قوته وفى ضعفه .

يحيى الطاهر بحمد الله

القسم الأول

الغائب

مع الرجال رحل مصطفى إلى السودان ، وهو بعد صبي . مر عام والعام الثاني يطوى شهره الأخير ، وما من خبر عن الغائب الغالي .

عقل حزينة قلب أم

عقل حزينة مع ابنها : هناك في البلاد البعيدة . وأذنها اليمنى التى تسمع — هنا : مع الحمام الذى يهدل « الملك لله .. الملك لله » . عينها اليمنى فقدت النور من عامين . بعينها اليسرى ترقب : البشارى الراقدة فوق المصطبة التى تطوق جذع شجرة الدوم .

(صار بعد العمر الذى مر كالفقة ، ترفعها من مكان به شمس ، وتضعها بمكان به ظل ، يرقب الشمس الجارية فى السماء ، ويصرخ ، فى وقت : « أبغى الشمس » ، ويصرخ فى وقت آخر : « ابغى الظل » — هكذا طوال النهار ، هكذا يمر النهار ، وهكذا تمر الأيام التى تطوى الأعمار : هى وابنتها تحملان القفة .. من الشمس إلى الظل .. ومن الظل إلى الشمس — لكنه رجلها فى الحلال ووالد مصطفى وفهيمة) .

★ سبق أن نشر « يحيى الطاهر عبد الله » الجزء الأول من هذه الرواية فى مجموعة « الدف والصندوق » فى قصتي « الشهر السادس من العام الثالث » و « الموت فى ثلاث لوحات »

اليدان تلعبان — هنا — بالمغزل الذى لا يكف عن الدوران ولم الخيوط ،
والعقل — هناك — مع الغائب فى بلاد الناس البعيدة .

بخت البشارى فى حديث يقظة

المصباح شح زيته والليل الطويل الأسود قادم ، آه من الوجع والسن ، نومي
قليل وبولى لا أتحكم فيه ، حزينه المخرفة تتطير من رؤية النعال مقلوبة ومن الريح لو
حملت قشر الثوم ومن قدم تدوس كسرة خبز مرمية ، معذورة : هى امرأة ، الرجل
منّا كابد ، عقلها مع الولد — والولد بالسودان البعيد ، قلب الولد من حجر وأنا
قعيد البيت ، أرغب فى النوم .. أشتهي ، لو نمت وطال النوم — بدون أحلام
وكوايس — سأذهب إلى الله الرحيم : أنا المسلم — وأتخلص من الأوجاع والعمر
المكروه وأدخل الجنة ، لو عندى دخان لدخنت ومرّ هذا الوقت البطيء الثقيل
الذى لا أحتمله .

من حِكَم الليل معلم القرى

- ١ -

نجمة مشتعلة هوت من السماء الزرقاء العالية واحترقت قبل أن تبلغ
الأرض : — لو مست البشر أو الحيوان أو الزرع وحتى الجن؛ لتحول فى التو إلى
رماد .

- ٢ -

مصطفى الأصغر لكنه سيد فهيمة التى تكبره بعامين ونصف عام :

يضرها وتجه ، والأم موافقة والأب موافق ، مصطفى حامى فهيمة ومخوفها من
العيب ، مصطفى رجل وفهيمة بنت . البنت ثوب أبيض طويل الذيل ، عليها أن
تمسك بذيل ثوبها وتمشى فى الطريق محاذرة ، وهل بالطرق غير التراب والوحل
والقش !!

الصبيّة مضطربة والليل رفيق الأفكار

هى بنت الأم والأب ، وهو شقيقها ، وهى تحبه ، وهو باليقين يبادلها الحب .
فى المرات الأولى كانت تبكى ، بمرور الوقت كانت تتعمد الفعل المعوج ليضربها ،
فتصنع البكاء وتشتمه ، هكذا تشتعل ناره وتحمى فيضرب بعنف ، وجهه الرجل
يطفر بالدم الأحمر الدافئ ، والعروق فى رقبتة تنفر وتكاد تنفجر .

يا حفيظ من غضبته ، هذا الذى كان يطلع نخل جبانة النصارى بالليل —
يكون أحمد المحروق الحارس فى سابع نومة ، يسرق مصطفى البلح ويبيعه ويشترى
الدخان ويدخن ، لم تقل فهمية لأمها حزينة ولا لبخيت والدها إن مصطفى
يدخن ، وحتى الآن هما لا يعرفان ، لقد كان مصطفى يهاب أمه ويهاب والده
المريض .

ولقد كان يسبح فى التربة مع الأولاد ، دون علم والده وأمه ، وعلى غير
رغبتهما ، خشية أن يغرق ، أو أن تخطف قلبه جميلة من بنات الماء فينساق خلفها
إلى الأعماق البعيدة الزرقاء .

خلع كل ملابسه ، وصار عاريا كما ولدته أمه ، تبعته فهمية — لكن خفية ،
ولم تقل لوالديها ، وهل كان بمقدورها أن تقول ؟! ، وحتى الآن لا هو ولا هما
يعرفان .

خرج للخلاء وقضى حاجته وعاد للدار ، وتسلفت فهمية مسترة بالليل ،
وكان للبول المختلط بالتراب الجاف : رائحة ثمرة جميز خضراء عطنة ، وحين تذكر
فهمية مصطفى تنتشر فى الجو رائحة ثمرة الجميز الأخضر العطن، وفى الستر كانت
فهمية تشم رائحة عرق مصطفى ورائحة وسخه بملابسه — التى تلم جسده —
قبل أن تغسلها .

وها هى الصبيّة ترقب نجمها السارى وقلبا يرجف :
كم هى بعيدة تلك السماء الشديدة الزرقة ، وكم أنت مخوف — رغم البعد —
أيها الشقيق الغالى الغائب .

الشهر السادس من العام الثالث

همهمت العجربة لترقص « الحلقان » المتدلية من الأنف والأذنين ، وسحبت من مقطفها صرة من القماش ، فكَّتها ، فبان رمل وحجر . مدت حزينة يدها ببيضتين . قالت العجربة : « ثلاث بيضات » ، وابتسمت وهي ترمى فهيمة بنظرة ، ولمعت سنتها الفضية ، وتمتمت : « مليحة الصبيّة .. كالقمر لما يكتمل » . لمحت حزينة « الحلقان » وهي ترقص — قالت : لن أتركها تخطف ابنتي .. تلك التي لا دار لها ، سارقة الكحل من العين ، سارقة الدجاج والأطفال ، لن أتركها تسرق ابنتي ، لكنها تعرف كيف تكلم الحجر وتسمع منه ، ثلاث بيضات ثلاث بيضات ، ههه .

ما قال الحجر وما قالت العجربة

أراه ، ها هو ، اقتربى يا أم وانظرى :
قطار من حديد أسود رمى خلفه الدخان والأهل والتراب والزرع والبيوت ،
وباخرة حملها الماء وجرت بها الريح ، الجبال سوداء ، والرمل الأصفر على الجانبين ،
وبالبلاد ملوك ، وشمس جارية فى السماء وشمس تجرى فى الماء ، فى الماء قمر وفى
السماء قمر : إنها الأيام والليالى يا خالة ، أبشرى يا أم : فى الشمس الثامنة حظ
ابنك على البر بسلام .

خبير

من النهر عادت فهيمة ، باب بيتهم الخشبي الموارب ضربت ضلفته الواحدة
بقدمها ، وزعقت : « آماه .. آماه » . تملَّك حزينة غضب — سمعت خبط
الضلفة الخشبية بالحائط الطيني وصراخ فهيمة وصوت الجرة التى سقطت من
فوق رأس فهيمة فانكسرت ، قالت حزينة : « الرعاء » . وصرخ البشارى ونفض
عن رأسه الغطاء : « البنت تصرخ فى سوق على بضاعة بارت .. ما الذى
جرى ؟ .. هل قامت القيامة ؟! .. » صرخت فهيمة : « وصل جواب من عبد
الحكم لأهله . قال بخيت البشارى » : البنت ماتزال تنادى فى السوق .. من
يكون عبد الحكم ؟ .. مالنا ومال عبد الحكم ؟! . قالت حزينة : « عبد الحكم
ابن تفيدة بنت على .. رفيق مصطفى فى غربته » . قال البشارى : « عبد الحكم

بن طه محمد .. تقصدان عبد الحكم ابن طه الحاج محمد .. ههه ؟ » ، وسأل مستفسراً : « ومصطفى !! ما أخبار مصطفى ؟ » . نظرت حزينة للجرة المكسورة وانقبض قلبها : « هذا النذير » ، وردت على نخيت بعد وقت وقد همت بلبس بردة الخروج : « منهم سأعرف .. سأعرف منهم » .

بشارة

في خطاب عبد الحكم لأهله سلام من مصطفى لأهله : ها قد ارتاح بال حزينة ، جلست مع النسوة ومع تفيدة بنت على أم عبد الحكم ، أكلت تمرأ ، وشربت شاياً ، وسمعت خمسة أطنان من الكلام عن الرجال وعن مضمون الخطاب وعن المال ذلك الحلم ، ورددته كاللبغاء على مسامع البشارى وفهيمه :

« يبيتون في خيام تجاورها خيام ، والأرض ذات الخير محتاجة لماء ، يشقون الترع وقيمون خطوط السكك الحديدية معهم في الخيام وفي العمل عساكر سود يرطنون رطانة الانجليز الحمر ، وصوت الوحش البعيد يسمعه الرجال ، والثعابين كبيرة برقبتها أطواق سوداء ولها أجنحة ، وكذا العقارب كثيرة ، السودان بلد الأولياء والصالحين وأهل الخير وبلد السحر والأحجية والمهدى المنتظر، بعض أهل البلد يستطيعون لحم الآدمى ، لكنهم يسكنون الغابات بعيداً عن الرجال .

الحمد لله والشكر لله

باكو دخان معسل كبير مرسوم عليه نجمة قايضت عليه حزينة منصور الصادق صاحب دكانة الأمانة ، أعطت حزينة منصور الصادق ست بيضات وأخذت باكو المعسل وأعطته ليوسف سليم نقيب الشيخ موسى في جمع النذور ، وطلبت حزينة من يوسف سليم أن يعطى باكو المعسل للشيخ موسى وأن يطلب من الشيخ صاحب الدعوة المقبولة من الله أن يدعو لمصطفى بالسلامة في بلاد الناس .

نقاش

قال نخيت البشارى لحزينة : « يوسف سليم سيأخذ الدخان لنفسه » ،

وفكر : « باكو دخان كبير مرسوم عليه نجمة » .

فكرت حزينة : « بخيت البشارى كان يريد الدخان لنفسه .. كى يأمرنى بإشعال النار فى الحطب .. ويأمر البنت بوضع الماء فى الجوزة .. وينفخ هو الدخان من فمه وأنفه ويكركر كالسلطان ، يوسف سليم رجل طيب » .

وقالت لبخيت : « يوسف سليم رجل طيب .. فضله الشيخ على سائر أهل البلد واختاره ليكون نقيب فى جمع الندور .. هل اختارك أنت ؟ » .

فكر بخيت البشارى فى حزينة التى عرفها من المعاشرة الطويلة : « حزينة مناكدة .. هى الآن تريدنى أنا .. تريد لحمى لتنشه .. أنا رجل البيت .. لما كنت أملك عافية الشباب كنت أغلق فمها .. لما يأتى الليل سأبكى تحت الغطاءء لو صحت حزينة أو فهيمة على صوت بكائى سأصرخ فيهما : اتركانى لحالى .. أبكى من العلة .. لاشئ .. دعانى .. أبكى من العلة » .

قالت فهيمة حتى تبدد الصمت بين الأم والأب : « الشيخ موسى كله خير وبركة » . وفكرت فهيمة : « وهو فى مثل سننى خلع ثوبه ورماه فى الماء فطفأ الثوب وقعد عليه الشيخ وعبر النهر من الشرق إلى الغرب وعاد للشرق ولبس ثوبه الذى لم يبتل » .

وعاد بخيت البشارى إلى نفسه يلومها — وقد خاف الضرر الخبوء فى الغيب : « يوسف سليم رجل طيب .. كان يعمل بالتجارة ويكسب ، كانت دكانته حجرة من حجرات بيته، تطل على الشارع .. ولما اختار الشيخ تلك الحجرة لتكون خلوته التى يعبد فيها الواحد الأحد كف يوسف سليم عن الجزارة وأصبح نقيب الشيخ فى جمع الندور ، والشيخ يغلق باب حجرته عليه بالنهار ويظن الجاهل أنه بداخلها بينا الرجل الصالح يجوس هناك بمكة المكرمة حيث قبر الرسول الطاهر .. فى عام حج لمح الحاج حسن عبد الله الشيخ مندساً فى زحام الحجاج فناداه — لكن الشيخ اختفى بقدرة قادر ، نعم فالشيخ لا يحب العلانية فى العبادة .. حتى وقتنا هذا لم يشاهده مخلوق يدخل الجامع ليصلى .. لكن الشيخ يصلى، ويصلى الجمعة بالذات فى المسجد النبوى .. ومن يقول غير ذلك فهو جاهل بمقام الأولياء » .

لولا المرض الذى يقعد بخيت لزار بخيت الشيخ ، وقبل يد الشيخ ، وبكى بين
يدى الشيخ ، وجلس مع أحباب الشيخ ومريديه وسمع منهم وسمعوا منه ، وشرب
المعسل ، وشم البخور الذى يأتى من مكان بعيد مجهول ، وشارك فى الأذكار ،
وأكل اللحم الذى يشد العظام ويجعلها متينة .

جواب

بعد ثلاثة شهور ونصف شهر من وصول رسالة عبد الحكم طه لأهله
وصلت رسالة من مصطفى لأهله على عنوان الشيخ الفاضل .

أفاد مصطفى والده البشارى بالخلاف الذى نشب بينه وبين الرئيس عبد
الظاهر ، وطلب من والده عدم التدخل فى موضوع الخلاف وعدم مناقشته فى
ذلك الأمر الذى حسم . قال مصطفى :

« أنا رجل أعرف مصلحة نفسى ، فلا تدع الأفكار السوداء تنتابك من ناحيتى ..
كتبت أخاطب الرئيس سعيد عقيل بفلسطين الشام .. أرسلت خطابى بالبريد
العاجل .. وفات أسبوع كامل من يوم أرسلت الخطاب .. حال ما يرد الرئيس
سعيد سأسافر من هنا رأساً إلى فلسطين الشام .. سلامى إلى أمى الغالية حزينة
وأختى الغالية فهيمة : التى أتمنى لها حياة مستورة تحت سقف بيت ابن حلال ،
يأتى ويدق الباب ويقام العرس فى حياتك يا أبى : أطال الله عمرك » .

عطر الحبيب

فرغ الشيخ الفاضل من قراءة الرسالة وهم بطيها ، فخطفتها حزينة الملهوفة من
يده وشمته وقبلتها ، وكذلك فعلت فهيمة ، وما عاد بخيت البشارى بقادر على
كتمان فرحه برسالة الابن فطلبها وشمها وقبلها، وحبس الدموع حتى لا يفضح
ضعفه وهو رب البيت مازال .

ذلك المجهول

الفرحة برسالة الابن الغائب أنست الجميع أن يسألوا الشيخ الفاضل عن
كتب الخطاب لمصطفى الأمى . أما الشيخ الفاضل فهو الوحيد الذى قرأ تلك

الجملة على ظهر الخطاب :

« مع تحيات محمد أحمد كاتب الخطاب .. والسلام لساعى البريد » وسأل
الشيخ الفاضل نفسه « من أنت يا محمد أحمد ؟ .. ومن أى بلد أنت ؟ » .

قلب العذراء فى الصندوق

« أ »

فجأة تقل رغبة البنت فى الكلام مع الآخرين من حولها لما تشعر بثقل الحمل
على الصدر ، تطل بعينها من مرتفع على الصدر الذى انشق وترى الشدين شمسین
طالعتين ، فيكثر حوارها مع القلب :

« عرسي قادم على حصانه .. عرسي راكب فوق سرجه .. عرسي يطرق
بابنا وأنا التى ستفتح الباب .. إن لم يكن اليوم فغداً .. إن لم يكن اليوم فغداً
وتلك مشيئة الله .. يا فرحتى لو جاء غنياً .. ولو جاء فقيراً فهذا نصيبى ..
الغنى للغنى والفقير للفقير. ولكنى مليحة فهل ترانى عيونك أيها الغنى مليحة ..
كل ما يروق لك عندى يا رجلى .. هذه هى أشياء الجميلة فى صندوق الخشبى
المحلى بصورة الزناتى خليفة والهلالي سلامة وكليب وجساس والبسوس المولولة :
مكحلة .. ومناديل ملونة ذات شرابيب .. وزجاجة عطر وثوب منقوش وصابونة
معطرة » .

« ب »

فتحت فهيمة صندوقها الخشبى ، وأخرجت من بين طيات الثوب المنقوش
رسالة مصطفى ، وشمته وقبلتها ، وما شبع وما ارتوت ، ونقلت عينها بين
الصورة المرسومة على الطابع والصورة المرسومة على الصندوق ، وقالت لنفسها
وهى تحاورها :

« هذا هو ملك مصر والسودان بطربوش أحمر ونياشين من ذهب على الكتف
والصدر وشارب مفتول ! .. وهذا هو الزناتى خليفة المصروع بيد الهلالي سلامة
يحمل تحت أنفه شارباً مفتولاً أكبر من شارب الملك ! .. وهذا هو الهلالي قاتل

الزناقي بغير نياشين على الصدر والكتف ! .. ومصطفى يوم سافر كان بغير
شارب .. فهل له الآن شارب يفتله ؟! » .

من الشام

بعد مضي أربعة شهور من وصول رسالة مصطفى الأولى من السودان؛ وصلت
رسالة مصطفى الثانية من الشام وبها حوالة بريدية — قال مصطفى :
« أنا بخير حال .. وفلسطين الشام جنة الله في الأرض ولا يشغل البال غير بُعد
الأهل . » .

رسالة ثانية من الشام

ما مر شهران آخران حتى وصلت رسالة من مصطفى ، بها مال أقل من
المال الذي بعث به من قبل في رسالته السابقة .. قال مصطفى :
« أنا بخير حال .. ولا وحشة أشد من وحشة الغريب المنقطع عن الأهل
والأوطان » .

حديث الشيخ الفاضل مع نفسه

فارق الشيخ الفاضل دار بخيت البشارى، ورمى خلف ظهره خمسة بيوت طينية
واطئة وحدث نفسه — هو الذى قرأ الرسالتين :
« جنيهان .. فجنيه .. ثم نصف جنيه ؟! .. ثم يأتى دور « لاشيء » : هكذا
يدخل الأبناء الحياة ويجربون ، المال فى يد الصغار مفسدة .. وفى يد الصغير المحروم
كمصطفى مفسدة وأى مفسدة » .

ولمَّ الشيخ الفاضل فى ذاكرته تلك التفاصيل وابتسم :

- ١ - بيت بخيت البشارى سرير جديد : لم يجف جريده الأخضر بعد .
- ٢ - حزنه تأمر فهيمة بأن تحضر حصيرة وتفرشها على المصطبة ليجلس
هو : الحصيرة جديدة ومن عشب السمار .
- ٣ - أتت فهيمة بكوب الشاى على صينية جديدة مرسوم عليها ورد أحمر
كبير محاط بورق أخضر صغير لكنه كثير .

القسم الثاني

١

ما يخافه البشر

- أ -

ها هو بجيت البشارى ممدد على سريره — الذى صنعه بيديه من جريد النخيل ، قبل أن يقعده المرض من عامين . رفعت حزينة عنه الغطاء ، ورأت الوجه وقد شرب الألوان الثلاثة : الأسود والأزرق والأصفر ، فخمنت أنه الموت . قالت حزينة لبنتها فهيمة : « اركضى يا بنت ولا تعودى بغير الشيخ الفاضل » وقالت حزينة لنفسها — وهى ترى الغطاء يطلع وينزل بمكان الصدر : « ها هو يقاوم بعزيمة الرجال » .

- ب -

لم الشيخ الفاضل ذيل قفطانه الحريرى الأبيض من خلف وهم بالجلوس . أقسمت حزينة بمحمد أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم أن لا يوسخ الشيخ الفاضل ثوبه النظيف بالقعود على المصطبة العارية . جرت فهيمة وعادت بحصيرة فرشتها على المصطبة .. وقعد الشيخ الفاضل .

خبطات الهواء تحرك الأوراق الخشنة الكبيرة لشجرة الدوم وتجعلها تحتك وتصدر أصواتاً أشبه بزحف الحيات وسط دغل الحلفاء ، وضوء شمس ما قبل الغروب الأصفر اللين يغمر أرض وحوائط الفناء الضيق .

أشار الشيخ الفاضل بالفائدة التي تعود على المريض من شعاع الشمس الأصفر . حزينه القاعدة على الأرض بجوار سرير زوجها لزمت الصمت . فهيمة القاعدة على الأرض بجوار أمها لزمت الصمت ، وقالت لنفسها : « سأجاري أمي في كل فعل تفعله .. أنا لم أخبر بعد هذا الذي خبرته هي » .

أدار الشيخ الفاضل وجهه بحيث للقبلة الشريفة ، وباعد بين الشفتين وصب الماء الطهور ، ومال على أذنه مجاهراً : « لا إله إلا الله .. سيدنا محمد رسول الله » ، وعاد الشيخ الفاضل وقعد على الحصيرة فوق المصطبة .

سقط الظل الثقيل على الفناء فجأة ، خمن الشيخ الفاضل بعلمه أن ملاك الموت قد حضر . وقالت حزينه المحنكة : « نعم هو ملاك الموت » . وظنت فهيمة من غفلتها أن الشمس سقطت هناك خلف جبل الغرب ، لكنها أغمضت جفניה — مثل أمها والشيخ الفاضل — لتحمي عينيها — فالتراب مهتاج من ضرب الجناحين الكبيرين .

سمعت حزينه وسمعت فهيمة وسمع الشيخ الفاضل — صوت الباب الذي انغلق خلف ملاك الموت الحامل روح بحيث البشارى . فما قدرت البنت على كتمان الصرخة العالية ، أما الأم المجربة فقد حبست صرختها وأطلقت دموعها ، فهي تعرف أن هناك واجبات نحو الميت عليها أن تقوم بها قبل أن تقول حان حين العويل . وتمتم الشيخ الفاضل : « إنا لله وإنا إليه راجعون »

النسوة المعزيات يشاركن حزينة الصراخ ويلطمن الخد . وحزينة تعلم أن كل واحدة منهن تنادى موتاهما الغوالى — لا حباً لبخيت فى حياته ولا جزعاً عليه بعد مماته . أما هى فبعقلها — هناك : مع الولد البعيد الذى لن يحضر جنازة والده ، مع الميت ، مع الرجال بالغرفة القريبة .

« يرفعون الشعر عن الإبطين والعانة ، ويغسلون الجسد بالماء ، ويدعونه بعشب العفن المر ، يجمعون من جيوبهم ثمن الأكفان البيضاء ، يحملونه على خشبة ، ويصلون عليه ، ينزلونه فى الحفرة ثم يهيلون التراب عليه ، وعليها هى أن تتدبر فى أجر الفقهاء؛ الذين سيحضرون لتلاوة القرآن على روحه طلباً للمغفرة والرحمة .

على الأحياء واجب نحو أهل الميت

- ١ -

لأن الشيخ الفاضل يعلم حق العلم حرمة البيت فقد قام بواجبه :
اشترى الأكفان البيضاء التي لفت الميت من ماله ، وصلى بالناس إماماً ،
ودفع من ماله أجر الفقيه الذى قرأ القرآن على روح بنحيت طلباً للرحمة والمغفرة .

- ٢ -

أيام العزاء مرت كلحظة خاطفة :
بنحيت البشارى فارق دنيا الأحياء ، فهيمة فى مواجهة حزينة ، وحزينة فى
مواجهة فهيمة ، ها هما وحيدتان ، عائلتهما الرجل فى بلاد الناس البعيدة ، وها
هما — البنت والأم — فى مواجهة عالم الناس وحيدتان .

والنسوة المعزيات شغلن الدار حركة فى الأيام التى مرت ، أحضرن الشاى من
بيوتهن لكى تفطر حزينة وفهيمة ، وبالبيض والجبن لتتغدى حزينة وفهيمة ، وغالباً
ما كان العشاء اللحم المقلّى والخضار المطبوخ .

وفى صوت حزين يفتت الكبد كن يرتجلن المراثى ، بعد تناول الفطور وعقب
الغداء وقبل الغروب .

من مراثى النسوة حفظت فهيمة ما تردده — الآن — بصوت خفيض ، حتى
ترد الواجب في حينه — لكل من شارك في مأتم الأب — بدلاً من الأم التى
شاخت :

« كَتَبَ الكتاب ياليتنى شفته ، كسرت القلم والحبر نشفته »
« كَتَبَ الكتاب ياليتنى رأيت ، كسرت القلم والحبر كيته »

لوح الشيخ الفاضل بالسيف الخشبي في وجه الرجال — من فوق منبر جامع جده
عبد الله — وخطب في المصلين :

« امنعوا نسوتكم من ترديد تلك المراثى .. لن يرحمكم الله إن لم تأمروا حريمكم
بالكف عن الفعل الحرام .. والرجال قوامون على النساء .. وتلك عادة جاهلية
وأنتم مسلمون .. فلا تعرضوا موتاكم وأنفسكم لعذاب من الله شديد .. وصلوا
على أرواح الموتى يغفر الله لهم ولكم ولنا .. إن الله غفور رحيم » .

كتب الشيخ الفاضل رسالة على عنوان الرئيس سعيد عقيل بفلسطين الشام
وطلب منه أن يسلمها لمصطفى بخيت على عجل .. قال الشيخ الفاضل في
الرسالة : « انتقل والدكم بخيت البشارى من الدار الفانية إلى الدار الباقية ، تجمل
بالصبر يا ولدى ، فليس من ديننا من لطم الخد وشق الجيب ودعا بدعوى
الجاهلية ، الدوام لله وحده وكلنا إلى فناء » .

وصلت رسالة مصطفى على عجل — قال :
« لم أصدق ولن أصدق ، والذى حى — لكنه بعيد ، وأنتم بعيدون ، وتلك
إرادة الله ، كان يجب على أن أراه قبل أن يرحل ، مرسل لكم مال لتقوموا بواجب
الميت ، والدوام لله وحده ، ولكم طوال العمر ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

نهر الحياة لايتوقف عن الجريان

- ١ -

أملت حزينة على الشيخ الفاضل ، فكتب :
 « طلب الحداد الجبالي يد أختك فهيمة ، أجلنا الرد حتى تصلنا منكم
 الموافقة » وأضاف الشيخ الفاضل من عنده :
 « الحداد حسن السمعة طيب المعاشرة ، يملك بيتاً من والده المرحوم الجبالي ،
 ويرث سبعة قراريط : ثلاثة قراريط من أمه وأربعة قراريط من أبيه ، ولا يأكل من
 ساعد الحداد غير أخته الحدادة زوج المرحوم القناوى ضاحى ، ولا أعتقد أنه
 سيغيب عن بالكم أن الناصح ضاحى قادر ، وفقه الله ووفقكم ، ووفقنا جميعاً لما
 فيه الخير والصواب » .

وذيل الشيخ الفاضل الخطاب بملحوظة ، أوصى فيها مصطفى بأمه وبذوى
 الأرحام ، مذكراً إياه بقول النبى : « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

استلمحت حزينة الملحوظة ، فأمسكت بيد الشيخ الفاضل وقبلتها ، ومثلها
 فعلت فهيمة .

أوصلت حزينة وفهيمة الشيخ الفاضل حتى باب الدار .. وخلعت حزينة
غطاء رأسها ونفضت شعرها الأبيض ورفعت ذراعها وتطلعت للسماء الزرقاء
المفتوحة ، ونادت الله :

« يا رب اجعل عقله الميزان العادل للأمور ، واجعل خلفه صالحاً ، ومد في
عمره ، لقد وقف الرجل بجوارى أنا وابنتى في الوقت الصعب » .

وافق مصطفى على زواج أخته من الحداد، وأرسل المال مساهمة منه في تكاليف
عرس الغالية بنت الأم والأب — وقال :
« لو كان بمقدورى إرسال أكثر من المبلغ المرسل لأرسلت والله أعلم »
ووعده مصطفى بإرسال مبلغ شهرى لأمه :
« يعينك على مطالب الحياة التى أعرف أنها قاسية »

تهلل وجه حزينة وكساه الفرح ، ودعت لمصطفى بطول العمر . وطوى الشيخ
الفاضل رسالة مصطفى ولمح كتابة على ظهر الورقة فقرأ :
« ربطنى العيش والملح بأسرة شامية ، لها بنت هى عين العقل ووجه القمر ،
ربما تم زواجى فى القريب العاجل » .

واضحة شمس هذا النهار ، والحق — مثلها — واضح لا إبهام فيه ، وحزينة لما
علمت بخبر زواج ابنها — فى القريب العاجل — غطى الكدر الأزرق وجهها .
والشيخ الفاضل رأى وجه حزينة لما غطاه الكدر ، وحزينة غير قادرة على خداعه :

١٠

« هكذا — حتى تأتى العاصفة وتعصف بكل البشر — ستظل غيرة أم الابن
من زوجة الابن غيرة أبدية » .

القسم الثالث

من فلسطين الشام كانت الأموال المعلومة تصل حزينة بانتظام ، لم تنقطع علم الله إلا في شهر واحد ، واعتذر مصطفى في الشهر الذي يليه :

« أسقطت زوجنا الغالية حملها ، كانت بالشهر الرابع ، وهي الآن تتمتع بصحة طيبة ، لولا هذا السبب القهري ما تأخرنا في إرسال المعلوم » .

ترددت فهيمة على بيت أمها بحجة الزيارة ، كيف يتقبل العقل تلك الزيارات المتكررة من عروس ، وهل يفوت حزينة أن الحداد أيضاً كان يأتي في أعقاب فهيمة مباشرة كما لو كان قشة تعلقت بذيل ثوبها :

« ههه .. مما يخاف الحداد ؟ .. آه .. أن تبوح البنت لأمها بسر لا يريد الحداد لحزينة أن تعرفه !؟ » .

في كل مرة أتت فهيمة أتى خلفها الحداد ، ولا يبقى أكثر من الوقت الذي يشرب فيه كوب الشاي ، وينهض ، ويرمي فهيمة بنظرة عتاب ، فتقوم البنت وتتبع زوجها صامتة ! ، وهما لا يتبادلان الكلام مع بعضهما ولا يكلمان حتى حزينة » .

تحايلت العجوز وخلقت الخلوة التى جمعتها بابتها ، وها هما على انفراد :

« اطردى الخجل وصارحينى يا بنتى أنا أملك » .

وقالت وهى تناور : « الرجل منهم يفلح أرضه .. يحرقها ويرمى البذور ويتابع
الرى .. ثم يحصده ، هل يفلح الحداد أرضه !.. أم أن الأرض كافرة لا تعطى ؟
تكلمى » .

ترددت فهيمة ثم باحت : « ينفخ المصباح ويأتى إلى فرشنا .. يلمنى ويظل
يقاوم .. هناك قوة تقيده .. يمر وقت طويل .. يهدم وينفلت فى بكاء مر » .

لامت حزينة ابتها ، ورمتها بالبله والخيبة الشديدة ، وحذرتها من أن تحكى ما
حكته لكائن من كان — وقالت معاتبة :

« وتكتمين عن أملك ليمر كل هذا الوقت !؟ مثل تلك الأمور لا يسكت

عليها ، والأمر غير كبير كما تظنين : واحدة من بنات الإنس تريد الحداد لنفسها
ولا تريده لك يافهيمة .. فاستعانت الشريرة ببنات الجن القادرات ، هكذا تم
الفعل الشرير ، والشيخ العليمى ساكن نجع الجبل الغربى يستطيع رد الشر إلى
صاحبة الشر : بيديه القادرتين سيفك الحبال التى تربط رجولة الحداد » .

قصدت حزينة الشيخ العليمى ، وطرقت باب خلوته بنجع الجبل الغربى ،
فأجابها وسمع شكواها ، وأعطاهها قلب الهدهد الأبيض وزجاجة صغيرة بها سائل
عكر وورقة طويت تسعا وتسعين طية . ومدت حزينة يدها بقطعتين من العملة
النحاس . ورفض الشيخ العفيف المال ولم يأخذه إلا بعد إلحاح شديد من حزينة .

أذنت الديكة من فوق أسطح البيوت ، فهبت حزينة من الفرش وليست بردة
الخروج ، ستتجنب لقاء أى واحدة من بنات الإنس حتى لا يبطل مفعول
الورقة . وتحت عتبة دار الحداد دفنت الورقة المطوية تسعا وتسعين طية .

يبقى قلب الهدهد الأبيض : يشوى ، ويصحن لدقيق ناعم ، وينثر الدقيق
خلف كل زائر يدوس بقدمه عتبة دار الحداد :

« الحذر يا فهيمة يابنتى .. بطل كل شئ لو داست قدم الحداد ذرات
الدقيق » .

« هذا السائل العكر لن أبوح لابنتي بسر .. فهو من صلب رجل كامل القدرة من رجال الجن ، على فهمه أن تضع نقطة واحدة لا تزيد من السائل في حلة ماء طاهر ، يستحم الحّداد وتحفظ فهمه الماء ، وفي اليوم التالى تفعل فهمه ما فعلته في اليوم الفائت ، وتزيد النقطة إلى نقطتين ، ويستحم الحّداد وتحفظ فهمه الماء ، ويتكرر الفعل لمدة ستة أيام لا تتداخل فيها الجمعة المباركة ، وتزيد النقطة بعدد الأيام : هذا وإلا بطل كل شيء ، قبل طلوع شمس اليوم السابع تستحم فهمه بالماء الذى جمعته من الستة أيام الماضية ، وتلتقى بالحّداد في فرشه ، وسيتم كل شيء بإذن الله وتعال المراد من رب العباد . »

اعتذر مصطفى عن إرسال مبلغ أكبر من المبلغ الذى يرسله ، بينا الجفوة القائمة بين فهمه والحّداد لها تكاليف ، والبنت الجاهلة بالحياة تخل دائماً بالشروط وتفسد كل شيء ، وها هو الحّداد يتحاشى حزينة حتى فيما لو زارته في بيته ، يزوغ الحّداد بعينه ويتعلل بعلى لا تقنع عقل حزينة ليهرب من البيت وكأن حزينة شيطان والبنت باحت لأمرها بأن الحّداد يضربها ولا يدخل بيته إلا لينام بعد سهر طويل في الخارج مع العاطل والباطل .

« يشرب الحشيش يا أمى فى غرزة توفيق السيك ، ويمص الأفيون ويدسه فى جيوبه ، ويدارى عجزه بالنظر لحريم الغير ، والحّدادة أخته رمتنى بالهم الباطلة ، تقول الحّدادة إننى أنقل الأشياء من بيت زوجى لبيت أمى . »

« الحّدادة تشعل النار فى قلب الحّداد لتحترق ابنتى . »
« هل تصدقين يا أم .. لقد واجهنى وقال إنى عاقر . »

سيطلق الحّداد فهمه ، إن لم يكن اليوم فبعد اليوم يوم أو بعد شهر أو بعد عام على الأكثر ، الطلاق واقع واقع لا محالة ، والحّدادة أخت الحّداد تمهد للأمر وتشيع فى كل مكان أن بنت حزينة عاقر ، ومتى طلقت فهمه من الحّداد فلن يطلب يدها خاطب ، وستبقى البنت مع حزينة فى بيت البشارى بضاعة بارت : عازب وعافر وعتبة داست قدم ، الحّدادة تطمع فيما يملك الحّداد من قراريط ، والحّدادة لا تريد الخلف للحّداد لترثه هى ففى ذلك مصلحة لأولادها من القناوى ضاحى .

« هكذا إذن تجرى الأمور ، لأبد من تدبير سريع يسبق المحذور ، ولن يميز عقل الحدّاد المخدور بصفة دائمة ما ستخطه حزينته بإبرتها .

قالت العجوز للصبية : « ربما كان العجز عندك » .

قالت البنت : « لم يقربنى قط » .

قالت الأم : « نجرب حتى نتأكد » .

* * *

بها هو المعبد القديم المشيد من الحجر الكبير ، تهدم بعض الحجر وسقط من بعض جوانب السور بفعل الزمن العاتى ، إلا أن بوابات المعبد السبع باقيات ، من فوق كل بوابة تطل شمس ذات جناحين يحيط بها ثعبانان حارسان .

هناك بالداخل بهو الأعمدة حيث كانت تقام صلوات أهل الزمن القديم ، لقد حرقوا هنا أكوام البخور الذى جلبوه من أقصى المعمورة ، وبالداخل رب النسل المكشوف العورة المحبوس بغرفته الضيقة ، والمسلة التى لم تكتمل .. المسلة ذات الصوت الرنان ، والبحيرة المقدسة : ماؤها لا يرتفع ولا يهبط رغم عيون الماء التى لا تكف عن البكاء لتصب فى حوض البحيرة الصغير : كنوز الأرض ترقد هنا تحت الماء من قلائد وأساور طوقت رقاب آلاف الملوك والملكات .

أمام بوابة المعبد القديم وقفت حزينه تكلم العراى أب فكرى على انفراد . ومضت فهيمة تنقل عينيها بين الكباش :

« تلك الكباش كانت بشراً فى الزمن القديم ، وغضبة الله هى التى حولت بشر الزمن القديم إلى حجر ، عقاباً لهم على كفرهم ، نعم .. كيف يتزوج الأخ من أخته ؟! والابن من أمه ؟! وها هم البشر العصاة يرقدون فى صفيين متقابلين لهم رؤوس كباش وأجساد أسود .

تقدم العراى أب فكرى من فهيمة وقال : « اتبعينى » .
ستدخل فهيمة على الرجل الذى كان يتفاخر برجولته فحواله الله إلى حجر أسود بارد وجعله مكشوف العورة إلى أبد الأبدين .

« تركوه مع النسوة ومضوا للحرب ، ودامت الحرب بينهم وبين عدوهم سنين طويلة ، وكان هو يرسل لهم الأبناء وقود الحرب ، ولما تحقق لهم النصر نصبوه إلهاً من دون الواحد الأحد » .

صرَّ المفتاح في القفل الكبير ، وصرت البوابة الحديدية الكبيرة ، وقال العراى أب فكرى لفهيمة : « ادخلى » ، فدخلت ، ورد العراى الباب خلف فهيمة .

فهيمة بمفردها ، والغرفة رطبة معتمة ، والخفافيش تطير قريبة من الوجه وتحرك الهواء الساكن ، وفهيمة تسمع صوت تنفسها وتسمع دق قلبها ، وبالتدريج وضع لعينى فهيمة — تحت الضوء الساقط من كوة عالية بالسقف المغلق شبح الرجل الضخم الأسود العارى المكشوف العورة : عينان حمراوان كأنهما جمرتان مشتعلتان . حاولت فهيمة أن تطلق صرخة احتبست فى الحلق ، وفشلت فى إيقاف الرعشة الشديدة المفاجئة التى هزت بدنها — وهى ترى الرجل الضخم الأسود العارى المكشوف العورة يتحرك ويخطو نحوها .

« ها هو الظلام يطبق كثيفاً .. انطفأ كلياً نور العينين ، وسقطت الروح فى الكعبين ، والعقل ضاع ، أما السمع فحى ما زال يلتقط دبدة الأقدام الحجرية الكبيرة على الحجر » .

أسلمت فهيمة ظهرها لمن فتح الباب وغابت عن الدنيا .

« هذا بيت أمى ، أنا راقدة فوق سرير أنى الميت ، القائمة ترعانى هى أمى : ترطب جبتهى الملتهبة .. وتمسح وجهى الذى يحترق .. وتدللك عنقنى .. وتضغط على صدرى ، الماء البارد حلو ، والماء الدافئ حلو ، النوم الطويل المقبل حلو ، أشتهى البلح الرطب ، الأيام مالها تمر سريعة ، أشم رائحة عرقه ، أشم رائحة البول على التراب الجاف ورائحة الجميز الأخضر العطن ، أشتهيه ، أنت أختى وأنا بنت الأم والأب ، هاك حضنى .. خذنى .. تعال » .

شربت فهيمة شايّاً دافئاً ونامت نوماً عميقاً .

القسم الرابع

خير الماكرين

له التدبير الأعلى ، أرسل الموت — فى صورة خنجر بيد مجوسى خسيس — إلى ابن الخطاب عمر وهو أمير المؤمنين ، ورمى النطفة فى بطن فهيمة فإذا هى حبلى بعد عام ونصف عام من زواجها بالحداد .

مكرت حزيمة — لكن الله خير الماكرين ، وهى حزيمة تجنى الثمرة المرة : لقد خرجت فهيمة من بيت الحداد — طالق بالثلاث ، ولم يشفع لها عند الحداد أنها حامل فى شهرها الرابع .

رسالة إلى مصطفى ورسالة من مصطفى

لخص الشيخ الفاضل الخير البغيض وكتب .
« وقع الأمر المكروه من الله والناس ، وبالطلاق الذى لا رجعة فيه انفصلت شقيقتك فهيمة عن الحداد » .

ظلت حزينة تنتظر الرد بفارغ الصبر ، وتصارع الوسواس في اليقظة والكوابيس في المنام ، خوفاً من أن تقتل الظنون السوداء ابنها في بلاد الناس البعيدة — لولا جاء رد مصطفى على رسالة الشيخ الفاضل ، بالرسالة مال من مصطفى ووصية :

« نصف المال لابن فهيمة المقبل : لو جاء ولد سموه البشارى » .

إلى السوق

أول يوم ثلاثاء — عقب وصول المال من مصطفى ، ذهبت حزينة إلى السوق المقام بالبندر ، واشترت أرنبين كبيرين : ذكر أسود وأنثى بيضاء .

« الأنثى حامل بإذن الله ، وفهيمة بحاجة إلى اللحم حين تلد، وأربع حزمات من الجزر ، تأكل الثمر الحلو والأوراق الخضراء للأرنبين . ولبان حلو للمضغ ، لتحاييل به الحامل على الوقت الطويل فهي ممنوعة من بذل الجهد حتى تلد ، وفهيمة راغبة في العنب الأسود ، والأوان ليس بأوان العنب ، وكـم هى كثيرة وغريبة رغبات الحوامل ؟! » .

طريق العودة طويل

قبل أن تبلغ حزينة منتصف الطريق أحست بالتعب ، فجلست تستريح تحت أشجار السنط القليلة الظل . ترقب الطريق بعينها الواحدة لتصطاد بنت إنسان راجعة للبيوت وقد قضت حاجتها من السوق : فالطريق طويل يلزمه أنيس .

الحظ الطيب جاء ، فتلك هى أمينة زوجة التهامى : امرأة يشغلها الأولاد الكثار وهموم الدنيا عن الخوض في سيرة خلق الله .

تحت حزينة لأمينة عن رغبة فهيمة الحامل في العنب الأسود قبل أوانه . قالت أمينة إن رغبة فهيمة إن لم تتحقق ستظهر على جسد مولودها شامة تشبه حبة عنب ، وضحكت أمينة وقالت :

« وربما على شكل عنقود عنب منتفخ الحبات » .

ضحكت حزينة وقالت :

ظلت حزينة تنتظر الرد بفارغ الصبر ، وتصارع الوسواس في البقطة والكوايس في المنام ، خوفاً من أن تقتل الظنون السوداء ابنها في بلاد الناس البعيدة — لولا جاء رد مصطفى على رسالة الشيخ الفاضل ، بالرسالة مال من مصطفى ووصية :

« نصف المال لابن فهيمة المقبل : لو جاء ولد سموه البشارى » .

إلى السوق

أول يوم ثلاثاء — عقب وصول المال من مصطفى ، ذهبت حزينة إلى السوق المقام بالبندر ، واشترت أرنبين كبيرين : ذكر أسود وأنثى بيضاء .

« الأنثى حامل بإذن الله ، وفهيمة بحاجة إلى اللحم حين تلد، وأربع حزمات من الجزر ، تأكل الثمر الحلو والأوراق الخضراء للأرنبين . ولبان حلو للمضغ ، تتحايل به الحامل على الوقت الطويل فهي ممنوعة من بذل الجهد حتى تلد ، وفهيمة راغبة في العنب الأسود ، والأوان ليس بأوان العنب ، وكم هى كثيرة وغريبة رغبات الحوامل ؟! » .

طريق العودة طويل

قبل أن تبلغ حزينة منتصف الطريق أحست بالتعب ، فجلست تستريح تحت أشجار السنط القليلة الظل . ترقب الطريق بعينها الواحدة لتصطاد بنت إنسان راجعة للبيوت وقد قضت حاجتها من السوق : فالطريق طويل يلزمه أنيس .

الحظ الطيب جاء ، فتلك هى أمينة زوجة التهامى : امرأة يشغلها الأولاد الكثار وهموم الدنيا عن الخوض في سيرة خلق الله .

حكى حزينة لأمينة عن رغبة فهيمة الحامل في العنب الأسود قبل أوانه . قالت أمينة إن رغبة فهيمة إن لم تتحقق ستظهر على جسد مولودها شامة تشبه حبة عنب ، وضحكت أمينة وقالت :

« وربما على شكل عنقود عنب منتفخ الحبات » .

ضحكت حزينة وقالت :

« الدلع طبع بنات اليوم .. حملت بمصطفى وحملت بفهيمة ولم ترغب نفسى
فى شىء » .

قالت أمينة — رغبة فى المرح ، ولكى يقصر المشوار ، وحتى تتجنب الحديث
عن طلاق فهيمة من الحداد ، ولتطرد صورة المتسول المقطوع الساقين بالسوق :

« احمى الله .. أن تكون بنتك رغبة فى العنب هذا أهون من أن تكون رغبة
فى البطيخ » .

وضحكنا ضحكة قصيرة انقطعت ، ولم تجدا بعدها كلاماً تقولانه ، حتى
وصلتا مدخل القرية ، وبجوار الزير المملوء بالماء — تحت شجرة التبق المسماة
بشجرة الله — ليشرب ابن السيل العطشان المقبل بوجهه على القرية أو المولى
ظهره للقرية ساعياً فى بلاد الله ، تواعدتا على لقاء قريب ، وافترقتا كل تبغى
دارها .

القسم الخامس

لماذا نبوية ؟

- زار الحداد مطلقته ، ليرى المولودة ، دس في لفة المولودة قطعتين فضيتين ، وتحاشى بعينه فهيمة ، وقال لحزينة منبهاً :
- « جئت من أجل ابنتي .. والمال لها » .
- وعارض في تسمية البنت بنبوية ، قال الحداد :
- « لماذا نبوية ؟! ، هناك أسماء جميلة كثيرة !! لماذا ترفضان الأسماء الجميلة ؟! ، هه لا أحد يشتري الأسماء الجميلة بالمال ، لماذا نبوية ؟ سأسميها بخورية ، حورية اسم جميل والبنت جميلة ، ألا تشوفان » .

زيارة ثانية

- أتى الحداد لابنته بأقمشة كستور ملونة « لأن الشتاء مقبل » . وضاق الحداد من إصرار حزينة وفهيمة علي مناداة بنته حورية الجميلة بنبوية . وقرر بينه وبين نفسه عدم مناقشة الأمر معهما ، وعليه هو أن ينادى ابنته الجميلة حورية :
- « حزينة عندما تركب رأسها لا يقنعها الكون بأجمعه ، وفهيمة بنت أمها » .

ولام الحداد نفسه الراغبة في إعادة فهيمة لداره . وقال :

— « كنت سأفعل ذلك من أجل حورية » .

واستعاذ الحداد بالله من تلك العجوز الداهية المسماة بحزينة :
« جعلتني أدخل المحكمة لأول مرة في حياتي ، وأقف أمام القاضي الذي
حكم لفهيمة بدفع نفقة العدة ومؤخر الصداق ، ولن ترحمني حزينة إلا إذا
دفعت نفقة للصغيرة ، لن أذهب للمحكمة ، سيتم الأمر برضا كل
الأطراف ، لكن العودة لبنت حزينة محال : تلك التي شككت في رجولتي
وأحاطتني بالنظرات الشامتة » .

القرار

— « سأدفع ريالاً ونصف ريال لابنتي حورية ، سأرسل المال مع أي فرد
غيري ، حورية ستكبر وسأستردها من حضانة فهيمة بأمر من المحكمة ،
نعم .. هذا هو قراري الأخير : البعد عن الشر غنيمة »
وحتى ينتهي الحوار مع النفس كلية ، قرر الحداد أن يفتح أخته
الحدادة بشأن زواجه من بنت الصياد .

القسم السادس

على غير توقع حدث كل هذا

- أ -

عبد الحكم طه قدم من فلسطين الشام ، جاء بطرد هدية من مصطفى :
قفص صغير به تين جاف وبندق وأقراص قمر الدين وثوب أسود للأم وثوب به
نقش للأخت ، ولكل منهما طرحة سوداء ، وللبنت الصغيرة نبوية قطعة قماش
تصلح لثلاثة أثواب .. وحذاء أصفر محلى بضفيرة حمراء .. وثور صغير من الحلوى
بقرنين مشرعين .

من هدية الابن أهدت حزينة الأعبة :
« ألم يقفوا بجوارى فى ظروف الصعبة التى مرت ! .. لقد قاموا بما يجب ..
وها أنا أرد » .

سِنَّتَان ذهبيتان لمعتا لما ضحك عبد الحكم ابن تفيدة — وقال :

« مصطفى بخير حال .. ومشتاق للأُم وللأخت .. ويتمنى رؤية الصغيرة نبوية ، نعمل مع الجيش الانجليزى .. تحت أمر الرئيس أحمد الزباعى .. أحمد الزباعى بلديات من البر الغربى .. طالبنى بأن أزور أهل بيته .. سأزورهم اليوم .. حملنى أمانة وطالبنى بتوصيلها لأهل بيته ، قد نعود للبلاد فى القريب ، مصطفى طلق زوجته الشامية .. لم يرزق منها بخلف ، مصطفى حملنى مالا وطالبنى بتسليمه لكم »

وأخرج عبد الحكم حافظة نقوده — كانت من الجلد .. صفراء اللون .. منتفخة .. مطبوع عليها بلون أخضر وجه أبى الهول ، ومن رزمة محكمة بخيط من المطاط استل جنياً ، مد عبد الحكم يده بالجنيه الحزينة ، ومدت حزينة يدها وهى تبتسم :

« وقد طلق زوجته .. سيبقى لى بقلبه وماله .. أنا التى حملته ببطنى تسعة أشهر وتحملت وسخه لما كان كومة لحم يقضى حاجته بالعويل .. لن يفسر عبد الحكم ابتسامتى بغير الرغبة فى المال ! .. مع عبد الحكم مال كثير .. ليت مصطفى يعود .. أى كنز ذاك الذى يغرف منه الانجليز .. هى أموال قارون عثر عليها الانجليز ومنها يدفعون لمن يعمل معهم ! .. »

قال عبد الحكم :

« مشغولياتى كثيرة .. وهذه هى زيارتى الثانية لكما .. والوقت ضيق ، اليوم سأزور أهل أُمى بنجع الملقطة ، معى رسائل وأمانات من الصحاب زملاء العمل ويجب أن تصل لأهاليهم ، سأزورك فى القريب .. قبل السفر إن شاء الله .. للسلام » ونظر لفهيمة وابتسم .

فتح فمه وأغلقه على الذهب الذى لمع :

« ربما تودان إرسال أى شىء لمصطفى »

قالت فهيمة :

« احضر وتناول الغداء معنا .. سأذبح لك حمامة »

وابتسم عبد الحكم مختالاً بسنتيه الذهبيتين ، وردت عليه فهيمة بابتسامة فيها حياة ، وقالت حزينة :

« أنت ضيف .. وأنت كمصطفى .. وأنا أحق من الغير وأسبق من الغير »

قال عبد الحكم : « سأحاول » ، وشكر فهيمة وحزينة على شعورهما الطيب نحوه .
وقال إنه يفضل زيارتهما له في بيت أمه وأبيه رغبة في الأُنس والمسامرة —
وابتسم .

حدثت فهيمة نفسها : « ربما يكون قد ابتسم بكسر عينه »
وهو يودعهما ضغط على كف فهيمة ، واستبقاها في راحته لوقت ، ولمعت
سنتاه الذهبيتان ، ومن المؤكد أنه غمز بكسر عينه :
« هل هو راغب في الزواج .. أم هو طامع لأنه سمع كلام الغير ؟ .. هو قادر
بما معه من مال على الزواج من بنت حسب ونسب تفوق فهيمة في الخلاوة —
لكن قد يشط القلب وربما تزوج العاشق من مطلقة غيره » .

نعم ففهيمة لم تفقد بعد نضارتها وحلاوتها ، وهى مازال مرغوبة من الرجال .

زارت حزينة وفهيمة عبد الحكم في بيت أهله ، تم الاتفاق على أن توصل
فهيمة الحاجات المرسلة لمصطفى إلى محطة السكة الحديدية .
قال عبد الحكم : « سأركب قطار الفجر .. سأنتظرُك أمام باب المحطة فلا
تقطعي تذكرة دخول » .

قالت حزينة : « نبوية بنت فهيمة كما تراها تمشى وتكلم »
وقالت حزينة لنبوية : تكلمي ياغالية .. قولى لعمك عبد الحكم سلم على
خالى مصطفى »
رددت البنت نبوية كلام جدتها : « سلم على خالى مصطفى يا عم عبد
الحكم » .

تضايقت فهيمة من أمها : « هذا يذكر عبد الحكم بأننى تزوجت وطلقت
وبرقتى بنت » .

لا حزينة نامت الليل ، ولا فهيمة نامت الليل ، حتى نبوية بنت فهيمة ظلت
ساهرة لوقت متأخر من الليل : تقلب الأشياء وتجري في المناطق التى يغمرها ضوء
القمر وضوء الفانوس .. وتضحك بعلو الصوت .

من دقيق القمح الأبيض صنعتنا الأقراص .. سطح الأقراص مغطى بالسكر
ومدهون بالسمن البلدى ، والفرن الحامى لم يحرق قرصاً واحداً .

الفجر لم يؤذن بعد ، والقفة بها أقراص ، وبلح ، وغطاء القفة محكم بخيوط
القنب .. أزف الوقت : فلتتحرك فهيمة وتقصد محطة القطار بالبندر .

على باب المحطة قابلها عبد الحكم ، أنزل عن رأسها القفة ، ونظر لوجهها
فأسبلت عينها على خجل ، لمست يده وهى تهبط ثديها لمساً خفيفاً .. فارتج
الثدى :

« بقصد أم بغير قصد .. فى وداعه وعدنى : بالحرارة التى سرت من كفه إلى
كفى » .

طريق العودة طويل من البندر إلى القرية ، فى الذهاب كان أقصر .

النور يرفع العتمة عن البيوت ، ويكنسها ، فتتجمع هناك فى الأفق القصى ..
الشمس لم تطلع بعد .. وإن كان هذا نورها .

صراخ له رنين مخبول ، أرتفع ومزق الصمت .

بلغت فهيمة دارها ، وقالت حزينة : « أحترق الحداد وبنت الصياد » .

الليل والحر الخائى ، والرغبة فى النوم ممتعة ، والرأس يدور فى دوامة الأفكار
المسعورة ، وفهيمة لا تكف عن الجرى خلف الحقائق :

« بنت الصياد بيضاء الجلد ، كالبطة دهن ولحم ، العينان واسعتان سوداوان
بغير كحل ، شعر رأسها الأسود الطويل كرموشها الطوال يلمع » .

« لو كشفت بنت الصياد عن صدرها ، سبرى الحداد الثدين المشرعين ..
وبياض اللحم .. والحلمة السوداء .. والشق ، سيهم الحداد .. ويقاوم .. ويضم
الجسد .. ويخاف الفضيحة المقبلة .. فيعض ويمزق اللحم .. ويسكت الصرخة

برش الجاز وحرق الجسد .. ويرش الجاز على نفسه ويموت محترقا بسره » .
« لو تمكن لحرقتى فأنا أيضاً أعرف سره »
« هل يعرف بالى الراحة بعد اليوم ؟ .. لا أظن »

- ب -

هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، ومع ذلك فالسلطات تطلب الأكباد
للجهادية وهَوَّانِ الخدمة فى معسكرات الحمر الملاعين ، القادر على دفع البدلية
والفقير طلب من ابنه أن يقطع الأصبع الذى يدوس على الزناد .

اختفت سلع وبارت سلع ، وارتفع سعر الحاجات : ماكان بمليم صار بقرش ،
حتى سكر القمع والمكنة والناعم أختفى ، والشاى يحلى بقطع الملابس والبنبوني —
تلك الحلوى التى تذوب بصعوبة ، شح الجاز والزيت حتى الشموع والمصابيح
تضاء بفتائل تغمس فى دهن الحيوان ، أصاب اليسر بعض الناس واشتد فقر
العامة وعمت السرقات ، ولا رسائل تذهب إلى الأبناء ولا رسائل تجيء ، فلتحرق
هذه النار الانجليز وليحترق هتلر والبقالون والملك وتجار الأكفان .

القسم السابع

- أ -

تلا حسان العاجز فاتحة الكتاب وختم بقراءة سريعة لسورة البقرة ، وطلب من حزينة وفهيمة أن تترجما على أرواح من ماتوا على دين الله وسنة نبيه ، وقام من قعدته ورفع كم يده اليمنى المقطوعة . وأفرغت حزينة مافي مقطفها الصغير من بلح وخبز أصفر .. معجون بلبن وكُرْكَمْ — في كم حسان . ومضى حسان ليقرأ على قبر قريب ، وكانت بانتظاره نسوة قاعدات .

قالت حزينة لفهيمة — وهى تشير إلى النسوة القاعدات :

« حريم الرجال ، من ماتوا بالبر الغربى فى حادثة الآثار »

رجف جسد فهيمة ، أمها تتكلم عن الحادثة القديمة والمعبد القديم ، وهناك أيضاً البهو والغرفة المظلمة والرجل الأسود المكشوف العورة .

قالت فهيمة : « سأقاوم .. سأقاوم بعناد »

بين الدروب الترايبية الضيقة المتعددة المتعرجة المحاطة بتلال القبور الراقدة تحت

ظلال الغروب الحمراء المتوهجة بغير حرارة ، كانت حزينة تدب من قدام في وهن وفهيمه تتبعها ، وأشجار التمر حنة — تحت هبات الريح الخفيفة لا تكف عن إمطارهما بالزهر الأصفر . كانتا تسلكان طريقهما وسط المقابر محاذرتين متطيرتين من هول ما يمكن أن يصيبهما فيما لو داستا عظام ميت .

حادثة الرجال الذين ماتوا في المعبد القديم ترج عقل فهيمه وحزينة تلح على الأذنين بحكاية سبق أن حكتها أكثر من مرة :

« خرج رجل من النفق ، كان وجه الرجل مترباً والعرق يتساقط من رقبته ويتكوم على صدره كتلة من الطين الأسود ، وكلم الرجل الرئيس بسيوني ، ونقل الرئيس بسيوني كلام الرجل لمفتش الآثار الفرنسي ساوى ، رطن المفتش بالفرنساوى ورفع عصاه القصيرة في الهواء وشوح بها في وجه الرئيس بسيوني والرجل المعفر : « ابن العرب يلعب ولا يعمل .. ابن العرب لا يحب العمل » ، زعق الرئيس بسيوني في الرجل المعفر فعاد الرجل إلى النفق على الفور لينقل الأمر للرجال .. وصرخت الأرض بأمر رها و صار الفوق تحت ، حدث ما حدث في الظهيرة ، ورفعت جيث الرجال قبل الغروب » .

جاهدت فهيمه جهاد الأنثى الضعيفة لتطرد الخيالات والخواف السوداء — لكن عقلها عصاها ، فاستسلمت للقوة الغالبة تقودها خلف أمها بغير إرادة .

كلمت نفسها : « فكرى فيما جرى للرجال داخل المعبد ولا تفكرى فيما جرى لك في المعبد .. لا تطاوعى أفكارك وإلا وجدت نفسك بغرفة الرب الأسود العارى المكشوف العورة » ، المهندس الفرنسي ساوى سقطت به العربة في النيل ومات غرقاً وكان مخموراً وكانت معه زوجته ، وامرأة الرئيس بسيوني تنجب الأولاد فيموتون في شهرهم الأول »

انتهت حكاية « حادثة الرجال في المعبد » فتوقفت فهيمه تتذكر حكاية أخرى حتى تهرب مما جرى لها في غرفة الرب بالمعبد . وتذكرت حكاية الجنّيات الثلاث فقالت سأحكىها لنفسى :

« ثلاث أرامل .. ثلاث شقيقات ، يلبسن الأردية السوداء الطويلة التى تغطى الرأس والقدم ، يظهرن فى الظهيرة .. وقت تكون الشمس بوسط السماء : عين حمراء متوهجة كجهنم ، بينما ظلّ السائر وتد مدقوق بالأرض ، وتلال القبور تفتح أفواهها فتطلع منها ألسنة النار ، ثلاث أرامل .. ثلاث جنّيات ، يسكن بالرحى الكبيرة التى تدور ولا تتوقف قط : تطحن الكلاب والقطط الضالة .. فتتكسر العظام فى طقطقات عالية ويختلط الدم باللحم ، ويطفر الدم من اللحم ساخناً يضرب وجه الجنّيات بينما عيونهن تقدح بالشرر .. ووجوههن تطفح بالشهوة الحمراء وصراخهن المجنون يصل للسماء وترتج له طبقات الأرض .. القادرات .. ذوات أنياب الذئاب ، أصواتهن وكل الأصوات فى أذنى فهيمة :

« كلاب تنبح ، وقطط تموء ، وضفادع تنق ، ولحم يقطط وماكينة طحين تدق : تك .. تك ماكينة طحين تدق بانتظام ولا تتوقف ، وعلى الدق المنتظم المستمر يتقدم الرجل الأسود العارى المكشوف العورة ويدب بقدميه الحجريتين فوق سطح من حجر » .

- ب -

صحت حزينة بالليل الأخير على صوت فهيمة تتضرع : « أماه .. أماه » فهبت من تحت الغطاء فزعة .

قالت فهيمة : « البرد .. البرد يا أماه »
« نعم .. جسد البنت كله يرتعش والرأس ساخن كأنه موقد » .

لمت حزينة كل الأغطية وكومتها فوق الجسد ، وبالحل والماء بللت خرقة ومضت ترطب رأس فهيمة ، وظلت ساهرة حتى طلعت الشمس ، وهالها أن رأت وجه ابنتها وقد شرب الألوان الثلاثة : الأصفر والأسود والأزرق .
قالت لنفسها : « هى الحمى المميتة »

جاء المأمون المدكلم حلاق الصحة ، وحلق شعر رأس فهيمة ، وفصده بالموسى ، وامتنص بالمحجام الدم الفاسد ، ملأ خمسة محاجيم من الدم القذر القائم اللون ، وقال هناك دم فاسد يعكر الدم النقى الذى يحفظ لفهيمة الحياة .. ولو

كانت صحة فهمية تحتل لإخراج محجامين آخرين وضمن بذلك سلامتها وقال
المؤمن المدكلم حلاق الصحة إنه سيعود مريضته بعد آذان الظهر مباشرة ويرى ما
يجب .

جاء المؤمن المدكلم ورأى فهمية مازالت على حالها لا تفيق من غيبوبة حتى
تسقط في غيبوبة ، فأوقد ناراً وحمى مسماراً وكوى رأس فهمية ثلاث مرات ، وقال
المؤمن المدكلم : « بذلك أكون قد قتلت الدم الفاسد العكر والأمر بعد ذلك لله
وحده يفعل ما يشاء » .

ظل الأمل يبرق ويخفت ، وأذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله لصلاة
العصر ، وأذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله لصلاة المغرب ، وأذن
يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله لصلاة العشاء ، وها هي فهمية قليلة
الخبرة تبتسم .

صرخت حزينة في وجه القادم ، وشقت ثوبها إلى نصفين :
« لا .. لا .. إنها لا ترحب بك .. لكنها صغيرة وغير قادرة على مواجهة
الألم .. إنها لا تريدك أنت ، لكنها تريد للعذاب أن ينتهى وللجسد أن يستريح ..
لكنها حمقاء لا تعرف أنك الموت » .

القسم الثامن

نبوية الوارثة لوالدها الحداد شرعاً وقانوناً . الحدادة أخت الحداد الكارهة لنبوية
وأم نبوية وجدة نبوية فكرت ودبرت لتمنع عن البنت الصغيرة « حق الله » .
الحدادة قالت :

« أخى رحمة الله عليه باع لى ميراثه من الأم والأب ، وهامى ورقة البيع محتومة
وعليها بصمة إصبع الحداد » .

حزينة استجارت بالشيخ الفاضل ليحميها ويبطل ألاعيب الحدادة .

الحدادة استعانت بالشيخ يسرى ابن يوسف دياب :

« لم يفلح فى دراسته بالأزهر الشريف — إلا أنه قضى عامين برواق الصعايدة
وهو الآن شيخ كتاب القرية ، على يديه يحفظ الصغار القرآن ، للأفراح يرتجل
الزجل المفرح ويقول أمم الميكروفونات ، وللمآتم يرتجل الزجل الحزين وينوح أمام
الميكروفونات .

قال الشيخ يسرى للحدادة :

« اتركى الأمر لى .. والمطلوب منك أن تسرعى وتسجلى ورقة البيع بالشهر
العقارى »

وعرض الشيخ يسرى على الحدادة الزواج من بنتها إنشراح .
ردت الحدادة :

« البنت صغيرة .. وأنت متزوج من ثلاث »

قال الشيخ يسرى :

« حقى المشروع من الله أربع زوجات »

ردت الحدادة :

« دعنى للوقت حتى أفكر على مهل »

سأل الشيخ :

« فى .. ما ؟ »

أجابت الحدادة :

« زواج البنتين كلفنى الكثير .. وأنا غير قادرة على تكاليف عرس الثالثة ، كما
على أن أستشير السعدى .. لقد كبر الولد وصار رجلاً وهو الذى سيحدد مهر
أخته إنشراح » .

الحدادة الماكرة تبتسم :

« سأحصل من الرجل العجوز على مهر كبير .. مهر بنتى سيكون أكبر من
مهر قريناتها ، قلت للرجل : سأستشير ابنى السعدى ، سأعود للرجل وأقول :
السعدى رافض .. دعنى لفترة حتى أجعل رأسه تلين ، ثم أعود وأقول للرجل
العجوز ، الولد يطلب مهراً كبيراً لأخته ، سيقول الرجل العجوز : هذا كثير ،
سأرد عليه بعد يومين : اتفقت مع السعدى على كذا من المال .. حاولت معه
بقدر ما أستطيع .. لكنه لن يقبل أقل من كذا ، سيوافق الرجل العجوز فالبنت
صغيرة ومليحة ووارثة » .

قال الشيخ الفاضل الحزينة :

« سنرفع الأمر للمحكمة .. والقاضى هو الحكم »

القسم التاسع

ولد وبنت

الشيخ الفاضل يملك كرم نخل — لا سور له — خلف داره الكبيرة . وحتى تحصل نبوية على مرجيحة ، ستعقد طرف الحبل الطويل في ساق نخلة والطرف الآخر في ساق نخلة ، وما بين النخلتين فضاء متسع تطير فيه نبوية ، وقد بسطت ذراعها قابضة على الحبل الذى يحز في عجيزتها ، ويرفع الهواء الثوب ويلفح الوجه الجميل .. ويجعل الشعر يتطاير .. ويأتى بالبهجة التى تصنع الضحك .

ابن الشيخ الفاضل، من أسماء التى ماتت، مقارب لنبوية فى العمر ، وهو الوحيد الذى يشاركها اللعب لما يعود من المدرسة ، الولد عنده الكثير من الحكايات الحلوة .. يأتى بها من المدرسة ويحكىها لنبوية، فتسمع وتبتسم وأحياناً تفهقه وفى بعض الأحيان تقول له أنت تخرف، فيغضب فتصالحه فيحكى لها حكاية أخرى :

« قرية الكرنك القديم هذه كانت فى الزمن القديم هى والأقصر مملكة مصر والعالم ، كان اسمها طيبة ، وكان للمعبد سور كبير غير متهدم له بوابات وبه كانت

تقام الصلوات ، وحول المعبد كانت بيوت الأهالى ، وبالبر الغربى توجد المقابر ،
وكان طريق الكباش يوصل من معبد الكرنك إلى معبد الأقصر وبالعكس ،
والمصريون القدماء لم يكفروا بالله كما يظن الأهالى اليوم ، فهم أول ناس عرفوا الله
وحنطوا الجسد بسر لم يعرفه البشر بعد ولن يعرفه الدود مهما حاول .

« الأرض كرة كبيرة تدور فى الفضاء ، وفى الفضاء تدور أقمار وشموس وتلك
النجوم التى نراها فى السماء ... »

ضحكت نبوية وظلت تردد نهاية كلمات الولد غير مصدقة :

« وتلك النجوم التى نراها فى السماء ! »

نفخ الولد ، وقال بغیظ :

« أنت غبية . »

عرفت نبوية أنه غضب فقالت لنفسها :

« سأطيب خاطره . »

وقالت نبوية لابن الشيخ الفاضل المحروم من حنان الأم :

« احكى لى حكاية الملك . »

عاد الولد إلى الماضى ، وتذكر ، ونسى غضبه :

« قبلها يوم قال الناظر لكل المدرسة فى طابور الصباح : باكر يأتى كل
منكم نظيف الجسم لابساً أحسن ما عنده وعلى رأسه طربوشه .. ومن محطة
الأقصر حتى بوابة معبد الكرنك كنت ترين الناس على الجانبين : طلبة ونظار
وأساتذة ومشايخ ونسوان وعساكر وضباط وعمال وكل موظفى المصالح يهتفون
« عاش فاروق ملك مصر والسودان » ، ومرت العربة وكان بداخلها الملك وكانت
مفتوحة النوافذ تجرها ثمانية خيول بيضاء كاللبن ، وكانت الستائر أيضاً من الحرير
الأبيض كاللبن ولكنها كانت مسدلة تمنع العيون عن رؤية الملك .. »

قاطعت نبوية : « هو أعور وله عين من زجاج . »

قال الولد : « كذب .. له وجه أحمر يطفر منه الدم . »

قالت البنت : « أنت لم تره . »

رد الولد : « لم يره أحد قط .. لكننى رأيت صورته الملونة فى كتاب المطالعة ..

والكتاب عندى وسأجعلك تشوفين الصورة . »

سألت البنت الولد : « يقولون إنه يأكل خروفاً بمفرده » .
قال الولد بقطع : « ليس كذلك ، الطباخ يضع الخروف في حلة كبيرة بها ماء كثير .. ويضع الحلة فوق نار حامية . فيقل الماء ويقل .. حتى يصل إلى ما يملأ كوباً واحداً فيشربه الملك » .

الولد جميل في عيني البنت .. وهو كل الأولاد ، والولد جميل في عيون كل بنات القرية وهو كل الأولاد :

« يلبس البنطلون والقميص والجاكت ، ويدخل سينا البندر كل خميس ويطل من البلكون ، يركب البسكلت فيتطير شعره الناعم ويغطي عينيه المغسولتين المكحلتين بكحل رباني ، والده يملك الكثير من الأراضي والكروم والخيول والجاموس والحمير والأبقار والماعز ، أمه ذات حسب : جدها يوسف عبد الكريم أغا وأمها زنوبة ووالدها عبد السميع عبد القادر » .

عالم نبوية ضيق : بيتهم ، كرمة النخل ، بيت الشيخ الفاضل ، النهر — لكنها ترى عالمها شديد الاتساع :

— فجدتها وإن كانت عجوزاً متذمرة دائمة الشكوى قليلة الحركة لا ترى البعيد ولا تسمع غير الصراخ — إلا إنها تحب الحلوى تماماً كنبوية .
— وصالحة زوجة الشيخ الفاضل أخت أسماء التي ماتت ، تكلفها بقضاء أمور مثل إشعال النار ووضع الجمر في بوتقة النحاس وشراء دخان المعسل من الدكان البعيد وإبدال ماء الشيثة العكر بماء نقي — لكنها كريمة تمنحها خيارة أو شريحة بطيخ أو حفنة بلح .

أما النهر فهي تعشقه : الشمس ترمى باللون في الماء .. وطيور الماء ترف بأجنحتها وتلتقط السمك الميت الطافي .. والمراكب بأشرعتها البيضاء المنفوخة بالهواء .. والجبل الكبير والرمال الصفراء على البر الآخر والبيوت صغيرة تحت الجبل كأنها الماعز في المرعى .

ابن الشيخ الفاضل يحب الأرانب الصغيرة والأرانب الكبيرة والأرانب السوداء والأرانب البيضاء وهو حائر : تلك الحيوانات الضئيلة الأجسام ، كيف تطاوعهم

نفوسهم فيسلخون جلودها؟! ، كيف تشوى على نار وتقلى فى دهن ؟! الأرنب لا يجب أن تطبخ فهي جميلة مدهشة حين تنط وتقرض الحشائش وحين تحتفى بالجحور .

نبوة ترصدت للأرنب المسكين ، أعطته الأمان حتى خرج من جحره ، ولما بعدت المسافة بينه وبين جحره ، رمت نبوة بكل جسمها على الأرض وأطبقت يديها على الأرنب وأمسكته ورفعت نبوة يديها بالأرنب لفوق وقالت للولد : « أنظر » .

قال الولد : « إنه ميت » .
قالت نبوة : « ما مسكت أبداً بأرنب حى .. دائماً يموت بين يدي .. وأنا لا أبغى غير تمرير الراحتين على الفرو الناعم اللين » .

قال الولد وهو مغمض العينين : « لا تمسكه مرة أخرى حتى لا يموت » .

بكت نبوة وها هي عاجزة عن التوقف وغير قادرة على إسكات رعشة الجسد وعلى إيقاف صدرها الطالع النازل — ولكنها لا تريد إفلات الأرنب الميت من بين يديها .

اقترب ابن الشيخ الفاضل من نبوة وطيب خاطرها وربت على ظهرها بحنو — وقال : « لا تمسكه مرة أخرى حتى لا يموت » .

ارتفع بكاء نبوة ، فلم الولد جسمها الطالع النازل بذراعيه وشدها إلى صدره الصغير — وقال : « كُفِّى .. كفى عن البكاء » .

ولما لم تكف نبوة عن البكاء ، لم يقدر ابن الشيخ الفاضل على منع نفسه من البكاء وقد استدعى بخياله صورة أمه المتوفاة .

القسم العاشر

أراجيف وأسمار و .. وقائع أيضاً

١

(أ)

اليهودى الماكر بأنفه المعقوف ، عرض ثلاثة دنان من الخمر للبيع بأقل من ربع الثمن . ابن العرب الغنى قال لنفسه وهو يحاورها : « هذه الصفقة ما أرخصها » . بنت اليهودى الجميلة المختنة بيدها كأس مملوءة بالخمر ، ذاقها بلسانها ، ورشفت رشفة ظلت تمتصها على مهل — قالت : « خمرتنا جيدة » .

(شعر البنت أصفر كالذهب النقى ، وعلى كل خد وردة حمراء) .
الخمرة سالت من الشفاه ، وجرت فى الشق الذى يفصل بين الثديين وتجمعت عند الصرة .

- ابن العرب قال : « تلك كأسى » .
- بنت سارة قالت : « تلك كأسك » .

الأنف يشم والعين ترى ، وجلد الحية طرى ، وشعر الإبطين والعانة طويل ومرسل ، للعرق رائحة وللعطر رائحة ، الكلب يعوى والحية تلدغ ، والبيارة جميلة بها شجر البرتقال صفوف تقابلها صفوف ، والبنت جميلة (على كل خد تفاحة حمراء وشعرها أشد صفرة من برتقالة ناضجة) ، والأيام تمر ، والأيام لا بد أن تمر ، وكرمات العنب طولها دهر وعرضها دهر .

اليهودى مالك البيرة الجديد يريد حفر بئر تجلب الماء للشجر . أولاد العرب بسواعدهم القادرة حفروا البئر ، وتدفق الماء . اليهودى المماطل أبداً المحب للمال دوماً — قال : « أدفع الأجر لما تحفروا عمقا للبئر يطاول قامتكم » . فعل أولاد العرب ما أراد الخبيث . فأهال اليهودى كاره العربى التراب على الرجال ودفنهم أحياء ، وقال :

« هذا هو العمق الذى أريده لبئرى » .

- ٢ -

عصابات الصهاينة أعملت السلاح فى ابن العرب وبنت العرب ، والانجليز جلوا عن فلسطين وسلموها لليهود وفاء لعهد قديم ، وجيوش العرب انكسرت بالخيانة والسلاح الفاسد — لكن الله وعد ، ووعد الله حق ، والله لا يخلف الميعاد ، والأولاد يكبرون حتى فى الخيمات ، والأرانب تناسلت وكثر عددها فى بيت المرحوم بخيت البشارى (من ذكر أسود اللون وأنثى ييضاء ، اشتريتهما حزينة ذات يوم بعيد من سوق البندر) ، والضبايع السود طوقها العدو بالفالوجا ، ونبوية يتيمة الأب والأم شبت عن الطوق ، ونبوية تنظر لثور الحلوى الأحمر اللون — فهى لم تأكله بعد .. ما تزال تحتفظ به .. وإن انكسر أحد قرنيه المشرعين — وتذكر خالها الغالى بفلسطين الشام .

- ٣ -

عاد الرجال بعد النكبة من فلسطين الشام ، هم هنا بمصر يعملون داخل معسكرات الانجليز بمنطقة القنال ، الرجال يكسبون المال بسواعدهم ويحملون الشوق لأهاليهم ، والشوق فى الصدور كأنه نار الله الموقدة ، لكنهم على أية حال بأرض الوطن ، ومهما طالت الأيام فالعودة للأهل واجبة، ومن بنت العم أو بنت الخال سيتزوجون ويتناسلون ويعمرون الأرض .

مصطفى له الأمر والنهى فى الأربعين رجلا :
(رجال مختارون ، غلاظ شداد ، لا يعصون مصطفى ، ويفعلون ما يؤمرون ،
بهم مكر الثعالب ، وخفة الققط ، وشجاعة ابن الوليد ، وحيلة ولين معاوية ،
ومهارة الحواة فى الغش ولعب الكوتشينة) .

يختار الرجل منهم فريسته من داخل معسكرات الانجليز ، وتكون الفريسة دائماً
إما أسترالى وإما هندى أو أفريقى أفطس الأنف ، يغرون الرجال بلعب الورق ،
والقمار كسب وخسارة ، والخمر قرينة القمار ، والخمر تشعل الرأس وتشعل
الرغبة فى الكسب ، وخمر عرق البلح مصرية وذات مفعول قوى وسريع
(مصطفى جاء معه بزجاجة بها سائل سحرى — جاء به من السودان بلد الحز
والأحجية والأولياء الصالحين — اشتراها من ساحر قادر أيام كان يعمل هناك فى
زمان فائت) ، وقطرة واحدة على برميل خمر تجعل من يشرب كأساً واحدة ينام
نومة أهل الكهف .

وقد نام الجميع ، يصبح المعسكر بغير حراس تحميه ، لا حارس يرى ولا
حارس يسمع ولا حارس يطلق النار . يدخل مصطفى المعسكر وخلفه رجاله .

يحصل الرجال على الجبن الأبيض والجبن الرومى والمرنى والشاى والزبد والأقمشة
الصوفية التى تحمى الأجساد من لسعة البرد .

تمتلىء الزنايل ، فيحملها الرجال فوق الظهر المحنية .
ما من مرة إلا وقتل مصطفى الكابتن الانجليزى الكبير الرتبة .

يصرخ الكابتن الانجليزى — الأكبر رتبة من زميله المقتول — فى الجنود ويلعلع
صوته فى الصباح داخل المعسكر : « إيجيتشن كلفتى آند رابش » .

مخازن مصطفى تحت الأرض ، لا يعرف سرها غيره هو ورجاله ، حتى الجن
تعجز عن الوصول إليها ، بمخازن مصطفى ثروة لا تقدر بذهب أو بفضة .

« أ »

أبناء مصر من كل ملة حملوا السلاح ، حتى رجال بلوكات النظام ، المظاهرات عمت الوادى ، والحكومة المصرية نادت بعدم التعامل مع الانجليزى المعتدى على بر البلاد ، المتعامل مع الانجليزى خائن للأوطان ، البغاء واجب والحكومة ستوفر العمل لابن البلد .

« ب »

اشترى الشيخ الفاضل جرنال المصرى لسان حزب الوفد ، واشترى جريدة الحزب الوطنى « منبر الشرق » لصاحبها « على الغاياتى » كاتب ديوان وطنيتى وصديق محمد فريد : على الغاياتى ومحمد فريد كلاهما حكم عليه الانجليز بالحبس .

« ج »

زعم محمد أحمد الشرقاوى — مراسل جرنال الكتلة وجرنال « الوادى » — فى أولاده وأم أولاده : « ألا تكفوا عن الصراخ يا ملاعين ؟ ! » .

وكان محمد أحمد الشرقاوى عائداً لتوه من دار أمين أفندى عبد السميع شقيق صالحة أخت الشيخ الفاضل ، وسمع هناك من الجرامفون الذى يملكه أمين أفندى صوت أم كلثوم وهى تغنى على أسطوانة :

« مصر التى فى خاطرى وفى فمى ، أحبها من كل روحى ودمى ، من منكم يحبها حبى لها ، ويفتديها بالعزیز الأكرم » .

دخل محمد أحمد الشرقاوى حجرته ، وأغلق بابها عليه ، وزعم أنه سيكتب مقالاً عنوانه « بحر الماضى يصب فى بحر الحاضر والبحر ليس بملآن » ، سيرسل المقال باليهد للجرنال الوادى ، أن لم تنشره الوادى خلال أسبوع فسيرسل المقال إلى جريدة الكتلة ، وسيوقع مقاله بإمضاء « الصحفى العجوز » .

قال محمد أحمد الشرقاوى لنفسه :
« أجمع شتات أفكارى أولاً ، سأدون بعض أبيات الشعر المأثورة وبعض الكلمات التى صارت مثلاً ، وبعد ذلك أفرغ لكتابة مقالى بالليل لما ينام الجميع » .

وكتب بخط كوفى جميل :
(بحر الماضى يصب فى بحر الحاضر والبحر ليس بملآن) .
(١) بلادى بلادى بلادى لك حبيبى وفؤادى .
نشيد غناه سيد درويش لثورة ١٩ ، وهو صالح لكل الثورات ويغنيه أى صوت ، ورائع لما تغنيه الجموع .. لماذا ؟

(٢) لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً .
كان مصطفى كامل رجل قانون يحب مدينة فرنسا ، وكانت الدماء التركية تجري فى عروقه — ولكنه ولد بمصر وشب بمصر وشرب من نيل مصر .

(٣) لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً .
كلمة رد بها خليفة المسلمين عمر بن الخطاب على عمرو بن العاص حاكم مصر لما اعتدى أبن عمرو على نصرانى وقال مفاخرًا : أنا ابن الأكرمين . استعار عراى كلمة ابن الخطاب ونحتها فى وجه الخديوى . ولم يهبط عراى من فوق سرجه .

(٤) وطنى لو شغلت بالخلد عنه ، نازعتنى إليه فى الخلد نفسى .
حتى حياة القصور لا تلهى الشعراء عن حب الوطن .

(٥) والله ما دون الجلاء ويومه ، يوم تسميه الكنانة عيداً

(٦) وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرحة يدق .

صدقت يابن مصر .. يابن العرب ، وصدق أبن تونس .. أبن
العرب .. لما قال :

« إذا الشعب يوماً أراد الحياة ، فلا بد أن يستجيب القدر ، ولا بد لليل
أن ينجلي ، ولا بد للقيد أن ينكسر » .

القسم الحادى عشر

الذى لا يقدر على منعه أحد

- ١ -

يمامتان فزعتان حطتا على صدر البنت نبوية ، فرحت بهما البنت فرحاً شديداً ، واحتلت بنفسها ونظرت إلى صدرها وقالت تحدث اليمامتين :
« مالكما فزعتين ؟! .. مالكما متأهبتين دوماً للانطلاق ؟! »
وكلمت نبوية نفسها :
« هاتان اليمامتان محشوتان برمل وحصى ساخن » .
وتشجعت وأمسكت كل يمامة بيد .

حزينة رأت اليمامتين على صدر بنت بنتها ، وسمعت ابن الشيخ الفاضل ينادى بنت بنتها بصوت صار خشنا كمنجل الحاصد تعمل فى البرسيم ، فقالت لنفسها : « الحذر واجب » ، وقالت تطرد الهاجس الخبيث : « الأيام الطويلة والمعاشرة الطويلة جعلت من الولد والبنت أخوين » .

الشيخ الفاضل وأهل بيته ينظرون لأبنهم القريب دائماً من بنت الحداد ويقولون : « نعم : ترى معها ، لكن ليهم بدرسه ، العلم وظيفة نافعة تدوم ، أما الأرض فتفتت مع الزمن المقبل ، نعم : ستقسم الأرض على الأبناء وأبناء الأبناء .

لا أحد من أهل البلدة يرى في علاقة ابن الشيخ الفاضل بنبوية ما يستحق الكلام فوق المصاطب أو على الفراش بالليل مع الزوجات : « أخ وأخت .. لقد تربيا معاً » .

أما الحدادة فتوغر صدر ابنها السعدى — فى الصباح والمساء — على بنت فهيمة : « البنت لأمها » .

قال السعدى مكلماً نفسه : « أنا لا أصدق .. نبوية ذات الشعر الأسود المدهون والمعقود ضفيرتين لا يمكن أن تكون كأمها فهيمة ، الأنف الشاخ كبرج الحمام ، والعينان السوداوان ليلة شتاء لا تنفذ فيها سكين ، الرموش الطويلة مذراة ، ما يخيفنى هو الشفة العليا الطالعة لقدام ، لكن من المحال أن تكون نبوية كفهيمة ، نبوية فرس أصيل ، ولن يعتلى ظهر الفرس غيرى ، هى بنت خالى وأنا فارسها ، هذه فرسى أنا دون سائر الرجال » .

ما للقاء مبتور بين الولد والبنت ؟! ، فى اللقاء خجل وفى اللقاء ارتباك ، وشعور بخوف مبهم ، وارتفاع بدرجة حرارة الجسمين ، وفى اللقاء أيضاً رغبة فى القرب والملاسة .

قال الولد : « ليت ما فابت يعود » .
وقالت البنت : « تلك الطفولة التى مرت ليتها تعود » .

— ٢ —

« أ »

الريح أتت من محبسها البعيد كالخيل الجامحة ، شالت الأعواد اليابسة من فوق

أسطح البيوت ، ونزعت الأوراق الجافة من فروع الشجر ، ولت التراب الناعم من فوق سطح الأرض ، وضربت الوجوه والبيوت بالورق والقش والتراب ، وحطمت الأبواب الواهنة ولت نتف السحب القليلة الرمادية المتباعدة في السماء العالية — فتجمعت السحب وأصبحت أشد دكنة .

لما بكت السماء وسقط الدمع الطاهر على الأرض التي تضج من ظلم البشر للبشر — رقد التراب المهتاج واختفى الغبار من الجو وعم نور وعادت الريح لمعقلها وصارت السماء أشد زرقة ، وخرج الأولاد الصغار يبحثون عن اللقايا من جعارين وفصوص وخواتم وما تكشف عنه أرض الجدود ذات السر .

« ب »

رحل الشيخ موسى قطب البلد وحامياها ، رحل من يومين ، وقد بكته السماء قبل رحيله يوم بأمر من الله الذى له ملك السموات والأرض ، ولكل أجل كتاب :

جاء محمد المنشد كعادته ومدح الرسول ، وجاء الرجال كعادتهم وأقاموا حلقة الذكر ، وحان وقت خروج الشيخ من خلوته — لكن الشيخ لم يخرج ، ومر الليل بطيئاً ثقيلاً والشيخ لم يطل بعد بطلعته المنيرة على المحب العاشق والمريد المشتاق ، وما من حس بحجرة الشيخ بينما نور الفجر يرفع الظلمة عن البيوت والنخيل والشجر ويجعل الشخص يرى وجه رفيقه .

النفوس داخلها الشك ، فتكلم المحبون بهمس ، ثم ارتفع القول وتضارب :

« نكسر الباب » ، « من يجرؤ .. كشف الستر عقابه شديد » ، « سمعته بالأمس ينادى الله حبيبى : خذنى ، نادى الله ثلاث مرات بصوت مرتفع سمعته .. بصوت كابد العشق » ، « فى الأيام الأخيرة كان دائم الحديث عن الرحيل وعن الموت مفرق الأحبة والجماعات » ، « يا ناس .. ربما طال به الوقت وهو هناك يطوف بمكة المكرمة » ، « لا .. هنا مكانه .. ونحن حملة الثقل .. فلننتظر عودته » .

« ج »

« يا أيها النهار الطالع كم أنت طويل ، وأنت أيها الليل القادم كم أنت ثقيل ، لا طاقة لنا بك أيها النهار الذى يعقب الليل : يا من حسمت الأمر . »
« شممت عطر الجسد وما شممت عفته . »

« الخشبة طارت طيراناً . »

« ونحن ما حملنا الخشبة ، هى التى سبحت فى الجو كغمامة مسرعة . »

« آه يا أيتها الحفرة السوداء ، وأنت يا أيها التراب المنهال نحن منك وإليك وها هنا الجسد ، أما الروح فقد عادت لخالقها ، ونحن نعرف قدر الرجال ، ليلة مماته من كل عام سنحييها بالدف وبالطبل وبالمزمار، وبالخيل سنتسابق وبالعصى سنلعب وستقيم الأذكار ونطعم الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيراً . »

« د »

أحباب الشيخ — وكل البلد أحبابه — جمعوا المال لينبؤوا الضريح ، تشاوروا فى أمر النقيب الذى سيتلقى النذور ، البعض يقول إن الشيخ قبل مماته كان قد قرب إليه خليل البياض وكان يهمس له بسرّه ، والبعض الآخر يقول إن يوسف سليم الجزار لم يخن الأمانة وقد فضله الشيخ على الجميع لما اختار حجرة من حجرات بيته لتكون خلوته التى يعبد فيها الواحد الأحد .
وحسم النقاش بالآتى :

- (١) البعد عن العدل ولو بشبر واحد لا يعلم عاقبته إلا الله .
- (٢) للمحب والمريد الذى يطلب الشفاعة حق تقرير المزار .
- (٣) يقيم خليل البياض فى الضريح — حيث دفن جسد الشيخ — ويتلقى النذور .
- (٤) يقيم يوسف سليم فى الحجرة — فقد كانت خلوة الشيخ فى الحياة — ويتلقى النذور .
- (٥) على يوسف سليم أن لا يستخدم الحجرة فى غرض من أغراض الدنيا ، وأن يحترم حرمتها ما دامت تحمل أشياء الولي الراحل .

القسم الثاني عشر

اللقاء بعد طول غياب

— ١ —

رمت الأم بجسدها القليل اللحم في حوض الابن ومرغت رأسها المثلث بما حمل
من هم الأيام في صدر الابن وتشممت ثوبه ، ورأت الشعر الأبيض على فوديه :
« هذا فعلته بك وبنا الأيام يا ولدى .. لكننا بذراعيك قوة رجلين » .

طافت بالمكان روح بخيت البشارى : الأب والزوج ، وطافت بالمكان روح
فهيمة : البنت والأخت ، وقالت الأم : « يا حبيبى .. يا كل الأعبة » ، وعلا بكاء
الإثنين : « هذا مقام الفرح وهذا مقام الحزن » .

— ٢ —

جاء المحبون إلى بيت بخيت البشارى ، فقابلهم مصطفى وقابلتهم حزينة ،
وتقبلا منهم التهئة بسلامة العودة والعزاء فى الراحل والراحلة .

وقام مصطفى العائد بواجب الراحل والراحلة فأحضر فقيهاً تلا من القرآن
العديد من السور ونفحه مائلاً ، وزار مصطفى قبر والده وأخته وقرأ فاتحة الكتاب
ورش الماء على قبريهما .

— ٣ —

حكومة الوفد برت بوعداها ووفرت لكل من كان يعمل بمعسكرات الانجليز
عملاً ، ومصطفى عُيِّنَ فراشاً بمدرسة البندر — لكن مصطفى لم يذهب ليستلم
العمل (ربما يكون السبب هو الراتب القليل ، وربما يكون التعفف أو الكبرياء عن
العمل المهين ، وربما كان المال المخبوء سيظهر بعد حين ، على أية حال مصطفى
لا ينكر قول أحد ولا يقر قول أحد ، والسر كله في جوف البشر حزينة : هذه
العجوز لا تبوح .. ما بان عليها فقر ولا يسر .. تفتح فمها الأهمم وكأنها ترمي
بأسنانها في وجه مكلمها « الخير في دجاجاتي وحماماتي .. أبيع البيض وأشتري
حاجتي — غيرى لا يعطيه الله — تقصد الحدادة بنت الحداد — وبنت بنتى
نبوية سلمت يدها تصنع من الخيط أفضل طواقى الرأس » (.

— ٤ —

أضمرت حزينة — وقد كثر قول القائل والقائلة عن المال المخبوء — أن تباشر
ابنها بالسؤال ، وقالت :
« علىَّ أن أختار الوقت الحسن .. لما يكون معتدل المزاج » .

— ٥ —

قال مصطفى وكان معتدل المزاج ، وبدأ كلامه بقهقهة عالية :
« أنت خائفة يا أم من أن تعولى ابنك في شدته ؟ لا تخافى .. الرجل لا
يغلب .. في رأسى مال كثير » .
قالت حزينة في عجب :

« في رأسك !! مال كثير في رأسك ؟! » .

قال مصطفى ضاحكاً :

« المال أيضا مرمى بالطرقات كالأحجار » .

ردت حزينه وهي تتصنع الفزع :

« أطلب من الله أن يحفظ عقلك من الجنون » .

قال مصطفى يحدث أمه بجذ ووضع يده على كتفها :

« لن أعمل تحت أمر مخلوق .. نعم .. لقد تعبت وقاسيت يا والدتي الكثير في
غربتي من أوامر المخاليق .. الأمر مرّ الطعم .. ومن اليوم سأكون حر نفسي ..
أنت لا تعرفين بشاعة حكم الآدمي الحاكم على الآدمي المحكوم .. لا تخافي ..
سألتقط رزقي من الطرقات كالأنبياء والطير » .

القسم الثالث عشر

يفيض النهر فيغطي الرمال الواسعة — هناك بالبر الغربى — بالماء النحاسى ، وينحسر مخلفاً الغرين الطيب فوق الرمال ، فيدفن الزراع بذور البطيخ ، وتطلع الأعراش وتفرش سيقانها وأوراقها الخضراء ، ويتفتح النوار وتطل الثمرة ، ويكبر البطيخ ويستدير بقشرته الخضراء من الخارج — لكنه من الداخل شديد الاحمرار شديد الحلاوة قليل الماء .

تأتى القوارب بالتجار فيساومون الملاك — لا الزراع — ويشترى المحصول . وتنقل القوارب المحصول من البر الغربى إلى البر الشرقى . وتتوقف القوارب عند المرساة ، ويفرغ الحمالون الحمولة ، ويرمون الأحمال خلف ظهورهم المقوسة ، ويرفعونها من تحت لفوق ويكومونها أكوام أكوام : « تلك أكوام صغيرة وتلك أكوام كبيرة .. هذا بطيخ مريح وهذا بطيخ ملاحته أقل .. وذاك بطيخ أنشَقَّ أثناء الرفع والإنزال » .

يقبل صغار التجار على كبار التجار يساومونهم ، ويدور الكلام ما بين أخذ وردء وزعيق ويفتح الله، والله يسهل لك .

وقد تمت الصفقة، يزعم الحوذية فى حميرهم فتتحرك الحمير تجر عربات الكارو

المحملة بالثمار الحلوة ، وتدرج العجلات على الشارع المرصوف ، وهناك بيندر الأقصر تجد الثمار الحلوة شاربها المقدر الذى لا يبخل على المتعة الطيبة الحلال .

كلهم عند المرساة : تجار كبار وتجار صغار وحمالون ونوتية وأصحاب قوارب وأصحاب عربات كارو .
ومصطفى — هنا أيضاً فى حُص أقامه من بوض الذرة العالى .

هنا — يصنع مصطفى الشاى والقهوة ويقدمها للشاربين ، والباذنجان المقلّى بالزيت والبول النابت المغلى فى ماء والحمص المسلوق للآكلين .

هنا المرساة ، وهنا مصطفى، وحُص مصطفى المغطى بالخيش يحميه من الشمس الحارقة فى الصيف، ويرمى بالظل ويمنع البرد الساقط فى الشتاء .

وهنا ، دكة خشبية وحُصر للجالسين ، وهنا الكوتشينة لمن يريد التسلية البرئة .. ومن أراد لعب القمار فليعب .

ومن هنا : طريقك إلى الأقصر البندر وسوق الثلاثاء ، لا طريق لك إلا من هنا يا ساكن القرى والنجوع — إن كنت راكباً أو كنت سائراً .

القسم الرابع عشر

كل الخيوط تتشابك

- ١ -

« أ »

قال السعدى : « أبغى الزواج من بنت خالى يا أم » .
ردت الحدادة وكأن العقرب لدغتها : « لو تزوجت من بنت فهيمة فلن تكون
ابنى ، سأذبح خلفك حمامة .. كأنك مت ، وتكون خلفتى كلها من
البنات .. والعوض على الله .

صرخ المحب العنيد : « نبوية بنت خالى .. وهى عارى .. وهى دمي ...
ولحمها من لحمى » .

قالت الأم : نبوية بنت فهيمة لا بنت الحداد ، لو عاندت وركبت رأسك
سأحرمك من الإرث » .

رمى الولد بقراره القاطع : « افترضى أنها بنت الشيطان — لكنها رغبتى أنا لا
أنت » .

أشاحت الأم برأسها وأدارت ظهرها للابن غاضبة . وأدار الولد ظهوره لأمه
وانفلت غاضبا للخارج ، وصفق الباب الخشبي خلفه بعنف .

(ب)

قال مصطفى — ابن بجيت البشارى من حزينة وشقيق فهيمة — للسعدى
ابن الحذادة : « انتظر حتى أموت أنا وتموت أمى ثم تقدم لنبوية وتزوجها إن
رضت بك » .

(ج)

العناد والعشق جعلا السعدى يقرر أن لا يعود إلى أمه وأبيه — قال :
« سأبنى عشى بعيدا عن العمران — هناك عند الساقية المهجورة ، سأطلق
لحيتى وشعر رأسى وسأجد سلوقى فى الخمرة والمخدرات ، سينطلق الوحش ويكسر
الأبواب وينط الحوائط ويحصل على ما يسكت صراخ بطنه ، وفرستى آتية آتية ..
فى اليوم القريب أو اليوم البعيد ، سأخطف تلك التى أعبدها وأمضى بها لتعيش
أنا وهى حتى نهاية العمر : هناك مع الضواري . ودونكم ودونى يا أهل هذا البلد :
النهر والرمال والجبل الكبير » .

تحت ظل شجرة التوت القائمة بفروعها الكثيرة هناك عند الساقية
المهجورة — نام السعدى ، وحلم :

« جمحت الفرس ، وألقت من فوق سرجها ابن الشيخ الفاضل ، وجرت
ورمت بسرجها ، وشقت الدروب نافرة العرف ، والعرف تحت الشمس الطالعة له
وهج يعمى البصر .. وكأن العرف من نار ، والخلق تجرى خلف الفرس ، ونبوية
وسط الخلائق مفكوكة الشعر ، وقد بلغت الفرس الساقية المهجورة وجدت
السعدى الذى نط كالقط واعتلى ظهرها الأملس وقبض على عرقها ، وظل يصفر
لها بفمه حتى استكانت ، ومد السعدى يده لنبوية فمدت له نبوية يدها
المرتعشة ، ورفعها لفوق وطوقها بساعده ، وشد عرف الفرس ولكزها فى بطنها

بكعب رجله ، وصرخ : هيهه .. هاه ، وانطلقت الفرس كالريح : خاضت به
الماء .. وتخطت عقبات الرمل المخادع .. وها هو الجبل الغربى الكبير قاب قوسين
أو أدنى .

- ٢ -

(أ)

منع مصطفى بنت أخته من الخدمة فى بيت الشيخ الفاضل ، وصرخ فى أذن
أمه التى لا تسمع إلا بالصراخ :

« نبوية كبرت يا أم .. ويعنقى دين للشيخ الفاضل سأرده وأنا قادر على رد
الدين بإذن الله .. وأنا أكسب من عملى والحمد لله فلماذا تعمل نبوية فى بيوت
الغير ؟! » .

وقال مصطفى لنفسه وهو يهم بمغادرة البيت :
« لقد نبهنى السعدى أن البنت كبرت وصارت عروسة » .
بلهجة الولد الحريص بخ أوامر فى وجه نبوية :

« لا تذهبي للنهر .. سأكترى سقاء ، قومى انقعى الفول والحمص ..
وسأرسل من طرفى من سيأتى ويأخذه » .

جلست نبوية تتحسر على حالها :

« سأظل هنا بهذا البيت حتى يأتى رجل يوافق عليه خالى وجدى فىأخذنى
لبيت أمه ، أما هو فلن يتقدم لخطبتى أبداً ، هو السماء وأنا الأرض ولن تنطبق
السماء على الأرض إلا إذا قامت القيامة ، سأظل فى مكانى هذا بحسرتى ، أنقع
الفول والحمص وأكنس تراب البيت وأرشه ، وأسمع كلام العجوز ، كلام العجوز
زاد اليوم عن اليوم الذى فات ، ولا أحد فى مواجهة العجوز غيرى أنا التى أسمع
كل يوم أن الماضى حلوا والحاضر مر ، حتى النهر لن أذهب إليه فقد اكتروا

سقاء ، أنا غزالة الصوف وصانعة الطواقى ورامية الحب للطير — هل يحضر ليرانى
فأغسل ثوبه ؟! » .

— ٣ —

رحلت شمس الصيف الكبيرة ، وأقفرت المرساة ، ذهب صغار التجار وكبارهم
والنوتية والحمالون وأصحاب العربات وسائقوا العربات إلى حيث يعلم الله . وتلك
هى شمس الشتاء بوجهها الضاحك وشعرها الأصفر المحلول . وها هم السياح
قادمون من بلادهم — بلاد الغيوم والمطر والثلج الأبيض ، ليتفرجوا على الأثر
القديم، وليركبوا العربات تجرها الخيول وليشتروا الطواقى الملونة ويلبسوها ، ولتقلهم
قطارات الماء من بر الشرق إلى بر الغرب ، وليعمروا اللوكاندات .

رحلت شمس الصيف بالبطالة وأتت شمس الشتاء بالعمل .

— « هيا إلى اللوكاندة يا ولد .. وأنت يارجل هيا إلى العمل .. ودعوا البطالة يا
سكان نجع البحاروة فقد رحل الصيف .. وأنتم لستم ممن يفلحون الأرض
ولستم بالملاك ، فلتلبسوا ملابسكم البيضاء وعماماتكم البيضاء، وتمنطقوا
بالأحزمة الخضراء .. منكم سيكون البارمان ومنكم سيكون الجرسون ..
وفيكُم المرمطونات » .

فكر مصطفى وهو يرقب النهر — وكان الرجال والصبيان قد مروا عليه ورموه
بالسلام وكانوا يلبسون ملابسهم البيضاء وعمائمهم البيضاء وقد تمنطقوا بأحزمة
خضراء : « لأنهم يعيشون الصيف فى بطالة ويعملون بالشتاء ويحصلون على أجر
وبقشيش كثير ، ولأن الصيف قادم لا محالة بعد الشتاء — فهم مقامرون » .

وفرك مصطفى ورق الكوتشينة الملون بين راحتيه وزعق فى النهر ، ورد عليه
النهر :

« مقامرون .. مقامرون إلى أبد الآبدين » .

وقال لنفسه :

« من يعمل بالليل سيأتى إلى خُصى بالنهار .. ومن يعمل بالنهار سيأتى إلى
خصى بالليل » .

حزينة لا ترى إلا السواد يغطي كل شيء ، لقد خف الضوء بعينها التي ترى ،
وقلّت قدرة الأذن التي تسمع على التقاط الكلام من فم الآخرين حتى لو صرخوا .
ونبوية تخفى بطنها المنتفخة عن عين جدتها الكليلة بالثوب الواسع ، وتتوجع
بالأنات المكتومة؛ فالصرخات العالية قد تسمعها الجدة .

— لكن لما يتكرر رفض البنت للأكل ، ولما ترفض المعدة ما بداخلها من طعام
وترميه من الفم ، لما يتكرر القىء وتقل الرغبة في العمل ويكثر النوم ، فلا بد
أن في الأمر شيء لن يفوت على حزينة المجربة دون أن تعرفه .

أت آمنة أم بدرة القابلة ، واختلت بنبوية داخل الغرفة ، وخرجت آمنة
وحدها من الغرفة ، وقالت للجدة تواسيها :

« كان الله في عونك .. الإناء مشروخ » .

ضربت حزينة أسنانها الهتاء ، وقالت لنفسها :
« لو كنت أملك عافيتي لقضيت الأمر بنفسى » .
وشدت عكازها وخرجت للطريق تظلع ، لتنقل الخبر المفجع للابن .

خاتمة

- ١ -

مصطفى الهائج كال نبوية الضربات الموجعة وجعل الوجه الجميل يتورم ، ولمّ الشعر الذى يحاكى الليالى بكفين نفرت منها العروق . وبقبضتين قويتين رمى بالجسم الذى يبتغيه الرجال على الأرض وجرجر نبوية ، وأشبع بطنها الذى يحمل الحرام رفساً بقدميه ، وتركها — إلى حين : حتى يخفر الحفرة — كوم لحم مهشم العظام ، تتأوه تحت الجدار .

رمى الفأس ، ورفع نبوية ، وأنزلها فى الحفرة ، وأهال التراب على الجسم حتى العنق ، وترك الرأس يطل بينما الشعر يرعى فى التراب . وصرخ مصطفى فى الغيب ، وترجمت حزينة صراخ الأبن :

لا كسرة خبز .. ولا جرعة ماء .. حتى تموت وحتى تبوح بمن فعل .

- ٢ -

نبوية تقاوم العطش الشديد .. حلقها جاف لم يجرع الماء منذ عام — لكنها

لن تنادى لتطلب الماء . ونبوية جائعة (تشتهى ثور الحلوى المكسور القرن بداخل صندوقها الخشبي) . ونبوية تنظر للكوة العالية بالحائط — تلك التى تأتى بالضوء والبرد للمغرفة — وتقول : « ما عدت أحس بالبرد .. وهذا الضوء أهو ضوء الشمس أم ضوء النجوم .. الضوء لا يعينى بقدر ما أريد أن أعرف أهو نائم أم مستيقظ .. كم من الأيام مر على وأنا هنا . يومان أم شهر أم عام ؟ أم أعوام طويلة تلك التى مرت .. وتلك العيون الشامتة المظلة من الكوة تسألنى عن اسمه ولن تغادر الكوة حتى أنطق باسمه .. أنا لن أنطق لأننى ميتة ميتة لا محالة .. لا بل لأننى لن أبوح باسم حبيبى وإلا فسيفقتله الخال الهائج .. لماذا لا يقترب منى ذكر الأرنب الكبير هذا؟ ويمرر شعره الناعم فوق جلد وجهى ويدفن جسمه الطرى فى شعرى متمرغاً بفروه الناعم .

— ٣ —

خبط السعدى باب بيت بخيت البشارى بقصبة قدمه بعنف ، وتخطى حزينه القاعدة دون أن يرميها بنظرة من عينيه الحمراءوين المشتعلتين كجمرتين — إنه يعرف بغيته ولن يضل طريقها .

أخرج من بين طيات ثوبه الممزق المنجل القاطعة الحادة الأسنان ، وقبض على لمة الشعر الأسود المعفر المهوش كما يمسك بخزمة برسيم ، وحصد العنق الشاوخ، فمال البرج وطار الحمام وعوى الذئب على مشهد الدم النافر يغرق الثوب ويجرى على التراب كالحيات ، وحمل الرأس بعيون ماتزال حية تلمع ، وهو يعوى ...

— ٤ —

« أ »

كان مصطفى قاعداً يغسل الأطباق والفناجيل والأكواب من رواسب القهوة والشاي فى جردل به ماء ، وحول مصطفى جلس الرجال يتكلمون ويدخنون

الجوزة ويشربون الشاي والقهوة السوداء بغير سكر ويختلفون على اللعب ،
ومصطفى غافل عن هذا العالم — بإرادته — وبعيد .

« ب »

ظهر الشيطان فجأة بلحيته القذرة المهوشة وشعر رأسه المنفوش ، وبصق
السعدى على وجه مصطفى ، ورمى فى الجردل، المملوء بالأكواب والفناجيل والماء
القذر، برأس الجميلة .

« ج »

الرجال يطوقون مصطفى بصمت مميت ، كفوا عن اللعب المسموع ،
والكلام المسموع ، بينما عيونهم تقول كلاماً ووجوههم تنطق بكلام ، ما لهم لا
يمشون ويغادرون المكان ويبقى مصطفى وحده بهذا المكان حتى نهاية العمر .

صرخ مصطفى فى الصمت وفى الرجال وفى كل من يسكن القرية من نسوة
وصبية وبيوت ونخيل وحيوان وشجر :

« كلكم يعرف من أنا .. كلكم يعرف من أكون .. كنت صبيّاً لما سافرت
إلى السودان .. وقفت وحدى ورفعت اليد فى وجه الرئيس عبد الظاهر وألزمته
الحد ، عرفت النساء عدد شعر الرأس وأنا صغير ، بالسودان نمت على فراش شيخ
عشيرة . أنا الولد الذى لاراح ولا جاء نمت على فراشه وهو شيخ عشيرته يأمر
وينهى ويصدر أوامر القتل على ابن آدم ويعتق رقبة ابن آدم بمثل ما يشرب الماء —
لكنه العاجز إذا ما أمر زوجته بالحفاظ على فرجها » .

« هناك منكم من عاشرنى بالشام ويعرف أننى تزوجت وأننى عجزت كشيخ
العشيرة عن حماية فرج زوجتى فطلقتها ، من منكم لا يعرف النساء ، أنا الذى
عرفت تزوجت مرة واحدة ولن أكررها مهما طال بى العمر ، وما فكرت بعد الذى
حدث .. وما فكرت قط ، السعدنى ولد ونبوية بنت، والحدّاد خاله ونبوية ليست
بنتى وهى عار السعدى وعارى من بعده ، ضربتها ودفنتها فى حفرة ومنعت عنها
الطعام والماء لتبوح باسم الفاعل ، لو عرفت اسمه لمزقت جسمه ولو كان ابن

فرعون .. لشربت من دمه وما كان ليصدقني مخلوق .. لكن السعدى قتلها قبل أن تنطق » .

شعر مصطفى أنه يعوى في خواء ويمشي في عتمة تحيطه وتمتد أمامه إلى ما شاء الله ، وأنهم قد أسقطوه من حسابهم ومن عداد الرجال .. إنها فرصتهم — هؤلاء رجال هذا الزمان — ليحطموا رأسه المتكبرة : لقد أصدروا حكمهم .

وشعر مصطفى كالذبيحة :

« أنا .. أنا .. وبعد هذا العمر الذى مر » .

وطلب من نفسه أن تعطيه ما يريد : شللاً كاملاً عن الكلام والحركة والشوف
والسمع — ولبتت نفسه ما أراد وأطاعت .

« د »

حمل الرجال مصطفى وأرقدوه فوق العربة ، وجر الحمار العربة ، وصرت العجلات ثم درجت على الشارع الأسفلتى ، وعرجت عند مقام الشيخ موسى ، وحرن الحمار وهو يهبط المنحدر الترابى — لكن السائق صرخ فيه وكال له الضربات الموجهة بفرع الشجرة اليابس ، فواصل سيره جارياً بالحمولة الخفيفة .

« ه »

الدمع جف في المحجرين ، والضوء انطفأ في العينين منذ زمان ، وها أنت يا حزينه بعد مرور الزمان مع الأبن المقعد داخل المكان ، رحل الزوج ورحلت البنت وهلكت بنت البنت ، وحولك المشفقون والحدادة الشامته ، ولا ضوء ولا نار بموقد ، وما الحاجة للنار والموقد ؟!

« و »

ولّى الليل بالنجوم ، وجاء النهار بالشمس ، وأطل الأرنب الذكر الكبير الخائف

من باب بيت بجيت البشارى المفتوح ، ثم نطاً للخارج وتبعته الأرناب الكبيرة
والصغيرة تسعى للحشائش تحت كرم النخيل غير المسور — الذى يملكه الشيخ
الفاضل — والواقع خلف بيته ...

تطاولير من الماء
والتراب والشمس

الناس بالناس .. ، والناس للناس ، وصاحبي الطاعن في
السن في كرب - فبعد موت ابنه الوحيد ماتت أم ابنه صبح اليوم
الأربعاء ، ووقفتي أمام الصاحب مكتوف اليدين مرذولة
(إسكافي المودة)

- ١ -

(عصر يوم بعيد) جاء قاسم من بلده البعيد على ظهر مركب تحمل الجرار ،
ودخل سوق المدينة وشال كيس بطاطس يزن إرديين ورماه على ظهره، ولف بحمله
لفتين ثم حطه على الأرض - وسأل أهل السوق وحكامه : « أى عمل
يا جماعة ؟ » .

(وصبح اليوم) أجبر الموت - في السوق الامة أشتات الناس ولمامة البلدان -
صاحب البدن المهلم على البكاء بعين مملوءة بالدمع والدم .

(وذات يوم : لاهو بالبعيد ولا هو بالقرب) - عاد قاسم إلى السوق بعد
غيبة بعين معصوبة بمنديل لما رفعها لقبه الأسافل بالأعور وناداه الأفاضل « يا كريم
العين » .

- ٢ -

(مايبكيك يا قاسم ؟ .. كلنا للموت !! .. الموت حوالينا) .

كل ناس السوق بالسنة - كأنهم لا يملكون إلا السنة ! ؟ ، ماقيمة اللسان في يوم بلاء مثل هذا ؟ ، إسكافي المودة أيضا بلسان أوقعه في ضيق ونجاة من مهالك !! ، إلا أن اللسان لايعرف إلا الكلام ، والكلام لايفك عقدة ولايربط عقدة في حال كحال قاسم ، في حال كحال قاسم الفعل واجب .. الفعل فرض : ولا أحد في أمان من مكر الدنيا .

- ٣ -

« قاسم .. يا صاحبي .. تعال »

ثلاث كلمات قالها الإسكافي لقاسم بصوت تسمعه كل الخلائق ، وأمسك بيد أخيه وابن زمانه .

- ٤ -

وهما في الطريق إلى خمارة مخالي - لم يتكلم الإسكافي ، أما المنكوب فلم يكف عن البكاء والكلام (الغير القادر اكترى الغسال الذي نزع القميص عن البدن وصب الماء على البدن ولف البدن العريان بالكفن ، الغير القادر شري قماش الكفن ودفع أجر الخشبة وأجر الحفار ، والتي كانت تمشي في النور على الأرض ، راقدة الآن في الظلمات ببطن الارض بمقابر الصدقة) .

سقت نفسك إلى مأزق ياولد ، فأنت مفلس ، لكنك لازين
ولاشين - مادامت الخمرة سترفع الحزن عن نفس
الصاحب ، ولقاسم بلديات يكسبون ويشربون ، لو كانوا
هناك بالخمارة - سينادون « هات خمرة يا مخالي لقاسم وا لإسكافي ،
وفي هذا نجاتي من كل ضيق .

« اسكافي المودة »

- ٥ -

خمارة مخالي خالية ، ففي هذا الوقت من أوقات النهار ينشغل روادها من ناس
السوق عن الخمرة بأمور العيش .

- ٦ -

ستظل يد الإسكافي مدسوسة في جيبه : تعبث بالوهم وتخلق الوهم - ولن
يخرجها من جيبه إلا بعد ما يبلع مخالي الطَّعم .

- ٧ -

راح مخالي بالأكواب الفارغة وجاء بالأكواب مملوءة ، وحاور الإسكافي مخالي
بكلمتين طبييتين، ثم عبس ورسم ملامح الحزن وجرع كوبه المرة بقرف، وطلب من

مخالى خمرة له ولقاسم ، وأشار الإسكافي إلى المصيبة التى حلت بقاسم صبح اليوم .

قال الخمار اليونانى « كلنا من التراب وكلنا للتراب » .
وقال المسيحى اليونانى وعينه على قاسم « الصبر حلو والله كبير » .

- ٨ -

نفخ قاسم: « خرج الولد من الدنيا قبلنا - وكنا نتمنى أن نخرج من الدنيا قبله .. وخرجت أم الولد من الدنيا قبلى - وكنت أتمنى أن أخرج من الدنيا قبلها » .

وزعق الاسكافي « خمرة يا مخالى » .
وقالت الجلود لقاسم « الملاك بحرية .. يجرح البدن ويستل الروح » .

وقال السلف لقاسم: « تبقى الروح معلقة مجروحة بجروح البدن حتى يتصدق أهل الميت على الروح بسورتين من كتاب الله » .

وقال قاسم لقاسم: « أنت غير نافع .. الفقير بعافيته » ،

وقال قاسم للإسكافي: « لا مال معى أدفعه للشيخ ليقرأ القرآن على روح المرحومة » .

قال الإسكافي: « لا تطلب قراء القرآن بأجسادهم يا قاسم .. كلهم يطلبون الأجر وأنت لا تملك الفدايين .. حاور الفقر بالحيلة » .

وقال الإسكافي « بالسوق أجهزة تدور فتلف أشرطة بحجم الكف وتتكلم .. ومنها نسمع الأغاني والحكايات، ومنها أيضا نسمع القرآن بالمجان » .

قال قاسم : « لن أطلب من مخلوق جهازه .. أقدر على الحزن .. سأحزن حتى يأخذنى الموت .. اطلب لى خمرة » .

أشرق وجه الإسكافي ثم عبس ونادى مخالى :

« هات لقاسم يا مخالى .. ولف لى زجاجة فى الورق » .

« اشرب واشرب ، سأحضر أنا الجهاز . لن أغيب ، لا تقلق يا قاسم
وكن بخير » .

« إسكافى المودة »

- ٩ -

بين نور وظلام وعلى أرض موحلة طالعة نازلة وبعد مشقة ؛ بلغ الإسكافى
نُحْصَ رجب جامع الخرق وناداه وسمع رده فحمد الله الموفق . جلسا متقابلين على
كوم من الخرق . ورجب رجب بالإسكافى - وقال : « أعمل شأى ؟ » . ورد
الإسكافى « لا .. نشرب خمرة » وعرى الزجاجاة من الورق ووضعها بينه وبين
رجب وطلب من رجب مسمارا ، وبالمسمار نزع السداده وألصق فم الزجاجاة
بأنفه وشم وقال : « خمرة طيبة » . وطلب من رجب كوين فأحضرهما . وصب
الإسكافى السائل الأسود الطيب فى الكوين وشرب كوبه على مهل وقال : « خمرة
طيبة » . قال رجب « خمرة طيبة .. هذا حق » . وقال الإسكافى : « صبح اليوم
ماتت زوجة قاسم » وقال رجب : « والله ما سمعت الخبر الا منك » . قال
الاسكافى « المسكين كالبيت الذى هدته دبابة .. لولاى لقتله الحزن » . قال
رجب : « مسكين قاسم فقد ابنه وأم ابنه وفقد نور عين ومع العمر فقد
عافيته » . قال الإسكافى : « هذا حق .. قاسم وحيد .. والوحدة مرة وصعبة
والناس بالناس والخمرة تبعد الوحدة لهذا دعوته إلى خمارة مخالى » .. وهو الآن
هناك يشرب على حساى .. ساعود إلى قاسم فقد يفعل المسكين فى نفسه شيئا ،
فالخمرة تزيح الحزن فى حين وتجلب الحزن فى حين إلا أن كلام الله وحده يلم

الأحزان من النفوس .. أنت تملك جهاز كهرباء يارجب ؟ رد رجب : « نعم
عندى .. أحضرته من ليبيا لما سافرت من عامين .. لكن لا كهربا في بيتي ..
جهازى يعمل بحجارة بطارية .. لكنه الآن بغير حجارة بطارية .. هات حجارة
بطارية وتعال مع قاسم وسيعمل الجهاز .. لكن انتظر .. كل الأشرطة التى عندى
أشرطة تغنى الأغنيات ولا تقرأ القرآن » . قال الإسكافى : « الغناء أيضا يدفع
الحزن .. هات الجهاز » . واحتضن الاسكافى الجهاز - وقال لرجب : انتظر
ساعة يارجب ثم تعال الى خمارة مخالى ، سأل رجب - وبان قلقه : « ولماذا
لا تحضر أنت وقاسم الى هنا ؟ » رد الإسكافى : « يارجب تعلم من الدنيا .. هل
ينتقل الحزين الى بيت الفرحان » قال رجب بخوف : « أذهب معك الآن » . قال
الإسكافى : « قد يظن العاجز أنك صاحب مكربة فيزداد حزنه » . وصب من
الزجاجة فى كوب رجب وقال : هذه الزجاجاة لك يارجب فأنا سأشرب هناك
الكثير . ودس يده فى جيبه وسأل رجب مستنكرا ويده تلف فى جيبه : « هل
تريد مالا يارجب ؟ .. هل تبغى الضمان الذى يحفظ لك حقك ؟ » تلجلج
رجب وأحس بالاهانة ودافع عن نفسه ونفى تهمة النصب عن الإسكافى -
وقال : « فهمتنى غلط يابن العم .. أنا قد أعجبك فى المواقف .. لكنى رأيت
الموت .. قطعت الأسلاك بأسنانى وهربت من حدود مصر الى حدود ليبيا ..
تسلخ جلدى وأنا أزحف على الرمل الساخن ونفدت بروحى من رصاص القناصة
النهايين قطاع الطرق أولاد على بمعجزة من الله .. ووقع قلبى لما رأيت أولاد العرب
فى الجيشين متواجهين والسلاح يابن العم يخلط الدم باللحم بالرمل .. وأنا لأقول
لك غير مارأيت .. كن على حريصا .. وأسألك : هل بمقدورى الآن بعد خصام
البلدين الحصول على جهاز آخر ؟ .. على أية حال مع السلامة .. سأتى بعد
ساعة » .

العرب فى الجيشين متواجهين والسلاح يابن العم يخلط الدم باللحم بالرمل .. وأنا
لأقول لك غير مارأيت : كن على حريصا .. وأسألك : هل بمقدورى الآن بعد
خصام البلدين الحصول على جهاز آخر ؟ .. على أية حال مع السلامة .. سأتى
بعد ساعة » .

مخالى .. ياساكن البيت العالى .. فى مخارتك كهرياء
.. خذ الجهاز واسمعنا غناء المغنين أبناء أيامنا ..
واسقنا من مخرتك السوداء لننسى سواد أيامنا .
(إسكافى المودة)

- ١٠ -

عودة الأسكافى إلى الخمارة أعادت الامان الى نفس قاسم ، وبنفس صافية
قطرتها الخمرة - باح قاسم للأسكافى بسر لم يباح به للراحلة شريكة عمره :
« النعل ابن النعل ماسح النعال دعانى إلى وليمة فطاوعته وذهبت معه ، فى البناء
المخصص للعلوم كان تلاميذه يكتبون ويطبعون ويهاجمون الحكومة ويتناقشون بعلو
الحس ، فدخلنى رعب وقلت لبكلة : « أين الطعام يا ابن النعل » ، قال « فى
أوقات الأكل يأكلون وتأكل معهم » ، « كان النعل ابن النعل يتنقل بينهم وكأنهم
أبناء عمه ويلمع أحذيتهم ويلم المال ، وأنا كنت آكل فقط لما يأكلون ، وجاء
الوقت الذى حاصرنا فيه البوليس المسلح ، ونادونا بمكبرات الصوت ، ثم هاجمونا
لما تغطرسنا فى الردود ، فسالت دموع وسالت دماء وتكسرت ضلوع وأصابنى
البارود فى عيني - إلا أنى زغت ولأعرف كيف ، ونصحنى بكلة الكلب بعدم
الذهاب إلى المستشفى لأن المستشفى حكومة تبلغ أمر كل صاحب علة فى زمن
القلاقل لعسكر الحكومة - وفى هذا سجنى ، وعملت بنصيحة ابن الكلب
وفقدت عيني » .

وباح الاسكافي بسر يكتمه - قال « بمعدنى علة موجعة تجعلنى لأرتاح إلا بالحمام أو فى الخلاء أو وأنا وحدى » وضحك الإثنان .. ضحكا بدموع .. فهما هما فى الحياة .. هنا فى خمارة مخالى قاعدان يشريان .

- ١١ -

فات وقت طويل وهما يعبان خمرة مخالى السوداء وينشدان الارتواء أو الحريق. لما التقت عين قاسم بعيني الاسكافي رمتها بكلام وزاغت خجلة - تذكر الاسكافي أنه كقاسم لم تدخل معدته اليوم لقمة ، ونادى مخالى « بعث لك الجهاز .. فيما بعد نتفاهم .. أعرف حسابى وتعرف حسابك .. هات الأخضر .. طلع من جيبيك وعدّ وشخلل » . لم يندهش الخمار اليونانى بل فرح وأخفى الحريص فرحه وكذلك الإسكافي غمره سرور أخفاه وقبض على الجنيهات الورقية - وقال : « قليل » . وقال مخالى : « الجهاز قديم » . وقال الإسكافي : « يعوضنى رب المسلمين ياكافر » وابتسم . رد مخالى مبتسما : « أنا نصرانى مؤمن كفرت لما عشت معكم يامسلمين » .

- ١٢ -

دخل رجب خمارة مخالى - فى وقت تهدمت فيه كل الحوائط : لحمه مشوية وخمرة وألفة جمعت أبناء بحر مصر واليونان ، رمى رجب نفسه فى البحر وعام ، وضرب باليدين وعب بالفم حتى انتفخت بطنه وثقلت جفونه ، والبصر فى الرأس الثقيل يبحث عن شط ، والصوت البعيد للمغنية البعيدة من الجهاز البعيد يأتى ويروح : ثم عم صمت .

خذ سيجارة .. جهازك نسيناه البارحة بالخمارة .. لا تخف
يارجب .. الجهاز موجود والخمارة موجودة ومخالي موجود
.. الليلة نتقابل .. تعال نأكل لقمة وطعمية سخنة ..
تعالى نتغذى ..

(إسكافى المودة)

- ١٣ -

بعد ما شربوا من خمرة مخالي السوداء - حتى آخر مليم في جيب الاسكافى -
وبان لهم حرص مخالي وبقعه عن مجلسهم وتجاهله لأصواتهم المنادية وتصميمه على
رمى النار بالزيت ، مد الثلاثة الأيدي فتشابكت ، وأقسموا بالحق والميت والملح
والخبز والخمرة - أن يعيشوا من اليوم حتى الممات أخوة وعصا واحدة في مواجهة
الغير والعدوان .

حكى الإسكافى لرجب مادار بالأمس من خلف ظهر رجب وامتعض وجه
رجب ثم تذكر القسم فكلم نفسه بصوت مرتفع : « خمنت .. من البداية
خفت .. على أية حال نحن أخوة .. لكنى واجهت الموت وخرجت من حلق
الموت بجهازى » . رد الإسكافى : « أنت الآن يارجب غير قادر على الحصول على
جهاز .. وغير قادر على السفر .. الطريق إلى كل بلدان العرب مسدود ومحظور
وتقف على حدوده جيوش مصرية .. والإسكافى فى نظرك نصاب كبير .. يارجل
لاتخف .. جهازك ستأخذه الآن وتلمه بيديك » . قاطع رجب الإسكافى : « لم

أقل الإسكافي نصاب .. حاشا لله .. لكن كيف سأخذ جهازى وأنت بعته
 لمخالى ؟ » . قال قاسم : « الإسكافي لما يقول يفعل .. أنا خيرته » أكمل
 الإسكافي « إمسك بثوبى يارجب وأصرخ : حرامى سرق جهازى » . حاول
 رجب مقاطعة الإسكافي فأسكتته الإسكافي بيد مرفوعة وكف مبسطة - وقال
 « دعنى أكمل كلامى .. أفعل ما أقول لك وامنع ابن أى امرأة من العلوان على
 بدنى إمنع أنت وقاسم كل يد تطمع فى الأجر من الله لما ترض عظام الحرامى » .
 قال رجب : « لأفعل أكثر من الإمساك بك والصراخ : حرامى سرق جهازى ثم
 أحصل بعدها على جهازى !! » رد الإسكافي : « نعم .. هيا ولا تضع
 الوقت .. مخالى لو أراد شراء ألف جهاز لاشتراه .. أما أنت يارجب فلا وألف
 لا » .

- ١٤ -

صرخ قاسم صرخة الحيوان المجروح : « لاتلمسوا جسمه » . وصرخ رجب :
 « لاتلمسوه .. أنا لأعوز من الإسكافي غير جهازى » . وصرخ مخالى : « هاتوا
 العسكرى ليمسك حرامى بخماره مخالى » . وصرخ الإسكافي : « تمهل يا مخالى
 ولاتناد العسكرى .. أنا سرت جهاز رجب وأنت يا مخالى دفعت المال فى جهاز
 مسروق .. أنت شريكى فى التهمة يا مخالى .. لو جاء العسكرى سيجرنى من
 قفاى ويحرك من قفاك لأنك تشتري مسروقات .. ياناس نادوا الحكومة لى ومخالى
 والسياف الأسود يقطع رقبة الأبيض » . وتعالص أصوات رواد خماره مخالى :
 « القانون قانون .. القانون لايرحم .. القانون صريح .. القانون فوق كل الناس ..
 القانون سيف على رقبة الكل .. الحكومة بالقانون .. والقانون حكومة والحكومة
 قانون .. إرضخ يا مخالى .. إعطى الجهاز لرجب يا مخالى .. إقبل كلامنا يا مخالى
 ومالك عند الإسكافي ورجب صاحب حق » . قال مخالى « رجب سيأخذ جهازه
 ومالى عند الإسكافي آخذه من الإسكافي » . قال الإسكافي « إعطى رجب
 جهازه ومالك عندى » . قال مخالى « خذ جهازك يارجب وهات فلوسى
 يا إسكافي » . رد الإسكافي « أنا مفلس يا مخالى والمفلس غلب الحكومة ..
 والحرامى يخاف الحكومة كذا شريك الحرامى يخاف من الحكومة .. اختش يا مخالى
 يا شريكى وابتعد عن شرى وشر حكومتى » . قال ناس الخمار « ابتعد عن الشر
 وغن له يا مخالى » . قال « وخمركى .. شربوا خمركى ولم يدفعوا » . قال الإسكافي :

« قدمت لنا خمرة مغشوشة خربت معدتنا » . رد مخالي « أنت إسكافي لاموظف
صحة » . قال الإسكافي « جعلتنا نشرب لأننا لصوص نبيع مانسرق » .

قال اليوناني « بينى وبينك ربنا .. بينى وبينك حد لاتدخل خمارى » .

رد الاسكافي: « أحضر بمالى وأشرب بمالى » . رد مخالي « ياناس .. الاسكافي
يشرب وغيره يدفع » . رد الاسكافي « أنا أشرب وأصحابى يدفعون .. هم
أصحابى يا مخالي .. انتظر يا مخالي .. لاتقلب الأمور .. أنا أشرب خمرة خرا ريت لى
العفن فى معدتى وخرمتها وأصحابى يدفعون لك أنت ولا يدفعون لى » . قال مخالي:
« وجهك نتن لاتدخل خمارى .. لايدخل الاسكافي خمارى ياناس » . صرخ
الناس فى الاسكافي : « لاتدخل خماره مخالي يا إسكافي .. لاتدخل .. هذا حق ..
العدل حلو .. وهناك بالبلد ألف خماره » .

ضربتك ضربة يا مخالي فضربتني ضربتين ، غلبتني يا ابن الكلب
(إسكافي المودة)

- ١٥ -

جلس الاسكافي على حائط متهدم بنته الحكومة من سنين أيام الحرب مع
اسرائيل - وكلم مخالي الغائب :

« دنيا بلا خمرة لاتسمى دنيا يا ابن الكافرة .. وأنا لايطيب لى فى الدنيا عيش
بغير خمر .. جاوبنى يا يونانى ياخوان ياخواجا يا ذيل الكلب يا آكل لحم
الخنزير ؟ .. نسيت السنوات يا مخالي .. لا وفاء فى بلادكم ولا لكم صاحب ولا
عندكم صاحب .. سأمزق جلدك وأفري بدنك وألوك عرضك وأقول مخالي لاينام
مع زوجته، وزوجته تنام مع الغير من شبان بلادها .. لكن لا .. هذا كلام يهد
حيل أولاد العرب ولا يحرك شعرة فى رأس الخواجات » .

يأس الاسكافي من الكلام مع مخالي الغائب فكلم نفسه الغائبة أيضا :
« تنقشع الليالى والنهارات وتغور وأغور أنا بعد عمرى الشقى إلى حفرة مظلمة
وتأكلنى الديدان ويسيل من فمى وأنفى وأذنى صديد وقبيح ثم يحضر إسرافيل
وميكائيل ويبد كل منهما مرزبة ويشبعان الإسكافي ضربا لأنه شرب الخمرة الحرام
وفعل الإثم وخالف أمر ربه .

« هنا عاد الإسكافي الخائف من يوم الآخرة إلى دنياه فلم يجد غير أم البنات
مبتورة الشدين تلك التي تنام من الغروب للضحى وأطفالها الذكور يموتون - فهاج
قلبه الجسور وركل الهواء وسمع صراخ أم بناته فلم يهتم مادام الناس لا يسمعون
صراخها وماداموا يرونه على الحائط المهدم وحده يدبر أمره بمفرده ، فلا صاحب
للفقير مثله في بلد مثل هذا . من أجل أصحابي فعلت ما فعلت ولم يسأل عني
أحد .. وهم هناك بخمارة مخالي وكأني ما كنت يوماً بينهم .. وكأنهم ما عرفوني في
السوق والطريق والخمارة وفيما محباً لهم وللخمرة .. تلك طباع أولاد آدم بمصر في
زمن كزمننا يأكل فيه الأخ لحم أخيه ويبيع لحم بنته التي تحاكي القمرة لعجوز
هالك لا ينط قناة .. ملعون أبوك يازمن وملعون أبوكم ياناس وملعون كل صاحب
يتخلى عن صاحبه في يوم ضيق .. ماذا تريدون مني ؟ أقعد وسط بناتي وأحشر
لحمي في لحمهم وعلى نور لمبة جاز أعارك الفأر القارض وأفعض البرغوث مصاصة
الدم ؟ أم أقعد في السوق تحت الشمس أنتف شعر إبطي وألم القمل من ثوبي بينما
مخالي يتمخطر بخمارته وعلى رأسه ريشة ! ! » .

رقتك فى ىدى يامخالى ، السىجارة سلعة والخمرة سلعة ،
البقال بائع وأنت يامخالى بائع ، ومن لايبىع لمن ىريد أن
ىشتى - حتى لو كان إسكافيا - ىدخل السجن وىدفع المال
غرامة ، والحكومة صاحبة ولها رجال فى كل مكان ، إسمعى
يامخالى ولن يأخذنى أحد بلوم لما تخالف قانون حكومتنا المصرية
(إسكافى المودة)

- ١٦ -

كشر الإسكافى وزام لما لقى زوج الميته بخُص رجب : « عشت معى يومين
ياقاسم .. كنا لانفترق .. وأنت اليوم ببیت رجب .. أنت خسیس یاقاسم .. لم
تسأل عنى یاواطى ؟ » . دافع قاسم عن حق الصدیق المعاتب وأمسك بثوب
المحب الغضبان وحلف : « أنا ورجب رحنا السوق وفتشنا كل ركن فلم نجدك ..
أین كنت ؟ » . صرخ الإسكافى ونفض ید قاسم عن ثوبه : « كنت بجهنم ..
لرفع یدك عن ثوبى .. أنت كذاب وضلالى » . حلف قاسم بالله والنبى والكعبة
إنه صادق ، وطلب من الإسكافى أن یقعده ، وسأله . « أین كنت ؟ » لم یقعده
الإسكافى وسأل : « أین رجب ؟ » . قال قاسم « راح یصطاد لنأكل » . قال
الإسكافى : « راح ىسرق الطیر من بیوت الحریم الغافلات » ، وقال الإسكافى :
« لحم الطیر المسروق حرام » . قال قاسم بحسرة « لن تقعد ولن تأكل معنا
یاإسكافى ! » . رد الإسكافى « سأكل .. لم لاأكل : ؟ .. ربنا سیحاسبنى على
ذنوبى ولن یحاسبنى على ذنوب رجب » . قال قاسم : « ستقعد یاإسكافى ..

أقعد يا صاحبي وقل لي أين كنت . قال الإسكافي بقرف « كنت وحدي .. كنت مع نفسي .. قعدت على حائط أمام باب بيت أم بالوظة وكلمت نفسي ونبحت كالكلب » . شرد قاسم (الإسكافي ملك في اللعب على الحريم .. فعلى الجدار أمام بيت أم بالوظة ورفع حسه حتى تصحى نائمة النهار ورقاصة الليل وتفتح الباب وتناديه : أدخل يا إسكافي) ، وقال قاسم للإسكافي : « الرقص يبطن عريانه وصره مكشوفة حرام » . رد الإسكافي « الرقص حرام والكلام عن أم بالوظة بكلام فيه غمز ولمز حرام يا قاسم » . فسأله قاسم « ولكنك في حياتك لم تخرج من السوق ! ؟ لِمَ قعدت على الحجر أمام بيت أم بالوظة ! ؟ » .

قال الاسكافي « يا قاسم اسكت .. حيلي مهلود والزنا حرام .. من زمان لم أجرب .. الشقيان مثلي متعته خروج البول النسخن من قضيبه .. واليوم كلمت الحيطان وكلمت الهواء وكلمت نفسي وقلبت الكون .. كل يوم يمر على ابن آدم يعلمه حاجات .. الأرض ظلومة يا قاسم .. ظلمتنا وظلمت معنا البغل والحمار والكلب والطير .. حتى الطير في الدنيا مقسوم يا قاسم .. طير مشرد في السماء وطير على الأرض يمسك ويذبح .. وهكذا حالنا .. العالي في العلى يرانا من شبابه دود الأرض فوق التراب - بالقرب من جامع عمرو - في عراك مع الكلب والبغل والفأر والحمار والقطة والحصان والحشرة الضارة وحولنا القبور مفتوحة بشواهد .. وفي الأبيض كل الألوان يا قاسم .. والأسود هو الأسود والدنيا غالب ومغلوب .. الدنيا مشطورة يا قاسم .. الكبار مع الكبار والصغار مع الصغار في لعبة الغالب والمغلوب .. والمال يشتري الأرض وذم الأعيان وأبناء صهيون أغنى أغنياء الأرض .. والغنى لما يعرض يد صاحبه تقوم القيامة ويجن الغلبان فيهلوس ويرى مثلي اليهودي ويعرفه من وجهه ويكلمه ويعرف أن أيام السلامة سنين حرب .. فالحرب يا قاسم بعلامة، وصاحب المال بغير دين وبغير وطن وإن تكلم بالدين وملك الأوطان بماله .. لو واجه بدنك صيف العام وصيف عام فات أو واجه بدنك الشتاء والشتاء - فاعلم يا قاسم أنك في حرب ..

وفي زمن الحرب بنى شلتوت الحيطان أمام بيوت الناس ومات شلتوت ميتة البغل العجوز بينما الحيطان التي لم تعرف الحرب وعرفت بول الكلاب قائمة تشهد سنين السلام .. ومن مات أكله اللود ، ومن سيموت سيأكله اللود ، والفاعل الغلبان على الأرض فساء في ربح أو بدن جائع يأكل حتى أولاده » : قاطعه قاسم : « لم غاب رجب ؟ أخاف على رجب من الوقوع في يد من لا يرحم » . قال الإسكافي : « نعم .. رجب تأخر .. وأنا لأخاف على رجب فهو قرموط

سمك لايمسك في الماء . قال قاسم : « لو وقع رجب في يد الحكومة سيحبس .. والحكومة قد تأتي الى مكان رجب وتفتش فتمسكنا وترميننا في السجن » .

قال الاسكافي : « أنا أكره السجن ولأخاف السجن .. كنت أقول لك إن الجوعان يأكل أولاده .. وهذا حق .. فأنا فكرت اليوم في بناتي وأم بناتي وقلت للاسكافي أنت سجان يااسكافي .. أجلست أم بناتك في جحور الحيات وحكمت عليهن بالحرمان ، وخرجت لنور النهار والسوق ومن السوق هربت ياعاطل إلى خمارة مخالي وفي خمارة مخالي هربت من حالك . إلا أنك في ختام كل يوم تقع في عين الحفرة التي حفرها الغالب للمغلوب » .

- ١٧ -

قال قاسم « الحرام مُر » ، صرخ رجب « قم يا قاسم وتقياً ماأكلته » . رد قاسم « لم أقصد أن أمزح » . وقال الاسكافي « البطة كبيرة العمر » .

قال رجب : « لكن لحمها كثير وطيب » . رد الاسكافي : « هذا حق » ، وتذكر الاسكافي ماجرى له مع مخالي بخمارة مخالي وقال لصاحبيه « تعالوا نلعب لعبة » . قال قاسم « سيجه نرسمها على التراب وننقل الحجر .. لم يغلبني في حياتي مخلوق » . وقال رجب « عندي كوتشينه .. نلعب الورق » . قال الاسكافي « لا .. نلعب مع مخالي ونلعب على مخالي في الخمارة ونشرة خمرة » . وسأله الصاحبان : « كيف ؟ » . قال الاسكافي « يذهب رجب لمخالي ويلبس ثوب الناصح ويقول : « حاذر يا مخالي .. رأيت اليوم الاسكافي مع مخبر .. الاسكافي صديق المخبرين يا مخالي .. سيحضر إلى الخمارة ويطلب خمرة .. لو إمتنعت عن البيع يا مخالي ستغرمك الحكومة المال وستدفعه ، وبعد ذلك يسوقك مخبر الحكومة إلى السجن محطم الضلوع » (ويقول مخالي : لآمال مع الاسكافي) (فيرد رجب : الحكومة تعطى المخبرين المال .. والمخبرين يعطون المال لأصحابهم .. ويعينني رأيت الاسكافي يقبض) . زعق قاسم « المخبر يضرب الناس وصاحب المخبر يضرب أصحابه .. وضرر الأشخاص حرام » . قال الاسكافي : « أسبكت يا قاسم لتنضر مخالي سنلعب لنضر المصران بخمرة فسدانة » . سأل رجب : « كيف

ياإسكافى ؟ قالى لى ياعارف ؟ » . قال الإسكافى : « مخالى يشكر رجب على نصيحته ويعزم عليه بخمرة فيشرب رجب الخمرة ، ويدخل الإسكافى وقاسم فيهب رجب كالملسوع ويرحب بالإسكافى وقاسم ويجلسهما على طاولته ويقسم بأغلظ الإيمان أن يشربا الخمرة ، يقول رجب : الضيف لايدفع سأدفع أنا الحساب - ويتكلم رجب بصوت مرتفع فيهرول مخالى الخائف وهو يقول : الإسكافى ضيفى .. كللكم ضيوفى .. اشربوا على حسابى .. خمرتكم على حساب مخالى » .

الدنيا بنت الحيلة ، ومثلى إن لم يتحایل على المروق من
نخم الإبرة مات ميتة الكلب الجربان
« إسكافى المودة »

- ١٨ -

لما عمل رجب الخمور بتعاليم الإسكافى ، وقرقص وضغط على بطنه بركبتيه
ولعب بإصبعه فى حلقة : قاء وجهه قاسم بالندم - وقال « عواقب الشر شر ..
ليتنا مافعلنا الباطل » . وريت الإسكافى على ظهر رجب وأمره بالرقاد فوق
الخرق - وقال « أنت بخير يارجب .. ستكون بخير » . وأن رجب :
« مصارينى .. فى بطنى سكين » . وقال قاسم « مافعلناه حرام .. لولا الحرام لما
توجع رجب » . شخط الإسكافى فى قاسم : « أنا وأنت شربنا .. هل تشكو من
وجع ياحمار ؟ .. هل تحس بسكين فى بطنك » . شخط قاسم فى الإسكافى
« لو مات رجب سأكرهك لأنك قتلتة بلعبة حرام » . صرخ رجب وهو يعانى :
« لن أموت ياقاسم .. لماذا أموت ؟ .. أنا تعبان .. كل مافى الأمر أنى تعبان ..
الخمرة تتعبنى لأنى أحب الحشيش » . قال الإسكافى : « مخالى يونانى وليس من
ديننا .. وأنت ياقاسم لاتميز رأسك من رجلك .. وعينك دوما على الأرض » .
دافع قاسم عن نفسه : « ملعون جد جد مخالى ألف مرة .. رجب صاحبى وأنا
لاأريد له التعب .. وأنت تبتغى العراك بالإسكافى المودة .. وعينى دوما على الأرض
لأن كل واحد يضيع منه شىء .. كل الناس تضيع منهم أشياء .. وهناك ناس
تضيع منهم أشياء غالية .. ذات يوم سأجد أنا الغالى مرميا على الأرض .. هذا
أملى ومنأى .. لماذا تعترض بالإسكافى الكلب ؟ .. أنت لاتحب الخير

لصاحبك » . قال الإسكافي : « أنت سكران .. سكوتك أفضل .. أسكت
ياحمار » . قال قاسم « لاتشتم .. أنا لأسكر من بحر خمرة .. وأنت لاتبتغي لى
الخير .. أنت تكرهنى لأنى فى يوم سأجد الغالى وأصبح فى خير وأبص عليك من
فوق ياواطى » . قال الإسكافي : « لو وجدت أى شىء يا قاسم سأقطع يمينى ..
أيسكت ياسكران .. أنت تخوف .. أسكت أحسن لك » .

قال قاسم « اسكت أنت .. أنا لأأريد العراك معك » قال الاسكافي: « أخاف
عليك من العربات الجارية .. انظر لقدام ولا تنظر لتحت حتى لاتدوسك
العجلات وتعجن لحمك » صرخ قاسم: « حتى لأجد أى شىء ..
لاتنصحنى .. تخاف أن أجد الغالى وأقعد فى العالى .. أنت لاتصلح رفيق
طريق .. سلام عليكم يارجب .. أراك بخير يارجب .. نلتقى الصبح إن شاء
ربنا » .

- ١٩ -

صداع الخمرة السوداء يفلق الرأس ، والاسكافي مفلوق الرأس ولا علاج
لصداع الخمرة إلا النوم ، لكن الصاحب جامع الخرق فى ضيق يعانى من وجع
البطن وحاجة لعون ، وبعد زويدة خلقها قاسم ورحل - لم يبق لرجب غير
الاسكافي ، لو نام رجب سينام الاسكافي ويصبحان فى حال أفضل من الحال ،
والخمور عيل والعيال ينامون على سماع الحكايات، إلا أن الاسكافي نسي ماحكته له
أم أمه من حكايات فى السنين البعيدة ، والعيال لا يميزون بين كلام الحكايات
وكلام الدنيا والاسكافي بحياته الطويلة قوال .

رقد الاسكافي على كوم الخرق بجوار رجب - وقال :

لم تبصر عيني أسفل ولا أخط منك يازعتر .. لا يغرثك غناه يارجب ، فهو نتن
شحيح بطنه كلها قيح .. طلع من فوق لتحت على قفا امرأة تحب اللّم
والضم .. امرأة مصت عافية رجلين وعندها من الأولاد ستة لكنها متعلمة عقلها
يلعب ببلدين .. كلبة مملودة اللسان حركت زعتر كما تحرك الخاتم فى بنصرها ..
قالت له : « .. لف على البيوت يانشيط وهات لى صغار المدارس أعلمهم من

علمى بالأجر ليسيروا فى سكة التعليم الطويلة » .. كيف غافلنا ابن النجسة وتزوج من تلك التى نناديها بعد مرور السنين بالست الناضرة ! ؟ فزواج المنافع مكن زعتر من شراء الأرض بالملايم ليكسب الجنيهاً .. من مال غيره وجهه غيره أقام العمارتين بطوايق وسرايب وأزرار .. والأب صار يمسك بيد ولده التلميذ بمدارس الحكومة ويقوده ليتعلم بمدارس زعتر .. والمدرس بمدارس زعتر هو نفس المدرس بمدارس الحكومة .. المنفعة يارجب تخلق الطمع والطمع يخرب البلاد لما يمشى فوق برها ألف وسخ مثل زعتر .. والمدرس الطماع يطلب المرتين ليأخذ يمينه من الحكومة وبشماله من زعتر .. وزعتر يدفع الملايم لمن يمتحن التلميذ .. فينجح التلميذ الخييان ويكسب زعتر الجنيهاً والسمعة الحسنة ، ويقول آباء التلاميذ: « مدارس زعتر خير من مدارس الحكومة » .. أما صاحبي المتعلم الفاهم فقد صارحنى بأن النصاب ابن الهرمة لم يعلق لافتة المدارس على العمارتين لأنه لو علق اللافتة سيكتب عليها: « تحفيظ قرآن » وبذلك ينكشف أمره .. العفريت دفع المال للحكومة وحصل على تصريح بتحفيظ القرآن واستأجر الفقيه العاقل عديم الضمير ابن أنيسه: وفى أول كل شهر يروح ابن أنيسه ويقبض الحسنة من زعتر .. أما زعتر فيقبض آخر العام من مال أوقاف المسلمين المعونة المالية الكبيرة ومع ذلك لا يحس بشبع قط .. يحبس الماء عن المباني ويمنع الماء عن أبناء الناس وكذا يمنعهم من دخول المراحيض .. ومن يومين رأيت التلاميذ يارجب يشربون من مقهى عش الليل وصاحب عش الليل يطارد قبيحهم ويقرص فخذ مليحهم .. هذا هو زعتر يارجب يأخذ ولا يدفع وأخاف أن نقوم من النوم ذات يوم فنجده ملك البلد حتى نشرب أنا وأنت المر مرين .

وسمع الاسكافي ديب أقدام فداخله شك أن الديب فى رأسه ففرك رأسه براحتيه وأغمض عينيه وفتحها ليجد ابن آدم من لحم ودم ينادى ساكن الخُص باسمه ، هنا هز الاسكافي صاحبه المتعب النائم بعنف الخائف المتشوق لجلاء كل غامض « قم يارجب .. قم .. الرجل يناديك أنت لا أنا » .

حال بناتي المحبوسات أفضل من حالي ، أما أنا فلا أب
ولا أم : غزالة في البر .. شاردة .. يطاردها دوما صياد

« إسكافي المودة »

- ٢٠ -

قال رجب « المكان مكانك .. أهلا بك يافتح الله » - وغلبه النوم فنام .

هزه فتح الله - وقال له « سمك في بحر » .

رد رجب « سمك في نيل » - وغلبه النوم فنام .

هزه فتح الله « لوئت البيض ؟ » - وقرصه في جنبه حتى لايعاود النوم .

رد رجب « لاتأكل السليمة .. لونه أنت » .

قال فتح الله « واحدة مكسورة .. وواحدة في القرن .. وواحدة في جيبي » .

قال رجب « سلامة لك .. اسحب الشبكة » .

وغلب النوم رجب فنام . وبش فتح الله في وجه الاسكافي ومد يده بالسلام .

وقال « أهلا بك .. أنا صاحب لرجب » . مد الإسكافي يده وصافح فتح الله وقال : « .. وأنا صاحب لرجب أهلا بك » . وسأل الإسكافي فتح الله « ولّى الخوف وبقي العجب يا صاحب رجب ؟ » فرقع فتح الله ضحكة وقال : « لاعليك يارجل ولا خوف ولا عجب .. كلمه بلغة أهل الحرفة » . قال الإسكافي : « أنا كنت فى يوم صاحب حرفة .. لكنى لم أفهم كلامك مع رجب » . سألته فتح الله : « هل عملت بالفن ؟ .. هل أنت فنان ؟ » . أجاب الإسكافي « لا .. كذا رجب لم يعمل بالفن !! » . ضحك فتح الله وخبط الإسكافي على فخذه « لم تفهم قصدى .. أنا ألعب باليدين وأزوغ بالقدمين .. أنا خطاف » .. وضحك الإسكافي وقال : « سراق ونهاب .. يارجل نشفت الدم فى عروق .. ركبني الخوف لما رأيته .. فسر لى كلامك الملعز مع رجب » . قال فتح الله : « سألته الأمان - فقال الدار أمان ولا أحد معنا ، قلت له هنا رجل - فقال لى صاحب بعين وصاحب بعينين وقد فارقانى ، ولما قرصته أفاق وراك - وقال إنك صاحب عزيز أمين على السر وأنتك غزالة البر الشاردة ... أما الباقى من كلامى فسأفسره لك يا إسكافي لما آكل من عيشك وتأكل من عيشى .. معى حشيش .. ألف لك سيجارة مخلوطة » . رد الإسكافي : « أنا أحب الخمرة .. هات سيجارة ولا تخلطها ولو كان معك خمرة سأشرب » . قال فتح الله : « أنا لأشرب الخمرة » الآدمى منا لو شرب الخمر يكثر كلامه ويخف عقله وتتعارض أفعاله وتهتز يديه » . رد الإسكافي : « أنت لم تجربها .. وماقلته لم يحدث لى » . قال فتح الله : « بينى وبينك .. أصابع اليد الواحدة غير متساوية والناس مختلفون فى الشكل والمزاج .. والخمرة محرمة بأمر الله وكلام النبى .. أما الحشيش فمكروه والمشايخ وأهل الطرق يشربونه .. والحشيش يجعل النور نورين والخوف خوفين . ومن هنا فالحشاش حريص على اللوام يرى موضع قدمه » . واشتبك الإسكافي المحب للجدال مع فتح الله فى نقاش - وقال إن الخمرة حرام لكنها لا تضر إلا شارها أما اللص فيضر الغير لما يسرقهم . وأقسم فتح الله « فى حياتى لم أسرق من محتاج » . لعن الإسكافي عثة اللسان واعتذر لفتح الله بكلام لطيف وجامله : « أنت رجل والرجال فى أيامنا قلة .. وأنا لم أقصدك بقولى .. ليس من طبعى الغمز واللمز .. كنت أقصد بكلامى صاحبنا الراقد .. رجب صاحبنى وصاحبك ، لكنه يسرق طير الأرملة ويحفر حفرة ويدس الريش ويدم الحفرة بالتراب فيخفى فعلته المشينة ، ولما يسمع صراخ المحتاجة ونديها لاتدمع له عين » . وتقبل فتح الله عذر الإسكافي ووجد العذر لرجب . كما وجد الإسكافي الحل الشافى والإجابة الوافية :

رجب عاص لاجرم ..
والمحتاج معذور إن سرق ..
هناك لص كبير ولص صغير ..
وأكبر اللصوص هم حكام أى بلد فيها لصوص ..
وسرقة حياة الناس هى أكبر السرقات ..

وقال فتح الله إنه يشرب البيرة أحيانا ، فالبيرة تغسل البطن وتنظف المصارين
وتدر البول وتفتت الحصوة فتسلم الكلية . وقال الإسكافى : « أنت تتكلم
بالحكمة .. وصداقة رجل مثلك كتر لايفنى .. والناس أحرار فيما يجبون
ومايكروهون .. والعدل غائب إن احتاج الإنسان أشياء موفورة وعجز عن نيلها ..
ومن سرق وهو محتاج لاحساب عليه .. أما السجون فمملوءة بالمظالم .

- ٢١ -

فرط فتح الله دخان سيجارة وخلطها بالحشيش ولفها من جديد وأشعلها
وقدمها للإسكافى المحب للخمرة - وقال : « جرب وميز وفاضل بين المتعتين وقل
لى رأيك ؟ » . وقال : « سألنى بينكم ثلاثة أيام وبعدها سأرحل » . قال
الإسكافى « هكذا سريعا .. سنشعر بالوحشة لغيابك .. الأيام الحلوة تمر بسرعة
والأيام المرة تمر ثقيلة وبطيئة .. متى نراك ؟ » . قال فتح الله فى اليوم الرابع أعود
وأبقى بينكم ثلاثة أيام ثم أرحل .. والباقي عند علام الغيوب » . قال الإسكافى -
وقد دوخه المخدر وضاعف من إحساسه بضعف قواه « عجيب أمرك يافتح الله ..
فسرلى قولك ؟ » . قال فتح الله : « أغيب عن مكان الفعل ثلاثة أيام ثم أعود
إليه وأفعل فعلتى بخفة وأتحرك بسرعة فأنقل إلى مكان ثالث أتخلص فيه مما سرقت
بالبيع ثم أعود إليكم بخُص رجب وأعيش معكم ثلاثة أيام وأعود إلى مكان الفعل
بعدها يؤخذ بجرمتى نكرة سرق مرة وتاب عن السرقة .. ومن غنائمى يرتشى الخبر
فينخرس لسانه ، وأعيش أنا أيامى فى مجبوحة حتى أفلس .. فأهتبل فرصة أخرى
وأكرر الفعل .. وهكذا تسير أيامى » . قال الإسكافى وقبض يمينه على جنبه
يسكت الوجع : « ستركنا يافتح الله لتسرق .. ولهذا أتيت إلى مكان رجب تبغى
الأمان وبقيت معنا ثلاثة أيام لتورطنا فى حبك » . قال فتح الله : « لاختيار لى ..
هذا نصيبى من الدنيا .. هذا نصيبى من الدنيا » . قال الإسكافى : « يا ابن آدم
ياعجيب ياغريب ترمى روحك فى الخطر ثم تندب : لاختيار لى فيما أفعل » . قال

فتح الله : « لو توقفت عن السرقة يا صاحبي فلن أجد المال لأقدمه رشوة للمخبر حتى أشتري سكوته فلا أقع في المخطور وأساق إلى الحبس مع جماعة المشبوهين ليقرأ الضابط أفعالي القديمة من ملفي القديم فيحيلني بعد ضربي بالسياط والنعال إلى القاضي الذي يقرأ ملفي القديم ويدينني بجرمي الأول القديم عن جرم جديد لم أرتكبه .. هل تريدني بالإسكافي المودة لعبة في يد الضابط والقاضي والمخير ؟ » .

قال الإسكافي « حاشا لله .. لكنك صاحب .. وأنا أخاف عليك من ضرر أكيد » . قال فتح الله : « من سرق مرة ووقع في يد الحكومة فهو سارق .. ومن سرق ألف مرة ولم يقع في يد الحكومة فهو شريف » . قال الإسكافي الواقع تحت تأثير المخدر - وقد تساوى عنده الوجد والعافية والشر والسلامة : « منك نتعلم يافتح الله .. قل المزيد واروني أنا العطشان .. قل لأعرف أكثر » . قال فتح الله : « ومن سرق مرة ووقع في يد الحكومة واعترف بما فعل تحت بطش الحكومة عاش في السجن مهانا يخدم هذا وذاك وربما نام على بطنه وصار امرأة .. ولو فكّر في التوبة طلبا للأمان فسيتحول إلى خرقة حين لا يجد المال ليدفعه للمخبرين وسيكفر حتى الممات عن جرائم الغير .. أي أول من ظلمني .. كنت أعرق وأبيع جهدي للظلمة نظير مال قليل .. وكان أي يأخذ مني المال وهكذا فعل مع أخي الكبير من قبلي فهرب وهربت أنا مقلدا أخي الكبير ، واحتميت به فسرقت جهدي يومي وظلمني كما ظلمني أي ، فهربت من سلطة أخي وعشت حياة الصبية المتشردة ، وساق لي الله المعلم فعلمني فن السرقة .. ومن يومها وأنا أسرق .. دخلت مرة ورأيت السارق الظالم العزيز ورأيت السارق المظلوم المهان .. من يقبل الظلم يعيش الظلم طول العمر .. ومن يرفض الظلم يفوز من الطريق بمتعة المغامرة وقد يحصل على لقب أفندي أو بك أو باشا أو وزير أو رأس بلد .. هل فهمتني يا إسكافي ؟ » قال الإسكافي : « فهمتك .. ففى بلدنا المأمور وعبد المأمور وعبد عبد المأمور . إن عدت من غزوتك سالما .. هات معك للإسكافي زجاجة خمرة » . قال فتح الله « لك مني زجاجة مسدودة العنق ملفوفة في ورق » . قال الإسكافي « سأنتظرك .. لا تخلف الوعد .. ولا تكن كالغراب » . قال فتح الله : « تشبهني بالغراب يا إسكافي ! ؟ » . قال الإسكافي : « لا .. ولكن للغراب مع الديك حكاية مشهورة » . قال فتح الله : « وما حكاية الديك مع الغراب ؟ » . قال الإسكافي : « في الزمان البعيد كان الديك يطير وكان الغراب لا يطير ، ذهب الإثنان إلى حانة وشربا ، فلما فرغ الشراب طلب الغراب من الديك أن يعيره جناحيه ليحضر خمرة ، وطار الغراب بأجنحة الديك ولم يرجع حتى يومنا هذا .

بينما الديك المغفل يصيح كلما رأى الضوء وينادى الغراب : هات الخمرة وهات
جناحي لأطير ولا تعرضني للذبح ياأسود الطير « قال فتح الله : « أنا لا أخلف
الوعد .. لكن الطرق مخوفة بالخطر ومجدورة بالحفر .. تذكرني بالخير ياإسكافي
المودة واطلب لى السلامة » .

وعدتني بالخمرة يافتح الله . تعال وهات الخمرة تعال وخذ
جناحك ورد إلي جناحي لأطير . ولا على أن نغت مرة -
فمن يوم ولدتني أمي وأنا أنفذ من معصية فأقع في معصية

« إسكافي المودة »

- ٢٢ -

ثلاثة أيام قضاها فتح الله بخُص رجب مع الإسكافي وقاسم ، وبمال فتح الله
القليل أكل الأربعة الأكل الطيب ودخنوا السجائر الخالصة والسجائر المخلوطة
بالخشيش وشربوا الشاي واستمعوا لغناء المغنين والمغنيات من جهاز رجب لما اشتروا
من مال فتح الله حجارة بطارية ، ولما فارقهم فتح الله على وعد باللقاء بعد يوم -
ودَّعوه آخر وداع وتمنوا له السلامة في خطواته ، وبعد رحيله مدحوه ، وقالوا إن
الغائب كان لطيف المعشر طيب الطبع حلو اللسان أمثاله في أيامنا المظلمة نادرة ،
وأقسموا ان فتح الله « الأخ الرابع والصاحب الرابع . وسره في حفرة عمقها ميل »
وأقسموا إنهم لن يستخدموا علبة الثقاب المملوءة بأعواد الخشب ، ستظل كما هي
ولن تمس إلا إذا حضر فتح الله سالما من غزوته - فهل يعقل أن نفرط في رمز تركه
لنا الغائب ليذكرنا به - مجرد أننا نريد أن ننخر به أسناننا التي أكلها السوس عقب
كل أكلة ، ومدحوا موقع خُص رجب المعمول من عيدان الغاب المرمية على حائط
سور مقابر اليهود المهجور ، وتذكروا حكاية عبد الناصر مع الباشا اليهودي باني
المقبرة فتناوبوا سرد فصولها :

في عام ١٩٥٦ هاجمت دولة الانجليز وفرنسا وإسرائيل مصر المحروسة أيام حكم عبد الناصر . وكان عبد الناصر قد خطب خطبة بميدان في الاسكندرية أُم فيها قناة السويس .. وأثناء الحرب حاصر رجال عبد الناصر يهود مصر في بيوتهم ومن خافوا من غدره رموه في السجن .. وبعدما انتهت الحرب رحل يهود مصر من مصر ، وأُم عبد الناصر أملاكهم كما أُم أملاك الأجانب جملة .. وبالذبابة التي حاربت شق الجنود بطن الجبل وأقاموا الشارع الموصل للمطار وسماه عبد الناصر « شارع صلاح سالم » . وصلاح سالم زميل عبد الناصر في حياته العسكرية ، وقد مات . والغاية من الكلام : أن الذبابة قسمت مقابر اليهود قسمين - القبور في ناحية والحديقة في ناحية .. وبنى عبد الناصر مكان الحديقة الواسعة مدرستين ومساكن شعبية ومستشفى وملاعب للكرة ... ومرت الأيام وامتدت يد أهل عزبة أبو قرن ونهبت كل ثمين في مقبرة الباشا ونزعوا الرخام وباعوه لأصحاب الدكاكين بالقروش ، وطفحوا البيرة كما طفحت المجارى وأحاطت بالمساكن الشعبية ونحرت حيطانها وأغرقت قبر الباشا وسائر مقابر اليهود التي تهدمت أحجارها .

كما تهدمت شرفات المساكن الشعبية لأن مقال البناء لص لا ضمير له خلط الأسمت بالتراب لا بالرمل، بينما عبد الناصر انتقل من دار الباطل إلى دار الحق، ولم يشهد معنا أيام السلام مع دولة اليهود، وهذا ما أغضب منا دول العرب فخاصمتنا وسببت حكومتنا في الراديوهات .

وأحسن الثلاثة بالذنب لأنهم لم يفيضوا في تعداد محاسن رابعهم الغائب - فتذكروا أقواله وقلدوا أفعاله وظلوا ساهرين حتى قطع الأبيض بالسيف رقبة الأسود وأذن ديك الفجر للفجر، فرأى كل منهم وجه صاحبه . وسمعوا ديب أقدام الحرس المسلح الطواف على تراب الدروب يبتعد - وقالت لهم امرأة من قلب الصندوق المتكلم « والآن تشدو مغنية الجبل : عائدون .. عائدون .. إننا لعائدون .. » .

كنا أربعة .. ولم نعد أربعة .. وفي الذى جرى قولان
وجرم له دافع وجنون حاصد .. وفي الذى جرى أسوأ ختام.

« إسكافى المودة »

- ٢٣ -

عاد رابعهم سالما موفقا - والمال مسرة ومتعة . بر الوفى بوعدده وجاء بزجاجة
الخمير على شكل قرية من جلد أرنب البيت وبحجم قرينه من جلد أرنب البيت ،
بغير رأس ، مسلودة العنق بفليضة ، ملفوفة الجسد فى ورق ناعم يشف عن ماء
الحياة الجارى فى الجسم ، ورق له لما يلمس صوت الطير على الشجر يسبح بحمد
شمس الشروق وشمس الغروب . وييمينه - سلمت يمينه - صب غاسلة الهموم فى
الأكواب ، وقال هو المحب للمخدر : « من أجل أخوة الرجال سأشرب كوى ولن
أثنى » .. وقال رجب : « وأنا مثلك يافتح الله .. والاسكافى وقاسم يعرفان
ما فعلته العدة فى المرتين » . وقال قاسم « قسمتنا الخمرة وليجمعنا الحشيش
سلطان السلاطين » . وطرح الاسكافى أكل اللحم المشوية حتى ينتصب العود
المائل ويقوى على الشرب والتدخين . رحبت الجماعة بأكل اللحم وحمدت الله
على وجود المال محقق الرغبات . وغادروهم قاسم إلى شواء شهير لقبه سكان خرطة
أبو السعود بالخلو الطيب ، فهو يدعك لحمته قبل شيها بخلطة من البصل والفلفل
والثوم والملح ليكسبها الطعم الطيب والرائحة الطيبة . حط الاسكافى زجاجة الخمير
على حجره ولاطفها بحمى الكلام « أنت أم لمن لا أم له ، وأخت لمن لا أخت
له ، وأنت الأب والبنين والأهل وسنين النيل وعمر النخيل .. وأنت دم الظهر
المرفوف المذبوح » .

وفرك فتح الله الدخان وخلطه بالحشيش ولف السجائر وكومها . والثلاثة ينظرون إلى المتعة الدانية، بعيون الرغبة المقيدة بحضور رابعهم قاسم كريم العين.

- ٢٤ -

والصندوق المتكلم بقم الحجر المشحون بالكهرباء - سب بلسان عرنى، العروبة المتعطشة للدم المصرى والاسرائيلى؛ والمطالبة بالحرب، والتي تهاجم معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية التي وقعها باسم الله وبمحمد الله الثلاثة الكبار كارتر والسادات وبيجين فى كامب ديفيد . ووعد الرئيس شعب مصر الطيب بالرخاء ورفع العناء إذا ما حل السلام بين جيران اليوم وأعداء الأمس .

ورمى رؤساء العرب وملوك العرب وكبير فلسطين المحاربة باتباع تعاليم موسكو الحمراء الحاكمة .. وأنهم رفعوا أيام الحرب سعر البترول، وقذفهم بالغيب وطالبهم بالسير خلفه فى مسيرة السلام التى يقودها كارتر رئيس أمريكا وصاحب مشروع كارتر للتعمير والبناء بقروض أمريكية فى ظل سلام دائم وشامل وكامل فى الشرق الأوسط. وصفقت الجماهير للسادات وغنت مغنية للسلام والأمن والأمان ودولة العلم والايمان والأسرة المصرية الواحدة بفقيرها وغنيها .. ولغنت الحقد والحاقدين دعاة هدم البيوت ونصحتهم بالحب معمر البيوت وطارح الخير والبركة فى ربوع مصر قلب العروبة وسيدة العالمين .. وصفقت الجماهير للمغنية، وطالبهم المذيع المصرى بتحريك مؤشر الراديو والبحث عن الموجة الجديدة - ففعلوا . وخطب فيهم عبد الناصر رفيق الميتين - فركبهم رعب وأطبقوا بأكفهم على فمه وأجبروه على الهمس - فهمس : ماأخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة .. وهنا فارق بين السلام والاستسلام . وصفقت الجماهير لعبد الناصر وهو بين الأموات !! وغنى المغنى ولايمك ياريس من الأمريكان ياريس خلفك أشجع رجال . وصفقت الجماهير للمغنى وهو بين الأموات !! . وقال المذيع إن بغداد هى صوت العروبة . وركبوا الموج وراح بهم الموج وجاء فى الأزمنة والأمكنة فسمعوا صوت دمشق وصوت السعودية وصوت الرصاص وركض الأقدام ودييب أحذية الجند المسلح وصراخ النسوة ورنين أجراس الكنائس وآذان المؤذنين وشتائم الأخوة أبناء البلدان تأتى وتروح « يأكلة الفول .. يأكلة الفول يا قوادون » حمدوا الله رب العالمين أنهم طلقاء .

ولما رأوا كريم العين يحمل اللفة حملوا الله رب العالمين ثانية ، وتحافظوا اللحم ونزعوا الورق والعظم عن اللحم وأكلوا بسم الله الرحمن الرحيم ، ودار الشراب فشرب اثنان ، ودارت السجائر فشرب الأربعة ، وبعينين مغلقتين رأى قاسم الثور يناطح الثور ويغرس قرنيه فى بطن ابن جنسه ويلبور فى المكان ليعجن بحوافره عنزة وقطة ودجاجة ، ورأى أم ابنه صارخة والابن باكيا مملود اليدين ، وسب قاسم الحشيش خالق الهلوسات همسا ؛ ولعن أكلة اللحم التى لاترد جوع العمر ووهن الجسد . وسمعهم يضحكون على نكتة - فقال قاسم « مليحة » وطالبهم بترديد فزورة قديمة لايعرفها إلا سكان صعيد مصر تقول « ملزنا لز ملزكم يقدر ملزكم يلز ملزنا زى ماملزنا لز ملزكم »

على صوت المغنيات والمغنين والخطباء والزعماء والطير والريح وأقدام المارة وأحذية الحرس المسلح وجدال الممثلين ودق الموسيقى - كانوا يشربون ويغنون ويلقون النكات ويتعلون عن مواطن الزلل والمعاصى التى يعاقب عليها الحكام رعاياهم . اتفقوا على أن نجاح أى مرشح فى انتخابات مجلس الشعب الجديدة لن يغير من مصيرهم إلى أحسن كما أنه لن يهبط بهم من أسفل الدرك إلى درك أسفل ، كان مايشغلهم هو - إلى من سيذهب القماش المكتوب عليه : انتخبوا السيارة أو الشمسية أو المفتاح - من سيأخذ قماش اللافتة المعلقة على شخص رجب - قال رجب : أنا أحق بالقفل والشمسية والمفتاح وكذا النخلة . ورد عليه الثلاثة : نعم أنت الأحق . وقال رجب : لو حاول أحد من سكان القبور سرقة اللافتة فسأقطع يده وعليكم معاونتى . قالوا له : سنعاونك نحن أخوة . قال رجب : ألا يكفهم سرقة أكفان الموتى : فسألوه : من من سكان القبور يسرق أكفان الموتى . قال رجب : كل سكان المقابر يسرقون أكفان الموتى . قال قاسم : سرقة أكفان الموتى حرام ، وسأل قاسم وهل يسرقون أكفان النسوة ؟ رد رجب : هم يسرقون أكفان الذكور والنساء ويمتنعون عن سرقة أكفان الأطفال ، فهم يظنون أن من يسرق كفن الطفل لايفارق القبر الضيق المظلم حتى يأتيه الموت بعد عذاب الجوع والعطش . قال قاسم : « هذا صحيح » .

قال رجب : « لاهذا الكلام باطل - ولكنهم يسرقون أكفان الكبار لكثرة القماش ويمتنعون عن سرقة أكفان الصغار لقلة حجم القماش .. وذات يوم

خالفتهم وغافلتهم وسرقت كفن طفل رضيع وصنعت لنفسى مخدة أرفع عليها رأسى لما أنام . قام قاسم وقال : « سأمضى إلى المقابر .. لقد سرقوا كفن زوجتى وأم ابنى وهى فى قبرها عارية وعلى أن أسترها » صرخوا فيه : أنت سكران .. أنت مسطول . وأمسكوا به فقاومهم وأفلت من قبضتهم وجرى فجروا خلفه وسدوا عليه الدروب القريبة الموصلة للمقابر ، فلجأ إلى شارع عمرو وهناك رمته العربة تحت أقدامهم كتلة من اللحم والدم فرفعوه ونادوا العربة التى حملته إلى المستشفى رقم (١) . وقال لهم الأطباء صغار السن : « سنفعل ما بمقدورنا لنوقف نزيف الدم ولكن مصابكم يحتاج إلى الدم الذى فقدته وليس عندنا بالمستشفى الدم اللازم . قالوا : دمنا دمه .. قاسم منا . وقال أحد الأطباء صغار السن : دعونى أعاين دمكم فالدم صنوف .. فقد نعثر على فصيلة من دم أحدكم تفيد صاحبكم فحمد الثلاثة الله ومروا بالاختبار . وقال الأطباء صغار السن مشيئة الله فوق مشيئتك ومشيئتنا فتوكلوا على الله وانقلوا مصابكم إلى مستشفى رقم (٢) .

بحثوا عن سائق خير يقبل أن يحمل كتلة من اللحم والدم فعثروا عليه بعد وقت وجهد ، بينا قاسم مغلق الفم يكلمهم بعيونه التى خبا فيها النور : « لا أبغى ترك حياة أنتم فيها حتى لو عشت شقيا » . وفى المستشفى رقم (٢) قابلوا الطبيب الذى قال لهم بعد ما رأى حال قاسم وعاين بدنه بآلات من عنده : « صاحبكم فى مرحلة خطيرة فمقدار الدم الذى نزفه بلغ اللتر ونصف اللتر وما عندنا من الدم لايكفى .. سأحقنه بنصف لتر من الدم وعليكم احضار لتر من الدم من المستشفى رقم (٣) فإن لم تجدوا فعليكم شراء الدم من بنوك الدم » . ردوا : « المال معنا وتفاوضوا فيمن يذهب وفيمن يقعد مع المريض » . فنهزم الطبيب : « لو مرت ساعتان على صاحبكم وهو فى حالته تلك فسيتوقف عمل الكليتين وبعد ذلك ينتهى كل شئ إن لم يكن اليوم فغدا أو بعد غد أو فى يومه الرابع أو السابع » . قال الإسكافى للسائق « لاتقف لإشارة ولاتأبه لأوامر شرطة المرور فصاحبى فى خطر » . ورد السائق الطاعن فى السن على الإسكافى : قالوا فى الأمثال فى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة « سلامتى وسلامتك على الأقل » راح الإسكافى يكلم نفسه بعدما يأس من سائق العربة - قال الإسكافى : « أنا محتال راغب فى العيش أحب الخمرة .. ورجب قرد مكشوف العورة .. وفتح الله خطاف بقلب شديد نال من الحياة أكثر مما نلنا .. أما أنت يا قاسم فشقى فقدت الولد والزوجة وعافية البدن ونور عين ونصيبك من الدنيا قليل فليمنحك

الله عمرا طويلا وليساعدنا في توصيل السعادة إلى قلبك الحزين .. نحن الأربعة عصاة نخشى الحكومات وها نحن في يوم البلاء هذا نخوض معركتنا مع الموت من أجل حياة رابعة ؛ بقلوب لا تخاف الحكومات وتدخل بيوتها المسماة مستشفيات .

وها هم الثلاثة يجلسون حول المحقق ويردون على سؤاله عن اسم قاسم بالكامل - فقالوا « لانعرف » وعن سؤاله عن الزمن : « لانعرف » لسنا من حَمَلَةِ الساعات ، وعن رقم العربة : « لانعرف فنحن لانقرأ » ولما سأله عن المكان ردوا : « نعرف » هنا بخريطة أبو السعود بشارع عمرو بن العاص قرب الشجرة التي تظل الجالسين على مقهى السلام .. وبالتحديد بين الشجرة وعامود النور الحكومى رمت العربة قاسم كومة من اللحم والدم والعظم والظهر المقسوم .

وأناهم الطبيب وقال لهم وللمحقق : مات . فسكت الثلاثة ثم تطلّعوا إلى بعضهم وإلى وجه المحقق والطبيب . وبعدما وقعوا على أوراق المحقق بأصابعهم غادروا المكان . فالمستشفى الحكومى إذا ما حل الموت بالحى قامت بواجبها نحوه أفضل ألف مرة من أحياء كالإسكافي ورجب وفتح الله .

الصفائق القديمة
صالحية لشاره
الصفائق الحديثة

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

حين رأى — وقد انهكه السير الطويل ، وكان يصعد من الأسفل إلى الأعلى (المطعم الفاخر بواجهات من زجاج ، والرجل السمين القصير وصاحبه التي تلبس بالطو من فرو الدب — يأكلان : عجلا مشويا وديكا روميا وطاووسا محشيا وحثونا مقلبا بعد أن شربا من جيد الخمر تسع زجاجات .. وأمامهما تورتة الحلوى على شكل شاحنة وبحجم شاحنة)

صرخ — هو الجائع الحافي العارى — صرخته الأخيرة وارتمى فى حضن أمه الأرض ليستريح — عليه سلام الله .

أما الشارع — فهو مفخرة المدينة : الأشجار التى تظلل جانبيه شذبها يد فنان ملهم مشرق الطلعة ، تصدرت صورته غلاف مجلدين منتشرين هذا العام ، كلمته عند الصفوة مسموعة يهتف بها فى أى وقت من أوقات اليوم فتطير الطيور المبرقشة مفتسلة بالعطر وتحط بالصالونات وحجرات النوم ، لقد صمم بنفسه الجهاز تحفة فريدة لنفسه — منه يتكلم ومنه يسمع : كانت يد الجهاز المرفوعة من العاج بكف مبسوطة مثقوبة وأصابع منفرجة .

هنا — بالعالم — عربات على شاكلة الأوز والبط والنعام والتمور والظباء ، لكنها لا تدرج على أرض الشارع في هذا الوقت من الليل .

وهنا — بالعالم — الرجل المخمور العائد إلى بيته ماشيا على يديه وقدميه ، لما يصطدم بكومة اللحم — سيقف ، وينادى الدركى المكلف بحراسة المكان — ويخاطبه مخاطبة من لم يذق قطرة من خمر العرق الحارقة .

يقول المخمور الذى لم يعد مخمورا — للدركى :

« من أى قرية آتى ؟ ، من أى المدن جاء ؟ ، ده : من الأسلم لى ولن هم مثلى — وضع السؤال هكذا : من أى قرية دس علينا ؟ .. أى مدن العالم تلك التى تدس لنا ؟ عجيبة والله : وهل من جائع فى ربوع وادينا الخصب !! .. هل من عراة فى بلادى وها أنت ترائى يا سيدى الدركى منتعلا .. وها أنا أراك كذلك .. وكلنا منتعلون ، وسيد إقليمتنا السعيد عادل .. وفى صحيفة اليوم صورة له : يحمل ميزان العدل يميناه — سلمت يميناه — ويسراه — سلمت يسراه — يلوح لنا نحن جموع شعبه الوفى الأبى الخالد : باسمنا بقبضة من عيدان القمح والسمسم والقرطم الأبيض ، سأجعلك تراه يا سيدى الدركى ، لكن دعنى أفتش فى جيوبى الكثيرة عن صحيفة هذا اليوم ، أمهلنى من فضلك ، مهلا أرجوك ما من شك أن صحيفة اليوم كانت معى ، وما من شك أن اليوم هو اليوم ، اللعنة على وعلى أمى التى أنجبت خائبا — لقد فقدت صحيفة هذا اليوم ، سيدى : عفوا — أحيانا ينسى الإنسان منا حاضرة الطيب فيرتد للماضى الكريه .. حين ذاك يشعر بالجوع مهلكاً فيأكل كما الجرادة ، لكن : أياكل الإنسان الصحف ؟! ، عفوا سيدى : هل يتحول الإنسان إلى جرادة ؟ ، لقد كانت الأخبار السعيدة كلها هناك بالصحيفة يا سيدى ، آه : ما من خبر سعيد برأسى الآن .. ما من خبر سعيد ، يالى من تعس سىء الحظ — لقد كانت الأخبار السعيدة كثيرة بالصحيفة .. وجدى لأبى كان صادقا وعلى حق لما قال لأبى — قبل أن يموت أبى : إبنى دون بقية إخوتى سىء الطالع » .

وأشار المخمور إلى كومة اللحم — وقال بغیظ :

« لقد أفقدنى هذا المأفون صوابى »

ومضى يبكى مردداً :

« يا الله .. لقد نسيت كل الأخبار المفرحة .. بينا الآدمى — الآدمى الذى
يظلمه الغمام أحياناً — يتحول إلى جرادة !! »

تجاهل الدركى الخمور ، وتقدم من الرجل كومة اللحم ونخسه مرة بكتف
بندقية ومرة بسن جزمته ونفضه مرات ومرات وحاول شده لفوق — بيديه
المدربتين — فلم يفلح فى اقامته ، حين ذاك ارتد عقل الدركى إلى الحقائق
القديمة — فسار نحو الخمور وأمسكه من كتفه وجره جراً وقال له :

« إفتح عينيك على اتساعهما يا ابن العفاريت ولا تحاول خداعى — وقل لى :
ماذا ترى ؟ »

« هذا حجر .. لكنه كبير .. ما هو إلا نتوء قبيح بشارعنا الجميل
الجميل ؟! »
هذا ما قاله الخمور للدركى .

قال الدركى للمخمور :

« فى قولك الأول إقلاق لى . وفى قولك الثانى إقلاق لى .. والأمر فى حقيقته
جد مقلق — لكن هل تشك فى فطنتى وقدرتى — أنا الدركى — فى الوصول إلى
الحل الأنسب ؟ »

قال الخمور إنه لا يشك فى قدرات الدركى — أما هو فمصاب بحالة لا يمكنه
أن يسميها ولا ذنب للدركى فيها : لذا فهو مطالب بمحض اختياره الحر لتبرير
مقاصده النبيلة بالطريقة التى يراها الدركى .

قال الدركى :

« لا عليك .. إعطنى لسانك وسر فى طريقك سعيداً »
وقال الدركى لنفسه :

« أما أنا — رب البيت المكون من بنتين وولد وزوجة — فغايتى الوقت أقضيه
بمفردى مفكر فيما يجب على عمله أمام هذا الخطب الجلل الذى يخصنى
وحدى : أنا الضمير الساهر الحارس لكل النيام .. أنا الدركى الحى اليقظ لكل
أولئك الموتى والأعيب أولئك الموتى » .

ولما كان الخمور ما يزال بالمكان — نهز الدركى فمضى لحال سبيله ، وفكر في أن يغنى هو الخمور أغنية سعيدة — ففشل ، وتذكر أنه اسلم لسانه للدركى ، فعاد يفكر في أغنية حزينة — ولما فشل تذكر أنه مخمور ، وكان قد قطع مشواراً قريبه من داره — فتذكر أنه ترك لسانه للدركى ، وخاطب نفسه « غداً ألقاه وأسترد لسانى »

« أية مصائب تلك التى لحقت بى أنا الدركى دون سائر البشر ، ماذا أفعل ؟ ، ياله من تدبير محكم من شيطان لعين ، آه : لأستن برأى زميلى الدركى ، آه : ومن لى أنا الدركى — غير زميلى الدركى ، وهل لنا نحن رجال الدرك — بعد الزمن الذى أساء إلينا — غير إخواننا رجال الدرك ؟ »
— هذا ما قاله الدركى لنفسه .

ولما بلغ الدركى صاحبه الدركى — حكى له الأمر ، وتشاور الصاحبان ، وقد قر قرارهما على أن الأحجار بالطرقات تفارق اختصاصهما — وتصير إلى اختصاص رجال بلدية الإقليم .

هبطت السكينة بأجنحتها البيضاء على قلب الدركى ، وقال الحمد لله والله الشكر ، وتمخط وبصق ، وأشعل لصاحبه الدركى سيجارة — ولنفسه سيجارة ، وأسند كتفه المكشوفة على جذع شجرة تنفث رائحة طيبة : ومضى يطرد الدخان بفمه مرة .. ويمنخره الأيمن مرة .. ويمنخره الأيسر مرة .. ومرة بفمه ومنخره .. ومرة بمنخره دون فمه ، واستعاد ذكرى قديمة لحقيقة قديمة — سمعها من عمته العجوز : فكان لها الفضل فى أن يصير دركياً .

وحكى لصاحبه :

« يقولون إن الدركى رأى وهو فى تجواله رجلاً ، فما كان من الرجل الذى رأى أن الدركى رآه إلا أن ولّى فراراً ، هكذا لم يجد الدركى مفراً من الجرى خلفه ، كان الرجل ينزع أعضاء جسمه عضواً عضواً ويرمى بها على قارعة الطريق — حتى يكف الدركى عن ملاحظته ، وفى النهاية لم يجد الرجل مخرجاً — غير أن يستقيم على ساقيه ويتحول إلى شجرة »
— وسأل الدركى صاحبه الدركى عما يراه فى تلك الرواية . فأجاب الدركى صاحبه الدركى :

« هناك أمور في دنيانا — لو أعملنا فيها العقل العاجز عن إدراك حكمة
الإله : لما نابنا غير الجنون ، يبقى أن — نحمد لله نعمة أننا درك طواف .. ولسنا
من هذا الصنف من البشر — المولع بالتحول إلى أشجار أو إلى أحجار !! »

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

بلغ الخمور داره ، في وقت كانت الديكة فيه تهلل من فوق أسطح الدور
للفجر الطالع، بينما المؤذنون ينادون المسلم النائم « الصلاة خير من النوم الصلاة
خير من النوم » .. ظل الخمور يطرق الباب طرقاً متواصلاً ، ولما لم يفتح الباب
أحد ، قعد على الأرض وأهال التراب على رأسه ومضى يبكي، وهو يندب الزمان
واليوم وزوجة بغير ثدين تنام من الغروب للضحى وتنجب كل عام وأطفالها الذكور
يموتون .

* * *

على جلبة جد عظيمة ، أفاق الدركى من كابوس ثقيل ، فحمد الله وشكر
فضله ، وتطلع حوله ، ورأى النور يهزم الظلمة فخمن الوقت « بدأ تكون نوبة
ليلتى تلك الباردة قد انقضت — وعما قليل أصبح فى دارى حيث الدفء ففيها
الزوجة والفرش والغطاء والخطب » ، وتذكر صانع الجلبة — فلغته وسب له الأم
والأب والجدود ، وتوجه نحوه — مهتدياً إليه بصوته ، يضرب الأرض بخطوات
ثقال ، ويصيح بصوت تنخلع له القلوب والأكباد: من هناك ؟ « ويرى الجرذان تفر
هاربة إلى الشقوق — فيبتسم ، ويرى الذعر وقد أصاب الزواحف وسائر الهوام —
فيبتسم ، ويتذكر صانع الجلبة — فيكشر .

* * *

لم يكن الخمور غراً : فللدركى خطو تميزه كل أذن — ناهيك بالصيحة ، كما

أن الآدمى المسلم لا يروح الخمار بمفرده — وإنما يروح إليها بصحبة شيطان كبير أو صغير : لكنه على أية حال شيطان واسع الحيل قادر على هزيمة خمسة من رجال الدرك (وهكذا استعان المخمور — الذى لم يكن غراً — بشيطانه، فتحول إلى خروف) .

* * *

وهكذا فرك الدركى عينيه بقبضته وطرده النوم ومسح تكشירתه — وقال : « يا بصرى أنت اليوم حديد ؟ .. أهذا خروف لا صاحب له ؟ » وضرب جبهته بخاتم فى بنصره — وقال : « نعم وألف نعم : هذا خروف لا صاحب له .. والسارق الملعون من الحاكم والمحكومين فر بخوفه » .

هكذا انحنى الدركى ، وهكذا فك رباط جزمته ، وهكذا صنع من رباط جزمته مقوداً ربط به رقبة الخروف ، وهكذا خلع الدركى جواره الصوفى وكمم فم الخروف .

* * *

بطول الطريق المعبد بالحجر الأسود الكبير كان الدركى مبتسماً ، يتلقى الهبات شاكراً ، ويسمع عبارات المدح والثناء — فيه أولاً وفى الخروف من بعده — فيهر رأسه ويرد التحية بأحسن منها : للطير والحيوان والبشر — وكافة مخلوقات الله على الأرض .

هللت زوجة الدركى فرحة بزوجها الدركى ، وشع وجهها بنور غامر أضاء المكان وجعل النهار نهارين — وهى تمر راحتها فى فرو الخروف الناعم ، ودربكت الفرحانة بقدميها فوق خلخالها الفضى ، حين ذاك اشتد حنينها للغناء فغنت :

« لو لم يكن زوجى دركياً — لما كان بيتى غرفة وفسحة ، سريرى من عند الحاج كساب ودولانى بمرايا ، جرارى مملوءة بالزيت والدقيق والسمن والغسل ، مصباحنا له نور وهاج وشباكى بشيش وستارة مخرمة ، تنورنا دوماً والع وعندنا مشجب ، وما نحن اليوم نملك خروفاً بفرو بنى وغرة بيضاء فوق الجبين » .

وترحمت زوجة الدركى على أمها بائعة الكرشة التى سعت لتزويجها من دركى فأفلحت ، وها هى زوجة الدركى : تعد الله بنذر مقداره طستين من الكسكسى وتوزعها على فقراء المسلمين بالحنى والحنى المجاور — ليرحم الله أمها ويدخلها جنات النعيم ، ورطلا من دهن الخروف لو منحها الله الصبى أو الصبية لينمحي الكدر الذى تراه فى المرآة ظلاً أزرق يتماوج فوق صفحة الوجه المنير بالصحة والعافية .

ورفعت زوجة الدركى ذراعين بطراوة الزيد ولون الزيد حلتها بالأساور ضارعة لرب جميل يعشق الجمال : « يارب مر عام وتلاه عام ونصف عام ولم أنجب — وقلبي الضعيف لا يحتمل الضرة » ، وتمطقت : « يقولون إن الدنيا لا تكتمل لمخلوق » ، ودست فى فمها لبانة ، وصبت على الفول زيتاً ورشت الملح والتوابل وعصرت ليمونة ، وكسرت بصلتين ، ومن حلة النحاس الأبيض أخذت رأس فجل وحزمة جرجير ولفته ، ومن التنور الوالع أخرجت الرغفان تنس وتبخر .

* * *

أكل الدركى طعامه كله ، ودس يده فى جيبه وأخرجها قابضة على لقمة كنافه ولقمة بسبوسة دسهما فى فمه ، بعد ذاك تجشأ ، وخبط بطنه ببطن كفه خبطتين ، وشرب سطلين من الماء وسطلين من اللبن الحامض ، وشرب كوباً من الشاي ، وقال لزوجته قبلينى — فقبلته ، وكان راغباً فى أحلام سعيدة فقام وصعد سريره ونام من فوره .

* * *

تروح زوجة الدركى وتجيء ، تقدم للخروف الماء فلا يشربه ، وتمد له البرسيم الأخضر الطازج يديها المغسولتين بصابونة معطرة فلا يأكل ، هذا ما يجعلها تروح وتجيء ، كما أن شخير زوجها — وإن كانت قد اعتادت عليه — لا يريحها الآن .

* * *

هذا بينما الخمور لا يكف عن لوم نفسه « لماذا طلبت من شيطانى القادر أن

يحولنى إلى خروف ؟ لماذا لم أطلب من شيطانى أن يحولنى إلى عصفور ، أو إلى أم قويق !!؟ ، كما أن تأثير الخمرة لابد وأن يزول فيفارقنى شيطانى !! ، أى — عما قليل سيفارقنى شيطانى فماذا أفعل ؟ ماذا أفعل يا الله ؟ .

(وآه — ما إن ذكر اسم الله حتى فارقه شيطانه وهرب وهكذا بعد أن كان خروفاً فى مأزق سهل وجد نفسه آدمياً فى مأزق صعب) .

ظهر زوجة الدركى للخروف، لما أدارت نحوه الوجه وجدت مكان الخروف رجلاً . بعقل عاقلة تليق زوجة للدركى أدركت : أنها لو صرخت فسيجتمع الجيران ومنهم الحاقد والحاسد .. ويصحو الزوج .. وهذا الرجل غريب .. والفضيحة قد تؤدى إلى طلاق .. حين ذاك قد لا يشفع لها جسدها البض الطرى الأبيض . « هذا رجل . وهى أنثى عاقلة تشتهى رفسة القدم فى بطنها » .

(هكذا فكرت بنت حواء ودبرت ونالت مبتغاها، وفتحت باب البيت نصف فتحة وتطلعت يميناً ويسرة، وفى الحين المناسب والوقت المحسوب دفعت بنت بائعة الكرشة بالرجل إلى الخارج ودست نفسها فى حضن بعلمها النائم) .

لم يعد الرجل الخمور مخموراً ، وها هو يهرول فى الطرقات يلوى على أشياء وأشياء ، مكلماً نفسه المرتعشة خوفاً وغيظاً وعجباً : « أنا هو أنا ؟ . لا ريب أننى أنا إسكافى المودة .. أنا الساكن بدرب الصفا : ما من رغبة فى اليوم للعمل بعد ما رأيت من أحداث وخطوب طوال البارحة واليوم .. مزاجى غير معتدل .. ولن يعتدل مزاجى إن لم أعاقب مبتورة الشدين تلك التى جرت على المصائب بعشقها للنوم .. من لى بزجاجة من عرق البلح الكاوى » .

بعد أن كال إسكافي المودة لزوجته اللكمات والصفعات والرفسات ، جرها من شعرها — وكان طويلاً أسود — فلمعت الفكرة في رأسه كبرق في ليلة مظلمة ، أمسك بمقص الجزم المثلوم وجز الشعر وصّره في منديل وخطط الباب لاعتناً الجلود الأسافل لمبتورة الشدين .

* * *

باع الشعر لحلاق النساء وسبه في سرو لأنه لص وابن لص وهو يعرف أمه الخياطة وكان اسمها « نانا » وقد ماتت وهى يقيناً بالنار لأنها كانت تسرق القماش ومنها تعلم ابنها حلاق النساء السرقة .

بصق على الأرض بصقتين كبيرتين : واحدة على نانا وواحدة على ذلك النطع الذى لا يخجل من تسمية نفسه « ابن نانا » .

* * *

قصد الخمارة ووجدتها مكتظة ، رغبة فى الحيلة وطلباً للأمان المفقود وبعد الذى شاف فى يومين متعاقبين — عقد لسانه ثلاث عقد ، وجلس يشرب .

شرب وشرب وشرب ونفسه ما تزال فى الشرب راغبة ، فشرب وشرب وشرب حتى رأى جاره حمراً ببدعة ورأى الساقى قطاراً بمدخنة يصفر ويمشى على قضبان .

* * *

« رغبت مثلك فى النوم .. وكان الباب مفتوحاً ولا يزال .. وها أنا أرى الحبل ولا أراه » — ذلك كان قول زوجة الدركى للدركى ، وذلك أيضاً قولها :

« يا ذنبى العظيم أنا التى ما رددت الباب »
وبكت فسال دمعها الغالى وجرح خديها ، وأكملت :

« ثم إني اليوم فرحة وها هو جسدى يرقص والجمرة تلسعنى ضع يدك هنا ..
لا .. هنا ألم يرفسك بقدمه » — وهذا ما قالت أيضاً زوجة الدركى للدركى .

وهو من ذاك فى هم ومن هذا فى سرور ، ثم إن الخروف لابد قد عاد لأهله
وربما عاد لنفس البيت الذى شافه أمامه بالأمس .

نخس الدركى الخمور « لماذا أنت هنا ؟ » . فك الخمور العقدة الأولى من
لسانه ومضى يفك عقدة لسانه الثانية . الا أن الدركى عاجله « وتندس الأفيون فى
فمك أيضاً !! » . أجاب الخمور بعد أن فك عقدة لسانه الثالثة « لا والله ..
هذا لسانى .. وتلك دارى » . قال الدركى لنفسه الشكاكة التى ورثها من الأزمنة
« هو سارق الخروف عاد يحوم بمكان الجريمة — كما خبرتنا الحقيقة الخالدة بحق » ،
وقال للمخمور : « أطرق الباب ودعنا نرى » .

علم المخمور أنه وقع فى شر أعمال مبتورة الشدين التى تنام من الغروب
للضحى ، وطلب العون من شيطانه كى يلهمه حيلة — الا أن شيطانه القادر
تخلى عنه وهرب عندما تلفظ بكلمة الله فى قوله « لا والله .. هذا لسانى وتلك
دارى » .

ما من حيلة إذن .. ما من مفر .. ما من مغيث .. والسجن مظلم ورطب
تسمل فيه العيون وتخلع الأظافر وتفارق القلوب الصدور .. والقيد فى اليدين
والقدمين والرقبة .. والخروف له فرو بنى وعلى جبهته غرة بيضاء .. ومبتورة الشدين
طالق .. طالق بالثلاث .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

« خمارة مخالى اليوم مكتظة : كل الطاولات مشغولة ، أعرف الكل والكل

يعرفنى : الكل هنا يعرف الكل — لهذا أفضل أنا خمارة مخالى ،

هكذا خاطب الاسكافي نفسه التى تمجيش — الآن — بحب غامر لكل من
بالمكان ، لقد قضى بالخنفر أسبوعاً ، مسح المكان بعينيه ونادى الجميع بصوت
طروب :

« من منكم يرغب فى أن أشاركه اليوم طاولته ؟ آه ، لا ، ها هو العريجي الفار
من خمارة مخالى يعود — أخيراً — إلى خمارة مخالى ، ها أنت ، ها أنا أراك أيها
العريجي الجاحد . »

وبمشقة شق له طريقاً بين الطاولات والأرجل الممتدة — حتى بلغ صاحبه
العريجي ، سلم عليه العريجي وهو قاعد : وهذا يحزنه قليلاً — إلا أنه جلس ، ورد
على نكتة حلاق النساء الحارقة ببسمة ماسخة ، ومضى يكلم صاحبه العريجي
الذى يلوح أنه أفرط فى الشرب :

« طيب أن نلتقى ، لكن أين كنت طوال هذه الفترة ؟ ، لا عليك ،
ستخبرنى فيما بعد ، نعم ستخبرنى فنحن صديقان ، لقد افترقنا صديقين ، نعم
ها أنا أتذكر : لقد افترقنا صديقين . »

وطلب من مخالى كوباً فارغة ، وقال لمخالى — لما جاء بالكوب الفارغة :

« طبق خيار مخلل يا مخالى ، لقد قضيت بالخنفر أسبوعاً يا مخالى ، آه لو لم
يكن سجل أيامى أبيض يا مخالى لمضوا بى إلى السجن ، آه يا مخالى لو لم يكن
الرجل رحيماً لكنت الآن بالسجن — أنا الاسكافي الطيب صاحب السجل
النظيف يا مخالى . »

وصب لنفسه كوباً من زجاجة صاحبه العريجي وشربه دفعة واحدة ، ومضى
يصب كوباً آخر — بينما العريجي ينظر له بعينين دهشتين احمرتا من الخمر ،
ومخالى لا يزال واقفاً ، قال لصاحبه العريجي :

« لقد افترقنا صديقين ، لما افترقنا كنا صديقين ، لعلك تذكر فأنا ما زلت

متذكراً « وجرع كأسه دفعة واحدة ، ومسح بكم جلبابه الخمرة التي جرت من شذقيه على ذقنه ، وخاطب مخالى وخاطب صاحبه العريجي :

« فيما بعد يا مخالى ، فيما بعد ، هات طبق خيار مخلل يا مخالى » ، « لقد كان أسبوعاً عجيباً يا صاحبي : كل يوم بليلة ونهار ، لكن الحمد لله : ها أنا هنا وها أنت يا صاحبي تعود بعد غيبة طويلة لخمارة مخالى ، ها أنت تعود لنا ، وها أنت تحاول التذكر ، اللعنة على الخمرة : هي التي تعوقك عن التذكر — ولكنك ستهزمها وتتذكر ، حاول يا صاحبي — وها أنا من جانبي أعاونك ، لكن دعني أصب لنفسى كأساً ، ها أنت تبتسم — لا شك أنك تذكرت صاحبك الاسكافي الملقب باسكافي المودة » .

صرخ الآخر — بعد أن حاول القيام ولم يفلح فمد يداً للاسكافي — وقد تهلل وجهه :

« نعم أنت الاسكافي ، إسكافي المودة : أليس كذلك ؟ اللعنة على الخمرة — ولكنك عاونتني ، آخ : ياله من صداع ، لقد تقيأت قبل مجيئك يا صاحبي ، نعم لقد تقيأت ، أخشى أن تكون الخمرة مغشوشة ، كن صادقاً معي يا صاحبي : هل يغش مخالى الخمرة ؟ »

جاء مخالى بطبق الخيار المخلل ، وسمع كلام العريجي فقال إنه لا يغش الخمرة ، وقال إن كل الخمارات تغش الخمرة ما عدا خمارة مخالى . صدق الاسكافي على قول مخالى وردد : « الكل يغش الخمرة هذه الأيام — ما عدا مخالى » ، وطلب من مخالى طبق ترمس وطبق فول سوداني ، وصب لنفسه كأساً من زجاجة صاحبه العريجي ، وطلب من صاحبه العريجي أن يتكلم . قال العريجي بعد أن ذهب مخالى :

« كلهم يغشون الخمرة يا صاحبي ، معدني تحترق ، آه ، دعني أتذكر : أنت اسكافي المودة ، الصداع يأكل رأسي ، وأنت يا صاحبي قضيت بالخنفر أسبوعاً ، لا شك أنهم ضربوك ، لا تجعلني أرى جسمك يا صاحبي حتى لا أبكي ، آه ، لا تجعلني أرى جسمك يا صاحبي ، لا تجعلني أبكي يا صاحبي » قال الاسكافي :

« لم أكن بالسجن يا صاحبي ، كنت بالمخفر ، قضيت أسبوعاً كاملاً ، لكن أين كنت أنت ؟ لماذا غبت كل هذه الفترة عن خمارة مخالي ؟ لماذا غبت عنا ؟ » قال العريحي :

« فيما بعد ، سأقول لك فيما بعد فنحن صديقان ، لكن خبرني أنت : ما الذي صنعوه بك في السجن ؟ » رد الاسكافي :

« آه — لم أكن بالسجن ، كنت بالمخفر ، وكان الرجل رحيماً ، وكان سجلي نظيفاً أبيض ، ثم إن الأمر كله لم يكن كبيراً — لقد صنعت ضجة قليلة بشارع هادىء ، كنت سكران ، وه ؟ ألعن معى الخمرة : إنها سبب كل بلاء ، لم يكن الأمر كبيراً — فقط أقلقك بعض النيام فمضى لى البركى للمخفر ، لكن أين كنت أنت يا صاحبي ؟ » .

قال العريحي لنفسه : « كلهم يفكرون ، لا أحد يقول الحق ، لقد ضربوه » ، وقال للاسكافي : « الخمرة مغشوشة ، رأسى تحترق والخمرة تأكل معدتى ، صدقتى لم أشرب الخمرة قط طوال الفترة التى غبتها عنكم ، أنجبت زوجتى ولدا ذكرا ، وكل الذكور الذين تنجبهم زوجتى يموتون ، لى منها سبع بنات لا يمتن — لكن ذكورها يموتون ، جارتنا جارة الخير قالت لزوجتى إنها لو ربت كلباً صغيراً مع الولد فلن يموت الولد ، وها أنا يا صاحبي أعول سبع بنات لا يمتن وولداً وولداً لكى لا يموت الولد ، لا شك أن همى زاد وأن مسئولية تربية سبع بنات وولد وولداً مهمة شاقة ، ولا شك أنك توافقنى أن مسئولياتى كانت كبيرة — وهذا ما جعلنى لا أحضر إلى خمارة مخالي ، ولما مات الكلب ظهر اليوم أتيت إلى خمارة مخالي ، هل أخاف على الولد يا صاحبي ؟ كن صادقاً معى يا صاحبي : « هل يموت الولد بعد أن مات الكلب ؟ » .

رد الاسكافي :

« لا يا صاحبي ، لن يموت الولد ، لن يموت : صدقتى — لقد فدى الكلب الولد ، لقد كبر ابنك ولم يعد بحاجة للكلب فمات الكلب ، لقد كبر ابنك : أليس كذلك ؟ »

قال العريحي :

« نعم : لقد كبر — عمره اليوم ثلاثة شهور ونصف » .

قال الاسكافي :

« ثلاثة شهور ونصف !! — نعم لقد صار كبيراً ، لا تخف يا صاحبي ، لقد صار ابنك كبيراً »

زعق العرجي على مخالي طالباً لصاحبه الاسكافي نصف زجاجة خمرة ، وقال لصاحبه الاسكافي : أنت صديق حقيقي بعد الذي فات ، وقال له إنه سيوصله إلى بيته بعد أن يفرغ من شرب نصف زجاجة الخمرة ، وإنه سيشرب معه كوباً واحدة في صحة ابنه الذي لن يموت لأنه كبير ، وبعد أن يوصل الاسكافي إلى بيته سيمضي هو فوراً إلى بيته ليرى ابنه ، وقال إنه حزين قليلاً لأن باعة البسبوسة كلهم ناموا الآن — وإلا لأخذ معه لقمة بسبوسة لأم ابنه .

صرخ العرجي :
« حمارى — أين حمارى ؟ لقد سرقوا حمارى ، السفلة الكلاب » .

قعد العرجي على الأرض يبكي ويلطم خديه ، بينما كان الاسكافي يعصر ذهنه عصباً شديداً — ثم صرخ :

« قم يا صاحبي ، قم ، غداً سأتيك بحمارك ، غدا وهذا وعد حر ، غدا سيأتيك إسكافي المودة بحمارك ، أنا أعرف كل سراق الحمير ، عيسى حرامى الحمير هو الذى سرق حمارك ، لقد كان عيسى النذل معنا بخمارة مخالي لكنه ذهب بالحمار ، سأعلمك يا عيسى أنا إسكافي المودة ما لم تعلمه لك الأيام ، غدا سأريك نجوم الظهر أيها الواطى وأخذ منك الحمار وأرده لصاحبي ، يا لك من نذل يا عيسى — وهل يسرق صاحب إسكافي المودة !! »

وخاطب صاحبه :
« قم يا صاحبي ، قم ، واحمد الله أن العربة نفسها لم تسرق »

قام العرجي وخاطب صاحبه الاسكافي :

« الحمد لله أنه لم يسرق العربة ، ولكنك قلت إنك ستأتينى بحمارى ، لقد قلت لنفسى بمجرد أن شفتك إنك صديقى » .
قال إسكافي المودة :

« قلت لك إن عيسى يسرق الحمير فقط ولا يسرق العربات ، سأتيك بحمارك غدا من عيسى وسأعلم عيسى أن لحم إسكافي المودة لا يؤكل وكذا لحم أصدقاء إسكافي المودة ، لكن ما الذى سنصنعه الآن بالعربة ؟ ، قل لى : ما الذى سنصنعه بهذه العربة وقد سرق عيسى النذل الحمار ؟ ، لا ، لا تقل لى أنت — ودعنى أفكر »

قال العريجي :

« لو تركت العربة لسرقها عيسى »

رد عليه الاسكافي ضجراً :

« قلت لك إن عيسى يسرق الحمير ولا يسرق العربات »

قال العريجي :

« لكنى لو تركت العربة فسيسرقون العربة » .

قال الاسكافي :

« نعم — لو تركت العربة فسيسرقون العربة »

قال العريجي :

« غدا يا صاحبي ستأتيني بالحمار من عيسى — أما أمر العربة فيجب أن نفكر فيه معا »

رد الاسكافي :

« الحمار سأتيك به غدا من عيسى الجبان ، أما العربة — أى ، دعنى أفكر »

رد العريجي :

« سأتركك تفكر يا صاحبي ، يجب أن تفكر من أجلى يا صاحبي ، منذ رأيتك قلت لنفسى : هذا صديق يعتمد عليه ، هل فكرت يا صديقى من أجل صديقك المسكين سائق عربة الكارو ؟ »

قال الاسكافي مهلاً :

« نعم فكرت ، لقد فكرت من أجلك — ستجر أنت العربة بدلا من الحمار وأركب أنا العربة ، ولما يصيبك التعب ستقول لى تعبت فأهبط انا وأجر العربة وتركب أنت العربة ، وحين أتعب أنا من جر العربة سأقول لك تعبت فتبهط أنت من العربة لتجر العربة وأركب أنا العربة ، ستوصلنى إلى بيتى فنحن صديقان — ثم تعود إلى بيتك لترى ابنك الذى لن يموت » .

رد العريجي مهلاً :

« يالها من فكرة ، يا لك من مفكر ، يا لى من محظوظ ، لقد كسبت اليوم

صديقاً مفكراً سيأتيني غدا بحماري الذى سرقه عيسى — بينما لن يموت ابني كذا
لن يسرق اللصوص عربتي .

* * *

قال الاسكافي الراكب فوق العربة لصديقه الذى يجر العربة :

« ستقطع الشارع المستقيم هذا حتى نهايته ونعرج يمينا ونمضى حتى نهاية
الشارع الآخر ثم نعرج يساراً وندخل درياً — بعد منتصف هذا الدرب واسمه
الصفاء بيتى يا صاحبي ، إنه درب ضيق وموحل ، وهذا ما يجعلنى فى قرف من
الدرب وسكان الدرب يا صاحبي ، لهذا أتردد يومياً على خمارة مخالى ، كل سكان
درب الصفاء قذرون وسراق وشتامون وجهلة أيضاً : يرمون بكل ما هو قذر وما هم
فى غنى عنه من حاجاتهم القذرة للدرب حتى حولوه إلى مزبلة — وقد تكون المزبلة
أفضل من دربهم الذى يسمونه بالصفاء ، سأترك هذا الدرب إلى درب المودة فى
القريب العاجل — لهذا سميت نفسى باسكافي المودة ، سأنتقل بمشيئة الله إلى
درب المودة حين تأتى الفرصة ولن أندم وستزورنى أنت هناك فنحن صديقان ،
النهار هنا بدرب الصفاء جحيم لا تطيقه الشياطين فما بالك بى ، بالنهار ترى
الأطفال يسدون الدرب ، ولا عمل للرجال هنا إلا العمل والأكل والنوم مع النسوة
وانجاب الأطفال ، لاشك أنهم يومياً سيسدون الدرب — لكنى لن أكون هنا ،
أف .. لا تدعنى أتكلم عنهم يا صاحبي فأنا منهم ومن دربهم فى قرف شديد :
كلاب وذباب وأكوام سباخ ووحول وأطفال عفاريت ونساء شتامات ورجال
يسرقون كل شئ وأى شئ حتى الكحل من عيون الحريم .

سأله العريجي الذى يجر العربة ويلهث :

ما من شك أن عيسى الذى سرق حمارى منهم ؟

أجابه الاسكافي :

« لا — عيسى لا يسكن هنا ، عيسى يسكن بدرب المودة لكنى قادر على
شكمه فاسكافي المودة لا يؤكل لحمه كتفه ، لا عليك — سأكلمك يا صاحبي
عن رجال البلدية .. فها أنت ترى الحفر والنقر بهذا الشارع المحترم ، رجال البلدية
هؤلاء لا ضمير لهم ولا خلق عندهم مع أنهم يحصلون من الحكومة على رواتب ،
أنا فى عجب من أمر الحكومة تلك التى تمنح رجال البلدية رواتب محترمة .. دعنا

يا صديقى من سيرتهم فالقلب ملء ، انعطف يمينا يا صاحبي ، انعطف يمينا
وادعُ معي أن يحرق الله عمال البلدية .

توقف العربي ليسترخ ، وطلب من الله أن يحرق عمال البلدية ، وما لبث أن
سحب العربة بصاحبه الاسكافي — الذى كان يغنى أغنية قديمة تثير الشجن :
عن ريح ، يقال إنها هبت في زمان قديم — ويقال إنها ستهب في زمان مقبل .

وفجأة توقف الاسكافي عن الغناء ولما استفسر منه صاحبه العربي عن
السبب — قال له الاسكافي : « لا عليك دعنى أفكر » ، وفكر الاسكافي في
الخمر التى زينت له الدنيا فجعلته يغنى ناسيا أن للصوت بالليل رنينا يجلب رجال
الدرك : وهذا ما تفعله الخمر الملعونة بصاحبها — ومن قال إن الخمر أسّ البلاء
فقد صدق والحيلة واجبة والحذر مطلوب والناس نيام والاسكافي لا يعيش في
الدنيا بمفرده — فهناك خمارة مخالي والشوارع والبيوت والحارات والدروب والعمارات
والعربات وأعمدة النور ورجال الدرك والسجون والخافر والليل والنهار والأنهار وعيسى
ورجال البلدية .. أما الفلاحون فهم هناك بعيدا في القرى : وهذا من حمد الله —
ولا لصار العالم جحيماً لا يحتمل ، وإمعانا في الحيلة والحذر الواجبين قال
لصاحبه العربي : « قف » ، وهبط وقال لصاحبه : « أخرج لسانك . لا
تحف ، سأعقده لك يا صاحبي ثلاث عقد حتى لا تتعرض لمكروه تعرضت أنا
له وكلفنى أسبوعاً بالخفر » .

صرخ العربي فرعاً :

« أعقد لسانك أنت أولاً ثلاث عقد حتى لا تتعرض لما تعرضت له قديماً » .

رد عليه الاسكافي : لا تدعنا نشجر فنحن صديقان ، وعلى أية حال هاك
لسانى أنا فاعقده ، يالك من أحق ظننت بصاحبك الظن السيء بينا العالم يدبّر
لى ولك »

ومد الاسكافي لسانه بعد أن نبّه صاحبه العربي :

« ثلاث عقد ، آه .. ثلاث عقد — واجعلها متينة ، إجعلها متينة يا
صاحبي » .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

ما من مخلوق قصد اليوم إسكافى المودة ، والسوق توشك أن تنفض ، إذن ليخاطب إسكافى المودة ذلك المخلوق الذى لم يحضر فقد يحضر .

« دعنى أرجوك .. ستأخذ مركوباً جديداً .. مركوبك هذا القديم ستأخذ بدلاً منه مركوباً جديداً .. لا تسألنى كيف ؟ . إسكافى المودة يتقن عمله يا سيد .. دعنى من فضلك » ..

* * *

زعق الخياط : « لن أدفع مليماً يا بلبل .. ترزى الخفة لا عبيط ولا أهبل .. أنا لا أطفحها قهوة بالجاز وأدفع .
صرخ بلبل صبى مقهى عش البلبل :
« ستدفع .. أنا خاسر دينى إن لم تدفع »

* * *

هب إسكافى المودة وحشر نفسه بين الخصمين حكماً ، وصرخ لاعناً الشيطان الذى يفسد ما بين الأخوين ، ورشف من فنجان القهوة الذى يقال إنه بالجاز رشفتين، وقال لبلبل صبى مقهى عش البلبل :
« إذهب لحال سبيلك يا بلبل .. سأدفع أنا ثمن القهوة . إخرِ الشيطان يا بلبل » .

وقال الخياط الخفة :

« هل يرضيك أن يلتم حولنا الخبيث والطيب ؟ هل يرضيك أن نصير فرجة لكل من بالسوق ؟! » قهوتك على حسابى .. سأدفع أنا يارجل » .

* * *

وهذا ما قاله إسكافى المودة لصاحب مقهى عش البلبل :

« لولاي .. لولا أنا - لو لم أكن موجودا ، وهذا من حمد الله .. لسال الدم كما يسيل الماء . بالقهوة جاز .. نعم بالقهوة جاز يا رجل .. من أجلك أنت شربت أنا القهوة بالجاز . وها بطني منتفخة .. لماذا أشرب أنا القهوة بالجاز ؟! . من أجل عينيك - والله وحتى لا يسيل الدم كما يسيل الماء .. وبلبل هذا أمام الحكومة مجرد صبي بمقهى عش البلبل .. أنت وحلك المستول أمام الحكومة عن الدم الذي كان سيجرى يا معلم .. ولولاي لتجمع السوق الفضولى يبنى جنازة يشبع فيها لطماً .. وأنا أعلم الناس بما تحمل ألسنة الناس من سم ولولاي لجرى عبيد وقال لزيد :

« عش البلبل تسقينا القهوة بالجاز ، خبرنى بالله : اية خسارة كنت ستخسرهما أنت لو لم أكن أنا ؟ والحكومة كما تعلم هى الحكومة وبطنى كما ترى منتفخة ؟! » .

وهذا ما قاله اسكافى المودة لترزى الخفة :

« يارجل لقد خدعك طعم البن المحروق فظننت أن بالبن جازاً .. ولولاي لسال الدم كما يسيل الماء فى النهر، والحكومة كانت ستأتى ونصبح أمام جمع السوق عبوة .. وأنت كنت ستكون سبياً فى خراب بيت الرجل الذى ما أساء إليك - الرجل الذى يصلح دواء للجروح .. فيما قلت يارجل ما يجعل بضاعة الرجل تبور ولولاي لالتئمت الناس وللحكومة عيون ترانا لما نخطيء .. سأمضى للرجل وأطيب خاطره » .

وهكذا عاد اسكافى المودة لصاحب مقهى عش البلبل الذى قابله مرحباً وطلب له فنجان قهوة يمنية بغير سكر ، وقال المعلم :

أنا لا أنكر أفضال الرجال الخيرين الكرام الساعين بين الناس بالمعروف » .

ورد إسكافى المودة :

« لا عليك .. كلنا لبعض .. لولاي لعاب صبيك بلبل فى الرجل والرجل طيب وما أساء لأحد وهو كما تعلم يصلح للجرح مرهما .. طيب خاطره من أجل أن لم يكن من أجل نفسك .. سنجتمع ثلاثتنا بخمارة مخالى الليلة .. وهل غير الخمر تمحو السواد الذى علق بالنفوس .. إن لم توجه اليه الدعوة أنت لدعوته أنا .. وها أنا أيضاً أدعوك .. دعنى أدعو الرجل يارجل .. دعنى » .

قال ترزى الخفة لاسكافى المودة :

« لقد أهنت صبيه .. نعم .. وكنت سأخرب بيت الرجل بينما هو يصالحنى ويدعونى للشراب بخمارة صاحبها يونانى .. والله إنه لرجل كريم على خلق فى زمان كلب ، أما أنت .. آه .. كيف أصفك ؟! لولاك لجرى الدم كما يجرى الماء ولصرت أنا فرجة لكل من بالسوق ولأنت الحكومة فللحكومة أذن تسمع وعيون تشوف وتفتش عنا حين نخطئ ولها يد باطشة لما تعاقب .. سأذهب بنفسى للرجل وأدعوه ليشرب على حسابى .. وما أنا بدورى أدعوك أنت يا أيها الاسكافى الطاهر الخطوة » .

وقال له الاسكافى :

« لا عليك .. كلنا واحد يارجل .. لا فرق يارجل .. ستغلق دكانتك ونمضى معا إليه ونصحبه إلى خمارة مخالى .. ولتعلمنى يا أخى كما وعدنى هو أن لا نتحدث فى الأمر الذى حدث .. نعم فحين تصفو النفس بعد الذى حدث نكدرها نحن بالكلام عن الذى حدث .. بحق عام أكبرك أنا به لا تحدثه فى الذى حدث حتى لا تحرك ضغينة رقدت » .

شد الخياط على يد المعلم يديه الإثنتين ، وكذا فعل المعلم . ومنع الخجل العيون من أن تلتقى ، فالمعلم خجلان من الخياط والخياط خجلان من المعلم ، شغل المعلم فى بلبل لينادى تاكس . وقال الخياط : « نعم نركب تاكس » . وقال الاسكافى لنفسه : نعم تاكس : هكنا تدنو المسافات التى تباعد بيننا وبين خمارة مخالى . وأصر المعلم على أن يركب الخياط قبل المعلم وأصر الخياط أيضا أن يركب المعلم قبله . وقال الاسكافى لنفسه وهو يندفس نفسه فى التاكسى : أف منها تلك الجماملات التى تباعد بيننا وبين الخمرة — إلآلم أن التاكسى قاطع المسافات سيقبل من كم الكلام بين الرجلين وهذا طيب .. وأنا لا بد وأن أظل قائما بين الإثنتين حتى يبقى الخيط قائما .. كما أن الحيلة بنت الدنيا علمتنا أن لكل مقام مقال » ، بش فى وجهيهما وقال :

« لماذا كان البطيخ ثمرة صيفية ؟ .. يا الله .. أنظر يا بن آدم : ها هو الفلاح

يدفن البنور في بطن الأرض وهو لا يكاد يميز بين البذرة والبذرة .. وها نحن نرى العجب : فهذه بطيخة مستديرة وتلك بيضاوية .. ثمن وشليان وبلاك وبلدى .. ما من مخلوق قادر على اكتشاف السر العظيم : لو راهن الآدمى منا على البطيخة وقال حمراء لخسر وربما كسب .. نعم إن لم تشق البطيخة إلى نصفين لما عرفت إن كانت حمراء أم بيضاء أم بين بين وقد تكون متليفة .. كما أن البشر معادن .. هكذا نحن .. نعم منا الذهب والفضة وفينا النحاس والصفير أيضاً .. إن لم تخبر الرجل فلن تعرفه .. لقد خلق الله العالم في أسبوع واستراح .. أما الآدمى منا فلن يستريح قط .. لنمش في الدنيا ولننظر ونتعجب .. ونشق .. إن كنا من الأشقياء ونسعد إن كنا من السعداء .. المال زينة الدنيا وكذا البنون والصحة أيضاً !! لكن يوم خلق الله العالم لم يكن هناك أطباء ولما خلق الله الأمراض خلق الأطباء !! .. أيهما الأول : الأمراض أم الأطباء ؟ لا لأحد يعلم حتى يومنا هذا .. ياله من عالم غريب عجيب كله سر .. هنا خمارة مخالى .. قف يا أسطى .. قف ..

إختار الاسكافي أقرب طاولة لباب الخمارة — حتى يراه كل داخل للخمارة ويمر به كل خارج من الخمارة .. الكل هنا يعرفه وهو يعرف الكل .. ومن كم التحايا سيكبر شأنه في نظر الرجلين ، وزعق في مخالى — وضايقه إن جاء مخالى ابن الكلب بطيخاً :

« هنا ضيفى يا مخالى وذاك ضيفى يا مخالى، وكلاهما له في دنيا الرجال الصيت والسمعة .. هيلاه الله يا مخالى .. زجاجة كاملة من جيد الخمر يا مخالى وأكثر من أطباق الخيار المخلل والتمرس والبقول السوداء والحمص والبقول النبات يا مخالى .. »
وقال :

« وجردل ثلج يا مخالى »

ونظر إلى ضيفه :

« وصودا ؟ »

وزعق :

« وصودا يا مخالى »

كما يفعل السادة — رفعوا أيديهم لفوق ممسكة بالأكواب مملوءة للحواف .
وتنادوا : في صحتنا نحن خيار الناس وأنقى المعادن وأفضل الرجال » . وقرعوا
الأكواب قرنَّ الزجاج وسالت الخمرة الصفراء صفراء . وجرعوا الأكواب تلو
الأكواب . وقال الاسكافي نكتة فاحشة روى بعدها الخياط نادرة فاحشة
وضحك المعلم ضحكة فاحشة ورمى قلبه ريالين من فضة نقية على بلاط
المكان . وتحدثوا عن دنيا السوق :

« آه .. آخ .. آى .. ما الذى أفسد دنيا السوق .. كأننا نسعى بخطوات
سريعة نحو الآخرة .. الغلاء الأزرق بيننا يحجل والغلاء الأسود في وجهنا ينبح
والغلاء الأبيض كاره يمسك المنجل بيد — بيننا الأخلاق تسوء والشجار يومئ
والعربات تأتى للسوق تجرها البغال الغبية لتأخذ الخضار والفاكهة .. البوابون
سادة بملابس بيضاء والقوادون يتاجرون في بنات الناس أمام عيون الكل .. وفي
الغرف المفروشة أولاد عرب مثلنا لكنهم سعداء يتكلمون الكويتية والليبية والسعودية
ويلتهمون اللحم مشوية ومقلية وطازجة من عجيزة غلام ويطيبون رائحة أفواههم
بشراب الويسكى والنقل المقشرة وينامون حتى مع عجائز الغسالات .. يارب لماذا
بنت بائعة الكرشة تصبغ شفيتها بالأحمر — وهى لم تبلغ بعد عامها الرابع
عشر ؟! وبنت الفران تلبس الثوب القصير بورد والحذاء بكعب عالٍ بتجويفه
جرس ؟! وبنت بائعة الفجل من شارب الكُحلّ تلون جفניה بالاخضر تارة
وبالأحمر تارة وبالأزرق تارة أخرى ويدها شنطة بها كل الألوان — بينما كانت
بالأمس حافية القدمين ممزقة الثوب ؟! »

صرخ إسكافي المودة :

« دعونا .. نشرب .. نحن في آخر الزمان »

وزعق خياط الخفة :

« آه .. لنشرب .. إنه آخر الزمان »

وبصق المعلم بصقة كبيرة :

« لنشرب .. ولنطلب الستر لبناتنا ولنسب آخر الزمان حتى يرحمنا الله »

* * *

سمسار الشقق دخل باسم ورد الت دون أن يعزموا عليه بالجلوس جلس ومال على أذن إسكافى المودة وهمس : « كن نصيرى ولك فى الخير نصيب » ، وقال السمسار للمعلم :

« العمارة المواجهة لمقهاك .. العمارة الصفراء ذات البلكون والأدوار الأربعة .. صاحبها حاج يبغي بيعها .. له — وهكذا أراد الله — ثلاث شقيقات متزوجات : هن شركاء للحاج والحاج يريد أن يستريح منهن ومن أزواجهن .. وأنت يا صاحب عش البلبل تملك المال والعقار كما تعلم له فى وقتنا هذا ربح مضمون : مال لا يؤم وشقق مفروشة تتم برضا المالك والمستأجر تحت عين القانون الذى يعجز عن أن يمد يده .. لا تسألنى كيف والعمارة مسكونة .. أقول لك اشترى العمارة أولا واجعل من إسكافى المودة بوابا لها : يقطع الماء عن السكان لمدة يوم ويعيده لمدة يوم ويسأل الداخل والخارج من أين وإلى أين ؟ .. وتدفع أنت يا معلم خلوا لأحد سكان العمارة وتسكن فى الشقة بدلا منه .. لا تسألنى بعد كيف يغادر من يسكن مسكنا مسكنه .. إلى الشارع .. لا .. هذا الفعل لا نفعله نحن ، فنحن لسنا من هؤلاء الذين يهب دوما خلفهم غبار .. فى البداية تحاسب السكان كما يفعل الملاك إسرافيل .. ثم تتوجع فى مجالسك مع صحبتك من أولاد السكان الملاحين .. فهم دوما يدبّون فوق رأسك ويقلقون الأرض تحت أقدام العمارة .. وصيبة مقهاك لهم كثرة من أصحاب لو دفعت لهم مالا وعرفتهم بوجوه السكان سيقذفونهم بالطوب ويعرقلون نسوتهم ويخيفون أطفالهم .. بعد شهر أو شهرين وربما نصف شهر ستحصل يا معلم على شقة خالية من السكان نفرشها فرشاً عاديا ونؤجرها للتلاميذ ، ولما يأتى الصيف تؤجرها لإخوة لنا عرب عندهم مال .. لا تسألنى كيف تطرد التلاميذ ؟ .. سنترك لهم الحبل على الغارب فى البداية .. فإذا بالسكان الثلاثة يصبحون عشرة لكل منهم صاحبة بشعر قصير وينطلون ضيق .. وهم كالنحل طنانون يحشرون أنوفهم فى كل أمر .. وهذا يجعل الحكومة تعاديهم .. وهم كما تقول عنهم الجرائد يشعلون النار غايتهم القوضى .. وما علينا إلا أن نقول فيهم نفس القول » .

قال إسكافى المودة :

« لكنى من أمر الحكومة فى عجب فهمى التى تبنى المدارس وتقيم الجامعات وترسل الطلاب فى رحلات »
صرخ الخياط :

« يا إخوتي أنتم تتكلمون فى السياسة .. وهذا يجعلنى قلقا »

ورد المعلم :

« نعم أتينا لنشرب وها نحن نتكلم فى السياسة، وهنا سوق والسوق جامعة »

وقال إسكافى المودة :

« نحن فى خمارة لافى سوق وهذا ما يجعلنى مطمئنا »

قام الخياط يترنخ وقال إنه غير مطمئن ، وتعثر فى طاولة مجاورة فسقطت الزجاجات والأكواب وساد هرج ، وشتم أحد الجالسين على الطاولة الخياط . فقام المعلم يرد الإهانة عن صاحبه — لكن الاسكافى والسمسار منعه ، ونظر الخياط للذى شتمه وتقياً فى وجهه . وانشغل زملاء الآخر بتنظيفه ، وصرخ مخالى فى مخالى : « هذا ما لم يحدث قط فى خمارة مخالى » ، وقال المعلم للسمسار : « سأطرد الساكن ولن أدفع مليما واحدا ولا يهمنى أن يذهب إلى الشارع أو يذهب إلى جهنم » . وافق الاسكافى على قول المعلم ، وصرخ السمسار : عمولتى إذن .. عمولتى يامعلم » . وبكى الخياط متوجعا : أنا لم أسكر .. بحر من الخمرة لا يسكرنى .. لكنى فى قرف من هذه الدنيا .. فى السوق شربت القهوة بالجاز وجاء بلبل يطالبنى بثمان القهوة .. وها أنا أقول لكم من هو بلبل .. بلبل هذا صبى بمقهى عش البلبل .. وقد سمى صاحب المقهى الذى يعاشر صبيه مقهاه بعش البلبل .. انتفض المعلم واقفا ونازع كثيرا لكى يفلت من قبضة الجمع ويحطم عظام الخياط، بينما الخياط القنر اللسان لا يكف عن ثرثرته المهلكة : ثم إني لن أمشي من هنا منتفخ البطن .. هذه الخمرة التى يبيعها مخالى ليست خمرة .. إنها جاز .. جاز صريح .. كما أن هذه ليست خمارة إنما هى مكان يتكلم فيه الناس .. لقد جاء بى إلى هنا إسكافى المودة والمعلم ليشردا أولادى ويخربا بيتى ويسمعانى كلاماً فى السياسة »

« إلى هذا الحد وصلت الأمور »

هذا ما قاله إسكافى المودة لنفسه التى تنتفض كدجاجة ذبحت بسكينة مثلومة ، وانسل من قبضة الجمع كثعلب ، ومضى يركض كبغلة ، وسمع وقع

الأقدام الساعية في طلبه ، لقد كان بغلة فليكن غزالة — لكن ها هو يسمع و
خوافر الخيل على الحجر ونباح الكلاب التي تبتغيه ، تخفف من حملة الثقيل وت
كل ما أكل وما شرب ، لكنهم جادون في السعى خلفه ، عليه إذن أن يجد
قصده : دريا معتما من حجر — الأشجار الكثيفة المتشابكة الأغصان سياجه .
والضوء الواهن بعيد تلعب به ريح خفيفة وتحنقه ظلمة : وهي هناك ماتزال راقدة
تحت الضوء والظل والنخلة يبحثها ذات الجرم الهائل بالنتن تحت إبطها ، ناداها
« انفخي المصباح يا أم واسترني بالعممة وليل شعرك .. ها أنا قد تخلصت من أثقال
يا أم .. آه يا أم .. ها أنا قادم خفيفا كروح !! آه يا أم .. ابلعيني .. » .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

(أ)

- تسألني كيف عرفت ؟ .. وثى وثى .. نعم أنت تعمل بالديوان العام ..
ولك بنت اسمها أنصاف .
- صفاء .. إبنة وحيدة اسمها صفاء .. عجل أرجوك .. لكن : كيف
عرفت ؟

— يا سيدى أنت معنا بالسوق وإسكافى المودة يعرف كل من السوق ونعلك هذ
ستأخذه من يدى جديداً .. أنا كنت هنا قبل أن يكون السوق .. كنت
صبيا طائشا عاش حياة مع أب عرج بعضا أخافه .. وأمي التي أحبها كانت
مغلوبة على أمرها تبكى لما تُعامل معاملة حسنة .. من قويتى بالصعيد البعيد
ركبت سطح القطار الذي يحمل الفحم .. أنا أخاف الجند ويد الهلون والمقصر
والكابوس — هكذا خلقني الله : وهذا السوق كان نائيا .. وكان حديقة ورد
لمالك واحد مات — فبنى ورثته تلك البيوت التي تراها .. ذلك بينا كانت
المسافة بيننا وبين العمران نصف ساعة بالقدم أمشيها وهناك أبحث عن قوتي كما
الرُّسل وأعود لما يدخل الليل : أشرب الشاي وأشرب الحشيش وخمرة العسل
الأسود من جرة وأمص جوزة الطيب وأرى للورد عيون كعيون الحيوانات ..
وكان لى أصحاب يشعرون بغياى لما أغيب : خفير بيندقية وساقى ورد وجامع

قمامة — وفي يوم فقدنا صاحبنا جامع القمامة .. فقدناه كلية . لقد أصبح غنياً — لكنه الآن تحت التراب يأكله الدود — فيما بعد عرفنا أنه كان عينا لجماعة تسرق البيوت .

- أسألك كيف عرفت مكان عملي واسم ابنتي ؟
- يا سيدى أنا أعرف الكل هنا والكل هنا يعرفنى — إلا أنهم ينكرون .. فتلك العمارة التى تراها قبالتك لابن صاحبى الزبال وهو مقاول بناء يملك عربتين للنقل وعمارتين وزوجة جميلة بيضاء تخونه مع سائق عربته الجيب . تخونه .. لماذا وهو الغنى ؟ .. لاشك أنه يقضى كل حاجاتها !؟
- أسكت يا سيدى .. أنت لا تعرف النسوة .. أنا اعرف .. إسكافى المودة يعرف : الظلم كان يعرف أنها تحب السائق إلا انه دفع المال وتزوجها .. وهى أيضا كالت له بنفس المكيال .. أغرته بالكلام اللين حتى دفع المال فى العربة الجيب والسائق — الآن : التيس يعرف أنها تخونه مع السائق .. اصمت يا سيدى سترك الله وستر زوجتك وابنتك وبارك لك فى مال تعطيه لك الحكومة كل شهر : خمس ورقات كل ورقة بخمسة جنيهات — أليس هذا راتبك يا سيدى ؟

- أنت تعرف راتبى وتعرف مكان عملي واسم ابنتى .. كيف ؟
- وأنت رجل طيب ياسيدى وزوجتك حسنة السمعة .. والكل هنا يتكلم عنكما بالطيب
- يتكلمون ؟!
- بالطيب ياسيدى
- لكن لماذا ؟ .. لماذا يتكلمون ؟ .. وتقول الكل يتكلم ؟!
- أنت يا سيدى عشت بيننا سبع سنوات ولكنك لا تعرف أهل السوق .. هم يتكلمون عن الكل : وتلك آفة يبتلى بها الخالق مخلوقاته كلما اقترب آخر الزمان ..
- الآن : أنا من أمرى على عجل .. سنلتقى فيما بعد .. نعم سنلتقى
- دعنا نلتقى يا سيدى .. بالله عليك دعنا نلتقى مرة ثانية .. لما أنهى عملي أذهب أنا إسكافى المودة إلى خمارة مخالى وتلك عادتى : إنها قريبة من هنا .. وهى على يدك اليمنى لما تبلغ نهاية الشارع .. دوما يطيب لى الكلام وأنا أشرب وتلك عادتى يا سيدى.

(ب)

- سبقتك يا سيدى وشربت .. شربت كثيرا — لكنى كنت بانتظارك .
— سأدفع أنا كل ما معى من مال .. لقد كنت بانتظارك
— سأدفع أنا .. أنا الذى سيدفع .. لا عليك .. وأنت حدثنى بما يقولون
— يقولون عنك وعننى .. من الذى سلم من لسانهم .. لكن بحق رسول الله
— اشرب معى .. كن صاحباً لى يا سيدى واشرب ..
— أنا لا أشرب .. كبدى تالف .. وأنت كلمنى عنهم .. لا .. لا ..
— كلمنى عما يقولونه عنى .
— يقولون إنك تأخذ من الحكومة خمس ورقات كل ورقة بخمسة جنيهات ..
— وإنك تجلس فى العمل هكذا : على كرسى وتضع ساقاً على ساق ..
— ثم ماذا ؟
— وإنك تزوجت بأمر ابنتك عن حب .. جعلها تهجر أهلها من أجلك ..
— وإنكما أنجبتما البنت بعد أربع سنوات من الزواج ..
— زوجتى أسقطت حملها الأول والثانى .. هل قالوا هذا ؟
— لا يا سيدى .. لكنى أصدقك
— وهم ألا يصدقون ؟
— لا ياسيدى .. إنهم لا يصدقون إلا انفسهم
— لكن هذا حدث
— أنا أصدقك يا سيدى
— أنا لا أتكلم عنك انت .. أنا أتكلم عنهم
— دعك منهم يا سيدى واشرب .. نار الخمرة التى احترق أنا بها أهون من نار
— سيحترقون بها هم لأنهم لا يتركون الإنسان منا فى حاله ..
— وتلك النار التى أشعلوها بصدري .. لقد أفسدوا حياتى أيها الاسكافى ..
— لقد فسدت حياتى اليوم .. اليوم فسدت حياتى وإلى الأبد . أنا رجل أمشى
— فى حالى وأطلب من الله الستر ومن الحوائط أن تدارينى .. أنا وزوجتى ما
— تكلمنا عن أحد .. وابنتى سأمعها من غد من اللعب مع أى طفل من
— أبناء هؤلاء الذين أفسدوا حياتى .. ثم إني طيب كما ترى .. لماذا ؟ لو
— كنت أملك مالا لدفعته مقدماً لمسكن أو خلوا لمسكن آخر ولهجرت
— مسكنى هذا الذى يقع بمكان هم فيه .. لكنى لا أملك مالا وهذا ما
— يعذبنى .. ها أنا مشطور القلب ومشطور العقل أمامك .. ومرتبى لا

يكفينى لكنى لا أبوح .. لو كنت أعرف منذ البداية ما سكنت هنا ..
الآن أنا لا أملك مالا .. كان ذلك منذ البداية .. نعم كان ذلك بإمكانى
في البداية أما الآن فلا ..

- إشرب يا سيدى ولا تجعلى أبكى
- لقد غرروا بى وقد كان بإمكانى في البداية .. أزمة المساكن أمر تعرفه ..
لقد سمعوا حياتى وإلى الأبد
- ها أنت تجعلى أبكى يا سيدى
- زوجتى تلك التى تتكلمون عنها مريضة منذ سنوات وهى تجالذ لتعمل
عمل البيت .. وأنا كبدي تالف .. لينتقم الله لها ولى منهم .
- لمن أتوقف .. لا توقفنى يا سيدى مادمت تهمنى .. دعنى أبكى يا
سيدى بلا انقطاع كما كانت تفعل أُمى .. أنا الذى أشعلت بكلماتى
النار .. بينا أنت لا تعرفنى يا سيدى .. تأكد يا سيدى إن إسكافى المودة
صاحب ضمير .

- وأنا أأست صاحب ضمير ؟ .. الراتب الذى أحصل عليه من الحكومة
وتنظرون له أنتم فى السوق بعين مسترية .. حصلت عليه أنا بعد جهاد
طويل : كنت صغيرا لما مات أبى فتزوجت أُمى من عمى الماكر العجوز
حتى لا تتعرض لقول وهى الأرملة الشابة :. أصررت أن أتعلم فباعت
حليها .. ومن الصمغ وحجر الكحل كانت تصنع لى حبر الكتابة ..
وقضيت أنا السنوات ساهرا — تحت لمبة جاز : ست سنوات ثم ست
سنوات — أقرأ الكتب وأحفظ ما فى الكتب .. وهى صارت عجوزا ..
توظفت بعد عامين .. وبعد عامين تزوجت .. ربع راتبى كان يشتري ما
أشتريه اليوم براتبى كله .. قيمة الجنيه كما تعلم ثقل وتقل أمام عيون الجميع
والسُلَفة أمام كل العيون يرتفع سعرها والرجال أراهم وتراهم يتاجرون فى
أعراض بناتهم . هل تكلمت أنا فى حق أحد ؟ ..

مرتبى أدفع منه إيجار البيت والنور والماء والمواصلات والطعام لى
ولزوجتى وابنتى ودواء لى ولزوجتى .. لا شيء يبقى .. لا شيء . افترض
أننى مت وكذلك زوجتى ماتت : ما الذى ستفعله ابنتى فى هذا العالم
الذى تعرفه وأعرفه ؟ .. ماذا ستفعل الصغيرة فى عالم هم فيه ؟ .. أى
مصير ينتظرها ؟

— سيدى كان عليك أن تترفق .. لماذا لم تترفق لى ياسيدى ؟ .. أنا لا أقرأ
لكنك لا تقدر على منعى من الاستمرار فى البكاء .. نعم أنا الذى قلبت
الكامن فى نفسك وحركت الراقد وها أنت أمامى شقيا تدفعنى للبكاء ..
لا تقل يا سيدى إن إسكافى المودة مولع بالخمرة غرر بك لتحضر إلى
خمارة مخالى ليشرب هو .. لا تجعلنى أنظر لنفسى كالذى أفسدته الخمر ..
أنا أيضا كان يجب أن أترفق بك .. على الآدمى منا أن يترفق بصاحبه
الآدمى، الطاحونة يا سيدى بحجر ثقيل .. يا لها من طاحونة يا سيدى ..
زوجتى نكدة عوراء تنام من الغروب للضحى .. إسكافى المودة لم يعرف
الأنثى قط .. من يملك يشتري يا سيدى .. كل من عرفت كُنْ على
شاكلى : خيالات من قش .. عشت حياة القرد المكشوف العورة ..
طعامى تافه ورخيص بلا طعام .. ما بُلَّ العطر جلدى قط وهذا ثوبى
والشتاء بأسنان .. كان الحكم أن أموت .. نعم ياسيدى كان على
إسكافى المودة أن يموت منذ زمن بعيد .
إلا انى دافعت عن نفسى بقدر ما استطعت .. كرهت الشتاء وقلت
سيأتى الصيف فلما جاء الصيف كرهت الصيف وقلت سيأتى شتاء ..
واجهت الموت مرارا .. كنت أقول : أنا نخلة بثمر وتلك ربح إنحنى لها يا
إسكافى المودة .. انحنى .. ودعها تمر .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

كان إسكافى المودة قد شرب فى خمارة مخالى لترين من الكحول وأكل طبقين
من كبدة الحيوان وقلب الحيوان ولسان الحيوان — هكذا تصفو الدنيا أحيانا
وتصالح خصومها أبناء الله المحرومين ، لقد أصلح اليوم ثلاث نعال ، نعل أفندى
مدرس ونعل أفندى بالديوان العام — وهذا الأفندى الغريب القليل الكلام الذى
إذا تكلم سأل بلسان حلو : جاء هو القادر ليشتري الكلام من أهله ، وطلب
من أرباب الحرف دق حلويتين من الحديد فى كعبي نعله الجديد ، ومضى يشعل
السيجارة تلو السيجارة تلو السيجارة ، كأنه عثمان باشا الجميل (وهاك كل
الكلام الذى باعه اسكافى المودة لقاء لترين من الكحول وطبقين من كبدة وقلب
ولسان الحيوان) .

— صاحبة العمارة سيدة كانت تعمل راقصة في كباره . ذات ليل بعيد . وكانت تتركب التاكسى : لمحت بعين المجربة عربة لها شهر — تتبعها — يسوقها شاب من بلد عربى جاء مصر يطلب متعة ، قالت هى الخبيرة بهذا الصنف من الرجال لسائق التاكسى (اسرع) ورمت للخلف نظرة لترى السيارة تسرع خلفها ونظرت لقدام لتبتسم — لكنها رأت الشجرة الضخمة فأغمى عليها ولما أفادت وجدت نفسها فى المستشفى بساق أقصر من ساق فأغمى عليها ولما أتوها بمرآة ورأت وجهها الجميل جميلا خرجت من المستشفى لتعمل بائعة تذاكر بنفس الكباره ، من يومها صانت فرجها خوفا من عقاب الله — لكنها كانت تستغفر الله وتفعل الفعل دوما بابتسامة وبكلمة رخوة مع طلاب التذاكر لقاء قروش قليلة يتركونها لها ، بفعل السنوات وبفضل المأساة ولأن الله رحيم ولأن الله وهاب صار القرش جنيتها والجنه جنيتها والقليل كثير ...

— وهكذا اشترت الأرض بألف دفعتها ونصف ألف تدفعها على عامين ، انتظرت عامين وباعت الأرض بألفين وبنيت العمارة طابقا فوق طابق وفوق الطابق طابق وطابق ، كل طابق بخمس شقق ، ثم باعت العمارة لتاجر حديد وأخشاب وكسبت آلاف الجنيهات وانتقلت بمالها لمكان آخر تبنى فوقه عمارة تبيعها وتكسب آلاف الجنيهات وتنتقل لمكان آخر لتبنى عمارة ... سيدة دائمة التنقل لتضلل لصوص المال ...

— أما تاجر الحديد والأخشاب . وقد صار أيضا تاجر طوب واسمنت — فقد بنى التسع طوابق الجديدة ودهنها باللون الأزرق وفرش كل شقق العمارة وأجرها مفروشة — ما عدا الطابق الأرضى فقد باعه لأصحاب محلات تبيع الأحذية والملابس المستوردة ولعب الأطفال والفراخ المشوية وشرائح الشاورما والسيجارة الكنت والبيرة وعلب الطعام .

— ساكن الشقة (١) (وهى حجرة واحدة وصالة) والملاصقة للحجرة البواب : شاب من صعيد مصر البعيد يمشى بمجدافين كالقارب فى بحر ، متزوج من مدرسة طويلة القامة تمشى فى عصبية ويقول عنها زوجها إنها تخاف الناس ، أما هى فتقول إن زوجها الذى يكتب القصص ويبيعها — خيالى ، إذا فارق بيته فاعلم أنه سيشرب البيرة من الكشك الخشبى ، بعد زحاجتين يهلوس ويعود إلى بيته صارخا فى زوجته ويسب رجلا — تقول

زوجته إن اسمه الأمريكى : هكذا يقول البواب — صاحب الكشك
الخشى اسمه فخرى ، فخرى رياض — وهو نصرانى وهو أيضا صاحب
الحمار والعربة .

— الولد محمود اللقيط يظن أن فخرى النصرانى الذى رباه والده ويناديه هو
المسلم (يا أئى) ويقول الولد محمود للجميع إن الحمار صديقه وإن الحمار
أخلص من كلبة فخرى وأخلص حتى من ابن آدم .

— الشقة (٢) تسكنها ثلاث راقصات يعملن بكباريه فى الهرم اسمه البيجة .
— الشقة (٣) تسكنها مغنية بكباريه فى الهرم كانت متزوجة من لىبى وهى
الآن متزوجة من بحراني .

— وفى الشقة (٤) خمسة من الفلسطينيين الطلاب بجامعة ومعاهد مصر .
— ستبقى الشقة الخامسة بالدور الثانى يسكنها طالب فلسطينى وخادمتة .

— بالدور الثالث : مكاتب سفر لليبيا وللسعودية ومكاتب سفر لكافة
البلدان العربية — هكذا تدل المتعلم عين المتعلم لما يقرأ اللافتة فوق كل
باب .. وهناك من يدل الأمين لما يسأل : شاب بشعر طويل مدهون
وبذلة محبوكة وكرافت يفوح من ثيابه عطر ويتدلى من جيبه منديل أحمر
كبير .

— بالدور الرابع : تاجر عطور كبير السن يزور مسكنه بالليل المتأخر مع
جماعة من أصحابه الرجال والسيدات .

ويقضون وقتهم الجميل فى شرب وضحك وأكل ومداعبة ولعب ،
ومعاون بوليس أعزب اسمه سعيد وضابط كبير بالجيش أعزب أيضا ،
ومصرية مع كويتى رغم ماله الكثير فهو جم الأدب . وفى شقة أخرى
يسكن لىبى مع زوجته المصرية .

— بالدور الخامس : يسكن سعودى عجوز مع مصرية شابة . وهناك شقة
يسكنها مغنى بكباريه متزوج من زميلته الراقصة ولهما صديق من قطر
يدأوم على زيارتها ..

— مر شتاء أمطر الثلج والأحجار ومر على شتاء أصفر بأسنان ومر شتاء يصفع القفا بالأقلام ، ومر على الصيف والصيف والصيف — هكذا مضت السنوات .. رأيت الماكينات وهى من حديد تتوقف والسيارات تتهشم والورق يتساقط ، بينما أنا الآدمى مازلت أحياء ، لم أفقد إلا شبابه (طز) .

— جمهرة الناس لم أراها ، سمعت فقط صياحهم : كان كالحبال المضفورة من الليف ، تعجز أن تميز الصوت من الصوت ، كانوا يصرخون من ارتفاع ثمن اللحم والبيض وندرة الشاي والزيت ، وكنت حريصاً من جانبي أنا المحب للكلام فلم أر الجمهرة ولا النار ولا الزجاج المحطم ولا العربة المقلوبة .

— يا سيدى الأفندى ، نسيت ، أمى : لا أعلم إن كانت حية أم ميتة ، أما أبى فقد مات — هذا ما سمعته ، أمى أتمنى لو أراها مرة ، لا شك أثنى سأبكي ، نعم لا بد أن أبكى فى حضنها فقط على أن أبكى ، كل ما أطلبه من الله خالق المسافات أن أراها ، وبفرض أنها ماتت فالله هو الذى يميت الإنسان منا وهو القادر على أن يجعل الأم تعود إلى الحياة لأن ابنها يريد أن يراها وهى باليقين تريد أن تراه .

— أنا أشرب الخمر والخمر تأكل كبدى وأنا أحب كبد الحيوان والسيارات تأكل الناس كما تتأكل الحيوانات ، الناس والدنيا عذاب بغير مال.وعذاب بالمرض والمال.وبالمال تشتري الطائرة.بعيني هاتين رأيت الطائرة تحرق السيارة والبيت والأم والولد واليهود يا سيدى صار لهم وطن يبيع اللحم والخضار فى علب.والفلسطينى الذى لا يملك الأرض لم يبيع الأرض بينما الفلسطينى الذى يملك الأرض باع الأرض — ذلك ما يجعلنا نعيش سنين الحرب، لكن الناس طبقات فوق طبقات فوق طبقات : ذلك يشرب لأن معه مالا .. وهذا يشرب وليس معه مال .. والذى يشرب لأنه لا يملك مالا .. وذلك الذى لا يشرب لأنه لا يملك مالا وهناك من لا يشرب ومعه مال ، ناس تحب أكل لحم الحيوانات وناس تأكل لحم الناس وناس لا تأكل لحم الناس ولا لحم الحيوانات — تلك هى الدنيا يا سيدى الأفندى : حلم كالحقيقة وحقيقة كالحلم والدنيا كابوس ايضا ..

— رأيت الحلم من عامين ولازلت أذكره وكأنه حدث الليلة ، كنت قد شربت بخمارة مخالي ولم يكن معي مال ، وجدت بيتي على الطاولة أمامي فطرقت الباب وأنا أعلم أن النكدة العوراء المحبة للنوم لن تفتح الباب حتى لو أقمت أنا رب البيت أمام البيت جنازة ، ودائما كان الشرطى يصحو من نومه فيمسك بي ويشد جلبابى من القفا ويجرجرنى ، وهناك فى بيت الشرطة وجدت ذلك الآدمى وكان رحيما ، قال لى : (قُم) وكنت راكعا على ركبتى ، ساعدنى وأجلسنى على كرسى وبش فى وجهى وقدم لى سيجارة أشعلها لى بقداحة ، وأدخلنى حجرة ساخنة فشعرت بالبرد ، وأدخلنى حجرة باردة فشعرت بالحر ، وأدخلنى حجرة قلت لا أشعر بحر ولا برد ، قال (البس) — وذلك بعد حمام طيب — وكان الثوب أبيض نظيفا فلبسته ، ودخلت الحجرة الساخنة فلم أشعر ببرد ، ودخلت الحجرة الباردة فلم أشعر بحر ، قال الرجل الطيب — وكنت سعيدا داخل دولاب من الزجاج به عيون — (انظر) ، نظرت من عين فرأيت النور فى البحر ورأيت كل من اقترب من البحر احترق ، مر الوقت بظلام ونور وظلام ونور وأنا داخل الدولاب سعيد ، وسمعت صوت الرجل يقول لى (انظر) ، ومن طاقة أسفل الدولاب نظرت ورأيت بعينى هاتين كوم المال يحترق ، ورأيت الشوارع تقطعها الشوارع — وقد خبت النار — ورأيت الحدائق والعربات والقطارات وكل النسوة ، فتحت الطاقة ونفذت بجسمى ولم يعترضنى أحد ، سرت من شارع لشارع حتى وجدتنى أنا إسكافى المودة أقف أمام بيتى ويدي تدق الباب ، بينما النكدة العوراء لم تفتح — هذا ما علمتنى إياه السنين وهكذا يا سيدى الأفندى وجدت الشرطى الذى يصحو من نومه فأمسك بجلبابى من القفا وقادنى الى المخفر لأنظف مرابط الخيل ، وفى كل مرة ياسيدى الأفندى أقول لنفسى (سيتكرر الحلم .. نعم لأبد وأن يتكرر الحلم) ، وقت ذاك لا أصبح إسكافياً وقد أصبح إسكافيا ، لكن الاختيار — بعد العمر الذى مر — صعب ، ويبقى الموت : هذا كل ما أخشاه ..

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

بعينين بلا رموش — نظر إسكافى المودة إلى شمس طالعة تضحك وإلى سماء عالية صافية الزرقة ، وقال :

« هذا يوم يخلو فيه الشراب — لكن كيف ؟ » .
وقال :

« حين تميل الشمس يميل الظل ويرقد هناك — بجوار باعة الجريد والليمون والفجل والكرات والبصل الأخضر ، وقت ذاك — يكون مخالي وحيدا ، العجوز المشاكس لن يشاكس — فهو فرد وأجنبي وأنا ابن البلد .. والأجنبي بطبعه خواف » .

« هات كأسا يا مخالي — ودعنى أفكر » .
« صب الكأس على الكأس — ودعنى أفكر يا مخالي » .
« آه يا مخالي .. لو تخلى النحاس عنى لرحمت .. آه لو رجت يا مخالي .. هات كأسا ودعنا نجرب » .

وقال إسكافي المودة لنفسه — بعد أن شرب كأسه السابعة :
« فى الكأس السابعة — وتلك عادتى — تصفو دماغى وأفكر ، وها أنا —
يارب السموات — أفكر » .
وقام صارخا :
« يا الله .. إنها الأبدية » .

(أ)

« يا تاجر أنت تاجر .. والتجارة والكسب حلال .. هكذا علمنا الله ، دس السلعة خلف الرفوف — سيندر وجود السلعة بالسوق ويرتفع سعرها ، بعد أسبوع أو أسبوعين إظهار السلعة — وبيع بالسعر الذى يروق لك .. هكذا يكثر ربحك ، لكن لا ترفع الحد حتى لا يرفع المشتري صوته .. حاذر .. ضجر الناس يجر فى أعقابه الأذى » .

- ب -

« صاحبي من ذوى الشأن .. قابلته بالأمس فى خمارة مخالي .. قال لى — هو الذى يلبس الحلة ويعمل بديوان الحكومة : إسمع يا إسكافي المودة .. سيرتفع ثمن علبة الدخان ولن ينخفض ثمن البيضة واللحمة ، فقلت لنفسى : عما قليل سيسمع البقالون — فهم دوما يسمعون ويخفون العلبة ولا يظهرونها إلا فى وقت محسوب ، وقلت لنفسى — وها أنا أمامك : كيف يكون ذلك ؟ .. لم يكسب

البقالون دوما ؟ . إلخ .. بينا صاحبي الموزع يحضر الدخان من الفابريكة على بسكليت ويوزعه على البقالين ولا يتوبه غير الورم الذى أراه بساقيه وقدميه ؟! .. هه .. ملعونة هى البسكليت وملعون من اخترعها .. لكن لم يكسب البقالون ولا تكسب أنت ؟ .. هه .. لم لا تحتفظ أنت بالدخان وتكسب ؟! .. هه .. قل للبقال ؟! حقك كذا علبة .. هذا ثمنها وذاك ربحها .. ولك منى فوق الربح هذا القرش .. هكذا يا أخى يسكت البقالون .

(ج)

« تعالوا يا إخوانى وهشوا الغضب .. تعالوا نلم الكلام .. دعوا الدولاب يدور فالدولاب يا إخوانى لابد أن يدور .. وهناك فرصة لو اغتتمها الإنسان منا لدار الدولاب باتجاهه ورمى فى حجره » .

(د)

« كن عادلا يا حضرة الموزع واقنع بالقسمة — فتلک شريعة الله » .

(هـ)

« وأنت يا صاحب دكانة الأمانة والعين الزرقاء — عليك أن تعلم أن الموظفين ينازعون الحكومات فى الحقوق المعلومة .. تساهل يا أخى تساهل .. خذ نصف حقك وانظر حولك بعين الشاطر : أولاد آدم العاصون هناك على حدود الدنيا .. وهم دوما قادرون على اختراق سلك الحكومات وكسر الحدود .. وهم كما تعرف وأعرف — قناصة وقراء أثرٍ ومهربون .. لا تجزع .. لا عليك من أمر المخدر .. لكنهم يهربون مع المخدر علبة الدخان الإفريقية — وهذا يعينك .. لو دفعت القليل للفرد منهم للدلق زنبيله فى حجرک .. وذاك خير من دفع الكثير لجمرك الحكومات .. وهكذا تصبح أنت التاجر الحر فى بضاعتك : تبيع وتكسب أمام عين الحكومة كما لو كنت الذى دفع الكثير لجمرك الحكومة .

زعى إسكافى المودة فى وجه مخالى :

« رىحت يا مخالى .. رىحت ، كان وجهك وجه خىر يا مخالى .. خذ ثمن ما شربت يا مخالى واتركنى أضحك .. وعلبة السجائر تلك لأجلك يا مخالى .. والآن دعنى أشرب وأضحك يا مخالى » .

وقال إسكافى المودة لنفسه :

« ياه .. يا لها من لعبة .. من يصدق أن السوق الذى يحكم الدنيا لعبة ؟! .. وأنا شاركت فى اللعبة ورىحت .. ببساطة — أنا أشارك الآن فى حكم الدنيا من مكانى هذا بخمارة مخالى » .

وقال إسكافى المودى الصاحى لاسكافى المودة الشارب :

« ها هم يشاركوننى طاولتى — بعدما اكتظت الحانة ، على أن أتقبل الأمر الواقع — رغم أنى أفضل أن أكون بمفردى : لولا هذا الشعور ، آه منه : هذا الشعور الغريب الجديد .. وهل يعقل هذا : أنا الذى هو أنا أهبط السلم عاريا إلى قراة سوداء — بينما أنا هنا على الطاولة وها هم حولى يشربون ويتكلمون .. آه .. لم أنصت لكلامهم ؟ .. سأفعل — فقد يولى ذلك الشعور الذى لا أعرف من أين جاء .. نعم : من الخير لى أن أنصت لكلامهم » .

« جملة الناس ترانا نحن جنود الإطفاء كأننا نفر من العامة لا صلة لنا بطائفة الجند ، بينما أنا — بمخرطوم ماء واجهت الأحجار والعمال والطلاب وهدمت بيتا ، كل ذلك تم باتفاق ، البيت ملتصق بالسرايا ، والبيت مملوك لصاحب السرايا ، لما تشب النار فى مطبخ السرايا سأذهب أنا بمخرطومى لإخماد النار بالماء ولهدم البيت بالماء ، قدر من الماء على النار بالمطبخ وقدر من الماء على البيت القديم ، بعد شهر تصدع البيت القديم فهرب السكان — وحصل صاحب السرايا على الأرض الفضاء التى أقام فوقها عمارة تطاول السماء ، لكن اللعين خدعنى — أجرنى حجرة بالسطح لا يصلها الماء » .

« كنا قد اتفقنا أنا وأهلها الفقراء على قراءة الفاتحة ، وكانت هى السمرء ذات العجيزتين والصفائر — من أريدها زوجة لى وأما لأولادى ، كانوا فقراء وكنت صاحب حرفة ، زرتهم فى خُصّهم وقلت : نقرأ الفاتحة . قالوا : نقرأ بسم الله . فى تلك اللحظة دق الباب — لقد عاد قريب العائلة المسافر . رحبوا به ونسوى .

قلت : لا يهم هذا حق لكل غائب عائد . وقال هو — إن البنت لما سافر كانت صغيرة .. وها هو يراها — بعد أن عاد — كبيرة وجميلة ، وقام . فقلت أنا لنفسي : هذا خير . وقال هو : لن أتأخر . فقلت أنا لنفسي : اصبري يا نفس ، وقلت لهم : نقرأ الفاتحة . قالوا : لا .. حتى يحضر قريبنا . عاد صاحبنا ويده لفة بها أرغفة وجبن وبيض وبلح . أكلوا وما أكلت ، وكلموه وما كلموني . شعرت بنفسي غريبة بينهم . ولما أعطى البنت أمامي ريالين من فضة السعودية — وقال لها : اصنعي لأذنك قرطين . قلت أنا لنفسي : قم يا ولد بما تبقى من روحك ولا تجعل الغير يركب كتفيك .. وها أنا صاحب الحرفة أمامكم يا إخوتي تنهشني الحسرة ، لكنني عزمت على الرحيل — في القريب إن شاء الله — إلى بلد عرني به بترول حتى لا أعيش عمرى قصير اليد .

« قال لي الميجور : تعال ، ميزني من صدرى العريان الذى يعلوه شعر ، واختارني من بين كل رجال الكامب . وأمام فيلا بها شجر وورد ونافورة وحوض ماء به سمك ملون — وقفت العربة . وبقيت بالفيلا لا أبارحها شهرين ونصف شهر ، آكل وأشرب وأفعل وأسمع الموسيقى التى يرقص عليها الميجور ، حتى جاء يوم قلت فيه للميجور : يا ميجور أنا نجار ويجب أن أعمل بالنجارة يا ميجور . قال لي الميجور : وأنت هنا تجعلنى أشعر بالسعادة يا فتحي .. أنت تعمل يا فتحي .. قلت : اليد العاطلة نجسة يا ميجور .. والحرفة تطلق من يطلقها . قال لي الميجور : مالى تحت أمرك يا فتحي .. مد يدك وخذ من المال ما تريد ، فقلت — وليتنى ما قلت : لكن الدنيا حولنا ياميجور . قال الميجور : هيا بنا يا فتحي .. هيا نخرج للدنيا . وفي البار مد الميجور يده بشلن للمرأة المتسولة . والمرأة المتسولة — التى قتل الألمان ابنها المجند فى الجيش الانجليزى — ذبحت الميجور أمامى ، وأنا أنظر ولا أفعل شيئا .. ومن يومها وأنا أنظر ولا أفعل شيئا غير أنى — من يومها — اتجنب المجند وذاكرتى وكل المتسولة . »

وقال إسكافى المودة لنفسه — بعد ان سمع : يالنا من اطفال كبار وقال لنفسه الخمورة : لقد فرحت أنا الطفل الكبير باللعبة فلعبت وكسبت وأشعلت النار بعود ليحترق غيرى .. لكننى لست . سافلا .. لكننى كالعادة كنت أبحث عن خمارة مخالى لأننى احب الخمر أنا المفلس .. وسأحاسب نفسي على سوء فعالى .

- ضم القبضة واشهر السبابة .
- كالعادة ؟
- نعم كالعادة .. بذا تكون قد صنعت مسدسك المميت .
- تلك أيضا عادتك .
- لو كنت أملك لاشرتيت .
- وكالعادة .. أجلس أنا هنا ويدي المسدس .
- نعم .. وأجلس أنا هناك مرفوع اليدين .
- وأفرقع أنا أصبعا وأقول : رصاصة تخترق الرأس .
- سيختفى مخالي خلف البار ويهرب الكل من اليار إلا أنا .
- وكذا أنت .. لأطلق أنا رصاصة تنفذ في القلب .
- وأعلم أنا هنا — أن الجسد قد سقط .
- وقال اسكافي المودة المخمور لاسكافي المودة المخمور :
- « وكالعادة .. يأتي الشرطي ويمسك بقفاي ويجرني إلى الخفر القريب
- لأنظف مرابط الخيل ».

في حديث صحفي أجراه سمير غريب مع يحيى الطاهر عبد الله ، في مجلة : « المستقبل العربى » . يقول يحيى

« أنا وضعت في المجموعة الأولى حيرتى في البحث عن شكل ولغة ورؤية .. همى كإنسان ووجدى .. كرجل منبر بالثورة ويريد أن يخطب بمنهجها .. حيرتى كاملة وموجودة في هذه المجموعة .. لم تتحقق « القصة » في هذه المجموعة إلا في قصتى « الوشم » و « جبل الشاى الأخضر » .

ويضيف يحيى :

« كانت الضغوط علىّ عالية ، ومن حقى أن أقول نفسى ، فكتبت « الكابوس الأسود » و « شمسوس » .. فى « الكابوس » . أنا ذلك المطارد المطرود من الطبيعة .. من البشر .. العدمى فى مواجهة الأشياء لأنه يرفض أن يتشياً . أنا ليس لى تأثير ولن يكون » .

وعن إحساسه عما قد قدمه يقول يحيى :

- « أنا كاتب حققت لنفسى فرحى الخاص بما كتبت ويكفينى هذا »
- « فرحى النهائى والعرس الأخير هو الثورة وتحرك الشعب الراقد »

ويضيف يحيى الطاهر عن تجاربه :

« أنا ابن القرية وسأظل . فتجربتي تكاد تكون كلها في القرية .. والقرية حياة قائمة هي « الكرنك في الأقصر » أي « طيبة القديمة » وأرى أن ما وقع على الوطن وقع عليها . وهي قرية منسية منفيه كما أنا منفي ومنسى .. كما أنها أيضا قرية في مواجهة عالم عصري .. إذن عندما أبتعد عن قريتي أسعى إليها في المدينة وأبحث عن أهلي وأقربائي وناسي الذين يعيشون معي . وأنا لا أحيا إلا في عالمها السفلي .. فحين ألتقي بهم نلتقي « كصعايدة » وكأبناء « كرنك » ونحيا معا ألما المصرى ، وفجيعتنا العربية ، وبُعْدنا عن العصر كشخص مغتربة » .

وفي رده عما إذا كان يحاول أن يجد قاسما مشتركا بينه وبين المجتمع عن طريق الانتقال بفن الكتابة الى فن القول :

« أنا إذا قلت وأجدت القول سأجد من يسمع وهذا أفعله .. ويجب أن أقول ولا يجب أن أكتب لأن أمتي لا تقرأ .. وحين أقول يكثر مستمعي لأن الناس ليسوا صمما . أنا لا أعتقد أن مخاطبة المثقفين مسألة ذات وزن .. أنا سألت نفسي : لمن أكتب ؟ فوجدت أن الناس الذين أكتب عنهم لا يقرأون فني .. وهم منفيون ومغتربون ومستلبون .. لذا أعتقد أن القول أفضل والقصص التي أكتبها سبق أن قلتها مائة ألف مرة لمائة ألف شخص .. لذا أيضا أقول إنني لا أبذل أي جهد في الكتابة لأنتي أدون ما أقوله في جلساتي وتعاملاتي » .

« أنا لا أسعى نحو الشكل .. الشكل تابع ذليل يأتي في النهاية .. ثم لماذا تحرمنى من أن أكون فنانا فيما دونته وفنانا في حياتى .. من الممكن أن أحول جلستنا هذه الى قصة قصيرة .. الكتابة بالنسبة لى متعة كما هو الأكل ؟ »

ويختتم يحيى الطاهر حوارہ مع سمر غريب ، قائلا :

« ربما يتعذر على واقع لا إنسانى أن يعطيك أشياء إنسانية .. يعنى الواقع الطبقي واقع لا إنسانى .. وكل ما يمكنك أن تفعله هو أن تحاول الحياة كرجل محترم .. وأن تسعى الى نفى إغترابك وهذا لا يكون إلا بالثورة . ولكنى أقول إن واقعنا اللا إنسانى يمتلك من الطاقات والقدرات الإنسانية ما يجعلنى قادرا على التصرف .. هذا الواقع لا يعطى صديقا .. ولكننى قادر على الحصول على صديق » .

وعن عمره ، يقول :

« أنا لى عمر حريص عليه .. أنا وصلت للسن الحرجة .. أنا شاب ..
« أديب شاب »

محتويات الكتاب

صفحة

يحيى الطاهر عبد الله ٣

ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالا

مجموعة قصص

جبل الشاى الأخضر ١٥

الكابوس الأسود ٢٠

معطف من الجلد ٢٤

حصار طرواده ٢٩

السوارث ٣٣

طاحونة الشيخ موسى ٣٦

محبوب الشمس ٤١

ليل الشتاء ٤٧

قايل الساعة الثانية ٥٥

٣٥ البلتاجى ٥٢ عبد الخالق ثروت ٦١

الثلاث ورقات ٦٩

ثلاث شجيرات كبيرة تثمر برتقالا ٧٨

الدف والصندوق

مجموعة قصص

المهر ٩٣

حج مبرور وذنب مغفور ٩٧

الجد حسن ١٠٠

٥٧ العاليه
١٢ ايقاعات بطيئة ومنتظمة أيضا
١٦ الوشم
٢١ الفخاخ منصوبة للمحيين
٢٨ الشهر السادس من العام الثالث
٣٤ الموت في ثلاث لوحات
٣٨ الجثة
١٤٠ الدف والصندوق

أنا وهى وزهور العالم مجموعة قصص

١٥٣ الشجرة
١٥٥ اليوم الأحد
١٥٧ أنشودة الطراد والمطر
١٥٩ البكاء والثالث
١٦١ تلاوة ماسونية
١٦٣ فانتازيا.. العنف القبيح
١٦٦ شمس
١٧٠ إلى الشاطئ الآخر
١٧٢ الدرس
١٧٦ أنا وهى وزهور العالم

الرقصة المباحة مجموعة قصص

١٨٣ أغنية العاشق إليها
-----	--------------------------

١٩٣	الحكاية المثال
١٩٩	السيد أحمد السيد
٢٠٨	الفجرى
٢١٥	كلام للبحر
٢٢٤	الرقصة المباحة
٢٣٢	رؤيا
٢٣٤	الفلسطينى
٢٣٧	وغدا أيضا الأحد
٢٣٨	الغول
٢٣٩	هى وهو
٢٤٠	الجوع
٢٤١	البكاء
٢٤٣	الضحك
٢٤٤	الخوف
٢٤٦	الموت
٢٤٨	أشكال
٢٤٩	كن المصرى: كن السيد
٢٥١	إلى سنوحى
٢٥٢	فى الحلم يعشق الموتى
٢٥٣	الرسول

حكايات للأمير حتى ينام مجموعة قصص

٢٥٧	من الزرقة الداكنة حكاية
٢٦٠	حكاية صيف
٢٦٢	حكاية عبد الحليم أفندى وما جرى له مع المرأة الخرقاء
٢٦٩	حكاية الريفية

٢٧٢	حكاية أم دليلة .. طامية الموت
٢٧٧	حكاية الصعيدي
٢٨٢	حكاية لرأس وذيل
٢٨٥	حكاية بزخارف
٢٩١	حكاية مليودرامية
٢٩٥	قفص لكل الطيور
٣٠٢	مكذا تكلم الفران
٣١١	حكاية للأمير عنوانها : من يعلق الجرس
٣١٧	ترنيمة للأمير
٣٢٠	حكاية أخيرة عن الطير الأليف والطير الجارح

حكاية على لسان كلب قصة طويلة

٣٢٥	أيامى فى الريف
٣٣١	أيامى فى المدينة

الطوق والاسورة رواية

٣٤٥	القسم الأول
٣٥٤	القسم الثانى
٣٦١	القسم الثالث
٣٦٦	القسم الرابع
٣٧٠	القسم الخامس
٣٧٢	القسم السادس

٣٧٧	القسم السابع
٣٨١	القسم الثامن
٣٨٣	القسم التاسع
٣٨٧	القسم العاشر
٣٩٣	القسم الحادى عشر
٣٩٧	القسم الثانى عشر
٤٠٠	القسم الثالث عشر
٤٠٢	القسم الرابع عشر
٤٠٧	خاتمة

تساوير من التراب والماء والشمس رواية

٤١٥

الحقائق القديمة صالحة لاثارة الدهشة رواية

٤٥١

٤٨٩ حديث صحفى مع يحيى الطاهر عبد الله

رقم الإبداع بدار الكتب المصرية : ٧٧٥٥ / ١٩٩٣
الترقيم الدولي : 8 - 055 - 932 - 977

في آخر مرة لقيت فيها يحيى الطاهر عبد الله، في أوائل ١٩٨١، قال لي: لا أريد أن أموت أبداً.

ولكن يحيى استجاب لغواية رسول الموت «المخادع القادر» بعد أسابيع قليلة، وترك في قلوب أصدقائه، ومحبيه، فجوة عميقة. كان يملأ حياتنا بصغبه، وحيوته، وشططه، وصدقته، بحكمته وجنونه، بشكاواه التي لاتنقطع وعطائه الذي لا حد له. كان يملأ أرواحنا بحبة نادرة. كان يشتعل بقدرة على الحياة متوهجة إلى آخر مدى، وبقدرة فن استطاع وحده، من بين أقرانه جميعاً أن يصوغه بيدتين متقدتين ووجدان باهر.

ولا تريد هذه الكلمة أن تكون على سبيل الرثاء ليحيى. فما من سبيل إلى رثاء يحيى. نحن نعرف أنه لا يموت، قتما كما كان يريد. براء أنه الكلية، وإيمانه، وقمره، وفنّه، كلها قيم لا مقدرة عليها لرسول الموت المخادع، مهما كان قادراً.

من أوجه تفرده الكثيرة، أنه، بهرانة كلية - وعناد صعيدى، رفض أن يبيع شيئاً من ذات نفسه، وكان يعرف - ويقبل - الثمن الفادح لهذه الكبرياء.

ومنها أيضاً أنه عرف كيف يصفى - ويستجيب لما هو خاص جداً - ولذلك أصيل - في نفسه، وفي قومه، وفي شعبه، في حساسيته وفي تراثه، لذلك كان في الوقت نفسه حكماً وراويّة من الطراز الأول، وشاعراً مرهف السمع وراقيق الوتر.

وإذا كانت حياته كلها حكاية، وقصيدة، فإنه مع ذلك عرف كيف يصوغ لنا الحكاية والقصيدة أو على الأرجح، القصة - القصيدة وكان ذلك هو ما استلهمناه في هذا النسق الذي نضع فيه كتاباته الكاملة، بقدر ما أتبع لنا أن نستكملها - فقد كان هذا الكاتب راوية أولاً، يحفظ كتاباته، ويلقبها، شفاهاً قبل أن يكتبها - أو وهو يكتبها.

ادوار الخراط

دار المستقبل العربي

٤١ شارع بيروت - مصر الجديدة - القاهرة

تليفون: ٢٩٠٤٧٢٧

قرش صنيعة
15.0.5